المكتبة التأصيلية

٢

شرح كتاب التوحيد

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

(رحمه الله)

لفضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد الغنيمان

حفظه الله تعالى

شرح
كتاب التوحيد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك: ٢-١٨٩١-٠-٩٩٢١-٩٧٨

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولـــة الكـــويت

الموزع الرسمي
ركائز للنشر والتوزيع
دار ركائز للنشر والتوزيع
rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com
@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw
+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الثاني** من «المكتبة التأصيلية»، وهو بعنوان «شرح كتاب التوحيد» للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله المتوفى سنة (١٢٠٦هـ).

حيث قام فضيلةُ الشيخ العلامة **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بشرحه وبيان مقصوده، وذلك من ضمن دروسٍ عُقِدتْ بعد صلاة الفجر والمغرب، في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بتاريخ ١٥ ـ ٢٣ من شهر جمادى الثاني سنة ١٤٢٨هـ، الموافق ٦/٣٠ ـ ٨/ ٧/ ٢٠٠٧م، فقمنا بتفريغ المادة الصوتية وترتيبها وتنسيقها وتهذيبها بما يناسب إخراج الكتاب.

وكان المنهجُ العامُّ المتبعُ في إخراج هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ تفريغ الدروس الصوتية إلى مكتوبة، ثم مقابلة النصّ المكتوب على المسموع مرةً أخرى.

٢ ـ صياغة النصّ وتهذيبه، وربطُ المتن بالشرح مع تمييز المتن بلون مختلف.

٣ ـ خدمةُ النصّ، وذلك بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في المصحف، والتخريج المختصر للأحاديث المرفوعة، وبيان غريب الألفاظ، وتوثيق الأقوال وعزوها إلى مصادرها.

٤ ـ تدقيق النصِّ من الناحية اللغوية والإملائية، وضبطُ علامات الترقيم، وضبط ما يُشكل من الألفاظ.

وبعد ذلك تكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعة الكتاب، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة وتوضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد سبق أن ألقيت دروساً في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ

كتاب التوحيد

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله، نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحابته، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

قال ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «كتاب التوحيد» هٰذا العنوان يدل علىٰ مضمون الكتاب كله، ولهٰذا استغنىٰ بذٰلك عن الخطبة، وبيان مقصوده.

والتوحيد: مصدر وحّد يوحّد توحيداً، إذا جعل أفعاله لله وحده.

التوحيد ـ كما قسمه العلماء ـ ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ ـ توحيد الأسماء والصفات.

٢ ـ توحيد الربوبية.

٣ ـ توحيد العبادة. وهو أوجب الواجبات وأهم المهمات، فإنه تتوقف سلامة الإنسان من عذاب الله وفوزه بثوابه علىٰ التوحيد، ولهٰذا يجب علىٰ الدعاة الذين يدعون إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ أن يهتموا بهٰذا الموضوع، ويبينوا للناس أهميته، عكس ما يفعله بعض الدعاة من التقليل من أهمية هٰذا الموضوع وزعم بعضهم بأنه يفرق بين المسلمين، وأنه لا بأس علىٰ المسلم إذا قال: لا إلٰه إلا الله، وأقام الصلاة، وأتىٰ ببقية أركان الإسلام، وإن كان عنده خلل في التوحيد، منها التوسل بالأموات وغيرهم فلا بأس في ذٰلك، وهٰذا خلل عظيم، بل هٰذا تفريط وإفراط، والرسل كلهم بعثوا للدعوة إلىٰ توحيد الله ـ جل وعلا ـ وقد تكاثرت النصوص بأن الأعمال موقوفة علىٰ الإخلاص ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ العمل الصالح ما كان علىٰ وفق سنة المصطفىٰ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، النهي هنا عامٌّ مطلق بالنهي عن الشرك يدخل فيه الكبير والصغير، والخفي والظاهر الجلي، ومعنىٰ ذٰلك أن الذي يؤمن بالله ويعلم أنه سيلاقي ربه، يجب أن يهتم بهٰذا الأمر، وأن يكون عمله خالصاً لله ـ جل وعلا ـ، ولا تكون مقاصدُه أمور الدنيا أو التوصل إلىٰ غايات دون العمل لله وحده، وإن كان كذٰلك فهو لم يأت بما أُمر به، وكذٰلك الآيات التي جاءت في هٰذا الأمر. والقرآن من أوله إلىٰ أخره لا تخلو آية منه إلا وفيها نوع من التوحيد، إن لم تكن أنواعه كلها، وذٰلك أن كتاب الله ـ جل وعلا ـ أنزل لهداية البشر، ليدلهم علىٰ السعادة في الدنيا والآخرة، وهٰذه لا تحصل إلا بعبادة الله وحده ـ جل وعلا ـ.

ولهٰذا قال المؤلف: «**وقول الله تعالىٰ**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾»، نفىٰ أن يكون الخلق قصد به غير هٰذا الأمر، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ يعني: أن هٰذه هي الغاية من إيجاد الخلق.

ودلت الآية علىٰ أن الجن والإنس هم الذين كُلّفوا بالعبادة، وقدم ذكر الجن ـ والله أعلم ـ؛ لأن وجودهم كان قبل وجود الإنس، والجن سمّوا جناً لأنهم يجتنون عن الأنظار ولا يُرون، وإلا فهم مع الناس في الأرض، وهم طرق قدداً يعني: فيهم المؤمن، وفيهم الكافر، وفيهم الفاسق، كما في بني آدم من أنواع الطرق والنِّحَل، ومنهم الشياطين، كما من الإنس الشياطين، وقد ابتلي بعضهم ببعض، وقد أعد الله ـ جل وعلا ـ لهم الجنة والنار، وهٰذا وإن كان لفظه لفظ الخبر ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، فإن المقصود به الأمر، وإذا جاءت صيغة الأمر بلفظ الخبر تكون أبلغ في ذٰلك.

وأما ما يستشكله بعض المتكلمين في الآية، ويقول: إن الواقع علىٰ خلاف هٰذا الخبر؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ أخبرنا أنه خلق الجن والإنس

....

ليعبدوه، فنرىٰ أكثر الناس لا يعبدون الله، وكذٰلك الجن وإن كنا لا نطّلع علىٰ أعمالهم، ولٰكن أخبار الله جل وعلا عنهم في القرآن تدل علىٰ هٰذا.

والجواب عن هٰذا: أن هٰذا إخبار عن الحكمة التي خلقوا من أجلها، أما الفعل فإنه مطلوب منهم؛ لأن الله جلا وعلا أعطاهم القدرة علىٰ ما أمرهم به، وجعل لهم الاختيار، فعندهم القدرة، وعندهم الإرادة، فإذا وجدت القدرة والإرادة؛ وجد الفعل بلا تردد، أما إذا كان هناك خلل في القدرة والإرادة فالتكليف منتف.

ومن حكمته ـ جل وعلا ـ أن جعل هٰذا مناط التكليف حتىٰ يتبين من يوحد باختياره ومقدوره، ممن يأبىٰ ولا يمتثل أمر الله ـ جل وعلا ـ، ويتبع رسله، فيكون مستحقاً للعقاب، بخلاف النوع الأول.

والعبادة هي التوحيد ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يعني: ليوحدوني؛ يعني: أنهم يجعلون أعمالهم لله وحده، والأعمال هي التي أمروا بها؛ يعني: الشيء الذي يتقربون به إلىٰ الله ويرجون ثوابه أو يتركونه خوفاً من الله يجب أن يكون لله وحده، فالعبادة لا تسمىٰ عبادة في الشرع إلا إذا كانت توحيداً، بخلاف اللغة فإن العبادة في اللغة: الذل والخضوع مطلقاً؛ وفي الشرع: الذي يعبد الله ولا يعبد معه غيره.

فإن الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾، فنفىٰ عبادتهم مع أنهم يعبدون الله؛ لوجود الشرك، فهٰذا يدل علىٰ أن الشرك إذا قارن العبادة فإنه مبطل لها وممحق لها، وأن العبادة مردودة وغير مقبولة، لهٰذا صار الإخلاص شرطاً في قبول العمل.

الآية الأولىٰ تدل علىٰ وجوب عبادة الله ـ جل وعلا ـ بالأمر الذي أمرهم الله ـ جل وعلا ـ به؛ لأنه خلقهم لهٰذا، وقدّر خلقهم، وخلق الجنة والنار لأجل ذٰلك.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هٰذه الآية تدل علىٰ أن الرسل بُعثوا ليدعوا الناس إلىٰ عبادة الله وحده، كما أنها تدل علىٰ أن في كل أمة رسولاً، والرسول ـ كما هو معلوم ـ رجل من بني آدم مكلف يبعث من القرىٰ.

يقسم الله ـ جل وعلا ـ في هٰذه الآية ﴿وَلَقَدْ﴾؛ والقسم في لغة العرب هو ذكر اسم المعظم لتأكيد الخبر فإن كان كاذباً عاقبه الله، وإن كان صادقاً أثابه، ولهٰذا كان القسم عبادة لا يجوز أن يكون بغير الله ـ جل وعلا ـ، كما قال ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»(١).

وقال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٢)، فلماذا يقسم ربنا ـ جل وعلا ـ لنا؟

السبب في هٰذا: إما أن يكون هو إعراضنا أو عدم تنبهنا لهٰذا الشيء، أو عدم اهتمامنا لذٰلك، فيُؤكد الخبر بالقسم؛ حتىٰ نتنبه لهٰذا الأمر، فهو أمر مهم جداً.

والبعث يختلف باختلاف موارده في اللغة؛ فيطلق علىٰ إثارة الشيء من مكانه، يقال: بعث البعير إذا أثاره من مبركه، وبعث الصيد إذا أثاره من مكامنه، وبعث الرجل إلىٰ كذا وكذا إذا أرسله بمهمة، وهٰذا معنىٰ الرسالة، وكذٰلك إحياء الموتىٰ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج].

والبعث هنا يقصد به تكليف الرسول وإرساله إلىٰ الأمة التي أمر بتبليغها، وهو يقتضي كلاماً يصدر من المرسِل، وهو الرسالة، ويقتضي أن الله ـ جل وعلا ـ يتكلم بذٰلك ويخاطب، وأنه كلّف عبداً من عباده وأكرمه بذٰلك أن يبلغ كلامه وأمره ونهيه إلىٰ من أُرسل إليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٢)، ومسلم (٣١٠٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٥١٢٠)، وأبو داود (٢٨٢٩) من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه.

....

وقد فرق العلماء بين الرسول والنبي، بأن الرسول هو الذي أرسل إلىٰ قوم كافرين.

قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، ﴿أَنِ﴾ مصدرية، وتدل علىٰ أن الرسالة لهٰذا - يعني: لعبادة الله - ولهٰذا كل رسول يقول لأمته: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فأمرهم بالعبادة؛ يعني: أن تكون توحيداً لله - جل وعلا - لا يعبدون معه غيره، وقوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ عطفاً علىٰ هٰذا يدل علىٰ أن هٰذا أيضاً لا بد منه في الأمر، وهٰذه دلالة الآية علىٰ أن الرسل أرسلوا بالرسالة، وأنهم يرسلون إلىٰ قوم يكونون معرضين عن رسالة الله - جل وعلا -، أو يكونون غافلين عنها.

والنبي مأخوذ من الإنباء علىٰ القول الصحيح وإن كان بعض العلماء يقولون من النبْوة والرِّفعة، ولٰكن إذا كان أخذ من الإنباء فهو يتضمن الرفعة، فمن أنبأه الله - جل وعلا - وأوحىٰ إليه بشيء فهو نبي، والوحي الذي يوحىٰ إليه يكون خاصاً أو عاماً.

لٰكن النبي يكون في أمة مسلمة قد سبق بالرسالة، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثل للفرق بين النبي والرسول بحالة نبينا قبل أن يكلف بالرسالة، فقال: «**نُبئ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وأرسل بالمدثر**»، وذٰلك أن أول ما نزل عليه قوله - جل وعلا - ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، ثم توقف الوحي إما ستة شهور أو سنتين علىٰ خلاف بين العلماء؛ ففي هٰذه المدة ما كان رسولاً؛ لأنه ما كلف بأمر، وإنما أمر بالقراءة فقط، فجاءه الوحي بشيء خاص ليس عاماً، فهو في هٰذه الفترة نبي وليس رسولاً، فلما نزل عليه قوله - جل وعلا - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر]، فهٰذا تكليف بالرسالة، فتبين بهٰذا الفرق بين الرسول والنبي.

....

وبعض العلماء يعترض علىٰ هـٰذا التعريف؛ فيقول: إن النبي الذي أوحي إليه ولم يكلف بالتبليغ، فيقول: إذاً ما الفائدة من الوحي؟ فيقال: الوحي له فائدة، ولـٰكن هـٰذا إما أمر يخصه أو أمر خاص بالأمة فقط، وإنما لم يكن مرسلاً إلىٰ قوم كافرين بخلاف الرسول، فإنه لا بد أن يرسل إلىٰ قوم كافرين، ويكفر به من يكفر.

والطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو التجاوز والزيادة على الحد الذي حدّ للمخاطب أو للمخلوق، كما قال الله - جل وعلا - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة] «طغىٰ» أي: تجاوز عن الشيء المعتاد، ولهـٰذا وصفت العبادة في العابد للمخلوق أنها طغيان وتجاوز للحد الذي حدّ له، ويقول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطاغوت كل ما عبد من دون الله»، وإن كان بعض العلماء يقول: هـٰذا يحتاج إلىٰ قيد؛ لأن ممن عبد من دون الله من لا يرضىٰ من نبي أو ولي أو ما أشبه ذٰلك، وهـٰذا غير المقصود.

والرسول ﷺ يقول: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**»[1] دلّ علىٰ أنه إذا عبد صار وثناً، وعرَّف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطاغوت: «بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع»، فجعل الطغيان في هـٰذه الأمور الثلاثة، في العبادة والاتباع والطاعة، ولـٰكن هـٰذا يكون في الأمر الشرعي؛ يعني: فيما أمر الله - جل وعلا -، ليس في كل شيء؛ يعني: الاتباع والطاعة، خلاف العبادة، فالعبادة لا تكون إلا لله - جل وعلا - وحده، فمن اتبع غيره في الباطل مقتدياً به، فقد جعله معبوداً له، ومن أطاع مخلوقاً في معصية الله - جل وعلا - مع علمه بذٰلك جعل ذٰلك معبوداً له، كما قال الله - جل وعلا - ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، والأحبار هم العلماء والرهبان والعبّاد.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٣٧٦) عن عطاء بن يسار، وأحمد (٧٠٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

يقول ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»(١).

وفي «صحيح مسلم»(٢) أن النبي ﷺ أرسل سَرِيّة وأمّر عليهم رجلاً من الأنصار، وقال لهم: «**أطيعوا أميركم، من أطاع الأمير أطاعني ومن عصاه فقد عصاني**»، وغضب عليهم أميرهم، فقال ألم يقل لكم الرسول ﷺ كذا وكذا؟! قالوا: بلىٰ، قال: إذاً اجمعوا لي حطباً، فجمعوا الحطب، فلما جمعوا الحطب؛ قال: أججوه ناراً، ثم قال: ادخلوا فيها. قالوا: أما هٰذا فلا، نحن فررنا من النار، وتوقفوا حتىٰ طفئت النار، وهدأ غضب الرجل، فلما رجعوا إلىٰ النبي ﷺ أخبروه بذلك، وقال: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها، إنما الطاعة في المعروف لا طاعة في معصية الله ـ جل وعلا ـ**»، فالطاعة التي تكون عبادة في الأمر والنهي في أمر الله ونهيه، كونه مثلاً يأمره بما نهىٰ الله عنه، فيفعله طاعة له، مع علمه بأن هٰذا معصية، أو بما أمر الله ـ جل وعلا ـ به، فالطاغوت إذاً هو المعبود من دون الله.

قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ هٰذا من أبلغ الكلام، فالاجتناب معناه أن تكون أنت في جانب وهو في جانب بعيداً عنك، خلافاً لما لو قال مثلاً: اتركوا، أو لا تقربوا، أو لا تفعلوا كذا، فهٰذا لا يدل علىٰ ما دل عليه قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾، والآية تدل علىٰ أن اجتناب الطاغوت شرط في صحة عبادة الله ـ جل وعلا ـ، ولهٰذا قال ـ جل وعلا ـ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ودلت الآية علىٰ أن الرسل في كل أمة، و«الأمة» يقصد بها الجماعة من الناس كما أنه يقصد بالأمة النحلة والملة، كما قال ـ جل وعلا ـ عن الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] يعني: علىٰ طريقة ودين.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٤١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) (٣٤١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ....

وقال ـ جل وعلا ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ يعني: هـٰذا دينكم وأنا ربكم. فإذاً الأمة تطلق على الدين.

كما أنها تطلق على جماعة من الناس.

وتطلق أيضاً على الطائفة من الزمن ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يعني: تذكر بعد مضي زمن، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]؛ يعني: زمن محدد.

كما أنها تطلق على الرجل القدوة، والإمام الذي يكون أسوة وقدوة ويُقتدىٰ به، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

وتطلق إطلاقات أخرىٰ، ولـٰكن هـٰذه إطلاقات أربعة واضحة ومشهورة، جاءت في القرآن في آيات عدة.

قد جاء في قول الله ـ جل وعلا ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ معنىٰ تترىٰ تتابعاً، ولهـٰذا قال العلماء: ليس هناك ما يُسمىٰ «فترة»؛ أي: لم يأتِ فيها الرسل؛ لأن الله أرسل رسله تتابعاً وأخبر أنه بعث في كل أمة رسولاً، ولا نعرف فترة من الفترات إلا ما بين نبينا وبين عيسىٰ قرابة خمسمئة سنة، وهـٰذه لم ينسَ الأمر فيها، ولهـٰذا وجد من هو على الحق، وقصة الأخدود وقعت قبل بعثة الرسول ﷺ، أصحاب الأخدود الذين آمنوا بالله واتبعوا الدين الذي جاء به عيسىٰ، وقصتهم في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ.

﴿قَضَىٰ﴾ تأتي بمعنىٰ أمر وألزم وأوجب، وتأتي بمعنىٰ فرغ من الشيء ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، وتأتي بمعنىٰ قدر وأحكم، ولـٰكن هنا قضىٰ أي: أمر وألزم بهـٰذا، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمر عباده، وألزمهم بأمر شرعي وليس بقدري، بل هو أمر أُرسل إليهم بواسطة الرسل وأُمروا به، ولهـٰذا خالفه أكثرهم.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أنه أمر ملزم؛ لأنه من الله، فلا يجوز التساهل به، وخوطب بالخطاب ﴿رَبُّكَ﴾ أي: الذي رباك وأوجدك، وهو الذي

أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣].

يتصرف فيك، فانتبه لهٰذا أن تخالف هٰذا الأمر، فإنك إن خالفته تعرضت لعقابه وسخطه. وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يعني: أن هٰذا هو الذي قضاه، وأن من جعل العبادة لغيره فإنه لم يلتزم الأمر، فهو لم يأتِ بما يجب عليه، ويكون متعرضاً لعقاب الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يعني: وقضىٰ أن تحسنوا بالوالدين إحساناً، ولم يذكر الإحسان ما هو؟ وإنما جاء بالعموم، حتىٰ يشمل جميع الإحسان، وهٰذه الآية لها نظائر كثيرة في كتاب الله، حيث يقرن حق الوالدين بحقه؛ ليبين عظم قدر حق الوالدين؛ لأن الوالدين هما سبب إيجادك، وهما اللذان قاما علىٰ تربيتك، وتعبا علىٰ ذٰلك، فحقهما عظيم يجب أن تراعيه.

في «صحيح مسلم»: «**لا يدخل الجنة قاطع**»[1]، والعقوق ضد الإحسان، وضد البر.

وآية النساء التي تسمىٰ «آية الحقوق العشرة» فيها أيضاً الأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين، وإلىٰ الجار، وإلىٰ الصاحب بالجنب، وإلىٰ المملوك، وغيرهم، وهو أمر من الله ـ جل وعلا ـ لعباده أن يعبدوه، وشرط العبادة أن تكون خالصة لله. أما إذا كانت مشوبة؛ فإنها تكون شركاً، والشرك هو أعظم الذنوب؛ لأن التوحيد هو أعظم الأوامر، وأعظم ما يطاع الله به، وإذا جاء الإنسان بالتوحيد ـ وإن كان عنده شيء من التقصير ـ فمآله إلىٰ الجنة، بل إذا كان عنده مثقال ذرة من التوحيد ليس معه شرك؛ فإنه لا بد أن يدخل الجنة؛ أي: لو ترك الأوامر ولم يأت بالشرك، وإن أُدخل النار؛ فلا بد أن يدخل الجنة كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

ومعنىٰ هٰذا الحديث: أي: زائد علىٰ أصل الدين «لا إلٰه إلا الله»، أصلها التوحيد حتىٰ لا يكون ذٰلك دالاً علىٰ أن المشرك يدخل النار.

وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هٰذا من التأكيد والإيضاح، وإلا قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يدل علىٰ عدم الشرك، ولٰكن ذُكِر تأكيداً وإيضاحاً؛ لأن الأمر مهم جداً.

قوله: ﴿شَيْئًا﴾ ليدل علىٰ أن الشرك كله منهي عنه؛ صغيره وكبيره؛ لأن الشيء نكرة تدل علىٰ العموم، فكل ما سُمّي شركاً فهو منهي عنه بهٰذا.

قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا إلي أخبركم بالخبر الصحيح الصدق الحق الذي لا يتخلف، ليس بالتخرص والظنون كما تفعلونه أنتم، وتحرمون أشياء ما حرمها الله، وتفعلون أشياء قد حرمها الله ـ جل وعلا ـ.

وهٰذا يدل علىٰ أن الإنسان لا يجوز له أن يتعبد إلا بما جاء به الرسول ﷺ؛ وليس بالرأي، وليس بالقياس، وليس بالأوضاع التي يدرك عليها الناس، بل لا بد أن يتعرف علىٰ أمر الله، وهو الذي يتلىٰ ويقص علينا قول الله ـ جل وعلا ـ والتحريم هو المنع ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: ما منعكم منه، وبدأ بالشرك أول شيء؛ ليدلّ علىٰ أنه أعظم المحرمات، وأنه لا يجامعه شيء مقبول من العمل عند الله ـ جل وعلا ـ، فهو يفسد العمل كله، ولهٰذا أخبر الله ـ جل وعلا ـ عن المشرك أنه تحرم عليه الجنة وأن مأواه النار، فهٰذا هو مقصود الآية. أما بقية الآية ففيها أشياء كثيرة، وإنما المقصود هنا من الاستدلال بها تحريم الشرك، فإذا حرم الشرك؛ فالعبادة والتوحيد واجب علىٰ المكلف.

عَلَيْكُمْ﴾ ـ إلىٰ قوله: ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

وفيها النهي عن قتل النفوس، وبدأ بقتل الأولاد، وأخبر أنه تكفل برزقهم ورزق الآباء؛ لأن هٰذا من أشنع أنواع القتل، وكذٰلك أكل مال اليتيم، وكذٰلك ظلم الناس في بخس بعض حقوقهم، وفي النهاية **قال**: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: الأمر الذي أمر الله ـ جل وعلا ـ عباده أن يفعلوه.

وليس مراد ابن مسعود أن النبي له وصية وصىٰ بها وختمها بخاتمه، ولٰكن هٰذا تمثيل بأنه جاء بمضمون هٰذه الآيات المحكمات، وإلا فالرسول ﷺ وصىٰ بكتاب الله ـ جل وعلا ـ وليس هناك وصية كتبها للخلافة، وقال: إن علي بن أبي طالب مثلاً هو خليفتي، وأنه هو وصيي، فهٰذا إذا روي فهو كذب، فالرسول ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس في مرضه، وقال: «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»، وكان علي موجوداً، فلما راجعته عائشة في هٰذا وقالت: يا رسول الله! إن أبا بكر رجل أسيف؛ تعني: كثير البكاء، فإذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء، فلو أمرت غيره، فقال: «**مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»، فذهبت عائشة إلىٰ حفصة، وقالت لها: اذهبي وقولي له كذا وكذا. فذهبت، وقالت له، فغضب ﷺ، وقال: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»(١)، فكان يصلي بالناس مدة مرضه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولهٰذا استدل أهل السنة بهٰذا علىٰ أنه هو الخليفة. أما حديث ابن عباس الذي فيه: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً**» ثم اختلفوا فيما بينهم، هل هٰذا يقوله عن فكره وصحته؟ أم أنه من أثر المرض؟ فلما اختلفوا؛ قال: «**قوموا عني**»(٢)، وهو قد علم أنهم سيولون أبا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢)، ومسلم (٦٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (٣٠٩١).

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «**يا معاذ** ....

بكر، ولهٰذا جاء بعد قوله: «**ادعي لي أباك وأخاك** ـ يقول ذٰلك لعائشة ـ **أكتب لهم كتاباً، لا يتقوّل متقولٌ، أو يتمنىٰ متمنٍ**»[١]، ثم عدل عن ذٰلك ورأىٰ كونهم اختاروه بأنفسهم أبلغ في ذٰلك وأحسن. وعلىٰ كل حال؛ فالمقصود من كلام ابن مسعود أنه يقصد بهٰذا أن هٰذه الآيات وما في مضمونها من كتاب الله هو الذي وصىٰ به الرسول ﷺ.

وقوله: «**عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ.. إلخ**» معاذ بن جبل من فقهاء الصحابة، ومن أفاضلهم وخيارهم، كان شاباً، وقد جاء في الحديث: «**يحشر يوم القيامة بين يدي العلماء نَبْذة**»[٢].

وفي الحديث قال له ﷺ: «**إني أحبك، فلا تدعنّ أن تقول خلف كل صلاة: اللهم أعني علىٰ ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[٣]، هٰذه وصية له، وهي وصية للأمة كلها.

قوله: «**كنت رديف النبي**» الرديف هو الذي يكون خلف الراكب، وكان علىٰ حمار، والرسول ﷺ يركب الحمار ويردف عليه، وهٰذا من دلائل النبوة؛ لأن الملوك والعظماء لا يركبون الحمُر، يتحاشون عن ركوب الحمير، إنما يركبون المراكب الفاخرة، والرسول ﷺ عبد لله يتواضع، فهو يركب الحمار، ويردف عليه، يدل علىٰ تواضعه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

والتواضع يكون لله وليس للخلق، ولذٰلك لما جاءه التخيير من الله، قيل له: اختر هل تكون رسولاً ملكاً أو رسولاً عبداً، فاختار أن يكون رسولاً عبداً[٤]، ولما جاءه التخيير أن يعطىٰ مفاتيح كنوز الأرض لم يختر هٰذا،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٥١٠)، «صحيح مسلم» (٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٩٨٥٧).

(٤) أخرجه أحمد (٧١٦٠)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

وقال: «**بل أجوع يوماً، وأشبع يوماً، فإذا جعت ذكرت ربي، وإذا شبعت شكرت ربي**»[١]، ولم يأتِ لأمور الدنيا، وإنما جاء داعياً للجنة، ولهٰذا كان يمثل نفسه لهم، فيقول: «**مثلي ومثلكم كمثل قوم سلكوا مفازة**» يذكر هٰذا؛ لأنه مهم في الواقع، والمفازة في اصطلاح العرب يطلقونها من باب التفاؤل، وهي الأرض التي تهلك من سلكها غالباً، سموها مفازة تفاؤلاً بأن من يسلكها يفوز، يقول: «**فلما كانوا في مكان ما يدرون ما قطعوا أقل أو أكثر**» يعني: في وسطها «**نفد ما معهم من ماء وطعام، ومات ما معهم من رواحل**»، في الحالة هٰذه تيقنوا الموت، لا بد أن يموتوا، يقول: «**بينما هم كذٰلك إذ طلع عليهم رجل يقطر رأسه ماء، فقالوا: إن هٰذا حديث عهد بماء، قال: ما شأنكم، قالوا: كما ترىٰ** ـ يعني: ينتظرون الموت ـ **قال: أرأيتم إن دللتكم علىٰ ماء روي، ورياض خضراء، أتطيعونني؟ قالوا: نعم، ولا نعصي لك أمراً، فقال: أعطوني عهودكم ومواثيقكم علىٰ هٰذا، فأعطوه ما شاء من عهود ومواثيق، فطلع بهم علىٰ رياض خضراء، وماء روي، فنزلوا، وشربوا، ورعوا، ثم بعد ذٰلك صاح بهم: الرحيل، فقالوا: إلىٰ أين؟ قال: إلىٰ رياض خير من هٰذه الرياض، ومياه أعذب وأطيب من هٰذه المياه، فقال أكثرهم وجلهم: ما وصلنا إلىٰ هٰذه الرياض، وهٰذا الماء، ونحن نصدق أننا نعيش، فأبوا، وأطاعه قليل منهم، فنجا ونجا بهم، أما هٰؤلاء فصبحهم العدو فصاروا ما بين قتيل وأسير**»[٢]، فهٰذا مثله مع الناس، والأمثال من أبلغ المواعظ، وأبلغ الكلام، فأكثر الناس لم يطيعوه، فأصبحوا مأسورين لهواهم، ولشياطينهم، وسوف يحق عليهم العذاب.

والمقصود أن الرسول ﷺ كان علىٰ حمار، وهٰذا الحمار جاء أن اسمه عُفير وأنه أهدي له من المقوقس صاحب مصر، والكذابون وضعوا فيه أحاديث، وقالوا: كان يرسله إلىٰ من يريد من الصحابة، ويذهب علىٰ الباب

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٤٣)، والترمذي (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٣٣٦٧).

أتدري ما حق الله علىٰ العباد».... قال: «حق الله علىٰ العباد؛ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد علىٰ الله ....

ويقرعه برأسه، فيخرج ويأتي، هٰذا كذب، وقالوا: إنه لما توفي الرسول ﷺ ذهب إلىٰ بئر فتردىٰ بها، هٰذا أيضاً كذب لم يثبت شيء من ذٰلك.

قوله: «**أتدري**» من الدراية، وهي العلم، وهٰذا الأسلوب للتعليم، فالسؤال عن الشيء ثم الإخبار به يعد من أبلغ أساليب التعليم؛ لأن الإنسان إذا سئل عن شيء فلم يعرفه؛ تطلعتْ نفسه إلىٰ معرفته، وتشوقت، وأصبح مستعداً تمام الاستعداد إلىٰ معرفة الجواب، فإذا جاء الجواب وقع في النفس موقعاً يكون له أثر، فيثبت، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يفعل ذٰلك، وزعم بعض الذين يتكلمون في التربية أن هٰذا أمر مخترع جديد ما كان معروفاً سابقاً، وهم معذورون؛ لأنهم يجهلون سيرة الرسول ﷺ.

قوله: «**حق**» والحق مأخوذ من الثبوت والاستقرار، قالوا: حق بالمكان إذا ثبت به واستقر، والحق هو الثابت الذي لا يزول، بخلاف الباطل، فإن الباطل يضمحل وينتهي، وإن كان له صولة، كما قال الله ـ جل وعلا ـ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال ـ جل وعلا ـ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ]، الباطل لا يثبت، ولا بد أن يذهب، ومعنىٰ ذٰلك أن هٰذا حق علىٰ العباد لازم لهم، لا يتغير ولا يتبدل، فهم ملزمون بهٰذا، وإن تخلف ذٰلك فالعذاب يحق عليهم، وهٰذا ليس عجيباً؛ لأن العباد خلقوا لعبادة الله.

ولٰكن العجيب أن يكون للعباد حق علىٰ الله، وقد اختلف العلماء في هٰذا الكلام «حق العباد علىٰ الله» هل للعباد حق علىٰ الله؟ فقال بعضهم: معناه صدق الوعد وإنجازه فقط، أن يصدقهم وعده وينجزه لهم. لٰكن الحديث يدل علىٰ قدر زائد علىٰ هٰذا، وهو أنه شيء أحقه الله ـ جل وعلا ـ علىٰ نفسه، والسبب في قولهم هٰذا؛ أن الحق لا بد أن يوجبه من هو أعلىٰ،

ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: **«لا تبشرهم، فيتكلوا»**. أخرجاه في الصحيحين[(١)].

والله ليس فوقه أحد، فمن الذي يُحق عليه وكل من سواه مخلوقون له عبيد له يملكهم، فهل يملكون أن يكون لهم علىٰ الله حق؟ يقال في الجواب عن هٰذا: إن هٰذا الحق حقٌ تفضل به ربنا ـ جل وعلا ـ، وأحقه علىٰ نفسه فضلاً وجوداً وكرماً أنه لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، وهٰذا فضل عظيم، فإذا سلم الإنسان من العذاب فإنه يلزم النعيم؛ لأن الإنسان خُلق للبقاء وليس للفناء، وليس في دار الآخرة إلا دار عذاب ودار نعيم، فإذا لم يعذب فهو منعم بلا شك.

لهٰذا قال: **«ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»** فإذا لم يعذبه؛ فهو يكرمه وينعمه، وكفىٰ بهٰذا فضلاً وسعادة لمن سلم من عذاب الله وفاز بنعيمه. ولهٰذا قال معاذ: **«أفلا أبشر الناس»**، والتبشير الإخبار بالأمر المهم المفرح، وأُخِذ لفظه من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بهٰذا تغيرت بشرة وجهه بالفرح، سميت بشارة، والغالب أنها تطلق علىٰ الشيء المفرح، وقد تستعمل بالعكس من باب التهكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، فهٰذه بشارة من باب التهكم بهم، وهٰذا يدل علىٰ أن معاذاً فهم أن هٰذا أمر عظيم فقال: أفلا أبشر الناس، وذٰلك أن الإنسان إذا أتىٰ بالتوحيد؛ فهو سالم من العذاب، ومضمون ذٰلك أنه لا يلزم كثرة العمل، فقد تقوم بهٰذه الواجبات وتسلم من الشرك، فأنت ناج من عذاب الله وستسعد بثوابه وجزائه. وهٰذا فضل عظيم، وهٰذا الذي اقتضىٰ أن يقول: أفلا أبشر الناس؟

قال: **«لا تبشرهم؛ فيتكلوا»** يعني: يتركوا العمل، ويتركوا التنافس في الخير، وذٰلك أن التنافس في أمر الآخرة أمر مطلوب؛ لأن درجات الجنة رفيعة جداً، وهي واسعة جداً، والجنة تقتسم بالأعمال، ودخولها بفضل الله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

فيه مسائل:

الأولىٰ: الحكمة في خلق الجن والإنس. **الثانية**: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه. **الثالثة**: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون]. **الرابعة**: الحكمة في إرسال الرسل. **الخامسة**: أن الرسالة عمَّت كل أمة. **السادسة**: أن دين الأنبياء واحد. **السابعة**: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنىٰ قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦]. **الثامنة**: أن الطاغوت عام في كل ما عُبِد من دون الله. **التاسعة**: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف. وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك. **العاشرة**: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله

- جل وعلا -، فدعهم يتنافسون في العمل؛ لأنهم إذا أخبروا بهٰذا قد يثبطهم عن فعل الخيرات والتسابق فيها، هٰذا هو المقصود.

وفهم معاذ أن هٰذا ليس المقصود به كتمان العلم، ولهٰذا أخبر معاذ بهٰذا الحديث عند موته، أخبرهم أن الرسول قال له ذٰلك، وفهم أن قوله: «لا» من باب المصلحة فقط، وليس من باب التحريم.

ثم هٰذا لا يدل علىٰ أن معاذاً وغيره من الصحابة لا يعرفون هٰذا، ولٰكن لما كان الأمر في وقت الرسول لا يدرىٰ هل يتغير أم لا؟ كما جاء في حديث أبي بكرة في قصة الحج لما سألهم: أي بلدٍ هٰذا؟ أي يومٍ هٰذا؟ وكلما قال يقولون: الله أعلم[١]، فهم جوزوا أن يتغير الاسم، ويتغير الوقت.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٥٤)، ومسلم (٣٦٢٢) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، ونبهنا الله سبحانه علىٰ عظم شأن هٰذه المسائل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]. **الحادية عشرة**: آية سورة النساء التي تسمىٰ آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. **الثانية عشرة**: التنبيه علىٰ وصية رسول الله ﷺ عند موته. **الثالثة عشرة**: معرفة حق الله تعالىٰ علينا. **الرابعة عشرة**: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه. **الخامسة عشرة**: أن هٰذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة. **السادسة عشرة**: جواز كتمان العلم للمصلحة. **السابعة عشرة**: استحباب بشارة المسلم بما يسره. **الثامنة عشرة**: الخوف من الاتكال علىٰ سعة رحمة الله. **التاسعة عشرة**: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم. **العشرون**: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض. **الحادية والعشرون**: تواضعه لركوب الحمار مع الإرداف عليه. **الثانية والعشرون**: جواز الإرداف علىٰ الدابة. **الثالثة والعشرون**: فضيلة معاذ بن جبل. **الرابعة والعشرون**: عظم شأن هٰذه المسألة.

قوله: «التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم» يعني: هل هٰذا يبقىٰ دائماً تقول: الله ورسوله أعلم، إذا سُئلنا الآن؟

الجواب أن نقول: الله أعلم، وإنما يقال: «ورسوله» لمّا كان الرسول يمكن سؤاله، ويمكن الرجوع إليه، أما الآن فالرجوع إلىٰ سنته، فإذا جاء مثل هٰذا يقول المجيب: الله أعلم.

باب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

لما ذكر وجوب التوحيد ولزومه ناسب أن يذكر فضله بعد معرفة وجوبه، ولهٰذا قال المؤلف: «**باب فضل التوحيد**».

وقوله: «ما يكفر من الذنوب» «ما» هٰذه يصح أن تكون موصولة، فيكون المعنىٰ: والذي يكفره من الذنوب، ويصح أن تكون مصدرية، وهو أولىٰ وأبلغ؛ لأنها إذا كانت مصدرية؛ صار المعنىٰ: باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب؛ لأنها لو كانت موصولة؛ لأوهم أن هناك ذنوباً لا يكفرها التوحيد، وهٰذا غير مقصود، فكونها مصدرية أحسن؛ لأن التوحيد يكفر الذنوب جميعاً، ولا يترك شيئاً. ومعنىٰ التكفير: مغفرة الذنوب بالتوحيد، ومحو أثرها، ووقاية ما يترتب عليها من العذاب، هٰذا هو معنىٰ التكفير.

وقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، هٰذه الآية في سياق مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه، وهي مناظرة لإبطال الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الكواكب، والشمس، والقمر وغيرها، ويبنون لها الهياكل، أي: الصور، ويبنون البيوت التي يضعون فيها صور هٰذه الأشياء، ويزعمون أنّ لها روحانيات[(١)] تتنزل عليهم، والواقع أنها الجن والشياطين تتنزل عليهم، وتخاطبهم، كما يوجد ذٰلك في عباد القبور، فناظرهم إبراهيم عليه السلام، لما رأىٰ الكوكب قال ﴿هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾، والأفول هو الزوال والذهاب، فكيف يزول الرب ويذهب؟ رب يذهب ويزول ويختفي هٰذا لا يكون رباً.

---

(١) يعني: أرواحها.

....

ثم كعادة المشركين؛ لما قال لهم ذٰلك؛ خوّفوه بآلهتهم، فقال: كيف أخاف ما تعبدون، وأنتم لا تخافون الله؟! يعني: كيف تخوّفونني بمعبوداتكم، وأنتم تشركون بالله ـ جل وعلا ـ ولا تعبدونه ولا تخافونه؟

ثم قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ يعني: أنتم أو أنا؛ أي: من الذي يستحق الأمن من عذاب الله؟ من أطاعه وعبده ووحده؟ أم من عصاه وأشرك به مخلوقاً لا يملك ضراً ولا نفعاً؟ والعذاب يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما التعذيب في القبر والتعذيب في النار أو في الموقف فهو غير آمن، ولهٰذا قالوا: إذا كان المقصود بالأمن الأمنَ المطلق؛ فصاحب الذنوب غير آمن أمناً مطلقاً؛ لأنه قد يصاب بعقاب آجلاً أو عاجلاً، إما في الدنيا أو في القبر.

وقد أخبر الرسول ﷺ بأشياء كثيرة تكون سبباً لعذاب القبر، منها: ما يكون بأسباب الذنوب من ذٰلك: الكذب يكون سبباً لعذاب الإنسان في قبره، وأكل الربا، والنوم عن الصلاة المكتوبة، وترك العمل بالقرآن، والزنا، وغير ذٰلك، كما في حديث المنام وغيره. وفي «الصحيحين» أن عدم الاستبراء من البول ـ أي: عدم التنزه منه ـ سبب لعذاب القبر، والنميمة كذٰلك وغيرها، فدل هٰذا علىٰ أن أصحاب الذنوب غير آمنين من العذاب، وإنما يأمنون ـ إذا اجتنبوا الشرك ـ من الخلود في النار.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: صدقوا وقبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، واجتنبوا ما نهوا عنه. ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ اللَّبْس هو الخلط والمزج.

قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ يعني: هٰذا الذي قبلوه من الرسول لم يَلْبِسوه بظلم، إذا كان المقصود بالظلم ظلمَ الشرك، فمعنىٰ ذٰلك أن هٰؤلاء يأمنون من الخلود في النار.

أما إذا كان المقصود بالأمن أمنَ العذاب في الدنيا والآخرة وفي البرزخ وفي غيره؛ فهٰذا لا بد أن يجتنب الكبائر مع اجتناب الشرك، وإن كانت الكبائر أمرها إلىٰ الله.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من شهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله،**

وصاحب الكبيرة لا يحكم عليه بأنه كافر أو أنه في النار؛ لأن أصحاب الكبائر أمرهم إلىٰ الله؛ إن شاء عفا عنهم بدون عذاب، وإن شاء عاقبهم بما يستحقون، ثم يدخلهم الجنة لقوله ـ جل وعلا ـ **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾** [النساء: ٤٨].

وقد أشكلت هـٰذه الآية علىٰ الصحابة رضي الله عنهم، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه، فقال النبي ﷺ: **«ألم تسمعوا قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**. ففسر النبي ﷺ معنىٰ الظلم في الآية، وأن المراد به الشرك، وهو أعظم الظلم في حق الله سبحانه وتعالىٰ.

فأراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن من فضائل التوحيد تحقق الأمن للعبد الموحد.

قوله: «مَنْ»: هي من أدوات العموم؛ يعني أي إنسان يشهد، والشهادة معناها الإخبار عن العلم الثابت في القلب مع العمل واعتقاده، وإلا فلا تكون شهادة؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول عن المنافقين **﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾** [المنافقون: ١] مع تلفظهم بقول «نشهد»، فبيّن أنها كذب؛ لأن ما في قلوبهم مخالفٌ لما تنطق به ألسنتهم، فهـٰذا يدل علىٰ أن الشهادة لا بد أن تطابق الواقع وتطابق الاعتقاد.

فإذا لم يطابق الخبرُ الاعتقادَ؛ فالشهادة لا تسمىٰ شهادة، بل قد تكون كذباً، وتكون نفاقاً، وعلىٰ هـٰذا؛ «من شهد» يعني: مَنْ آمن بالله ونطق بلسانه شاهداً بأن الله هو المألوه وحده، وأخبر عما يفعله هو بهـٰذا أنه يأله ربه وحده، ويعبده وحده.

قوله: «وأنّ محمداً ﷺ عبده ورسوله»: جاء باسمه العلم «محمد»؛ لأنه

....

لا بد من تمييزه بذلك، فلو قال: أشهد أن رسولَ الله رسولُ الله؛ لَمَا صَحَّ وإن كانت الشهادة هذه قد تكون صحيحة، ولكن لا بد من التعيين، ولهذا يذكر اسمه العلم صلوات الله وسلامه عليه عند التشهد، أي في الصلاة، والأذان، وكذلك في القبر إذا سئل عنه. ولم يأتِ بما يقوله بعض الناس يقول: «سيدنا» فما أتىٰ بهذا لا تعليماً ولا خبراً، فهو زيادة في الأمر الذي أمر الله ـ جل وعلا ـ به، والزيادة في العبادات لا تجوز.

قوله: ﷺ «عبده» بدأ بالعبودية ليدل علىٰ أن العبودية لازمة لكل أحد، وأنه لا يوجد أحد ينفك عن العبودية. والعبودية: أن يكون عبداً معبداً لله ـ جل وعلا ـ والعبودية تدل علىٰ التذلل، والخضوع، والخوف، والرجاء، لا بد فيها من ذلك.

والعبد في كتاب الله يطلق إطلاقين: إطلاق بمعنىٰ عابد وذالّ وخاضع، وهذا هو الذي يثنىٰ عليه ويثاب، وعبدٌ بمعنىٰ معبد مذلل كما قال ـ جل وعلا ـ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم] يعني: خاضعاً له يوم القيامة، وهذا لا يجدي شيئاً؛ لأن هذا معناه تجري عليه أحكام الله وأقداره.

قوله: «**عبده ورسوله**» عَطَفَ علىٰ العبد الرسالةَ، وهذا هو الكمال، كمال الإنسان أن يكون عبداً رسولاً، حقق العبودية، ولهذا أثنىٰ الله ـ جل وعلا ـ علىٰ رسوله في أشرف المقامات التي يقومها بالعبودية، وهي أربعة:

المقام الأول: مقام الإنزال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

المقام الثاني: مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

المقام الثالث: مقام الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

المقام الرابع: مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، ......

فهٰذه تدل علىٰ أن تحقيق العبودية هو أشرف ما يتحلىٰ به الإنسان، وهو مقام الرسل الذي لا يحققه إلا الرسل وخواص الناس الذين يتبعونهم، وإن كانوا لا يَصِلون إلىٰ ما وصل إليه الرسل، وهٰذا أيضاً إشارة إلىٰ أنه لا بد من القيام بحق الرسول ﷺ، فلا يجوز التقصير، ولا الجفاء، ولا الغلو، والغلو أن ترفعه إلىٰ منزلة الرب ـ جل وعلا ـ، أو تجعل له شيئاً مما هو من خصائص الله: كأن يُعبد أو يدعىٰ من دون الله أو غير ذٰلك، وكذٰلك لا يجوز التقصير في حقه أو عدم القيام بحقه، ويجب أن تكون محبته مقدمة علىٰ محبة النفس، والولد، والوالد، والناس أجمعين، وإلا فلا يحصل الإيمان الذي ينجي من العذاب.

قوله: «**وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله**» خص عيسىٰ من بين الرسل لما وقع له من العبادة، فبنو إسرائيل انقسموا إلىٰ ثلاثة أقسام في عيسىٰ عليه السلام:

القسم الأول: منهم من عبده، وقال: إنه الله، كما ذكر الله ـ جل وعلا ـ عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وهٰذا ذكر في مواضع وأخبر أنه كفر.

القسم الثاني: جَفَوهُ، وهم اليهود، وحاولوا قتله، وزعموا أنه كاذب، وأنه ابن زانية ـ قاتلهم الله وأخزاهم ـ.

القسم الثالث: اتبعوا الحق، وآمنوا به، وعلموا أنه عبد مرسل من عند الله ـ جل وعلا ـ وهٰؤلاء أتباعه الذين آمنوا به ومنهم الحواريون، فلأجل الخلاف نص عليه؛ يعني: هٰذا الاختلاف الذي وقع فيه؛ يجب أن يتبع فيه الحق وهو أن «**عيسىٰ عبد الله ورسوله**».

وقوله: «**وكلمته**»: يعني: أنه وجد بالكلمة؛ لأنه وجد من أنثىٰ بلا ذكر، فقال له: «كن»، فكان بالكلمة، وليس عيسىٰ هو الكلمة، وإنما وجد بالكلمة.

وقوله: «**وروح منه**» يعني: أنه خلق من الله؛ يعني: روح من الأرواح التي خلقها ـ جل وعلا ـ، فهو مثل الناس في هٰذا، وقد يفسر هٰذا كما جاء

....

في الحديث أن جبريل أرسل إلىٰ مريم، كما ذكر الله ـ جل وعلا ـ ذٰلك في القرآن، ذكر أنها اتخذت بيتاً للعبادة، واتخذت حجاباً من دونهم، تتعبد به، فجاء جبريل، وتمثل لها بشراً سوياً، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٨ ـ ١٩].

وفي الحديث: أنه أرسل إليها، فنفخ في درع جيبها، فدخلت النفخة في فرجها، فحملت(١)، والنفخة هي الروح، روح لأنها ريح، فبعض العلماء يقول: إن هٰذه الريح التي جاءت بواسطة جبريل وحملت بها، وهٰذه من آيات الله، والله ـ جل وعلا ـ نوّع خلق بني آدم إلىٰ أربعة أنواع:

النوع الأول: آدم أبو البشر خُلق من تراب من طين كما هو معلوم.

النوع الثاني: وخلقت زوجته حواء منه، أنثىٰ من ذكر، وهٰذا من أعجب الأشياء أخذت بضعة منه وخلقت منه زوجته.

النوع الثالث: وعيسىٰ ﷺ خلق من أنثىٰ بلا ذكر.

النوع الرابع: كما هو معلوم من ذكر وأنثىٰ.

وهٰذا للدلالة علىٰ قدرة الله، وأنه قادر علىٰ كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء.

كما أنه ـ جل وعلا ـ بيّن للناس هٰذا كله دليلاً علىٰ البعث، كما أنه بيّن أن إحياء الموتىٰ بالفعل، كما ذكر الله ـ جل وعلا ـ ذٰلك في القرآن في أماكن، منها خمسة مواضع في سورة البقرة، وأخبر ـ جل وعلا ـ أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر علىٰ خلق الكبير العظيم لا يعجزه خلق الصغير الحقير.

كل هٰذا رحمة من الله وبيان لعباده حتىٰ يؤمنوا، ويجتنبوا أسباب

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤١٥٦).

والجنةَ حق، والنارَ حق، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل» أخرجاه[١].

ولهما في حديث عِتبان: ....

العذاب؛ لأنه ـ جل وعلا ـ يكره أن يعذب عباده، ويحب إقامة العذر، ولهٰذا أرسل الرسل وأنزل الكتب.

قوله: «**وكلمته ألقاها إلىٰ مريم**» تدل علىٰ أن الكلمة أرسلت إما بقول الله «كن» فكان، أو بواسطة جبريل الذي عرفنا كيف جاء إليها.

وقوله: «**وروح منه**» يعني: من سائر الأرواح.

وقوله: «**والجنةَ حق**» الجنة منصوب؛ لأنها معطوفة علىٰ «**أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً**»، «**والجنة حق**» يعني: أنها ثابتة، وهٰذا دليل علىٰ وجودها الآن، فهي موجودة الآن مخلوقة، وهي في السماء، بل هي فوق السماء السابعة، وهي أوسع المخلوقات وأكبرها، بعد الكرسي والعرش ولا تمتلئ بالناس مع كثرتهم؛ لأنها واسعةٌ جداً، حتىٰ ينشئ الله ـ جل وعلا ـ لها خلقاً جديداً، ويسكنهم فيها؛ لأنه وعدها أنها تمتلئ، كما وعد النار أنها تمتلئ.

قوله: «**والنار حق**»: أي أنها ثابتة موجودة، ومُعدة للكافرين، كما أن الجنة معدة للمتقين.

يقول: «**أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**»: يعني: إذا جاء بهٰذه الأمور، وإن كان مقصراً، وإن كان عاصياً، وهٰذا معنىٰ «**علىٰ ما كان من العمل**»، وهٰذا دليل علىٰ فضل التوحيد، ودلالته واضحة، كما أن وجه الدلالة من الآية أن من جاء بالتوحيد الخالص فهو آمن من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: «**ولهما في حديث عتبان**»، حديث عتبان طويل، ولٰكن اقتصر

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٢٠)، والبخاري (٣١٨٠).

«فإن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذٰلك وجه الله»[(١)].

المؤلف علىٰ موضع الشاهد: **«فإن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذٰلك وجه الله»**.

قوله: «يبتغي»: يدل علىٰ الإخلاص والصدق في قوله: لا إلٰه إلا الله، فدل علىٰ أن مجرد التلفظ بـ«لا إلٰه إلا الله» لا يكفي، ولا بد أن يخلص في ذٰلك، ويكون عارفاً بها، عالماً بها، وبمدلولها، أما أن يقول: «لا إلٰه إلا الله»، ويطوف علىٰ القبور، ويستنجد بأصحابها، فهٰذا يدل علىٰ أنه ما عرف معنىٰ «لا إلٰه إلا الله».

ولهٰذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في بعض مسائله: **«لا خير في مسلم يكون أبو جهل وأحزابه أعلم منه بلا إلٰه إلا الله»**؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ أخبر بأنه لما قال لهم قولوا: لا إلـه إلا الله؛ قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]؛ يعني: عرفوا أن كلمة «لا إلـه إلا الله» تدل علىٰ التوحيد والإخلاص، وأنّ العبادة يجب أن تكون لله وحده، فأنكروا هـٰذا، وقالوا: إن الآلهة كثيرة متعددة عندهم: اللات، والعزىٰ، وهبل، ومناة، ونائلة، وغيرها كثير جداً؛ حجارة، وغيرها، سمّوها آلهة.

ويدلك علىٰ هـٰذا أيضاً قصة أبي طالب لما حضرته الوفاة؛ جاء إليه النبي ﷺ كما في «الصحيحين» وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، وقال له الرسول ﷺ: **«يا عم قل: لا إلـه إلا الله كلمة أحاجَ بها لك عند الله»**، فقال له أبو جهل وصاحبه: أترغب عن ملة عبد المطلب!! فأعاد عليه الكلمة، فأعادا عليه هـٰذه الكلمة: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فقال: هو علىٰ ملة عبد المطلب، ومات علىٰ ذٰلك، نسأل الله العافية، فهـٰذا يدل علىٰ أنه لو قال: لا إلـه إلا الله ترك ملة عبد المطلب وهي الشرك بعبادة الله لنفعته هـٰذه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧)، ومسلم مطولاً (١٠٥٢).

....

الكلمة، وأما إن كان الإنسان ـ مثلاً ـ يصلي ويقول: لا إلـٰه إلا الله، ويطوف علىٰ القبور، ويستنجد بأصحابها، ويقدم لهم القرابين، فهـٰذا معناه أنه جاء بما يناقضها، وأنه لم يفهم معنىٰ لا إلـٰه إلا الله.

فلا بد من فهم المعنىٰ، والإتيان بذٰلك من العمل، وهـٰذا هو الذي تحرم عليه النار، وهـٰذا له نظائر كثيرة.

وقد جاءت أحاديث يبدو من ظاهرها أنها معارضة لهـٰذا الحديث، وهي أنه يخرج من النار من قال: لا إلـٰه إلا الله، فهـٰذا يدل علىٰ أنهم يدخلون النار، وجاءت أحاديث كثيرة فيها تحريم النار علىٰ من قال: لا إلٰه إلا الله؛ فكيف نجمع بين هذين النوعين من الأحاديث؟ هـٰكذا جاءت في الصحيح، وجاء أنهم يعرفون بأثر السجود؛ لأن النار لا تأكل أثر السجود، وهو الجبهة، والأنف، والراحتان، والركبتان، وأطراف القدمين، هـٰذه التي يلزم أن يسجد الإنسان عليها، فحرمت علىٰ النار، فصاروا يعرفونهم ـ يعني: الشفعاء الذين يأمرهم الله ـ جل وعلا ـ بالشفاعة ـ يعرفونهم، ولا شك أنهم يقولون: لا إلـٰه إلا الله بلا تردد.

جمع العلماء بين هـٰذا بأمور، منها: أن هـٰذا قبل نزول الفرائض، وهـٰذا غير سديد وغير مقنع، ولـٰكن الخلاصة أن أصح أقوال العلماء في الجمع؛ أنه فيمن قال: لا إلـٰه إلا الله صادقاً مخلصاً تائباً ومات علىٰ ذٰلك، وهـٰذا لا يكون معه شرك.

فمن جاء بالصدق والإخلاص وابتغاء وجهه تعالىٰ، ولا يكون عنده شرك، فإن النار تحرم عليه، ولهـٰذا استدل المؤلف بهـٰذه علىٰ فضل التوحيد، هـٰذا مقتضىٰ الدلالة أن التوحيد الخالص يكفر جميع الذنوب، وأنه يجعل الإنسان محرماً علىٰ النار. هـٰذا اختيار الشيخ كما يظهر باستدلاله بهـٰذا، وكذٰلك اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذٰلك ما يدل عليه كلام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه».

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**قال موسىٰ: يا رب، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: يا موسىٰ: قل لا إلـٰه إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هـٰذا. قال: يا موسىٰ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري،** ....

قوله: «يا رب كل عبادك يقولون هـٰذا» يدل علىٰ أن موسىٰ ﷺ يريد شيئاً ليس عند العباد، يريد شيئاً خاصاً به.

فقال الله له: **«يا موسىٰ: لو أن السموات السبع عامرهن غيري»** عامرهن يعني: بالطاعة والعبادة، فالعمارة عمارة الأرض، وعمارة السماء بطاعة الله، وإفسادها بالمعاصي، قال - جل وعلا - ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فإصلاحها ببعثة الرسل، واتباعهم، وطاعتهم. وإفسادها بمخالفة الرسل والمعاصي.

والمعاصي تفسد كل شيء، تفسد الأرض، وتفسد الأخلاق، وتفسد القلوب، وتفسد الأرزاق، وتفسد المجتمعات، والنتيجة أنها تكون سبباً للعذاب اللازم والملازم نسأل الله العافية.

والذنوب تختلف في الصغير والكبير، والكفر والشرك، ولـٰكن بالنهاية هي كلها من الإفساد، فالعامر هو العابد الطاهر.

ولا يقال: إن قول الله - جل وعلا - **«غيري»** أنه يدخل في العابد، نقول: ولـٰكن هـٰذا يدل علىٰ أن الله في السماء، ولهـٰذا لم يأتِ في الأرض. وعمارتهُ - جل وعلا - للسماء بإيجادها وإمساكها أن تزول.

وقوله: «أن السموات السبع وعامرهن غيري» يعني: لو أن كل السموات، واستثنىٰ نفسه؛ لأنه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء - جل وعلا -، وهو في السماء؛ يعني: في العلو فوق، وليس معنىٰ ذٰلك أنه داخل في السماء تعالىٰ الله وتقدس، فالسماء لا تظله، ولا تقله، بل هو أكبر وأعظم، وهو

والأرضين السبع في كِفَّة، ولا إلـه الله في كِفَّة، مالت بهن لا إلـه الله» رواه ابن حبان، والحاكم وصححه(١).

الذي يمسك السماء أن تزول، وكذٰلك يمسك العرش، خلق العرش واستوىٰ عليه، لا لحاجة له، فهو الغني بذاته عن كل شيء، ولٰكن لحكمة.

وهو كذٰلك يقبض السموات كلها بيده فتكون بكفه ـ جل وعلا ـ صغيرة، وله المثل الأعلىٰ كما جاء قول الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]، فالمشرك ما عرف قدر الله، وهـٰذا الشيء من عظمته ـ تعالىٰ وتقدس ـ؛ لأنه يتعرف إلىٰ عباده بأوصافه.

قوله: «والأرضين السبع» هـٰذا يدل علىٰ أن الأرضين سبع، فهو نصّ بأنها سبع، وبعض العلماء يقول: سبعة أقاليم أو ما نسميها قارات، ويطلقون عليها الأرض، وهـٰذا غير صحيح؛ لأنه جاء في الحديث **«من ظلم قِيدَ شبر؛ طُوِّقَه من سبع أرضين»**(٢)، وقال ـ جل وعلا ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ يعني: السبع مثلهن بالتمثيل، فيدل علىٰ أنهن طبقات، ولٰكنها طبقات بلا فتوق؛ يعني: ليس بينها مسافة، وأسفلها هو مستقر الشياطين ومستقر الكفرة، وهو سجين نسأل الله العافية.

ولهـٰذا أظهر الله البراكين والأشياء التي يسميها الناس الآن «كوارث طبيعية»!!، هي أوامر من الله ـ جل وعلا ـ يخوف بها عباده حتىٰ يرعووا، فلا يجوز أن يتساهل الإنسان في مثل هـٰذا أن يأخذه الله ـ جل وعلا ـ.

فالمقصود أن الأرض سبع طبقات كالسماء، غير أن الطبقات هذه واحدةٌ تحت الأخرىٰ، وليس بينها فتوق أي: مسافات.

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٩٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

أما ما ذكره القرطبي في تفسير هٰذه الآية آخر سورة الطلاق عن ابن عباس ـ وإن كان السند إلىٰ ابن عباس صحيحاً ـ أن في كل طبقة من الأرض مثل ما علىٰ هٰذه الأرض، وأن كل طبقة فيها أنبياء ورسل[١]، فهٰذا ليس صحيحاً بل هٰذا مأخوذ عن الزنادقة من اليهود والنصارىٰ الذين يفسدون عقائد المسلمين، لأن ابن عباس رضي الله عنه قد يذكر شيئاً عن بني إسرائيل، وقد حذر من الرواية عنهم، فقال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابُكم الذي أُنزل على نبيه ﷺ أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤنه لم يَشِب، والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[٢].

وفي «صحيح البخاري»[٣] عن معاوية رضي الله عنه يقول كعب الأحبار: «إن من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب» نبلو يعني: أنه يظهر من أخباره كذب.

فالمقصود أنها سبع أرضين كما أخبر الله ـ جل وعلا ـ علىٰ ظاهره، سبع طبقات، واحدة تحت الأخرىٰ.

ثم لو أن المخلوقات كلها ـ الأرض والسماء ومن فيهن ـ جعلت في كفة الميزان، ولا إلٰه إلا الله ـ لمن يقولها صادقاً مخلصاً موقناً ـ في كفة؛ مالت بهن لا إلٰه إلا الله، هٰذا مجرد تمثيل.

---

(١) قال ابن عباس: «سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى» أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٨١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩٩) وانظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢٦٠)، وأورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١/ ٢٧)، وقال البيهقي: «إسناد هٰذا عن ابن عباس رضي الله عنهما صحيح، وهو شاذ بمرة، لا أعلم لأبي الضحى عليه دليلاً، والله أعلم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٥).

(٣) ذكره البخاري تعلبقاً ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء.

....

فهو مثال لعظمة لا إلٰه إلا الله، وأنها لا يوازيها شيء، أما إذا كان حقيقة فمعنىٰ ذٰلك أن الأعراض والمعاني تجسم، فـ«لا إلٰه إلا الله» تُشاهَد وتُرىٰ وتحس، فإذاً المخلوقات ـ كما يقول المتكلمون ـ كلها الموجودات تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: جوهر: وهو الذي يقوم بنفسه، وتلمسه، وتشاهده، كالحجر، والآدمي، والبهيمة، وغير ذٰلك يسمىٰ جوهراً.

القسم الثاني: العَرَض: وهو الذي لا يقوم بنفسه، ولا بد أن يقوم بغيره، مثل القول، الكلام، المرض، العلم، الجهل، فلا بد أن تقوم بغيرها، فالأعمال كلها أعراض.

ولٰكن نقول: إن أمور الآخرة علىٰ غير ما عهدنا، ولهٰذا جاء ما يدل علىٰ أن الأعمال نفسها توزن ـ ولاشك في هٰذا ـ، وأن الأعمال سوف تُرىٰ وتشاهد كما قال ـ جل وعلا ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة]، وهٰذا دليل علىٰ أن الأعمال توزن، وأن الميزان حقٌّ، كما قال ـ جل وعلا ـ، ودلائل هٰذا كثيرة. ومن ذٰلك حديث البطاقة الذي في الترمذي: **«إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كلّ سجلٍ مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هٰذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ. فيقول: أفلك عذر فيقول: لا يا ربّ. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا ربّ ما هٰذه البطاقة مع هٰذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم قال: فتوضع السّجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السّجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

....

والسجلات يعني: السيئات، والبطاقة المكتوب فيها «لا إلـٰه إلا الله»، فهـٰذا يدل علىٰ أن أعمالنا تجعل مشاهدة.

ولـٰكن قد يقول قائل: هـٰذا دليل علىٰ أنها الصحف؛ يعني: صحف الأعمال هي التي توزن، ولـٰكن جاء ما هو أصرح من هـٰذا، مثل قوله: **«أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن»**، والخلق الحسن لا يشاهد، وجاء ما يدل علىٰ أنه الرجل نفسه يوزن، يقول الرسول ﷺ: **«يؤتىٰ بالرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة»**(١) ولما ضحكوا من ابن مسعود من دقة ساقيه؛ قال ﷺ: **«إنهما أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد»**(٢)، فدل عليه، فالصحيح أنها يوم القيامة كلها توزن.

فالمقصود: أن هـٰذا يدل علىٰ ثبوت الميزان، والميزان واسع جداً، ولهـٰذا جاء أنه إذا وضع الميزان، تقول الملائكة: يا رب ما الذي يوضع في هـٰذا الميزان، فيقول ـ جل وعلا ـ: **«يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة يا رب لمن يزن هـٰذا؟ فيقول الله تعالى لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»**(٣)، لكبر الميزان وعِظَمِهِ، وكل ذٰلك أنكره المعتزلة ونحوهم من أهل البدع، وقالو: إن الميزان عبارة عن العدل فقط، فلا يوجد وزن، وليس هـٰذا غريباً علىٰ هـٰؤلاء الذين يسمون أنفسهم «عقلانيين»؛ لأنهم يحكّمون العقل، فالعقول قاصرة، فلا تصل إلىٰ نتيجة في الأمور الغيبية، والأمور التي لا تدركها العقول.

والمؤلف في مسائله يقول: في هـٰذا أن الأنبياء يحتاجون إلىٰ التنبيه علىٰ فضل لا إلـٰه إلا الله، أخذاً من قول الله لموسىٰ لو أن كذا وكذا... إلخ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦٠)، ومسلم (٤٩٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه أحمد (٨٧٦) من حديث علي ﷺ.
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٨٩١) من حديث سلمان ﷺ.

وللترمذي ـ وحسنه ـ عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً؛ لأتَيْتُك بِقُرابها مغفرة»**(١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: سعة فضل الله. **الثانية:** كثرة ثواب التوحيد عند الله.

وبعض الناس يقول: إن هٰذا لا يجوز، كأنه يتصور أن الأنبياء يعرفون كل شيء، وهٰذا غير صحيح، فالأنبياء لا يعرفون إلا ما عرفهم الله ـ جل وعلا ـ، هو علمهم.

وقوله: «في الترمذي وحسنه، عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالىٰ» هٰذا الحديث القدسي الذي يضاف إلىٰ الله قولاً له، ولٰكنه ليس مثل القرآن الذي لا يمسه إلا المطهرون، ويُتحدىٰ بلفظه، ويتعبد بتلاوته، وتصح الصلاة بقراءته، وإنما لفظه ومعناه من الله غير القرآن، رواه النبي ﷺ عن ربه.

والمؤلف اختصر الحديث، وجاء بمحل الشاهد فقط **«يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً: لأتيتك بقرابها مغفرة»**، وقرابها؛ أي: ما يقرب من ملئها، أي: يتصور الإنسان أنه يأتي بخطايا ملئ الأرض، أو قريباً من ملئها، هٰذا شيء كبير، وهٰذا آخر ما يمكن تصوره، لو قُدّر أن هٰذا يقع، فإذا أتيت بهٰذا المقدار، ثم عبدت ربك، وأخلصت لله ولقيته مخلصاً؛ لمُحِيَتْ هٰذه كلها وجاءك الله ـ جل وعلا ـ بقراب الأرض مغفرة، فهٰذا دليل واضح علىٰ فضل التوحيد، ويدل هٰذا علىٰ أن الإنسان يختم له بآخر الأعمال.

فإذا عمل الخطايا الكثيرة، ثم آخر حياته شهد أن لا إلٰه إلا الله مُحِيَتْ خطاياه كلُها، وغفر الله ـ جل وعلا ـ له، فهو دليل علىٰ فضل التوحيد، وأنه يكفر الذنوب.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣١٥)، والترمذي (٣٥٤٠).

الثالثة: تكفيره مع ذٰلك للذنوب. **الرابعة**: تفسير الآية التي في سورة الأنعام. **الخامسة**: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة. **السادسة**: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنىٰ قول: «لا إلٰه إلا الله»، وتبين لك خطأ المغرورين. **السابعة**: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان. **الثامنة**: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه علىٰ فضل لا إلٰه إلا الله. **التاسعة**: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه. **العاشرة**: النص علىٰ أن الأرضين سبع كالسموات. **الحادية عشرة**: أن لهن عماراً. **الثانية عشرة**: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: «**فإن الله حرم علىٰ** النار من قال: لا إلٰه إلا الله،

قوله: «**السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنىٰ قول: «لا إلـه إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين**» يعني: أن حديث عتبان جاء مقيداً «يبتغي في ذٰلك وجه الله» فدل علىٰ الإخلاص، وإذا كان مقيداً، فالمقيد يقضي علىٰ المطلق، هٰذا المقصود.

قوله: «**الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية**» هي مأخوذة من **قوله**: «**عامرهن غيري**»، والمقصود إثبات علو الله، واستوائه علىٰ عرشه.

والأشعرية ينكرون هٰذا، ويقولون: إن الله في كل مكان ـ تعالىٰ الله وتقدس عن قولهم ـ، ويقولون «استوىٰ» أي: استولىٰ؛ يعني: قهر وملك، هٰذا تأويل باطل خلاف النص، ولهٰذا قال: خلافاً للأشعرية، وقول الأشعرية الذين ينتسبون للأشعري، فيدل علىٰ أن الاشعري ما يقول هٰذا القول، وإنما يقوله أتباعه.

قوله: «**الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في**

يبتغي بذلك وجه الله» «أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان». **الرابعة عشرة**: تأمل الجمع بين كون عيسىٰ ومحمد عبدي الله ورسوليه.

حديث عتبان: «**فإن الله حرم علىٰ النار من قال لا إلٰه إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**» أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان، أي المراد اجتناب الشرك وليس مجرد قول: لا إلٰه إلا الله؛ يعني: مع قوله: لا إله إلا الله، والإخلاص لا بد أن يجتنب الشرك، وإلا يكون متناقضاً لا يمكن يجتمع شرك وقول لا إلٰه إلا الله، فهٰذا ممتنع، فإما أن يكون الإنسان ما عرف المعنىٰ فوقع في التناقض أو أنه يتلاعب.

قوله: «الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسىٰ ومحمد عبدي الله ورسوليه» يقصد بهٰذا أن الإفراط والتفريط وقع في هذين النبيين الكريمين - عيسىٰ عليه السلام ومحمد - بعضُ الناس الجفاة، وبعضهم أفرط في تعظيمه، ورفعه إلىٰ مقام الألوهية، ولا سيما الذين يمدحون، والمدح غالباً يكون بالكذب، وبعض الناس من الشعراء صار حظهم من اتباع الرسول ﷺ مجرد المدح مع الغلو والكذب، كما يقول صاحب البردة:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العَمِمِ
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلةَ القَدمِ
وإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك عِلْمَ اللوح والقلم

وهٰذا غلو لا يجوز.

إذا كان من ضمن جود الرسول ﷺ الدنيا والآخرة، ومن علوم الرسول علم اللوح الذي كتب فيه كل شيء، والقلم الذي خط فيه كل شيء فماذا بقي لله تعالىٰ؟!

هٰذا غلو وتجاوز، والرسول نهىٰ عن هٰذا، لهٰذا قال: من شهد أن محمداً عبده ورسوله أكرمه الله - جل وعلا - بالرسالة، فيجب أن نصدقه، ونتّبعه، ونعظّمه، ونقدّره، ونحبّه، ولٰكن حب متابعته عنوان محبته، فتعظم

....

أمره، وتتبعه، وتدعو إلىٰ ما دعا إليه. أما مجرد المدح والغلو في ذٰلك، وأنت مخالف له؛ لا يجوز.

وقد حذر الرسول ﷺ مما هو دون هٰذا بكثير، فقالو له: أنت سيدنا، وابن سيدنا قال: **«قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»**(١).

ومعنى: **«لا يستجرينكم الشيطان»** أي: لا يتخذكم مطايا يركبكم ويجريكم، أنا عبد الله ورسوله، ونهىٰ عن المدح والتمادح، وهو محرم، وإن كان بعض الناس يتساهل فيه، فالرسول ﷺ قال: **«احثوا في وجوه المداحين التراب»**(٢)، ولما سمع رجلاً يمدح آخر؛ قال: **«ويلك! قطعتَ عنق صاحبك، من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة؛ فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداًذٰلك منه»**(٣).

أما إذا كان المدح في الوجه؛ فهو أشد؛ لأن الإنسان ضعيف، وكون الإنسان يحب أن يرتفع علىٰ الناس، هٰذا أمر طبيعي في نفس الإنسان، حتىٰ وإن كان كذباً، يقول لعله صحيح، وهو يعرف من نفسه أنه كذب، ثم ما يترتب علىٰ هٰذا من أمور سيئة، فالإنسان قد يألف المدح، ولا سيما إذا كان في يده أمر من أمور المسلمين تجده إذا لم تمدحه؛ فإنه لن يعطيك الأمر الذي ينبغي، ويتطلع إلىٰ من يمدحه ويثني عليه. فيكون فيه إفساد، **هٰذا شيء**.

الشيء الثاني: أن نفس الإنسان ـ الممدوح ـ يغتر، ويميل إلىٰ هٰذه الأشياء، ويحبها؛ لأن هٰذا من الشهوة الخفية.

فالمقصود التنبيه علىٰ مثل هٰذه الأشياء؛ لأنها قد تكثر، فيجب علىٰ الإنسان أن يتقي ربه في نفسه، وفي أخيه، فلا يغرّ الآخر؛ لأن الإنسان قد

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧) من حديث المقداد بن الأسود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٨) من حديث أبي بكرة ﷺ.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسىٰ بكونه كلمة الله. **السادسة عشرة**: معرفة كونه روحاً منه. **السابعة عشرة**: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار. **الثامنة عشرة**: معرفة قوله: «**علىٰ ما كان من العمل**». **التاسعة عشرة**: معرفة أن الميزان له كفتان. **العشرون**: معرفة ذكر الوجه.

يعتريه الشيطان، ويسول له هٰذا الشيء، وطرق الشيطان كثيرة، وهو فقيه في إضلال الناس، فعنده معرفة، وعنده طرق خفية.

قوله: «**العشرون: معرفة ذكر الوجه**» فيؤخذ من قوله ﷺ: «**يبتغي بذٰلك وجه الله**»، أن الله موصوف بأنّ له وجهاً ـ تعالىٰ وتقدس ـ، فهٰذا مما يوجب الإيمان به، والله أعلم.

باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل].

يقول رحمه الله تعالىٰ: «**باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**» أي: ولا عذاب، تحقيق التوحيد هو تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك، ومن الذنوب والبدع، والتوحيد هو الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ، ولٰكن الإيمان بالله تعالىٰ لا بد أن يكون توحيداً، فالتوحيد يكون أخص.

والتوحيد: أن يكون العمل لله وحده، ويكون أيضاً العمل بسنة المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه.

وتحقيقه: أن يكون القلب مملوءً بمحبة الله ـ جل وعلا ـ، وبالاتجاه إليه خاضعاً ذالاً، وجوارحه تابعةٌ لذٰلك، ولا يكون عنده من البدع ومن شوائب الشرك، ومن الذنوب التي تقدح بالتوحيد، وإن كان الإنسان لا يسلم من الذنوب أصلاً، ولٰكن يختم له بهٰذا، وتكون آخر حياته هٰكذا، يوفقه الله ـ جل وعلا ـ بتوبة من الذنوب والإخلاص لله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا مقام عالٍ، ويصل إليه من شاء الله ـ جل وعلا ـ ومن يسّر له ـ جل وعلا ـ وهيأ له أسباب ذٰلك من عباده، كثيراً من عباده يصلون إلىٰ هٰذا المقام العالي الشريف.

ولما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوب التوحيد، وأنه يجب علىٰ كل معين؛ ذكر فضله، وأنه يكفر الذنوب، مع فضله ذكر في هٰذا الباب أنه من حققه دخل الجنة بغير حساب، ومعنىٰ هٰذا أن هٰذا الباب تابعٌ للباب السابق الذي قبله، ومكملٌ له.

استدل بقوله ـ جل وعلا ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

....

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، ذكر الله ـ جل وعلا ـ لإبراهيم في هٰذه الآية أربع صفات:

الصفة الأولىٰ: أنه أمة، والأمة جاء تفسيره عن السلف الصحابة ومن بعدهم: أنه كان وحده علىٰ الهدىٰ وعلىٰ التوحيد، الثاني: أنه قدوة يقتدىٰ به، وقد أمر الله ـ جلا وعلا ـ بذٰلك، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال جلا وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فهو الإمام؛ إمام الحنفاء في هٰذا، وهٰذا يستلزم الأول ويدخل فيه هٰذه واحدة.

الصفة الثانية: أنه قانتٌ لله، والقنوت هو دوام الطاعة؛ يعني: دائم الطاعة لله ـ جل وعلا ـ.

الصفة الثالثة: أن قنوته لله دل علىٰ أنه مخلص، وأن عمله لله فقط.

الصفة الرابعة: أنه لم يكن من المشركين؛ يعني: مجانباً لهم ومبتعداً عنهم، وكذٰلك مزايلاً لهم بالبدن، وبالفكر، وبالعمل، وبالفعل، ولهٰذا عادىٰ قومه، وعادىٰ أباه في هٰذا المجال، وبهٰذا يتبين أن دعوة اليهود والنصارىٰ كذب؛ لأن كل أمة منهم تدعي أنهم أتباع لإبراهيم عليه السلام، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

فوجه الدلالة من الآية: أن تحقيق التوحيد بهٰذه الأمور بأن يكون الإنسان متبعاً للحق، فإما أن يكون قدوة يُقتدىٰ به، أو هو يقتدي بأئمة الهدىٰ، وكلا الأمرين متلازمان.

الثاني: أن يكون دائم الطاعة لله ـ جل وعلا ـ وأن تكون طاعته لله ـ جل وعلا ـ، وأن يكون مزاولاً للمشركين، ليس معهم، لا في المودة، ولا في الاجتماع، ولا في البلد، ولا في غير ذٰلك، فإذا حصلت هٰذه الأمور؛ فقد حقق الإنسان التوحيد، فيكون سابقاً إلىٰ الجنة دون حساب ولا عذاب، وهٰذا من أكبر المطالب، وأعظم الفضائل، وأكبر ما يتنافس فيه المتنافسون.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون].

ثم ذكر الآية الأخرىٰ، وفيها وصف سادات المؤمنين بأنهم لم يشركوا بالله ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾، فهٰذا مدح وثناء؛ لأنهم لا يشركون، فيدخل في هٰذا الشرك الأصغر والخفي والكبير من باب أولىٰ، فنفىٰ عنهم الشرك مطلقاً، فمن كان انتفىٰ عنه الشرك مطلقاً، خفيُّه وجليُّه، وكبيره وصغيره، فهو ممن يسبق إلىٰ الجنة بلا حساب ولا عذاب.

ولٰكن قد يقول قائل مثلاً: الحمد لله كلنا لا نشرك بالله، وليس الأمر كذٰلك فقد يقع بالشرك الأكبر الذي هو شرك جلي، ولٰكن مما يقدح بالتوحيد؛ محبة الباطل أو إيثاره علىٰ الحق وهٰذا نوعٌ من الشرك الخفي، وقد لا يَسلم الإنسان من ذٰلك، بل هو منتشر بالناس، بل عدّ البخل بالحق حباً للمال نوعاً من الشرك.

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، والخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[(١)].

فسمىٰ الإنسان عبداً للدينار، وعبداً للدرهم، وعبداً للخميلة والخميصة، كيف يكون الإنسان عبداً لقطعة ذهب، أو قطعة فضة، أو قطعة قماش يلبسها أو يدوسها بقدميه؟

ليس معناه أنه يسجد، أو يدعو له، أو يصلي له، ولٰكن معناه أنه يعمل لأجله، فإذا كان عمله لأجل ذٰلك، وألهته الدنيا وشَغَلَتْه عن عبادة ربه ـ جل وعلا ـ، فهو أخذ من قلبه، أو شعبة من عبادته التي يجب أن تكون لله ـ جل وعلا ـ، فلا يسلم أن يكون توحيده سالماً، بل فيه قدح، فلا يكون من الذين يسبقون إلىٰ الجنة، وإن كان هٰذا لا يجعله خالداً في النار، ولٰكن يجعله معرضاً للعذاب، إما في الدنيا، أو في القبر، وإما في الموقف، وقد لا يكفي هٰذا، فيعذب بالنار، ثم يخرج منها إلىٰ الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عن حُصين بن عبد الرحمٰن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: ....

ثم ذكر الحديث قال: «**عن حصين بن عبد الرحمٰن**» هو تلميذ سعيد بن جبير، وسعيد بن جبير تلميذ لعبد الله بن عباس وغيره من الصحابة، وهو الذي قتله الحجاج ظلماً ـ كما هو معلوم ـ، وكان مجاب الدعوة، فيقال: إنه دعا علىٰ الحجاج، فلم يطل بعده، قال: «اللهم لا تسلطه علىٰ أحد من أمة محمد بعدي»، فيقولون: إنه آخر من قتله، والله أعلم.

وجاء في ترجمته أنه كان له ديك يوقظه للصلاة ـ صلاة الليل ـ وفي ليلة من الليالي لم يؤذن الديك، حتىٰ تبين الصباح، فلما نظر قال: ما له قطع الله عنقه! فانقطعت عنقه! فقالت والدته: يا بني لا تدعُ علىٰ مسلم. قد يقال: لماذا لم يدعُ علىٰ الحجاج؟ فالجواب: أن إجابة الدعاء بمشيئة الله، والأمر بيد الله ـ جل وعلا ـ المقصود أنه كان من العلماء، وكان من سادة الأولياء، فكان جالساً بالدرس، فسأل طلابه «**أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة**»، والبارحة هي الليلة التي مضت، فيظهر أن هـٰذا في النهار كما هو واضح.

ومقصوده بهـٰذا أن يبين لهم الحكمة من انقضاض الكواكب؛ يعني: الشهب التي تنزل قد تشاهد، فأراد أن يبين لهم الحكمة من ذٰلك، وأنها رجوم للشياطين أعدها الله ـ جل وعلا ـ لرجمهم؛ لأنهم يركب بعضهم بعضاً حتىٰ يصلوا إلىٰ السحاب، أو قرب السحاب. وفي السحاب أو قربه تكون الملائكة يتحدثون في الأمر الذي أُمِروا به، فيخطف الشيطان الكلمة من الملك، ويلقيها علىٰ من تحته، ويلقيها من تحته إلىٰ أن تصل إلىٰ مَن في الأرض، فيذهب بها مسرعاً إلىٰ الكاهن ـ وليِّهِ من الإنس الذي يتكهن ـ فيُقرُّها في أذنه، ويزيد معها مئة كذبة، فيحدث الناس، فيصدقوه في تلك الكلمة التي خطفت من الملائكة، قال: ألم يقل كذا وكذا في يوم كذا، وهـٰذا هو مراد الشياطين،

أما إني لم أكن في صلاة، ولٰكني لُدِغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيتُ قال: فما حملك علىٰ ذٰلك؟ قلت: حديث حدَّثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحصيب أنه قال: لا رُقية إلا من عَين أو حُمة. ....

كيف يرتكبون الأمور الخطرة لأجل أن يضلوا الناس فالله ـ جل وعلا ـ يرسل عليهم الشهب، فقد تقتله وقد تخبله ـ أي: تذهب عقله ـ، وقد يَسْلم، وكل ذٰلك بأمر الله ـ جل وعلا ـ كما بين ذٰلك رسول الله ﷺ، فأراد سعيد بن جبير أن يبين لهم هٰذا الشيء.

ولٰكن حدث شيء آخر لما قال حصين بن عبد الرحمٰن: «أنا» فخاف حصين أن يظن السامعون أنه قام يتهجد يقرأ، أو يصلي، أو يتعبد، فنفىٰ هٰذا الظن. وقال: «**أمَا إني لم أكن في صلاة**» يعني: لا تظنوا أنني لما رأيته كنت قائماً أتعبد، وهٰذا يدلك علىٰ حرص السلف علىٰ الإخلاص، وأنهم بعيدون عن المدح فيما ليس فيهم، بخلاف الذي يعرّض أنه فعل وفعل، وهو لم يفعل، هٰذا مناقض لحالهم.

قال: «**ولٰكني لدغت**» يعني: أجبرت علىٰ السهر حتىٰ رأيت الكوكب.

فلما قال لدغت سأله الشيخ سعيد: «**ما صنعت، قال: ارتقيت**» وارتقيت يعني: طلبت من أحدهم أن يَرْقِيني. والرقية: هي القراءة بالتفل الخفيف علىٰ المريض كما هو معروف معلوم.

فقال له سعيد: «**وما حملك علىٰ ذلك؟**»، وهٰذا دليل علىٰ أن الإنسان لا يفعل شيئاً إلا بدليل، هٰكذا كانوا، فأخبره أنّ له دليلاً اعتمد عليه.

قال: «**حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قال: حدثنا عن بريدة أنه قال: لا رقية إلا من عَيْن أو حُمَة**» العين هي عين الإنسان العائن الحاسد الذي يصيب غيره بعينه. والحمة هي ذات السموم، مثل العقرب، والحية، وما أشبههما.

قال: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ....

وقوله: «لا رقية» يعني: أن الرقية من هذين المرضين أنفع العلاج، وليس معنىٰ ذٰلك أن الرقية لا تنفع في الأمراض الأخرىٰ، ولٰكنها في هذين الأمرين نافعة جداً، وهو أمر مجرب ومعروف وظاهر جداً، حتىٰ إن الرقية علىٰ العقرب تزول بالحال إذا وافقت الصدق والإخلاص وكذٰلك الحية.

والإنسان رقيته متعلقة بالله ـ جل وعلا ـ، كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي في «الصحيح»، قوله: ذهبنا في سرية أرسلنا الرسول ﷺ، فاستضفنا حياً من العرب، فلم يضيفونا، فلدغ سيدهم، فسعوا له بكل ممكن، فلم يُجْدِ، فجاؤوا إلينا، وقالوا: هل فيكم راقٍ، فقلت: نعم، أنا راقٍ، ولٰكن لن أرقيه إلا بِجُعْلٍ؛ لأنكم لم تضيفونا، يقول: فاتفقنا علىٰ قطيع من الضأن. يقول: فأقبلت أقرأ الفاتحة، وأنفث عليه، فكأنما نشط من عقال. نشط من عقال أي: كأن رجله كانت محزومة بحبل، فَحُلَّ الحبل، فقام يمشي، ليس فيه أي بأس، قلت لأصحابي: لا تفعلوا شيئاً حتىٰ نأتي رسول الله ﷺ، وذكرت له ذٰلك، قال: **«بأي شيء رَقَيْتَه؟»** فقلت: بالفاتحة. قال: **«وما يدريك أنها رقية؟!»**[1] ثم أمرهم أن يقتسموه. فهٰذه الواقعة شفي في الحال، وكان اللدغ لدغ حية، وهٰذا كثيراً ما يقع مثله.

وقوله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة» يعني: أنها من هذين الأمرين نافعة جداً، وأنفع من غيرهما، هٰذا كما تقول: لا عالم إلا فلان، وليس معنىٰ ذٰلك أنك تنفي العلم من غيره ولٰكنك تقول: هو الذي تحلىٰ بالعلم. فقال سعيد ـ لما ذكر له الدليل ـ: **«قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع»** يعني: الذي عمل بما علم قد أحسن.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

ولـٰكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ علي الأمم

قوله: «ولـكن» هـٰذا استدراك يدل علىٰ أن هناك شيئاً أفضل مما صنعه.

قوله: «ولـكن حدثنا عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ أنه: «قال عرضت علي الأمم» عرضها كأنه تمثيل لمجيئها يوم القيامة حينما تأتي للمحاسبة، وهـٰذا قد يكون حقيقة أي: شاهدهم كما يأتون، وقد يكون تمثيلاً، كما مثّل له الجنة والنار في مسجده، وقد تكون مثل ما زويت له الأرض كما في «صحيح مسلم»: **«زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها»**[(١)]، قد يكون هـٰذا أو هـٰذا، وكلاهما في قدرة الله، وليس غريباً.

وقد جاء في قصة الإسراء: أنه لما سأله الكفار عن وصف بيت المقدس؛ ما كان يعرفه وأتاه بليل، فرفع له، وصار ينظر إليه، ويصفه لهم[(٢)]، فقدرة الله لا تكون واقفة علىٰ حد من الحدود، فالله علىٰ كل شيء قدير تعالىٰ وتقدس.

وفي حديث صلاة الكسوف عرضت عليه الجنة والنار، يقول: دون الحائط جدار المسجد القبلي، وكان يتقدم ثم تأخر وتقهقر، فأخبرهم، قال: **«لما رأيتموني تقدمت هممت أن آخذ قطفاً من الجنة، ولو أخذته؛ لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ثم بدا لي أن لا أفعل»**[(٣)]؛ لأن الجنة غيب كلفنا بالإيمان بها بدون مشاهدة، وإذا شاهدنا شيئاً منها؛ صار فيه شيء من الانكشاف وإظهاره حقيقة، وهـٰذا يستوي فيه الناس كلهم؛ والذين يؤمنون بالغيب يتميزون عن غيرهم.

وكذٰلك في النار لما تأخر يقول: **«رأيتها حتىٰ خفت أن تأتي علينا، فقلت: يا رب، وأنا فيهم. ورأيت امرأة في النار في هرة حبستها، لم تُطعمها،**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٤٢)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (١١٣٦)، ومسلم (١٥٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد ....

ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، رأيتها تخمش وجهها في النار».

ويقول: «**ورأيت عمرو بن لحُي الخزاعي يجر قُصْبَه**» ومعنىٰ هـٰذا أنه رأىٰ النار حقيقة، والجنة حقيقة، رآها في هـٰذا المكان، وهـٰذه الرؤية يجوز أن تكون حقيقة أنه شاهدهم كما يأتون تماماً، وهـٰذا هو الظاهر، ويجوز أن يكون تمثيل مثلوا له، وكلاهما حق.

قوله: «**فرأيت النبي ومعه الرهط**» الرهط في اللغة ثلاثة إلىٰ تسعة، أما العشرة فليسوا رهطاً، العشرة جماعة، أو أمة.

ومعنىٰ ذٰلك أن النبي ﷺ يأتي مع من استجاب له، وقد يكون قليلاً، وهـٰذا عجيب كيف النبي يرسل إلىٰ أمة، فيأتي وليس معه إلا ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة، ولـٰكن الأعجب من هـٰذا ما بعده.

قال: «**فرأيت النبي وليس معه إلا رجل أو رجلان فقط، ورأيت النبي وليس معه أحد**» يعني: يأتي وحده، وهـٰذا أعجب ما قد قص الله ـ جل وعلا ـ علينا، قصة لوط عليه السلام فلم يؤمن من قومه ولا رجل واحد، حتىٰ زوجته كفرت به، وخرج من البلاد التي بعث فيها هو وبناته فقط، والبقية كلهم هالكون.

وهـٰذا يدلك علىٰ أن الحق ثقيل علىٰ النفوس، وأن أكثر الناس لا يريد الحق، وإنما يتبع الباطل والشهوات وغيرها، فلهـٰذا يقال: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك، ولـٰكن العجب ممن نجا كيف نجا»(١).

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الجنة؛ أمر جبريل أن يذهب وينظر، فلما نظر؛ قال: ماذا تقول؟ قال: ما أظن أحداً يسمع بها إلا وسيدخلها، فحفت بالمكاره. وقال: اذهب فانظر، فذهب فنظر، فقال: أخاف أن لا يدخلها أحد**»، وبالعكس النار «**لما نظر فيها قال: ما أظن أحداً يسمع بها**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٤٢٢).

إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هٰذا موسىٰ وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هٰذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناس في أولٰئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: ....

ويدخلها، فحفت بالشهوات. فقيل له: اذهب فانظر، فقال أخشىٰ أن لا يسلم من الدخول فيها أحد»(١)، وليس معنىٰ «حُفَت بالشهوات» أنها جعلت بجوارها ومحيطة بها، بل المعنىٰ أنها طريقها، فالشهوات طريق النار، وسبيلها. وكذٰلك المكاره طريق الجنة.

قوله: «**ثم رفع لي سواد عظيم**» رفع معناه أني شاهدت سواداً من بعيد، وتيقنت أنهم رجال، ولٰكن لم أميز صفاتهم؛ لبعدهم، فيرىٰ أشخاصهم فقط، ولا يميز وجوههم؛ لأنه يعرف أمته يأتون غُرّاً محجلين، ولهٰذا ظنّ أنهم أمته، وهم كثيرون.

قوله: «**فقيل لي: هٰذا موسىٰ وقومه**» وهٰذا يدل علىٰ فضل موسىٰ، وفضل قومه، وأنه اتبعه أمة كثيرة.

قوله: «**ثم قيل لي: انظر إلىٰ الأفق، فنظرت فإذا وجوه الرجال قد سدت الأفق**»، الأفق هو الجانب الذي إذا نظرت إليه لا ترىٰ إلا السماء، والآفاق التي تنظر من يمين وشمال وأمام وخلف.

قوله: «**هٰذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب، ثم نهض ﷺ ودخل بيته، فصار الصحابة يخوضون في هٰؤلاء**»، هٰذا يدلنا علىٰ حرصهم، فهُم حريصون علىٰ الخير، وعلىٰ المسابقة في الخيرات، وأنّ كل واحد يريد أن يكون من هٰؤلاء السبعين.

صاروا يتباحثون فيما بينهم، وهٰذا دليل علىٰ جواز المباحثة في المسائل

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٤٨، ٨٢٤٩)، وأبو داود (٤١١٩)، والترمذي (٢٤٨٣)، والنسائي (٣٧٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**»، فقام عُكّاشة بن مِحْصَن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. ....

العلمية، وان كان عندك من إذا سألته بين لك؛ لأن الرسول ﷺ عندهم قريب، فباستطاعتهم أن يسألوه ويبين لهم.

قالوا: «**لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ**» وهٰذا له وجه ظاهر؛ لأن صحابة الرسول ﷺ هم أفضل الأمة، كما جاءت النصوص في هٰذا، بل هم أفضل الناس بعد الأنبياء، كما قال: «**بُعثت من خير قرون بني آدم**»(١)، والله - جل وعلا - يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهٰذا عام، ومِنْ أولِ مَنْ يدخل في هٰذا الخطاب الصحابة ﷺ، فاختصوا بتلقي الإيمان من الرسول ﷺ، ومصاحبته، والقتال معه، ولهٰذا أثنىٰ الله - جل وعلا - عليهم في آيات كثيرة، ذكر أنه رضي عنهم وإذا أخبر - جل وعلا - أنه رضي عن قوم؛ فهٰذا دليل علىٰ أنهم يبقون علىٰ الحق؛ لأن الله علام الغيوب - جل وعلا -.

قال: «**وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام**»؛ لأن الصحابة وقعوا في الشرك قبل أن يدخلوا في الإسلام، ولٰكن هٰذا لا يضرهم؛ لأن الإنسان لا يؤاخذ بما سبق، فالإسلام يجُبُّ ما قبله كما هو معلوم في الأحاديث.

وذكروا أشياء لم يذكرها الراوي، ثم خرج عليهم ﷺ، ويظهر أنه دخل لحاجة، ثم خرج إليهم، فسألهم عما يتحدثون به، فأخبروه فأخبرهم، قال: «**هم الذين لا يتطيرون**» يعني: لا يتشاءمون بفعل الطير وأصواته، وكذٰلك الحيوانات، وكذٰلك ما يسمعونه، والتطير نوع من الشرك كما يأتي إن شاء الله.

قوله: «**لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون وعلىٰ ربهم يتوكلون**»،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

أربع صفات، والأخيرة هي التي جمعت هٰذه الصفات؛ فهُمْ لتمام توكلهم علىٰ الله، لا يفعلون هٰذه الأشياء، وإن كانت هٰذه أسباباً مباحةً، ولٰكنهم تركوها لتمام التوكل.

أما كونهم لا يتطيرون فأمره واضح لا إشكال فيه؛ لأن الطيرة ـ كما عرفنا ـ من الشرك كما قال ﷺ: «**الطيرة شرك**»(١)، ولٰكن الاسترقاء رُقىٰ جاء في «صحيح مسلم» أن الرسول ﷺ سئل عن رُقىٰ كانت في الجاهلية هل أستعملها، فقال: «**اعرضوا علي رقاكم، فلا بأس بالرقية ما لم يكن فيها شرك**»(٢)، وقال ﷺ: «**من استطاع أن ينفع أخاه؛ فلينفعه**»(٣) إذاً الرقية مأذون بها شرعاً، فكيف تكون مانعة من السبق إلىٰ الجنة بلا حساب؟

الجواب: أن الرقية ليست هي المانعة، وإنما هو الاسترقاء؛ أي: الطلب من الناس أي: السؤال، والسؤال فيه افتقار إلىٰ غير الله ـ جل وعلا ـ، وفيه منة من المخلوق، فإذا منَّ عليك المخلوق بشيء؛ فربما يأخذ شعبة من قلبك، والقلب يجب أن يكون خالصاً لله ـ جل وعلا ـ، فهٰذه هي العلة، وقد جاء في «صحيح مسلم»(٤) «**لا يرقون ولا يسترقون**»، وقال الحفاظ مثل شيخ الإسلام ابن تيمية(٥) وغيره: كلمة: «لا يرقون» خطأ من الراوي؛ لأن الرسول ﷺ رَقَىٰ وَرُقِي(٦)، وهٰذا الراقي محسن، ولا يكون الإحسان مانعاً من السبق إلىٰ الجنة، فهو خطأ من الراوي، والصحيح الذي في البخاري «**لا يسترقون**»؛ يعني: لا يطلبون من الناس أن يرقوهم.

وقوله: «**لا يكتوون**» كذٰلك فيه إشكال، كيف يكون الكي ـ وهو علاج ـ مانعاً من السبق إلىٰ دخول الجنة بغير حساب؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤١١)، والترمذي (١٥٣٩)، وابن ماجه (٣٥٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) (٣٢٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١/٣٢٨).

(٦) فقد رقى النبي ﷺ الحسن والحسين رضي الله عنهما، ورقاه جبريل عليه السلام، وعائشة رضي الله عنها في مرض موته.

قال: «**أنت منهم**»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**سبقك بها عكاشة**»(١).

نقول: لأن الكي فيه أمور:

الأمر الأول: أن الألم فيه محقق بلا شك، والشفاء فيه مظنون، بل قد يكون الشفاء فيه بعيداً.

الأمر الثاني: أن الإقدام علىٰ الكي بالنار يدل علىٰ أن الإنسان متعلق بالدنيا ومحب لها، ومن كان بهٰذه الصفة؛ فإنه يدل علىٰ أن رغبته في الآخرة أقل ممن لم يكن كذٰلك، فلا يكون إذاً بهٰذه الصفة سابقاً إلىٰ دخول الجنة.

وقوله: «وعلىٰ ربهم يتوكلون» جاء بالمعمول مقدماً؛ لأن الأصل «يتوكلون علىٰ ربهم» هٰكذا أصل الكلام، وإذا قُدّم ما حقه التأخير؛ فلا بد أن يكون لغرض، وهو الاختصاص، وأنهم خصوا ربهم بالتوكل فقط، فلا يتوكلون علىٰ غيره، فهٰذه هي الخصلة التي جمعت لهم الفضائل.

عند ذٰلك قام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**»، وفي رواية: «**اللهم اجعله منهم**»، فقام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**سبقك بها عكاشة**»، فهٰذا من أحسن المعاريض، ومن حسن خلق النبي ﷺ ومعاملته لأصحابه المعاملة الطيبة، فلم يقل له: أنت ما تستحق، بل جاء بكلام مجمل ليس فيه قدح لشعوره، وليس فيه رد لدعوته، قال: «**سبقك بها عكاشة**»، ثم عند ذٰلك تراجع الناس، فلو مثلاً أجاب الثاني؛ لتتابع الناس، فَسَدَّ الباب بهٰذا الجواب السديد الجميل الحسن.

وعكاشة بن محصن من أفاضل الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وكان من الشجعان المعدودين المعروفين، وكان من أجمل الرجال وجهاً، وقتله طليحة الأسدي في قتال الردة شهيداً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠).

فيه مسائل:

الأولىٰ: معرفة مراتب الناس في التوحيد. **الثانية**: ما معنىٰ تحقيقه. **الثالثة**: ثناؤه - سبحانه - علىٰ إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين. **الرابعة**: ثناؤه علىٰ سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك. **الخامسة**: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد. **السادسة**: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل. **السابعة**: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذٰلك إلا بعمل. **الثامنة**: حرصهم علىٰ الخير. ....

فالشاهد هنا أن هـٰؤلاء سبقوا إلىٰ الجنة بهـٰذه الصفات التي وصفها رسول الله ﷺ أنهم لا يسألون الناس شيئاً، و«**لا يتطيرون**»، بل يعتمدون علىٰ ما قدره الله - جل وعلا -، ويرضون بحكمه وقدره، ويؤمنون بذٰلك، ويرون أن كل الأمور متعلقة بتدبير الله - جل وعلا - وتسخيره وإرادته، وهم كذٰلك يستغنون بالله عن خلقه، فلا يسألون إلا الله - جل وعلا -؛ لأن السؤال كما سبق فيه افتقارُ القلب إلىٰ غير الله - جل وعلا -، فصانوا قلوبهم أن يكون فيها شعبة لغير خالقهم وسيدهم - جل وعلا -.

وكذٰلك ما كان عندهم حرص علىٰ الدنيا والبقاء فيها؛ لأنهم يعلمون أن الآخرة خيرٌ وأفضل، وهم يحبون لقاء ربهم - جل وعلا -، ويفرحون به، ولهـٰذا كانوا يستبشرون إذا حدث للإنسان شهادة أو غيرها مما هو في مرضات الله، كل واحد يوده، وإذا قتل قال: «فزت ورب الكعبة»، ويهنئونه وكل واحد يود أن يكون مثله، كانت هـٰذه صفتهم.

ثم كذٰلك هم يتوكلون علىٰ الله - جل وعلا -، وليس معنىٰ التوكل ترك الأسباب، بل التوكل أن تفعل الأسباب الشرعية التي أمرت بها، والعلاج المأذون فيه خرج من ذٰلك الكي بالنار، وخرج من ذٰلك طلب الناس، وليس

التاسعة: فضيلة هٰذه الأمة بالكمية والكيفية.

من هٰذا - مثلاً - سؤال الطبيب في كذا وكذا، وكونه يصف لك.

وليس من هٰذا أيضاً إجراء العمليات لأن هٰذا مجرب، وهو مداواة واضحة وظاهرة وناجحة، فلا تدخل في الممنوع، والمقصود أن العلاج أفضل من تركه، هٰذا هو القول الصحيح للعلماء.

قوله: «**فضيلة هٰذه الأمة بالكمية والكيفية**» الكيفية هي الصفة، وهي أن منهم هٰذا العدد يدخل الجنة بلا حساب، وأما الكمية؛ فهم كثيرون، أكثر الأمم في الجنة، وقد جاء في الصحيح أنهم «**نصف أهل الجنة**»[1] وهٰذا فضل كبير، وخير كثير جداً؛ لأنهم آخر الأمم، سُبقوا بأمم كثيرة، والجنة لها ثمانية أبواب، كل باب مصراعاه مثل ما بين المدينة وصنعاء، يقول: وسيأتي عليها يوم ولها كظيظ» أي: في الدخول في الجنة من هٰذه الأبواب، «فالعدد كبير، الذين يدخلون الجنة، وهٰذا من فضل الله - جل وعلا - ومع ذٰلك كله ما تمتلئ الجنة، وبقي فيها فضل مساكن، وقد وعدها الله أن يملأها، فينشئ الله - جل وعلا - لها خلقاً ويسكنهم الجنة، وهٰذا فضل من الله.

والجنة تحتاج إلىٰ ثَمَن، وثمنها الإيمان والعمل الصالح، ومع ذٰلك نقول: إذا الإنسان قدر أن يدخل الجنة؛ فهو سعيد، وان كان عند الباب في أدنىٰ الجنة.

تأمل حديث الرجل الذي يحاوره ربه ﷻ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**آخر مَن يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أَدْنني من هذه الشجرة، فلأستظل بِظِلِّها، وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول:**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢١).

العاشرة: فضيلة أصحاب موسىٰ. **الحادية عشرة**: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام. **الثانية عشرة**: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها. **الثالثة عشرة**: قلة من استجاب للأنبياء. **الرابعة عشرة**: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده. **الخامسة عشرة**: ثمرة هٰذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة. **السادسة عشرة**: الرخصة في الرقية من العين والحمة. **السابعة عشرة**: عمق علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولٰكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني. **الثامنة عشرة**: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه. **التاسعة عشرة**: قوله: «**أنت منهم**» علم من أعلام النبوة. **العشرون**: فضيلة عكاشة. **الحادية والعشرون**: استعمال المعاريض. **الثانية والعشرون**: حسن خلقه ﷺ.

لا، يا رب، ويعاهده ألا يسأله غيرها. قال: وربه ﷻ يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها، وربه ﷻ يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا

....

ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين».

فضحك ابن مسعود ﷺ، فقال: ألا تسألوني مِمَّ أضحك؟ فقالوا: مِمَّ تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ فقال: مِنْ ضحك رب العالمين، حين قال: «**أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر**»[1].

هٰذا أدنىٰ أهل الجنة منزلة، فكيف بأعلاهم، هٰذا شيء لا يعلمه إلا الله - جل وعلا -.

(١) أخرجه مسلم (١٨٧).

باب

الخوف من الشرك

وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

الخوف من الشرك له مبررات، هي:

أولاً: أن الله أخبر أنه لا يغفر أن يشرك به، والمقصود بهٰذا من يموت مشركاً، فإنه غير مغفور له، فيجب أن يخاف الإنسان من هٰذا، وقد يكون للشرك أنواع متعددة، وتخفىٰ علىٰ الإنسان، فيجب أن يخاف، ومن خاف بحث عن الأمر واستقصىٰ وحرَص.

ثانياً: كثرة أنواعه وكثرة شعبه.

ثالثاً: كثرة من وقع فيه من الناس، يقع في عقولهم وأفكارهم، فكثير منهم ـ أيضاً ـ يزعم أنه ليس شركاً، وهو يعبد إما قبراً أو يطوف به، ويقدّم له القرابين أو ما أشبه ذٰلك، ويظن أنه بذٰلك يتقرب إلىٰ الله، فهٰذا أيضاً من موجبات الخوف، فكثرة الناس الذين يدخلون فيه أمر عجيب، إذا رأيتهم يذهبون إليها ويستمرون علىٰ هٰذا الشيء مع أنهم في بلاد المسلمين، وكتاب الله بينهم يقرؤونه، ويسمعونه، وكذٰلك أحاديث الرسول ﷺ وسيرته، هٰذا إذا خفي علىٰ هٰؤلاء أن هٰذا شرك، فهو أمر كبير جداً يجوز أن يخفىٰ علىٰ غيرهم، ولهٰذا ذكر ما قال إبراهيم ودعا به وهو خليل الرحمٰن، الذي عادىٰ أباه وقومه علىٰ التوحيد، فقال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ يعني: اجعلني في جانب بعيد عن عبادة الأصنام، وعلل هٰذا بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ الكثرة هٰذه تخيف الإنسان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] الآية فيمن يموت علىٰ هٰذا؛ فلا يعارضها قول الله ـ جل وعلا ـ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ

....

﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ دخل فيها الشرك وغيره، ولٰكن هٰذه الآية في التائب الذي يتوب، فيغفر له الشرك وغيره إذا صدق بتوبته، وجاء بالتوبة النصوح، فإنها تَهْدِمُ كل ما سبقها من أي ذنب كان؛ أيَ ذنب فعله الإنسان ثم تاب صادقاً؛ فإن الله يتوب عليه، ويبدل سيئاته حسنات، والله يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده أشد الفرح.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ فرح الله بمنتهىٰ ما يمكن أن نعرفه من الفرح، فقال: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده التائب من أحدكم يُضل راحلته، وعليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة، فيطلبها فييأس من وجودها، فيأتي إلىٰ شجرة ويضع رأسه، ويقول: أموت هاهنا، بينما هو كذٰلك** ـ يعني: ينتظر الموت ـ؛ **إذا براحلته قائمة علىٰ رأسه، فيأخذ بخطامها، فيقول: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»(١) هٰذا فرح عظيم. والله لا يحتاج لعباده ـ تعالىٰ وتقدس ـ، ولٰكن لكرمه ورحمته وجوده، لهٰذا هو يكره ـ جل وعلا ـ تعذيب عباده، ولٰكن العباد يأبون إلا العذاب.

وفي «الصحيحين» يقول ﷺ: «**كلكم يدخل الجنة إلا من أبىٰ**». قيل: ومن يأبىٰ، قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»(٢)، فالجنة لها ثمن، وهو طاعة الله وطاعة رسوله، وإذا كان الإنسان مجانباً لذٰلك، ووقع في المعاصي والذنوب، ثم تاب؛ فإن الله يفرح بتوبته، ويقبل توبته، ويمحو سيئاته، ويحبه الله، والله يحب التوابين، وهٰذا بفضله وإحسانه وكرمه.

والمقصود أنه ليس بين هٰذه الآية وبين تلك معارضة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩٣٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٣٧).

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقول الخليل ـ والقول هو قول الله ـ جل وعلا ـ، لٰكنه حكاه عن خليله، وإلا فهو كلام الله، وهذا أسلوب جائز ـ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ هٰذه موجبات الخوف، ولهٰذا يقول إبراهيم التيمي رحمه الله: «من يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!»[1] أي: مَنْ الذي يأمن أن لا يقع في الشرك؛ وإبراهيم يقول هٰذا، ويسأل ربه أن يجنبه عبادة الأصنام، فدل علىٰ أن الأولياء ـ بل كبار الأنبياء ـ يخاف أحدهم أن يقع في شيء من ذٰلك، وقد قال الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر].

ولما ذكر الأنبياء قال: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، فالشرك يحبط الأعمال، فإذا كان محبطاً للعمل؛ فالإنسان يجب أن يكون علىٰ حذر منه، هٰذا هو الذي أراده المؤلف فيما يظهر.

قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ يعني: اجعلني في جانب بعيد وبنيّ، وقد استجاب الله ـ جل وعلا ـ دعوته، فجعل بنيه أنبياء، وكل نبي أرسل بعده من ذريته، فكلّ الأنبياء منذ بعث إبراهيم إلىٰ اليوم من ذريته، ولٰكن أكثرهم من بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

أما إسماعيل فمن ذريته محمد سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليه، وخاتمهم، فهو أرسل إلىٰ العرب، ولم يرسل من ذريته إلا محمد ﷺ. بهٰذا يتبين لنا أن إسرائيل نبي كريم، واليهود هٰؤلاء الكفرة الظلمة يسمون دولتهم بدولة إسرائيل، ويسمون أنفسهم «إسرائيل»، هٰذا من التزوير، ومن الكذب، ولا يجوز للمسلمين أن يتابعوهم علىٰ هٰذا، ويجب أن يسموهم اليهود الكفرة، فإسرائيل نبي كريم، طهره الله عن انتسابهم إليه.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٧).

وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف** ....

فالمقصود أن هٰذه الدعوة من إبراهيم ﷺ قد استجاب الله ـ جل وعلا ـ له، وجعل من ذريته ـ يعني: أولاده ـ. الأنبياء والنساء لا تدخل في هٰذا؛ لأن النساء لا تكون أنبياء، وإن كان منهن الصديقة؛ لأنه نهاية المرأة أن تكون صديقة كما قال ـ جل وعلا ـ في ذكر مريم، وهٰذا خلافاً لابن حزم ومن اتبعه، فابن حزم يقول: بأنها نبية، وكذٰلك أم موسىٰ ﷺ، بدليل أن الله أوحىٰ إليهما، والصحيح أن الوحي الذي أوحي إليها هو إلهام، وليس الوحي الذي فيه التكليف.

قوله: «وفي الحديث أخوف ما أخاف» في هٰذا الحديث خطاب للصحابة رضوان الله عليهم، والصحابة هم من سادة الأولياء، فإذا كان الشرك يخاف علىٰ الصالحين منه، فكيف بغيرهم؟!

والشرك الذي خافه ﷺ هو الشرك الأصغر، وسمّاه الرياء، وذٰلك أن النفوس تحبه، وهو مأخوذ من الرؤيا؛ لأن الإنسان يظهر ويحسن عمله لأجل نظر الغير حتىٰ يُثْني عليه، أو يحبه، أو ما أشبه هٰذا، فهٰذه أمور كامنة في النفوس تحتاج إلىٰ علاج ورياضة، وتحتاج إلىٰ تفطن حتىٰ لا يقع الإنسان في حبائلها.

والشيطان أيضاً يزين هٰذه الأشياء، فالناس لا ينفعونك ولا يضرونك، والنافع الضار هو الله، فيجب أن يكون لدى العبد اليقين بأنه لن ينفعه الناس بشيء، وأنه إذا جعل عمله للناس.

فإنه أول من يمقته ويحتقره الناس، هٰذه سنة الله ـ جل وعلا ـ في خلقه حتىٰ إنه يتبين للناس أن فلاناً مراءٍ، ولو لم يقل: إنه مراءٍ، أو يكون دليل، ولٰكن شيء جعله الله في نفوس الناس، وهٰذا من الجزاء، والجزاء من جنس العمل، فالله قد يعاقب الإنسان في نقيض قصده في هٰذا، وهٰذا أيضاً من رحمة الله؛ حتىٰ يرجع ويرعوي، ويعود إلىٰ ربه ـ جل وعلا ـ.

فالرياء من الشرك، وليس الرياء كله من الشرك الأصغر، فالرياء أنواع،

عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه، فقال: «الرياء»[1].

وأقسامه كثيرة، أما إذا كان الرياء يعرض للإنسان في أثناء العمل، ثم صرفه عن نفسه وابتعد عنه؛ فهٰذا لا يضره، والخواطر التي تخطر في النفس قد لا يسلم منها أحد.

أما إذا استرسل معه، واستدعاه، وأنِسَ به؛ فهٰذا هو المصيبة؛ لأنه يبطل العمل.

وكذٰلك إذا كان الباعث علىٰ العمل هو الرياء؛ فهٰذا كما ذكر الله ـ جل وعلا ـ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]، وذكر عن الكفار أنهم ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧] يعني: كبراً وبطراً للحق ومراءاة للناس، فهٰذا الباعث لهم علىٰ العمل، فإنما يخاف علىٰ المؤمن أن يعرض له في أثناء العمل، ولا سيما في الأعمال الظاهرة، مثل الصدقة، ولهٰذا استحب أن تكون الصدقة سراً، وأثني علىٰ صدقة السِّر؛ لأنها تكون خالصة، وكذٰلك الحج، وكذٰلك الصلاة، وإن كانت الصلاة أخفت؛ لأنها يشترك فيها الناس كلهم، والاشتراك قد يمنع شيئاً من ذٰلك.

فالمقصود أن المسلم يجب عليه أن يحذر من هٰذه الأمور، يحذر من غوائل النفس، ومن كيد الشيطان، ويعلم أن الناس لا ينفعونه بشيء، ولا يكون هٰذا حاملاً له علىٰ احتقار الناس، بل يجب أن لا يحتقر أحداً، وأن يعمل علىٰ نفع الناس، ونصحهم، ويوصل إليهم الخير، ويحاول أن يبعد عنهم الشر بما يستطيع، هٰذا شأن المؤمن؛ لأن من صفاته أنه يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٣٠، ٢٣٦٣٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً؛ دخل النار**» رواه البخاري[١]. ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**»[٢].

فيه مسائل:

الأولىٰ: الخوف من الشرك. **الثانية**: أن الرياء من الشرك. **الثالثة**: أنه من الشرك الأصغر. **الرابعة**: أنه أخوف ما يخاف منه علىٰ الصالحين. **الخامسة**: قرب الجنة والنار. **السادسة**: الجمع بين

وقوله: «عن ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: من مات وهو يدعو لله نداً: دخل النار» هٰذا يخاف؛ لأن الموت قريب من كل واحد منا، فيخاف أن يموت علىٰ حالة توجب النار، ووجه الخوف من هٰذه الناحية.

كذٰلك الحديث الذي بعده «**أن الرسول ﷺ قال: من لقي الله لا يشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار**» وكلمة «شيئاً» نكرة يدخل فيها القليل والكثير، والصغير والكبير، واللقاء يقصد به نهاية الدنيا، تنتهي من دنياك وتموت، فيقصد به ملاقاة عملك والمحاسبة ـ ولو في القبر ـ، ويقصد به اللقاء يوم يبعثر ما في القبور، ويُحصَّل ما في الصدور، ويقوم الناس لرب العالمين، وكلاهما حق، هٰذا وهٰذا، ولٰكن الإنسان إذا مات؛ انقطع عمله، وطُويت صحفه، إلا من أمور ذكرها الرسول ﷺ: دعوة تلحقه من ابن صالح، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية[٣]، ما عدا ذٰلك عمله الذي يعمله ينقطع، فمعنىٰ ذٰلك أن هٰذا أيضاً قريب، والله أعلم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وأخرجه مسلم (٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (٩٣).
(٣) أخرجه مسلم (٣٠٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قربهما في حديث واحد. **السابعة**: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار، ولو كان من أعبد الناس. **الثامنة**: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام. **التاسعة**: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. **العاشرة**: فيه تفسير «لا إلـه إلا الله» كما ذكره البخاري. **الحادية عشرة**: فضيلة من سلم من الشرك.

باب
الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إلـه إلا الله

وقوله الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الآية [يوسف: ١٠٨].

قال رَحِمَهُ اللهُ: «**باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إلـه إلا الله**» لما ذكر وجوب التوحيد وأنه فرض علىٰ كل واحد من الخلق، ثم ذكر فضله وأنه يكفر الذنوب، ثم ذكر الخوف من الشرك، وأنه يخاف أن يقع الإنسان فيه، ولأن له لذٰلك مبررات وموجبات، وذكر قبله أنه من حققه يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، بعد هٰذه الأبواب ناسب أن يذكر وجوب الدعوة إلىٰ التوحيد، وأن هٰذا التوحيد إذا عرفه الإنسان؛ فإنه لا يجوز له أن يقتصر علىٰ نفسه فقط؛ لأن الله كلف رسله ومن اتبعهم بالدعوة إليه.

ثم ذكر الأدلة علىٰ هٰذا، فذكر قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكلمة ﴿قُلْ﴾ قل موجهة إليه ﷺ، وبهٰذا يستدل علىٰ أنه بلّغ كل ما سمعه من الله، ولم يترك حرفاً واحداً، حتىٰ الأمر الذي وجه إليه قاله، لهٰذا قيل له في هٰذا، فقال: «**قيل لي: قل فقلت كما قيل لي**».

فالرسول ﷺ بلغ كل شيء أوحي إليه، وقد كان يخاف أنه قصر في التبليغ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فكان إذا اتفق له شيء من المشاهد، أو اتفق له أمر مما يقوله ويعممه للناس؛ يسألهم يقول: «**أنتم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟**». يقولون الحق الذي لا شك فيه: ونشهد أنك بلغت، ويستشهد ربه، ويرفع أصبعه إليه، ويقول: «**يا رب اشهد عليهم أنهم شهدوا لي بالبلاغ**».

وقصته لما نزل قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] مشهورة في كتب السير، وكتب الأحاديث.

....

فقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: «**لو أن رجلاً صنع كما صنع لقيل: إنه مجنون**»؛ لأن عادة الناس عدم الاهتمام بهٰذه الأمور.

وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ﴾ هٰذه إشارة إلىٰ شيء معين ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ يعني: ما أنا عليه من الدعوة، والجهاد في سبيل الله، وأمري كله طاعة لله ـ جل وعلا ـ، فهٰذا كقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

فحياة رسول الله ﷺ وأعماله كلها في سبيل الله، الدعوة إليه، والجهاد في سبيله، وبيان الحق ومقارعة الباطل.

قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني كأنه يقول: حياتي كلها في هٰذا، وعملي كله في هٰذا أدعو إلىٰ الله، ثم الدعوة ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فيما أقوله، وأبلغه و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فيما أستعمله في المبلغين. ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يعني: إما أن يكون مَنْ يدعو أو من اتبعني علىٰ بصيرة، فإن كان المعنىٰ (ومن اتبعني علىٰ بصيرة) فمعنىٰ ذٰلك أيضاً أنه يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، والمعنيان متلازمان.

ثم قال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: تنزيهاً لله ـ جل وعلا ـ، وإبعاداً له عما يقوله المشركون ويفعلونه من الشرك، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا في العقيدة والنهج، ولا في المكان والاستقرار، فأنا بريء منهم، وبعيد عنهم كل البعد.

وهٰذا يدلنا علىٰ أن الشرك نجس، وأنه مسبة لله ـ جل وعلا ـ، وأن المؤمن يجب أن يتبرأ منه ومن صاحبه. فدلت الآية علىٰ وجوب الدعوة إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، وأنها سبيل الهداية، وسبيل من اهتدىٰ بهم.

والدعوة يجب أن تكون إلىٰ التوحيد، وإلا فلا فائدة منها.

وقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يدل علىٰ وجوب الإخلاص فيها، وأن الدعوة إذا لم تكن لله؛ فلا فائدة فيها، وفيه التنبيه علىٰ أن من لم يدعُ إلىٰ الله؛ فإن دعوته وبال وضلال، وإن كان كثير ممن يدعو يزعم أنه يدعو إلىٰ الله،

عن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ، لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال له: **«إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب** ....

ولٰكنه يدعو إلىٰ نفسه، وإلىٰ مذهبه، أو إلىٰ نحلة أخرىٰ، ولذٰلك جاء هٰذا القيد ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ليبين أن كل دعوة عرت عن الإخلاص واتباع الرسول؛ فإنها ليست من الدعوات التي يتقبلها الله ـ جل وعلا ـ ويثيب عليها، فهي باطلة.

قوله: «لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن: قال: إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـٰه إلا الله» إما أن يكون **«أول»** منصوباً، فيكون **«شهادة»** مرفوعاً، أو بالعكس.

قوله: «شهادة أن لا إلـٰه إلا الله»، وفي رواية: **«عبادة الله ﷻ»**[1] وفي رواية: **«إلىٰ أن يوحدوا الله»**، وفي رواية: **«إلىٰ أن يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله، وأني رسول الله»** وكل هٰذه الروايات في الصحيح، ولٰكن مما يقطع به أن أكثر هٰذه الروايات جاءت بالمعنىٰ، ولٰكن المعنىٰ متطابق؛ لأن عبادة الله هي توحيده، وشهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمد رسول الله هي التوحيد، فهي معانٍ متطابقةٌ مترادفةٌ.

وقوله: «تاتي قوماً من أهل الكتاب» فيه تنبيه علىٰ الاستعداد؛ ليكون الداعي متسلحاً بالعلم، ومتأهباً لما قد يلقىٰ إليه من الشبه؛ لأن أهل الكتاب عندهم علم، وعندهم شبه، فقال: **«إنك تاتي قوماً من أهل الكتاب»** وفيه دليل علىٰ أن خطاب الناس يختلف بحسب علمهم، وحسب مراتبهم، فخطاب العالم ليس كخطاب الجاهل، وهٰذا من البصيرة في الدعوة، ثم أهل الكتاب معلوم أنهم اليهود، وأما النصارىٰ فجاؤوا من جهة الحبشة؛ لأن الحبشة لم تزل نصرانية إلىٰ اليوم.

وسبب مجيئهم حادثة حدثت في نجران، وهي أن أهل نجران آمنوا بالله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨).

فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله».

ـ جل وعلا ـ، واتبعوا دين رسول الله عيسىٰ ﷺ، وكان فيها ملك جبار كافر عنيد، فلما دخلوا في الإيمان خدّ لهم الأخدود، وأضرم النيران عليهم، وقتلهم أحياء، فجاء النصارىٰ من الحبشة ينتصرون لهم، وقتلوه واستولوا علىٰ اليمن.

أما اليهود فجاؤوا من قبل الشام منذ زمن بعيد، ثم تكاثروا فيه، ولم يزالوا فيه.

أما معاذ؛ فأرسله الرسول ﷺ يدعو نيابةً عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وقد كان إرساله في آخر حياة النبي ﷺ، إما في السنة العاشرة، أو آخر السنة التاسعة، علىٰ خلاف بين أهل السير، واتفقوا علىٰ أنه لم يرجع إلا بعد وفاة الرسول ﷺ، وقد أشار في هـٰذا الحديث إلىٰ ذٰلك، فإنه خرج يوصيه ويشيعه، وكان معاذ راكباً والرسول ﷺ يمشي، فقال له معاذ: إما أن تركب أو أن أنزل، فقال: **«ما أنا براكب، وما أنت بنازل، ولعلك لا تراني بعد اليوم»**، فبكىٰ معاذ، وكان كما أخبر، فلم يره بعد تلك الرؤية؛ لأنه لم يرجع إلا في خلافة أبي بكر، ثم ذهب إلىٰ الشام، وأصيب مع من أصيب بطاعون عَمَوَاس(١)، وتوفي هناك، وهو لم يبلغ الأربعين من العمر، بل كان عمره بضعاً وثلاثين سنة ﷺ، وقصته مشهورة في هـٰذا.

فالمقصود أن أهل الكتاب هم هـٰؤلاء اليهود والنصارىٰ، وهـٰذا جاء بيانه في كتاب الله ـ جل وعلا ـ في آيات كثيرة.

وقوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله» يدل علىٰ

---

(١) هو طاعون أصاب الشام سنة ثماني عشرة من الهجرة، وفيه مات أبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، والفضل بن العباس، ويزيد بن أبي سفيان ﷺ، وغيرهم، وقيل: مات فيه خمسة وعشرون ألفاً من المسلمين.
و«عمواس» إما بكسر العين وفتح الميم «عِمَواس»، أو فتحهما معاً «عَمَواس»، وهي قرية بين الرملة وبيت المقدس، تبعد عن بيت المقدس ما يقارب ستة أميال. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣)، «معجم البلدان» (٣/ ٢٥٥).

وفي رواية: «إلىٰ أن يوحِّدوا الله، فإن هم أطاعوك لذٰلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، ....

ترتيب الدعوة، فيجب أن ترتب حسب أهميتها فيبدأ بالأصل الذي يبنىٰ عليه غيره؛ أي: أن الداعية يبدأ بتصحيح العقيدة، بوجوب عبادة الله ـ جل وعلا ـ، لا كما يفعله بعض الدعاة، يقول: أدعو إلىٰ تحسين الأخلاق، وإلىٰ تحسين السلوك، أما العقيدة فنتركها حتىٰ يفهم الناس، أو لا نتكلم فيها؛ لأنها تفرق بين الناس، وإذا لم يكن هناك تفريق؛ فلا خير فيهم إذا لم يكن هناك معاداة لأهل الباطل، ومزايلة ومجاهدة لهم، فلا خير في الناس؛ لأن الحق فرق بين الباطل وأهله.

ولهٰذا في وقت الرسول ﷺ كان الابن يقتل أباه، وبالعكس، فالباطل لا يقرّ، ولا بد من المعاداة في الله ـ جل وعلا ـ، والموالاة فيه؛ لأن هٰذا أصل من الأصول، فدعوة الناس إلىٰ أن يجتمعوا علىٰ الباطل، ويحسنوا أخلاقهم، ويحسنوا سلوكهم؛ هٰذا لا يكفي، فلا بد من أن تكون الدعوة علىٰ وفق ما جاء به المصطفىٰ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولهٰذا قال: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـٰه إلا الله»** أو **«إلىٰ التوحيد»** أو **«إلىٰ عبادة الله»**.

ويدل علىٰ هٰذا الترتيب قوله: **«فإن هم أطاعوك لذٰلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»** فمفهوم هٰذا بل صريحه أنهم إذا لم يجيبوا إلىٰ التوحيد فإنه لا يدعو إلىٰ الصلاة؛ لأنه لا فائدة من صلاتهم مع فساد عقائدهم؛ لأن عندهم الشرك، ويعبدون غير الله، فالصلاة لا تقبل منهم، ولا فائدة في فعلها، فقد أخبر الله ـ جل وعلا ـ أن أعمال الكفار تكون هباء، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩] يكون خسارة مريرة، ويكون العذاب بغتة في هٰذه الفترة نسأل الله السلامة.

فإن هم أطاعوك لذٰلك؛ فأعلمهم ....

فلا بد أن يبدأ بما هو أصل ينبنىٰ عليه العمل، والعمل يبنىٰ علىٰ عبادة الله وحده، فإن كان يعبد مع الله غيره؛ فكل عمله مردود، كما سبق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله: «فإن هم اطاعوك لذٰلك: فأعلمهم» فيدل علىٰ وجوب الإعلام في الواجبات، وأنه لا بد من معرفة ذٰلك، وهـٰذا يتعين علىٰ الإنسان أن يعرف كيف يعبد ربه، ويتعين عليه كيف يصلي، وقبل هـٰذا كيف يتوضأ، ولا يجوز أن يأخذ بالتقليد، يرىٰ الناس يفعلون الشيء ثم يفعله، فهـٰذا ليس علماً.

ولهـٰذا إذا سئل الإنسان الذي يأخذ ذٰلك بالتقليد فإنه لا يستطيع أن يجيب، بل يتلعثم، ويتوقف، فلا بد أن يكون علىٰ بصيرة في دينه كما قال ـ جل وعلا ـ يوصي الرسول ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وفي الحديث دليل واضح بأنه لا يجب علىٰ المسلم في اليوم والليلة ـ في الأربع والعشرين ساعة ـ إلا خمس صلوات، لم يذكر الوتر، ولا النوافل، ولا غيرها.

فهـٰذا هو الواجب، فإذا اقتصر العبد علىٰ ذٰلك، وأداه كما ينبغي؛ فهو من السعداء، ولـٰكن الإنسان تعتريه الغفلة، ويعتريه السهو، ويعتريه التقصير؛ لأن روح الصلاة حضور القلب بين يدي الله ـ جل وعلا ـ.

والصلاة التي لا يحضرها القلب؛ ليس للإنسان فيها شيء كما في حديث ابن عباس: **«ليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَلَ»** وعقل معناه حضر قلبه، فحضور القلب فرض في الصلاة.

أما الخشوع فيها، وانكسار القلب، ودمع العين؛ فإن هـٰذا أمر زائد، فقد أثنىٰ الله ـ جل وعلا ـ علىٰ الخاشعين فيها، ولـٰكن ليس واجباً، الواجب حضور القلب، ومعناه أن تعرف أين أنت، وتعرف ماذا تفعل، وماذا

....

تقول، وتستحضره من بداية الصلاة إلىٰ نهايتها.

فإذا وقع الخلل في الصلاة؛ فينبغي أن تُرَقَّع، وترقيعها أن يأتي بالنوافل؛ لأنه جاء في الحديث أن العبد إذا سئل عن صلاته، وصار فيها تقصير يقول الله ـ جل وعلا ـ للملائكة: **«انظروا هل له من تطوع»**(١) فإن كان له تطوع؛ كملت صلاته، وهٰذا من فضل الله أيضاً.

وأمر آخر: أنه لا يجوز الزهد في درجات الجنة، والقرب من الله ـ جل وعلا ـ، فلهٰذا أمر الله ـ جل وعلا ـ في المنافسة فيها والمسابقة إليها، بخلاف أمور الدنيا. فالزهد المحمود الذي يُثْنىٰ علىٰ صاحبه في شيئين فقط:

الأول: زهد في الدنيا.

الثاني: وزهد في الثناء.

أن يزهد في ثناء الناس عليه، بل يكرهه؛ لأنه أعرف بنفسه من الناس، وكثيراً ما يكون الثناء علىٰ غير الواقع، والمقصود التنبيه علىٰ هٰذا.

فالصلاة الواجبة هي الخمس فقط، وقد قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله بوجوب صلاة الوتر(٢)، واستدل بحديث: **«الوتر واجب»**(٣) هٰذا نص في الوجوب، ولٰكن الواجب يأتي بمعنىٰ السنة المؤكدة، كما جاء في مثل هٰذا في غسل الجمعة **«غسل الجمعة واجب علىٰ كل محتلم»**(٤) وجاءت نصوص

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٤) من حديث أنس بن حكيم الضبي، والترمذي (٧٣٣)، والنسائي (٤٦١)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» للكاساني (٣/ ٦٦)، وذهب الجمهور إلى عدم الوجوب. انظر: «المجموع» للنووي (٤/ ١٩)، «المغني» لابن قدامة المقدسي (٣/ ٣٧٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤/ ١٤٧) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه. وأخرجه البزار (١٤٥٥) من حديث ابن مسعود.

(٤) أخرجه أحمد (١١١٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذٰلك؛ فإياك وكرائمَ أموالهم، ....

تدل علىٰ أن هـٰذا الوجوب معناه تأكد السنية، وهـٰذه الأمور محلها كتب الفقه.

فقوله: «**فإن هم أطاعوك لذٰلك**» رتب أيضاً قبول الصلاة بعد قبول التوحيد والقيام به، ورتب الأمر بالزكاة علىٰ إقامة الصلاة. وفي كتاب الله اقتران الزكاة بالصلاة كثيراً.

قال: «**فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد علىٰ فقراءهم**» هنا كلام كثير للفقهاء واستنباطات من هـٰذه الجمل، لا داعي إلىٰ ذكرها هنا؛ لأن موضوعنا في التوحيد، وفيما يؤخذ من ذٰلك.

فالحديث يدل علىٰ وجوب هـٰذه الأشياء، ويدل علىٰ أنها أمور لازمة لا بد منها، وأنها مترابطة، وأنه لا يقبل واحد دون الآخر منها، وإن كانت مرتبة علىٰ التوحيد وعبادة الله وحده ـ جل وعلا ـ.

والضمائر في **قوله:** «**صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم**» قد اختُلف فيها، هل الضمير يعود إلىٰ المسلمين عموماً؟ أو أنه يعود إلىٰ أهل اليمن فقط؟

وعلىٰ كل مفهوم أمورٌ مرتبةٌ كما هو معروف في كتب الفقه، وكتب شروح الأحاديث.

وقوله بعد هـٰذا: «**فإياك وكرائمَ أموالهم**» كرائم المال أحاسنه وأطيبه، فإن كان المال من الحيوانات؛ فهي كبيرة البدن كثيرة الصوف، غزيرة اللبن، كثيرة الشحم، فإذا كانت بهـٰذه المنزلة؛ فإنها لا تؤخذ للزكاة، وإنما يؤخذ الوسط، لا يؤخذ شرار المال، ولا أطايبه وأحاسنه، وهـٰذا من العدل، والعدل واجب، والله ـ جل وعلا ـ أنزل العدل بين خلقه، وحكم به، فإن طابت نفس صاحب المال، وبذل الطيب الحسن؛ أُخِذَ منه، وقيل: أجرك

واتَّقِ دعوةَ المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه[١].

علىٰ الله» أي: لا يُعطىٰ مقابل الزائد، هٰذا سوف يأجرك الله عليه.

وقوله: «واتقِ دعوة المظلوم» أمر بأن يجعل له واقياً يقيه دونها، حتىٰ لا تصيبه، والواقي هو فعل العدل، والأمر به، أن يعدل فيما يأخذه، وفيما يأمر، والظلم أن يؤخذ من الإنسان شيءٌ من حقه أو يوضع عليه من ذنوب غيره، أو يؤخذ بجريرة غيره، فإن هٰذا من الظلم.

ولهٰذا يقول الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، والأحاديث في هذا كثيرة، ومنها النهي عما كانت عليه الجاهلية، فكانوا يأخذون بجريرة القريب أو بجريرة الرجل إذا كان من قبيلة، وهي عادة سيئة.

وقوله: «واتقِ دعوة المظلوم فإنه» الضمير هنا يسمىٰ ضميرَ الشأن، أي: الشأن والأمر أنه لا «**حجاب بينها وبين الله**» والمعنىٰ أن الله يقبلها ويستجيبها، وهٰذا شيء مجرب، وكل ذٰلك بإذن الله ـ جل وعلا ـ.

❑ إشكال والجواب عليه:

بقي إشكال في هٰذا الحديث، وهو أنه لم يذكر الصوم، ولم يذكر الحج، مع أن هٰذا في أواخر عهد النبي ﷺ.

أجاب بعضهم بأن هٰذا قبل فرض الحج، أو قبل فرض الصوم، وهٰذا غير صحيح.

وبعضهم أجاب أن الراوي اختصره، وهٰذا لا يجوز؛ لأن هٰذا يجعل الثقة بالرواة غير موجودة، ويجعل الباب مفتوحاً لكل مبطل أن يقول: هٰذا الحديث مختصر، أو أنه مزيد فيه.

وللعلماء في هٰذا أجوبة، ولٰكن أصحها أن الرسول ﷺ اقتصر علىٰ

(١) أخرجه البخاري (٦٨٢٤)، ومسلم (٢٧).

....

الأمور الظاهرة التي يُقاتَلوا بتركها. أما الصوم؛ فهو بين العبد وبين ربه، أمانة بينه وبين ربه.

وإذا التزم الأمور الظاهرة، فذاك موكول إليه، مثل: غسل الجنابة، والوضوء؛ لأنها فروض. فهي إلىٰ العبد، ويجوز أن يظهر بأنه صائم، وهو يأكل ويشرب، من يدري عنه؟ لا يعلم ذٰلك إلا رب العالمين.

وأما الحج: فأمره سهل:

أولاً: أنه لا يجب علىٰ كل أحد؛ لأنه لا يجب إلا علىٰ من توافرت فيه الشرائط، وهي: أن تجد إليه سبيلاً، وإذا لم تجد المرأة المحرم؛ فإنها لا تستطيع، وإذا كان مريضاً؛ فلا يجب عليه... إلخ.

هـٰذا شيء معروف مفصل مذكور في كتب الفقه، فلما كان في هـٰذه المنزلة؛ لم يذكر؛ لأنه تبع، هـٰذا هو أصح الأجوبة علىٰ هـٰذا الحديث.

وقد جاءت أحاديث فيها ذكر الحج، وفيها ذكر الصوم، ولا سيما الأحاديث التي جاءت في المبايعات كما في «المسند» و«المعجم الأوسط»[(١)] عن بَشير بن الخَصاصِيَة قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه علىٰ الإسلام، فقلت: يا رسول الله! مدّ يدك أبايعك علىٰ الإسلام. فقال: **«نعم، علىٰ أن تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج، وتجاهد»**. يقول: فكففت يدي. فقلت: أما اثنتان فلا أطيقهما: الصدقة والجهاد، فكف يده، قال: **«لا جهاد، ولا صدقة، بم تدخل الجنة»**؟ فقلت: امدد يدك أبايعك عليهن كلهن، فبايعته، فكان في آخر الأمر يبايع الناس علىٰ الفرائض كلها.

فالمقصود أن هـٰذا أيضاً من آخر الأمر، ولـٰكن هـٰذا فيما يجاهد فيه،

---

(١) «مسند أحمد» (٢١٩٥٢)، «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٨٠).

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: **«لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله،** ....

ويُقاتَل فيه؛ لأن معاذاً نائب عن النبي ﷺ، فمن امتنع قاتله، ففي هٰذا الحديث دلالة ظاهرة في وجوب الدعوة إلىٰ الله - جل وعلا - إلىٰ توحيده، وعبادته.

ثم ذكر حديث سهل بن سعد الساعدي، وقوله: «يدوكون» فسرها المؤلف رحمه الله بقوله: «**يخوضون**».

قوله ﷺ: «أين علي بن أبي طالب»؟ وكان علي رضي الله عنه قد تخلف عن الرسول ﷺ في تلك الغزوة؛ لأنه كان أرمد، ثم لام نفسه وخرج، وتبع الرسول ﷺ.

وهٰذا الحديث فيه من الفوائد، منها:

أولاً: وجوب الدعوة، وإن كان هٰذا فيه تفصيل، وسيأتي.

ثانياً: فيه أن الدعوة يجب أن تكون إلىٰ الله، قال هنا: «**إلىٰ الإسلام**» أي دعهم إلىٰ الله، وأعلمهم بما يجب عليهم فيه؛ يعني: في الإسلام.

ثالثاً: فيه أن الإمام يختار من يختاره لقيادة الجيش.

رابعاً: فيه دليل واضح علىٰ حرص الصحابة علىٰ الخير؛ لأنهم ما كانوا يتسابقون إلىٰ الإمارة أو إلىٰ القيادة، وإنما حضروا، وكل واحد صار يرجو ذٰلك؛ لما ذكر من الفضل، وهو محبة الله ورسوله له.

أما قوله: «يحب الله ورسوله» فهٰذا أمر حتماً لا بد منه، ولا يحصل الإيمان والإسلام إلا بمحبة الله عز وجل ومحبة رسوله ﷺ، وسيأتي - إن شاء الله - الكلام في المحبة، وفي الفرق بين ما هو فرض وما هو مستحب.

خامساً: فيه الإيمان بالقدر، فإن السعي والتعرض للشيء قد لا يكون مجدياً، ولهٰذا علي رضي الله عنه ما سأله، ولا تعرض له، بل كان بعيداً عن ذٰلك،

....

ولم يكن يرجو؛ لأنه كان به رمد، فجاءته بقدر الله ـ جل وعلا ـ.

وهـٰذا الحديث من أصح ما يستدل به علىٰ فضيلة علي ﷺ، وبأن الله يحبه، ويحبه الرسول، ولـٰكن لا يتم لمن يزعم أن الصحابة ارتدوا وكفروا؛ لأنه يقال: وهـٰذا كذٰلك أيضاً ارتد كما تقول الخوارج وغيرهم، وإنما يتم هـٰذا الحق للذين يعلمون أن الصحابة رضوان الله عليهم ثبتوا علىٰ الإيمان، وأن الله أثنىٰ عليهم، وأنهم ممن يحبه الله ورسوله؛ لأن الرسول أيضاً توفي وهو راضٍ عنهم. والله ﷻ علام الغيوب، لا يثني علىٰ من يعلم أنه يرتد ويكفر، لهـٰذا لا يستطيع الذي يقول هـٰذا أن يرد علىٰ الخوارج الذين يقولون: إن هـٰذا كان قبل الكفر.

أما لما حصل الكفر؛ فهـٰذا ذهب وزال، وإنما يستدل به من يرىٰ فضل الصحابة عموماً، وأنهم بقوا علىٰ الحق، ثم ليس هـٰذا من الخصائص ـ خصائص علي ـ، فقد جاء في أحاديث كثيرة في أناس معينين أن الله ورسوله يحبهم، مثل جليبيب الذي قال الرسول ﷺ فيه: **«هو مني وأنا منه»**[1]، وغيره كثير.

سادساً: وفيه الأدب في القتال، ويكون علىٰ طريقة سالمة من الضجيج والصراخ والصياح، ولهـٰذا قال: **«انفذ علىٰ رسلك»** يعني: علىٰ تؤدة، وهيبة، وسكينة، وطمأنينة، وثقة بالله ـ جل وعلا ـ.

سابعاً: وفيه أيضاً مما لم يذكره؛ لأنه ذكر بعض الحديث ولم يذكر بقيته أمور كثيرة، منها: دلائل علىٰ التوحيد، وهي ما نال الصحابة مع الرسول ﷺ من الشدة في هـٰذه الغزوة، ومن المرض، ومن الجوع، حتىٰ إنهم صاروا يذبحون الحمير ليأكلوها، حتىٰ أمر الرسول المنادي لما رأىٰ النيران توقد؛ سأل: **«ما هـٰذه النيران توقد»**؟ فقالوا: علىٰ الحُمُر، إنهم جياع، فأمر منادياً:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥١٩) من حديث أبي برزة ﷺ.

يفتح الله علىٰ يديه». فبات الناس يَدوكونَ لَيلتَهم، أيُّهم يُعطاها، فلما أصبحوا غَدَوا علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب**»؟ فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فَبَرَأَ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «**انفُذْ علىٰ رِسْلِكَ حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه، فوالله لئن يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعم**»(١)

يدوكون: يخوضون.

إنها حرام، أكفئوا القدور، وتركوها(٢).

وجاء في الصحيح عن علي ﷺ قوله: «**حرم رسول الله ﷺ المتعة يوم خيبر، ولحوم الحمر الأهلية**»(٣) والمتعة حرمت قبل خيبر، هٰذا القيد خاص بالحمر، وإلا فالمتعة حرمت قبل هٰذا. والمقصود بالمتعة: متعة النساء، كانت مباحة للضرورة، ثم حرمت إلىٰ الأبد. كذٰلك ما حصل من الامتناع بأن الله وعد الصحابة هٰذه الغزوة والغنائم، هٰذا الوعد الذي جاء في غزوة الحديبية فقد عجلها لهم، لهٰذا كانت خاصة بأهل الحديبية، لمن حضر الحديبية ومنع الذين تخلفوا عنها أن يتبعوه إذ طمعوا أن يأخذوا شيئاً من الغنائم، ثم فتح الله ـ جل وعلا ـ عليهم، والفتح بخيبر لم يكن في آنٍ واحد، بل كان في أيام؛ لأنه حصون متفاوتة في كل يوم يفتح حصن، وهٰكذا حتىٰ تم الفتح.

ثامناً: وفيه من دلائل نبوة الرسول ﷺ، حيث يخبر بالشيء قبل وقوعه، فيقع كما أخبر، فقال: «**يفتح الله علىٰ يديه**» ففتح الله ـ جل وعلا ـ علىٰ يديه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٦)، ومسلم (١٩٣٧) من حديث ابن أبي أوفىٰ ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٣)، ومسلم (٢٥١١) من حديث علي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن الدعوة إلىٰ الله طريق من اتبعه ﷺ.

الثانية: التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأن كثيراً لو دعا إلىٰ الحق فهو يدعو إلىٰ نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

تاسعاً: وفيه من دلائل النبوة، كونه بصق في عينيه، فبرأت في الحال، فهٰذا دليل علىٰ نبوة النبي ﷺ؛ لأن هٰذا خارق للعادة، وجاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: «لم أشتكِ عيني بعد ذٰلك، ولم أشتكِ الرمد» كل هٰذا ببركة دعوة النبي ﷺ.

قوله: «أن البصيرة من الفرائض» أخذها من قوله تعالىٰ: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

فقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ليست خاصة بالرسول ﷺ، فقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يدل علىٰ أن البصيرة من الفرائض علىٰ أتباع الرسول والفريضة معناها الشيء الملزم، ويلزم المسلم معرفة ما فرض الله عليه فيفعله، وما حرم عليه فيجتنبه، ولا يقدم علىٰ عبادة أو معاملة حتىٰ يعرف حكم الله فيها لئلا يقع في الحرام.

وكذٰلك إذا أراد أن يتزوج، ففرض عليه أن يعرف أحكام الزواج، وأحكام الطلاق، وأحكام الرجعة؛ حتىٰ لا يقع في الأخطاء التي يقع فيها الناس اليوم.

وهٰذه مصيبة ـ في الواقع ـ مخالفةٌ لأمر الله صريحة، تجد حتىٰ من طلبة العلم إذا وقع بينه وبين زوجته مشكلة؛ قال: «أنت طالق» علىٰ كل حال، ولا ينظر في الحالة التي هي فيها، ثم يقول: «اخرجي اذهبي إلىٰ أهلك» وكل هٰذا حرام مخالف لأمر الله، فلا يجوز للإنسان أن يقدم علىٰ أمر من الأمور حتىٰ يعرف أحكام الله فيه، الطلاق لا يجوز إلا في العدة التي أمر الله ـ جل وعلا ـ بها، وهي أن تكون طاهرة طهراً لم يمسها فيه، أما إذا كانت طاهرة وقد جامعها؛ فإن التطليق لا يجوز، وهو محرم.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد، كونه تنزيهاً لله تعالىٰ عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

السادسة: وهي من أهمها، إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

ثم كذٰلك يجب أن يكون الطلاق مرة واحدة، بطلقة واحدة فقط، وإن جمع أكثر من واحدة؛ فقد ارتكب محرماً.

ثم كذٰلك إذا حصل الطلاق فيجب أن تبقىٰ في البيت ولا تخرج، ولا يخرجها، وقد سمىٰ الله ـ جل وعلا ـ البيت بيتها ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [الطلاق: ١] كل هٰذه أمور واضحة في كتاب الله، ومع ذٰلك؛ أصبح الناس يعملون بالعادات، ولا يعملون بكتاب الله ـ جل وعلا ـ، وكل هٰذا تساهل، وهٰكذا يقال في جميع الأحكام اللازمة.

من محاسن التوحيد «**كونه تنزيهاً لله عن المسبة**»، هٰذا من قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن الله نزه وسبح نفسه أن يكون له شريك، فهو من أقبح الأعمال، والشرك يكون مسبة لله ـ جل وعلا ـ؛ لأن الذي يتجه إلىٰ مخلوق ضعيف مثله، ويدعوه، ويرجوه، ويتوسل إليه؛ فهٰذا معناه أنه اتخذ إلٰهاً غير الله، وهٰذا من حق الله، فكيف وضع حق الله في غير موضعه! بل هٰذا من أظلم الظلم، ولهٰذا سماه الله ظلماً.

قوله: «**من أهمها**»؛ لأن العمل يكون فيها غير مستقيم في كثير من الناس.

قوله: «**كون التوحيد أول واجب**» هٰذا لا شك فيه، ولٰكن هل طبق هٰذا؟

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، حتىٰ الصلاة. **التاسعة**: أن معنىٰ «أن يوحدوا الله»، معنىٰ شهادة: أن لا إلـٰه إلا الله. **العاشرة**: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه علىٰ التعليم بالتدريج. **الثانية عشرة**: البداءة بالأهم فالأهم. **الثالثة عشرة**: مصرف الزكاة. **الرابعة عشرة**: كشفُ العالِم الشبهةَ عن المتعلم. **الخامسة عشرة**: النهي عن كرائم الأموال. **السادسة عشرة**: اتقاء دعوة المظلوم. **السابعة عشرة**: الإخبار بأنها لا تحجب. ....

من المصيبة أن أكثر كتب المتكلمين التي يسمونها «كتب التوحيد» نجد أن أول واجب النظر العقلي؛ أي: ينظر في الموجودات والمخلوقات، حتىٰ يستدل علىٰ أن المخلوقات لها خالق، ولها موجد، وإذا قدر أنه فعل ذٰلك مع عسره، ومع بعده عن دعوة الرسل، إذا قدر أن الإنسان يفعل هـٰذا هل يكون مسلماً؟ استدل بالسماء، وبالأرض، وبنفسه، وبالنبات، وبالسحاب، وبالرياح علىٰ أن الله خالق هـٰذه الأشياء، هل يدخل الإسلام بذٰلك؟

الجواب أنه لا يدخل في الإسلام، وهـٰذا شيء أقرَّ به الناس كلهم، فالذي يدخل به الإسلام قول «لا إلـٰه إلا الله» فالرسل جاءت بوجوب العبادة، وإذا استدل بالمخلوقات علىٰ وجوب عبادة الله تعالىٰ، فهـٰذا أمر قد أمر الله به وحث عليه.

قوله: «**من أهل الكتاب**» أي أن يكون عنده علم، ويكون من العلماء، ولا يعرفون معنىٰ لا إلـٰه إلا الله، وهـٰذا واقع، ولهـٰذا تجد من يتعلم ويكون معه شهادة من أعلىٰ الشهادات تجده يتعلق بغير الله ـ جل وعلا ـ، ويتوسل بغيره، ويسميه توسلاً، وربما اعتقد أن هـٰذا مما يقرب إلىٰ الله.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرىٰ علىٰ سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله «**لأعطين الراية**»... إلخ، عَلَمٌ من أعلام النبوة. **العشرون**: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً. **الحادية والعشرون**: فضيلة علي ﷺ. **الثانية والعشرون**: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعىٰ. **الرابعة والعشرون**: الأدب في قوله «علىٰ

قوله: «**من أدلة التوحيد ما جرىٰ علىٰ سيد المرسلين..**» يعني: في غزوة خيبر أنه جرىٰ عليهم أشياء صعبة من جوع ووباء؛ لأن خيبر كانت موبوءة فحصل لهم مرض، بقوا وقتاً ما تهيأ لهم الفتح، وكل هـٰذا بحكمة الله ـ جل وعلا ـ، هـٰذا ومعهم رسول الله ﷺ، فوجه أن هـٰذا من أدلة التوحيد أن هـٰؤلاء سادة الأمة وأفضلها علىٰ الإطلاق ـ الصحابة ومعهم سيد البشر ـ ثم يحصل لهم هـٰذه الأمور الشديدة، فهـٰذا يدل علىٰ أنه ليس بيد الرسول ﷺ شيء من الأمر، وأن الأمر كله لله يجب أن يتجه إليه، ويوحد وحده، ولا يُدعىٰ معه أحد، لا الرسول ولا غيره، هـٰذا وجه الاستدلال من أن هـٰذا من أدلة التوحيد.

قوله: «**وشغلهم عن بشارة الفتح**» الفتح بشارة، ويفرح به بلا شك، ولـٰكن حرصهم علىٰ المسابقة بالخير؛ صار الأهم عندهم، من تدفع له الراية؟ لأن الرسول ﷺ أخبر أن الله ورسوله يحبانه، ومن اليقين المتيقن أن كل مؤمن يحبه الله ورسوله، ولـٰكن الإنسان إذا أتىٰ بالأعمال؛ فإنه لا يدري قبلت أو لا؟ وهل جاء بها علىٰ الوجه المطلوب أو أن فيها خللاً؟ فإذا جاء الخبر من قبل الرسول ﷺ، كان هـٰذا متيقناً، إذا نصَّ علىٰ إنسان بعينه، تيقن أنه بهـٰذه الدرجة، فيفرح بهـٰذا وينبسط.

رِسْلِكَ». **الخامسة والعشرون**: الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال.
السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دُعُوا قبل ذٰلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالىٰ في الإسلام.
التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدىٰ علىٰ يده رجل واحد.

قوله: «أنه مشروع لمن دُعُوا قبل ذٰلك، قوتلوا» لأن هٰؤلاء قد دُعوا قبل هٰذه المرة، وهنا يقول العلماء: الدعوة ليست واجبة، وإنما هي سنة ومستحبة، ومعنىٰ ذٰلك أنه إذا بلغتهم الدعوة ووصلتهم؛ فإنه يجوز أن يُبْغتوا بالقتال دون أن ينذروا، كما فعل في بني المصطلق؛ فقد صبحهم علىٰ مياههم وهم غافلون، فقتل من قتل منهم، وأخذ أموالهم؛ لأنه بلغه أنهم يجمعون لقتاله ﷺ، وقد بلغتهم الدعوة، فصار هٰذا دليلاً علىٰ أن من بلغته الدعوة؛ فإنه لا يجب أن يُدعىٰ مرة ثانية قبل القتال، إنما يستحب. أما إذا لم تبلغه الدعوة؛ فإنه يجب ويتعين دعوتهم أولاً، وكان الصحابة يستعملون هٰذا الأمر، فإذا أتوا إلىٰ قوم كفار؛ خيروهم بين ثلاثة: إما أن تسلموا، ونترككم وبلادكم وما أنتم فيه، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا. وإما أن تدفعوا الجزية وأنتم صاغرون، فنترككم وبلادكم، ونحميكم أيضاً، وإما القتال بيننا وبينكم، والنصر لمن يشاء الله ـ جل وعلا ـ وكانوا يقولون: أمرنا رسول الله ﷺ بهٰذا.

قوله: «أخبرهم بما يجب عليهم» مثل إقام الصلاة، والزكاة، والصوم.

قوله: «ثواب من اهتدىٰ علىٰ يده رجل واحد» دليله قوله: **«خير لك من حُمْرِ النَّعم»**، وحُمْرُ النَّعم هي الإبل الحُمْر، فكانت من أحسن أموال الناس في ذٰلك الوقت، وأنفس الأموال، يتنافسون فيها، وليس المعنىٰ أنها شيء

الثلاثون: الحَلِفُ علىٰ الفتيا.

معين، بل المعنىٰ خير لك من الدنيا إذا هدي علىٰ يدك رجل واحد فقط، فقد ثبتت الأحاديث عن النبي ﷺ يقول: **«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**(١).

فكيف الذي يهتدي علىٰ يديه جماعات، فضله عظيم جداً؛ لا يستطيع مُقَدِّر أن يُقَدِّر ذٰلك، الذي يعطىٰ أجره بلا حساب.

ومثل هٰذا لا يلزم أن يكون المهتدي كافراً، حتىٰ وإن كان ضالاً من المسلمين أو كان فاسقاً؛ لأن يهتدي علىٰ يديك رجل من هٰؤلاء، فلك هٰذا الأجر العظيم، فهٰذا يدلنا أيضاً علىٰ أن الله ـ جل وعلا ـ يحب أن يؤمن الناس، وأن ينجوا من العذاب؛ فلهٰذا رتب الفضل العظيم علىٰ من يهتدي علىٰ يديه رجل.

قوله: «الحلف علىٰ الفتيا» يعني: ولو لم يستحلف، قال: «**والله لئن يهدي**» وقد جاء أمر الله ـ جل وعلا ـ رسوله بالحلف في كتاب الله في ثلاث آيات، في سورة يونس، وفي سورة سبأ، وفي سورة التغابن، أمره ـ جل وعلا ـ أن يقسم، وهي قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، وقوله تعالىٰ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ فأمره أن يقسم، فإذاً القسم علىٰ الشيء الواضح يكون سنة بالتأكيد، أو الشيء الذي فيه تردد عند الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

باب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـه إلا الله

وقـول الله تـعـالـىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧].

التوحيد هو شهادة أن لا اله إلا الله، فيكون العطف «**وشهادة أن لا اله إلا الله**» من باب التفسير؛ يعني: عطف الشيء علىٰ مثله، وهـٰذا يوجد بكثرة في كتاب الله ـ جل وعلا ـ، وفي أحاديث الرسول ﷺ.

قوله: «**تفسير**» التفسير هو الإيضاح والكشف والبيان، وهـٰذا التوحيد واضح وجلي، ولـٰكنه خفي علىٰ كثير من الناس؛ لأنهم لم يهتموا به، ليس لأنه خفي في نفسه، بل هو ظاهر وجلي، ولـٰكن الإعراض عن الشيء، وعدم الاهتمام به يجعله خفياً ويجعله يحتاج إلىٰ إيضاح وكشف، فجعل المؤلف التفسير في آيات الله وبالأحاديث، فبدأ بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾.

وقبل هـٰذه الآية: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ فصار في هـٰذا بيانٌ للتوحيد؛ لأن فيه التحدي، أمرهم الله ـ جل وعلا ـ أن يدعوا مَنْ يدعونهم؛ فإنهم لا يستطيعون كشف ما بهم من ضر، ولا تحويله من مكان إلىٰ مكان، ولا تحويله من شخص إلىٰ آخر، فإذا كانوا بهـٰذه الصفة؛ فمعنىٰ هـٰذا أنهم عاجزون، لا يملكون شيئاً، لا النفع ولا الضر، ففي هـٰذا دليلٌ واضحٌ علىٰ أن الذي يدعىٰ ويعبد يجب أن يكون قادراً علىٰ كشف الضر وإيصال النفع، وإلا تكون عبادته باطلة.

وهـٰذا لا يكون إلا من الله ـ جل وعلا ـ، الله هو القادر علىٰ ذٰلك، وغيره من الخلق لا يستطيع أن يفعل ذٰلك، ويوضح هـٰذا سبب النزول الذي ذكره المفسرون وغيرهم في هـٰذه الآية.

وقـولـه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية [الأنعام].

وقد اختلفوا بسبب النزول، وجاء متعدداً، ويجوز أن تكون كل هٰذه المتعددات سبباً في النزول، نزلت في الذين يدعون عيسىٰ وعزيراً. وقيل: الملائكة، فتحداهم الله ـ جل وعلا ـ أنهم يكشفون ضرهم، أو أن يحولوه من موضع إلىٰ آخر، فإنهم لا يستطيعون، سواءٌ كانوا من الأنبياء، مثل عيسىٰ وعزير، أو الملائكة، أو غيرهم من البشر المقربين كمريم.

ومنهم من يقول: إنهم كانوا من الجن، والأول أقرب؛ لأنهم الذين يدعون ربهم يتقربون إليه، وكل﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يعني: أنهم يتنافسون في القرب إلىٰ الله بفعل الطاعات، وهي الوسيلة، فالوسيلة هي فعل الطاعات التي يتوسلون بها إلىٰ ربهم ـ جل وعلا ـ، وليست الوسيلة التي يزعمها بعض الناس بالتعلق بالمخلوقين، هٰذه لا تسمىٰ وسيلة، وإنما هو اصطلاح يصطلح عليه.

فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يقول: إنهم الجن الذين كان يدعوهم المشركون قبل أن يسلم الجن، فأسلم الجنيون، وبقي المشركون علىٰ دعوتهم، فأخبر أن المدعو يتقرب إلىٰ الله يرجو رحمته، ويخاف عذابه، فهو فقير إلىٰ أن يوصل إليه ربه ـ جل وعلا ـ النفع، ويدفع عنه الضر، فكيف يُدعىٰ؟

فصار فيه تفسير التوحيد أن كلَّ مدعو من دون الله فهو محتاج إلىٰ ربه، فقير إليه، فهو لا يكون إلٰهاً يُدعىٰ، ولا يملك لداعيه نفعاً ولا شراً.

أما الآية الأخرىٰ، وهي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ففيها تفسير لشهادة أن لا اله إلا الله، وذٰلك أن إبراهيم عليه السلام تبرأ من قومه، ومن معبوداتهم، ثم استثنىٰ ربه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإني لا أتبرأ منه، بل أعبده، وألتزم ذٰلك، وهٰذا يدل علىٰ أن قومه كانوا يعبدون الله، ولٰكنهم يعبدون معه أصناماً، فلهٰذا صار فيه معرفة

وقــولــه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

الشرك، وذلك من تفسير التوحيد، ومعرفة التوحيد أنه إخلاص العبادة لله، والبراءة من الشرك، فهٰذا واضح في تفسيره التوحيد.

والآيات في تفسير التوحيد كثيرة جداً، فإن أكثر القرآن في هٰذا، ودعوات الرسل فيه، كما قال الله تعالىٰ عن هود عليه السلام لما قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] قالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] فهٰذا واضح جداً في أن تفسير التوحيد هو عبادة الله وحده، وأن عبادة شيء معه هو الشرك المضاد للتوحيد، ولٰكن يبقىٰ أن كثيراً من الناس لا يعرفون العبادة ما هي، ولا يعرفون الإلٰه ما هو.

فيجب أن يُبيَّن هٰذا، فالعبادة هي كلُّ ما أمر الله ـ جل وعلا ـ به، وترك ما نهىٰ عنه، وأن يفعل ذٰلك علىٰ وجه الذل والخضوع والرجاء والخوف من الله ـ جل وعلا ـ، فإذا وقع شيء من ذٰلك لمخلوق؛ فقد عبد ذٰلك المخلوق.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ معنىٰ فطرني: خلقني، فطر: خلق وأوجد، فهو يستثني ربه الذي خلقه، وهٰذا دليل علىٰ أن الخلق من أدلة التوحيد، وأدلة وجوب عبادة الله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا أيضاً كثير.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾، الأحبار هم العلماء؛ أخذاً من الحِبْر الذي يكتب به؛ لأن مبدأ العلم الكتابة، فكما أن الكتابة والقراءة هي مبدأ العلم، فالعلم يتعلم بالكتابة والقراءة، فسمّوا أحباراً لملازمتهم للحِبْر والكتابة.

أما الرهبان فمن الرهبة، وهي الخوف؛ يعني: العبّاد، الذين يرهبون ويخافون، وهٰؤلاء هم أصناف الناس الذين يُقتدىٰ بهم: العلماء والعباد، فاتخاذهم أرباباً؛ أي: معبودين من دون الله، وقد جاء تفسير هٰذه الآية عن

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إلـه إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله، ودمه، وحسابه علىٰ الله ﷻ**»(١).

النبي ﷺ أنها طاعتهم في معصية الله، فإذا أطاعوهم في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فقد اتخذوا أرباباً من دون الله، وهو واضح.

وأما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، فهٰذه الآية سيخصها المؤلف بباب فيما بعد، ولٰكن فيها تفسير التوحيد؛ لأن فيها أن من أحب مخلوقاً كمحبة الله فقد اتخذه إلٰهاً معبوداً، ففيها أن المحبة يجب أن تكون لله، ولٰكن المحبة التي تتضمن التعظيم والذل، وليست المحبة التي تكون طبيعية، مثل محبة الآكل للأكل، والشارب للشراب، أو محبة الألفة، أو محبة الصاحب لصاحبه، والزميل لزميله، أو محبة الشفقة والرحمة، كمحبة الوالد للولد، وما أشبه ذٰلك من المحاب. ومن ذٰلك أيضاً ما يكون بين الزوجين ليس من المحبة الدينية التي تكون من التعلق، بل هو أمر طبيعي طبعوا عليه؛ فهٰذه لا لوم علىٰ الإنسان فيها.

قوله: «**حرم ماله، ودمه، وحسابه علىٰ الله**» جعل الامتناع من القتال هو أن: يقول لا إلـه إلا الله، ويكفر بما يعبد من دون الله.

أما لو قال: لا إلـه إلا الله، ولم يكفر بما يعبد من دون الله؛ فإنه لا يمنع من القتال، ولا يكون ماله ودمه حراماً، فصار فيه أيضاً تفسيرٌ للتوحيد.

وقوله: «**وحسابه علىٰ الله**» يعني: أن الناس ليس لهم إلا الظاهر، أما ما في قلبه وما تنطوي عليه نيته؛ فهٰذا الذي يحاسب عليه رب العالمين ـ جل وعلا ـ، هٰذا معنىٰ «**وحسابه علىٰ الله**» يعني: إذا أظهر ذٰلك قُبِل منه، وما في نياته وأسراره؛ فهو أمر الله يحاسب عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣).

وشرح هـٰذا الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيّنها بأمور واضحة.

منها: آية الإسراء، بيّن فيها الرد علىٰ المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هـٰذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلـٰهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعُبَّاد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فاستثنىٰ من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هـٰذه البراءة وهـٰذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل علىٰ أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

أما قوله: «**وشرح هـٰذه الترجمة ما بعدها من أبواب**» كل الذي بعده من الأبواب فيه إما بيان الشرك، أو بيان نوع منه، أو بيان الواجبات التي تكمل التوحيد، فيكون التفسير بذكر الأمثلة، وذكر الواجبات، وذكر المكملات، أو ذكر المضادات، وذكر القوادح، هـٰذا هو التفسير الذي قصده.

ومنها: قوله ﷺ: **«من قال لا إلـه إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه علىٰ الله»**، وهـٰذا من أعظم ما يبيِّن معنىٰ «لا إلـه إلا الله» فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذٰلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذٰلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلَّها، ويا له من بيان ما أوضَحَهُ، وحجةٍ ما أقطعَها للمنازع.

باب
من الشرك لبس الحَلْقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

قوله «**الحلْقة**» هي كل ما تلاقىٰ طرفاه من خيوط، أو نحاس، أو صفر، أو ذهب، أو غيرها، سواء لبس أو لم يلبس، و«**الخيط**» ما وضع في القدم أو في الذراع أو العنق، والمقصود به معنىً من المعاني، ويطلق علىٰ الخيوط التي تكون من العهن ومن الصوف ومن القماش وغيرها.

وقوله: «**ونحوهما**» يعني: نحو الخيط والحلْقة، فلو لبس مثلاً حجراً أو عوداً أو نحو ذٰلك يقصد بذٰلك المنفعة لكان داخلاً فيما ذكر هنا، ثم القيد «**لرفع البلاء**» والبلاء هو الذي يكون نزل في الإنسان، فَيَلْبَس ما ذُكر لرفعه بعد نزوله، أو دفعه يعني: منع حصوله قبل وصوله إلىٰ الإنسان، بشرط هـٰذا الاعتقاد، فإذا فعل شيئاً من ذٰلك؛ لأجل رفع البلاء، أو تحويله، أو تخفيفه عن البدن، أو منعه قبل نزوله، فإنه قد أشرك؛ لأنه علق النفع بغير موجده، وغير مالكه الذي هو الله جل وعلا. فدل هـٰذا علىٰ أن الأمور منوطة بالمقاصد والنيات؛ لأن لبس الحلْقة والخيط ونحوهما قد يكون له مقاصد أخرىٰ لا يراد بها النفع ولا الدفع، فإن فعله لأجل الزينة أو حاجة أخرىٰ أو ما أشبه ذٰلك، فهـٰذا لا بأس به ويكون من المباح.

قــال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قال مجاهد: سألهم فسكتوا(١)؛ لأنهم يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر، وإذا

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٧/ ١٢١) معلقاً عن مقاتل، عن النبي ﷺ مرسلاً.

....

كانوا يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر فلماذا يتجهون إليها ويسألونها؟ لأنهم كانوا يعتقدون أنها مجرد وسائط تتوسط لهم عند الله، كما قال الله جل وعلا عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، والمعنى أن يشفعوا لنا فقط.

فسيأتي أيضاً الكلام ـ إن شاء الله ـ أن هٰذا هو أصل الشرك عند المشركين كلهم؛ لأنه لم يوجد مشرك في الناس له عقل ونظر يعتقد أن مخلوقاً من المخلوقات يشارك الله جل وعلا في التدبير والتسخير والخلق والإيجاد، ولهٰذا يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة] هل هناك أحد يشك أن الله قد خلقنا وخلق من قبلنا؟

الجواب لا يوجد أحد يشك في ذٰلك، والله هو الخالق، فهٰذا أمر أقروا به بلا شك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني: تتقون الشرك والتعلق بغير الله جل وعلا.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ يعني: جعلها مواطأةً يمكنكم الانتفاع بها، والسير عليها، ولم تكن مضطربة أو من نوع لا تستطيعونه من حجارة أو حديد أو ما أشبه ذٰلك. ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ كالفراش الذي تجلسون عليه، وتنتفعون به.

قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ لأنها فوقكم، هل أحد يشك أن أحداً شارك ربّ العالمين في إيجادها؟ هٰذا أمر متفق عليه أن الله ـ جل وعلا ـ هو المتفرد به.

قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وهٰذا من الآيات الباهرة الظاهرة التي يقرون بها، فلا يوجد أحد يشك بأن الله هو الذي أنزل الماء من السماء، وأنبت به النبات المتنوع المختلف الروائح والألوان

....

والطعم وغير ذٰلك، والماء واحد والتراب واحد، لا أحد يشك أن هٰذا فعل الله.

وقد يقول قائل: هٰذه الطبيعة؛ لأنهم ألفوا هٰذا الشيء، وصار عندهم كأنه شيء معتاد، ولٰكن هٰذا مركوز في طبائع الناس منذ وجدوا، حتىٰ إن الطفل مثلاً الذي لا يعقل شيئاً لو أن أحدهم ضربه ثم تقول له: اسكت ما أحد ضربك! لا يقتنع بهٰذا؛ لأنه يعلم أن الضرب صدر من ضارب، حتىٰ تقول له: سوف أعاقب الذي ضربك أي: أن الحدث له محدث، والأثر له مؤثر، شيء تدركه العقول، بل والفطر، بل أمر متفق عليه عند العقلاء حتىٰ عند البهائم.

قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أخرج بهٰذا الماء من الأرض ما تأكلونه وتتمتعون به أنتم وأنعامكم ومن أنواع الأشياء التي تنتفعون بها.

قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي تعلمون بأن الله هو المتفرد بما ذكر، ليس معه أحد يعاونه علىٰ ذٰلك، أو يشاركه فيه، أو يظاهره عليه علماً يقيناً لا تشكون فيه. ولهٰذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ يعني: في العبادة، والتوجه، والسؤال، وطلب النفع، ودفع الضر، لا تجعلوا معه أحداً تدعونه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه هو المالك لكل شيء، المتفرد به الذي أوجده. والقرآن كله تقريباً في هٰذا المعنىٰ، ولٰكنه بحاجة إلىٰ تأمل فقط، وهو واضح وجليّ، فلهٰذا هٰذه الآية نضيفها إلىٰ الآية التي تلوناها في سورة البقرة، وهٰذه الآية في سورة الزمر، الله يأمر نبيه ﷺ أن يتحدىٰ المشركين، ويقول لهم: أخبروني عما تعبدونه، والذي يعبدونه ما بين حجر، أو شجر، أو ميت، أو غائب، أو أمر موهوم من جن، أو ملك؛ أخبروني عن هٰذه كلها، هل إذا أرادني الله جل وعلا بضر من مرض، أو فقر، أو غير ذٰلك من أنواع الضر؛ هل تستطيع أن تكشف هٰذا الأمر أو تخففه أو أنها تحوله من مكان

عن عمران بن حصين رضي الله عنه ....

إلىٰ آخر؟ وإن أرادني برحمة من صحة، وغِنىً، ونصر، وإيمان وغير ذٰلك، هل تستطيع أن تمنع شيئاً من ذٰلك؟ سألهم عن هٰذا كما أمره الله جل وعلا فسكتوا، سكتوا لأنهم يعلمون أنها لا تفعل شيئاً؛ وذٰلك أنهم لا يريدون الحق، ولٰكن عندهم عقل، يريدون الشيء بلا دليل، ولهم فيه شبهة يتعلقون بها، وهٰذا لا شبهة فيه أصلاً.

أما وجه الاستشهاد في الآية؛ فهو واضح وظاهر؛ لأن طلب النفع والضر من الحلْقة والخيط ونحوهما من الأشياء هو من هٰذا القبيل، فهي لا تستطيع أن تمنع شيئاً، أو أن تدفع شيئاً، أو أن تجلب شيئاً من المنافع، فمن تعلق بها فقد تشبه بالمشركين، أو أخذ شعبة من الشرك، فيكون بذٰلك مشركاً، هٰذا هو وجه الاستدلال بالآية.

أما الحديث «**عن عمران بن حصين**» فقد رواه الإمام أحمد، ورواه غيره من أصحاب المسانيد ورواه الحاكم المستدرك وغيره، وصححوا إسناده، ولٰكن كعادة المؤلف رحمه الله يذكر الحديث من حفظه؛ لأنه ألّف هٰذا الكتاب في سفره، وليس عنده مكتبته والمراجع التي يرجع إليها، وعرضه علىٰ العلماء هناك، واستحسنوه جداً، فيذكر الأحاديث من حفظه، أحياناً يذكر اللفظ بالمعنىٰ القريب من اللفظ الذي ورد، وهٰذا الحديث والذي بعده من ذٰلك.

قال: «**عن عمران بن حصين**» وعمران بن حصين الخزاعي من أفاضل الصحابة، ومعروف أن الصحابة كلّهم عدول، وكلهم أتقياء، ولٰكن بعضهم أفضل من بعض، وقد اختارهم الله ـ جل وعلا ـ لصحبة نبيه، فهم خير الناس بعد الأنبياء والرسل بالنصوص التي ذكرت من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ أنه رضي عنهم، وأنه أعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار في آيات كثيرة، وشباب المسلمين بأَمَسِّ الحاجة إلىٰ أن يطلعوا علىٰ أحوالهم، وعلىٰ سِيَرِهم وعلىٰ ما كانوا عليه، حتىٰ يقتدوا بهم،

أن النبي ﷺ رأىٰ رجلاً في يده حَلْقة من صُفْرٍ، فقال: **«ما هـٰذه؟»** قال: من الواهنة. فقال: **«انزِعْها فإنها لا تزيدك إلا وَهْناً،** ....

ولا يجوز للمسلم ـ ولا سيما الشباب الذين يستقبلهم الأمر، وهم يعدون لأمر المستقبل ـ أن يعرفوا من سِيَرِ الكفار أكثر من معرفتهم لسير الصحابة رضوان الله عليهم، فإن هـٰذا عيب في الواقع ونقص كبير.

وعمران بن حصين كانت تُسَلِّم عليه الملائكة، تدخل عليه وتسلم عليه، فاكتوىٰ فامتنعت، وصارت لا تأتي إليه، فتاب وأقلع من ذٰلك، فعادت للتسليم عليه، أخبر بعض أهله، وحرّج عليهم، قال: لا تخبر أحداً حتىٰ أموت، خوفاً من أن يشار إليه أن فيه كذا وكذا، كعادة السلف.

قوله: «**أن النبي ﷺ رأىٰ رجلاً في يده حلْقة**» في «المسند» أتيت النبي ﷺ، وفي يدي حلْقة، فالرجل هنا الذي أبهمه هو نفسه عمران بن حصين.

قوله: «**حَلْقَة من صُفْرٍ**» والصفر هو نوع من المعادن، ولا يزال يعرف بهـٰذا الاسم، **فقال:** «**ما هـٰذه؟**» استفهام، ويجوز أن تكون (ما) إنكارية والأقرب أنها استفهامية، ويكون هـٰذا دليلاً علىٰ ما قلنا في الترجمة أن الشيء الذي يلبس إذا كان لمقصد النفع والضر، فهو من الشرك، أما إذا كان لأمر آخر؛ فإنه يكون من المباح.

قال: «**ما هـٰذه**» يعني: ما مقصودك من لُبْسها ووضعها في يدك؟ قال: «**من الواهنة**» يعني: من أجل الواهنة، والواهنة يقولون: مرض يأخذ الرجل من كتفه إلىٰ أسفل رجله، ويزعمون أنه لا يأخذ إلا الرجال، لا يأتي النساء، فإذا لبسوا هـٰذه؛ إما يخفف عنهم، أو يزيلها، أو يمنع حصولها، ولا يزال كثير من الناس يزعم أن هـٰذا المرض موجود، ويسمونه بهـٰذا الاسم (الواهنة)، ويكتوون منه، ويفعلون أفعالاً الظاهر أنها موروثة عن الجاهلية، هي وما يسببها، فقال: «**انزِعها**»، لفظ الحديث «**انْبِذْها فإنها لا تزيدك إلا وَهْناً**».

فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً رواه أحمد بسند لا بأس به[(١)].

وقوله: «**انبِذْها**» أبلغ من قوله: «**انزعها**»، فالنَّبْذُ هو الطرح البعيد، اطرحها بعيداً عنك، وقوله: «**انزِعْها**» يعني: أَزِلْها من يدك، والمعنىٰ متقارب، غير أن «**انبذها**» أبلغ.

وقوله: «**فإنها لا تزيدك إلا وَهْناً**» يعني: وهناً في عقيدتك، ووهناً عند ربك، ووهناً حتىٰ في جسمك، وقد يقال: كيف تزيده وهناً، وهي لا تنفع ولا تضر؟

نقول: لأن الله ـ جل وعلا ـ أجرىٰ العادة أنه يجزي الإنسان بنقيض قصده إذا كان مخالفاً لأمره ـ جل وعلا ـ، وهٰذا أمر مجرّب، وعلىٰ هٰذا يكون الأمر علىٰ ظاهره، تزيده وهناً عقوبةً من الله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه تعلق بغير الله ـ جل وعلا ـ. والوهن هو الضعف.

ثم قال: «**فإنك لو مت وهي عليك: ما أفلحت أبداً**»، والفلاح هو الظفر والسعادة، الظفر بالمقصود، والسعادة بالفوز بالنعيم، واندفاع الألم المؤذي.

ظاهر الحديث أن هٰذا من الشرك الأكبر؛ لأن الذي لا يفلح أبداً لا يكون الذي منعه من الفلاح الأبدي الشرك أصغر، وإذا كان من الشرك الأصغر؛ فكيف نقول بقوله هنا: «**ما أفلحت أبداً**» من التأبيد للمستقبل، فيقال: إن هٰذا يختلف باختلاف العقيدة فإذا كان يرىٰ أنها هي التي تجلب النفع، وترفع الضر، فهٰذا لا يكون أصغر، بل هٰذا من الأكبر، وهٰذا الذي يقتضي عدم الفلاح أبداً، وهٰذا هو الظاهر، وفي هٰذا دليل علىٰ أن التعلق لجلب النفع ودفع الضر بالجمادات أو الخيوط أو غيرها؛ من الشرك، وهٰذا

---

(١) «مسند أحمد» (١٩١٤٩)، وأخرجه ابن ماجه (٣٥٢٢) بلفظه بدون زيادة «**فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً**».

....

يجب أن يعلم بذٰلك المقصد، ولا يقال: إن هٰذا من الأسباب؛ لأن الأسباب تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: أسباب جعلها الله أسباباً في الشرع وفي القدر، فهٰذه تفعل، فلا ينبغي للإنسان أن يفرط في ذٰلك، بل يفعلها، ولٰكن عليه أن يجتهد ويحرص علىٰ النافع منها.

القسم الثاني: أسباب لم يجعلها الله أسباباً، أو أنها أسباب محرمة، كسبب النفع مثلاً، والانتفاع إما بمال أو بمعنىً، فقد قال الله ـ جل وعلا ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فإذاً هٰذا من أسباب النفع، ولٰكنه سبب محرم، فلا يجوز الإقدام عليه، وكذٰلك الزنا، وشرب الخمر، وما أشبه ذٰلك، فضرره أكبر من نفعه، فلا يكون سبباً شرعياً، ويكون ممنوعاً يجب أن يبتعد عنه الإنسان.

أما الأسباب التي تكون في المنافع التي تجلب أو يرجىٰ إزالتها بعد حصولها؛ فهٰذا يتعلق بعقيدة القلب، وهٰذا في الغالب يكون شركاً، فإن مسبب الأسباب هو الله، وإن كانت الأسباب ظاهرة وجلية، مثل كون الإنسان يتزوج لطلب الولد. هٰذا السبب جعله الله سبباً شرعياً وقدراً، ولٰكن لا يلزم أن يحصل المقصود؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ قد يمنع السبب، وقد يجعله غير مؤثر. فالأمور كلها بيد الله ـ جل وعلا ـ، فيجب علىٰ العبد أن يعتقد هٰذا، ولهٰذا صار الاعتماد علىٰ السبب شركاً، وتعطيلُ السبب الشرعي قدحٌ في العقل وفي الشرع أيضاً، فيجب أن تفعل الأسباب، ولا يعتمد عليها إذا كانت أسباباً شرعيةً، ومنها الاعتماد علىٰ رب العالمين. فإذا تبين هٰذا فإذاً مثل الأدوية والعلاجات سبب، ولٰكن ليس كل ما اعتقد أنه دواء وعلاج يكون سبباً، فلا بد أن تستبين الأمور، ويظهر فيها التجربة، والشيء الظاهر الذي لا يخالف الشرع، ولا يخالف أمر الله ـ جل وعلا ـ، فإن تبين ذٰلك؛ فهو سبب،

وله عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومن تَعَلَّقَ وَدَعَةً فلا وَدَعَ الله له»(١).

ومع ذٰلك يفعل ولا يعتمد عليه، وإنما الاعتماد علىٰ مسبب الأسباب ـ جل وعلا ـ؛ لأنه جعل لكل شيء سبباً.

ثم يقال أيضاً: ظهر في الآونة الأخيرة أن كثيراً من الناس يلبَس بعض السلاسل التي تكون من النحاس أو غيره، ويزعم أن هٰذا يمنع الروماتيزم، أو يخفف، ويقول: إن البدن فيه شحنات كهربائية، وإن هٰذا يمنعها، أو يخففها، أو يزيلها، فيكون فيها الشفاء، فهل هٰذا أمر متفق عليه؟ ثم إذا صار الشيء يشابه الشيء الممنوع، وفيه شبهة، وفيه تعلق للجهال وغيرهم يكون ممنوعاً لأمور:

الأمر الأول: أنه وسيلة إلىٰ الشرك.

الأمر الثاني: أنه شبهة لمن لا يعرف ذٰلك، فيُقدم علىٰ هٰذا الشيء، ومثال ذٰلك الآية التي تلوتها في الخمر والميسر، فأثبت الله ـ جل وعلا ـ أن فيها منفعة، ومنع من ذٰلك؛ لأن الضرر فيها أكبر من النفع، فكذٰلك لو قُدّر ـ من باب الفرض ـ أن هٰذا كما يقال؛ قيل: إنه ممنوع لهٰذه الأمور.

ثم قال: «وله» يعني: الإمام أحمد «**عن عقبة بن عامر مرفوعاً: من تعلق تميمة: فلا أتم الله له، ومن تعلَّق ودعة: فلا ودع الله له**»، التميمة مأخوذة من أنه يتم مراد المعلق لها، يقال: تميمة، حتىٰ يتم مراده ومقصوده وهو الشفاء، كما أنهم يسمون اللديغ سليماً تفاؤلاً بأنه يسلم، وهٰذا كثير في خطاباتهم، وهٰذا منه.

وقوله: «**فلا أتم الله له**» يحتمل أمرين:

الأمر الأول: يحتمل أنه دعاء عليه بأن لا يتم مقصوده، ولا ينال مراده،

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٦٣).

وفي رواية: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[(١)].

والدعاء من النبي ﷺ علىٰ من يستحقه يدل علىٰ أن الفعل محرم، وهٰذا أقل ما يقال فيه، ولٰكنه هنا سيأتي أنه من الشرك.

الأمر الثاني: يحتمل أنه خبر بأنه لا يتم مراده، فلا أتم الله له، والخبر لابد من صدق مخبره؛ يعني: لأنه لا يتم حقيقة، ولا يتم مراده، فيكون هٰذا أبلغ مما لو كان دعاء.

وقوله: «**ومن تعلق**» كلمة (تَعَلَّق) الغالب أنها تطلق علىٰ فعل القلب، وعلىٰ عقيدته، بخلاف (علّق)، فالغالب أنه يطلق علىٰ الفعل نفسه الذي يصدر من الإنسان، فتعَلَّق يعني: تعلق قلبه بذٰلك، «**ومن تعلق ودعة**»، الودعة هي شيء يستخرج من البحر يعلقونه علىٰ البهائم يزعمون أنه يمنع عين الإنسان، ويمنع عين الجن، وهٰذه أمور وهمية تتبع عقيدته، لهٰذا قال: «**فلا ودع الله له**»، المعنىٰ: لا جعله الله في دَعَةٍ وسَعَةٍ، بل يعامل بنقيض قصده، فيجعله في ضيق وحرج، وهٰذا ـ كما تقدم ـ يحتمل أن يكون دعاء، ويحتمل أن يكون خبراً، والظاهر أنه خبر من النبي ﷺ ليعلم سر ذٰلك، وهٰذا هو الواقع لمن تعلق بغير الله ـ جل وعلا ـ أنه يعامل بنقيض قصده.

وقوله: «**وفي رواية**» هٰذا حديث آخر ليس رواية في الحديث كما يوهمه قوله: «وفي رواية».

قوله: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»، وهٰذا صريح في أنها شرك، والشرك يحتمل أن يكون شركاً أصغر، ويحتمل أن يكون أكبر، فإن كان يعتقد أنها سبب، وأن الأمر كله بيد الله؛ فهٰذا من الشرك الأصغر، والشرك الأصغر لا يتساهل به، فإنهم يقولون: هو أكبر من الكبائر، أما إذا اعتقد أنها تنفع بنفسها، وتدفع بنفسها؛ فهٰذا شرك في الربوبية، وهو كذٰلك شرك في الألوهية؛ لأن قوله: «**تعلق**» اعتقد ذٰلك، هٰذا شرك في الربوبية، وكون قلبه

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٨١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٢١)، بلفظ: «من علق».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأىٰ رجلاً في يده خيط من الحُمَةِ، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف][(١)].

تعلق به يكون شركاً في الألوهية، فيكون جمع بين الشرك في الربوبية، وفي الألوهية.

قال: **«ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأىٰ رجلاً في يده خيط من الحُمَة»** يعني: من أجل الحمة، وضع الخيط في يده ليخفف ألم الحمة، أو يزيلها، أو يمنعها، **«فقطعه، وتلا قول الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾»** هٰذا جاء أوضح مما ذكره المؤلف هنا عن ابن أبي حاتم وغيره أن حذيفة زار مريضاً، فوضع يده علىٰ عضده كعادة زائر المريض، يمسه يراه هل عليه حرارة، أو حتىٰ يسأله ويطمئنه ويواسيه في ذٰلك؛ لأن هٰذا من الأمور التي عرف أنها تخفف عن المريض، تشجعه في نفسه؛ لأنه إذا تشجع في نفسه يقاوم المرض أكثر، وهٰذا شيء مجرب ومعروف، لهٰذا إذا قلت لإنسان أنت مريض، أنت كذا وكذا؛ زاده مرضاً، بخلاف ما إذا قلت له: أنت طيب إن شاء الله؛ يجد نفسه عنده خفة، وهٰكذا، وإن كانت أموراً وهمية، ولٰكن الكلام الذي ينفع أحسن من الكلام الذي قد يكون عكس ذٰلك. فكان هٰكذا عادتهم، فوضع يده علىٰ عضده، فمس الخيط فسأله، قال: ما هٰذا؟ قال: إنه من الحُمَة، فقطعه، وهٰذا يدل علىٰ إنكار المنكر باليد وإزالته.

وجاء أنه قال: «لو مت وهو عليك ما صليت عليك»، هٰكذا قال له «لو مت وهو عليك» يعني: ما أزلته، «لم أصلِّ عليك»، وهٰذا يدل علىٰ العقاب، فيعاقب ولو بترك الصلاة عليه، حتىٰ يرتدع غيره.

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ فيه أن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٨٧٢).

فيه مسائل:

الأولىٰ: التغليظ في لُبس الحَلْقة والخيط ونحوهما لمثل ذٰلك. **الثانية**: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد من كلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. **الثالثة**: أنه لم يعذر بالجهالة. **الرابعة**: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضره لقوله: «لا تزيدك إلا وَهْناً».

السلف يستدلون علىٰ ما نزل في الشرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر؛ لأنه داخل فيه، بخلاف الذي يقول: كيف تستدل عليّ بما نزل في الكفار والمشركين، وأنا أصلي، وأقول: لا إلـٰه إلا الله، وكذا وكذا، فينكر أشد الإنكار لهٰذا، وهٰذا من الجهل في الواقع.

قوله: «**أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر**» هٰذا يعني: أنه شرك أصغر أي: لبس الحلقة لهٰذه الأمور، وهٰذا فيه تفصيل كما سبق.

قوله: «**أنه لم يعذر بالجهالة**» لم يعذره الرسول ﷺ بجهالته، وقال له: «**لو مت ما أفلحت أبداً**» وهٰذه مسألة كثر اضطراب الناس فيها؛ يعني: العذر بالجهل، وصار فيها ارتباك، وتحتاج إلىٰ تفصيل، فالعذر بالجهل لا يكون بالأمور العامة الظاهرة المنصوص عليها أو التي تدرك بالعقل، وبالذوق، وبالأدلة الظاهرة، لا عذر لأحد في هٰذا بجهله، بل بعض العلماء يقول: النصوص التي جاءت في كتاب الله، وفي حديث الرسول ﷺ، لا عذر لأحد في مخالفتها.

أما الجهل الذي يُعذر صاحبه؛ فهو في الأمور التي ليس فيها نصوص ظاهرة، بشرط أن يبذل جهده في طلب الحق، فإذا عجَز؛ فهو معذور، أما إنسان يُعرِض ولا يبحث ولا يسأل ويقول: أنا ما أدري!! هٰذا لا يعذر؛ لأنه ما بذل ما يجب عليه.

قوله: «**أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضره**» تقدم معنىٰ هٰذا؛ يعني: حتىٰ

الخامسة: الإنكار بالتغليظ علىٰ من فعل مثل ذٰلك. **السادسة**: التصريح بأن من تعلق شيئاً وُكِلَ إليه. **السابعة**: التصريح بأنه من تعلق تميمة فقد أشرك. **الثامنة**: أن تعليق الخيط من الحمة من ذٰلك. **التاسعة**: تلاوة حذيفة الآية دليل علىٰ أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر علىٰ الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة. **العاشرة**: أن تعليق الودع عن العين من ذٰلك. **الحادية عشرة**: الدعاء علىٰ من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له؛ أي: لا ترك الله له.

لا يقال: كيف لا تزيد إلا وهناً، معناها إذاً فيها ضرر.

قوله: «**التصريح بأن من تعلق شيئاً وُكِلَ إليه**»: يعني: أن الله يتخلىٰ عنه، ومن تخلىٰ الله عنه؛ فهو هالك ولا شك، فالله ـ جل وعلا ـ هو الذي يحفظ عباده، وهو الذي يربيهم بربوبيته العامة، فإذا ترك الإنسان وما تعلق به؛ تولته الشياطين، وتولاه أعداؤه، فلا بد من هلاكه، والمصيبة أنه ينتقل من شر إلىٰ شر، وهو يرىٰ أنه علىٰ خير، فهٰذا من أشد العقوبات، نسأل الله العافية.

قوله: «**الدعاء علىٰ من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة: فلا ودع الله له: أي: لا ترك الله له**» يعني: أن المؤلف يرىٰ أن قوله: «**فلا ودع الله له**»، «**ولا أتم له**» علىٰ أنه دعاء من الرسول ﷺ.

باب
ما جاء في الرقىٰ والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً ....

قال: «**باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم**»، قد فسر الرقىٰ والتمائم، فقال: «**الرقىٰ هي العزائم**» يعني: القراءة علىٰ المريض، والتمائم هي التي تكتب وتعلق علىٰ المريض، أو تتخذ وتجعل في مكان يزعم أنها تمنع المرض أو تزيله أو تخففه، لما كان هٰذا فيه تعليق هٰذه، وفيه خلاف؛ ما جزم بحكمها، فقال: «**باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم**»؛ يعني: مما جاء من النصوص فيها.

فعلىٰ طالب العلم أن يستنتج الأحكام من النصوص، فلم ينصّ علىٰ أنها حرام، أو أنها من الشرك، لأجل ما فيها من التفصيل والخلاف.

وقوله: «**في الصحيح**» يعني: في الحديث الصحيح، فلا يعترض عليه أن هٰذا الحديث في الصحيحين: البخاري ومسلم، وهٰذا استعمله كثيراً، والسبب أنه رحمه الله ألّف كتابه في سفره، فذكر هٰذه من حفظه.

قال: «**عن أبي بشير الأنصاري**» أبو بشير الأنصاري لا يعرف له اسم، فإنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، لم يعيّن السفر ما هو؛ لأنه لا فائدة لنا في تعيينه، وإنما أسفاره كلها إما بالغزو والجهاد، وإما بالحج والعمرة فقط، هٰذه أسفاره بعد بعثته ، ولم يسافر لغير هٰذا أصلاً، فإذاً أسفاره تكون معلومة: إما أنه في سفر في غزو للعدو وقتال في سبيل الله، أو في ذهابه إلىٰ العمرة والحج.

يقول: «**فأرسل رسولاً**» الرسول جاء تعيينه أنه أسامة بن زيد، أرسله يبلغ الناس، ويصوت فيهم: «**ألا لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا**

«أنْ لا يَبْقَيَنَّ في رقبةِ بعير قلادةٌ من وَتَرٍ أو قلادة إلا قطعت»[١].

قطعت» لأن سفر الرسول ﷺ يجب أن يكون كله طاعة، وليس فيه شيء مما يكون سخطاً لله ـ جل وعلا ـ ظاهراً، أما الأمور الباطنة التي تكون في القلوب وغيرها؛ فهٰذه أمرها إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، ولهٰذا لما لَعَنَتِ المرأةُ التي كانت مسافرةً معه ناقتُها؛ قال: **«خذوا ما عليها، ودعوها، لا تصحبنا ناقة ملعونة»**[٢]، وإن كانت الناقة لا ذنب لها، ولٰكن هٰذا عقاب للفاعل، وأن اللعنة قد يكون لها أثر قبيح.

وقوله: «لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة» هٰذا شك من الراوي، هل جاء ذٰلك مقيداً بأنه من وتر، أو أنه مطلق، قال: قلادة فقط يعني: يعم، ما يكون في رقبة البعير؛ لأنه يكون قلادة، والظاهر أنه مقيد، والسبب أنهم كانوا يعتقدون أن تعليق الوتر في البعير يمنع العين، وهٰذا شيء مشهور عنهم، وهٰذا الذي أراد أن يبينه لهم، أن هٰذا لا أثر له، فيزال كل ما فيه تعلق بغير الله، يجب أن يبعد، فالتعلق يجب أن يكون بالله ـ جل وعلا ـ.

أما القلادة المطلقة؛ فيكثر أن يحزم في رقبة البعير حبل إما ليقاد به، أو ليعقل به، أو لأغراض أخرىٰ، فهٰذا لا بأس به، ولهٰذا لما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ عن ذٰلك؛ قال: لا أعرف المنع من القلادة إلا إذا كانت من وتر.

وقوله: «إلا قطعت» يعني: أزيلت، ومنع أن يفعل بالبعير هٰذا الشيء، ومعلوم أن البعير لا دخل له فيه، وإنما صاحبه هو الذي يمنع ذٰلك، ومثل ذٰلك غير البعير، كالبيت والسيارة وما أشبه ذٰلك، كون الإنسان يضع شيئاً ينتظر أن يكون منه نفع أو دفع من جن أو عين فهٰذا يدخل في هٰذا، فالأمر لا يقتصر علىٰ شيء معين، ودل علىٰ أن هٰذا من التمائم؛ لأن التميمة كل ما علق علىٰ الإنسان لأجل جلب النفع أو دفع الضر، سواء فيه قراءة أو ليس فيه، كتابة أو غير ذٰلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (٣٥٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٩٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقىٰ والتمائم والتِّوَلة شرك**» رواه أحمد وأبو داود[1].

قال: «عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقىٰ، والتمائم، والتولة شرك» فسر المؤلف هٰذا الحديث، قال: الرقىٰ: هي العزائم، والعزائم ما يقرأ الناس فيه أو يكتبونه، ثم هٰذا قد يكون معلقاً، وقد يكون غير معلق. والتمائم: هي ما يعلق.

والتولة قال: «هو نوع تضعه النساء تزعم أنه يحبب زوجها إليها، أو يوضع لأجل أن تحب الزوجة زوجها» فهو نوع من أنواع السحر، والسحر لا يكون مؤثراً إلا بواسطة الشياطين، ولا يكون سحراً إلا بذٰلك، ومعنىٰ بواسطة الشياطين؛ أي: أن الشيطان لا يأتي بالمؤثرات الضارة أو يمنع شيئاً إلا إذا عُبد أو فُعِلَ فعلٌ فيه كفر بالله، كما هو الواقع الآن من السحرة، إما أن يبول علىٰ المصحف، أو يمزقه، أو يدوسوه بأقدامهم، أو يلقوه بالقاذورات، أو يذبحوا للشياطين إما ديكاً أو دجاجة أو خروفاً أو غير ذٰلك، أو يسجدوا له، فإذا صنعوا شيئاً من ذٰلك؛ أطاعهم، وفعل بعض ما يريدون، وقد يفعل أشياء كما يريدها الساحر، ولٰكن ما يمكن أن يفعل الشيطان شيئاً إلا بهٰذا، وهٰذا أمر عرف وجرب وعلم.

والآن ظهرت أشياء كثيرة من هٰذا القبيل، كل ساحر يُتتبع ويُرىٰ إذا هو يصنع هٰذه الأشياء، هٰذه الأمور كفرية؛ لأن الشيطان لا يرضىٰ للإنسان دون أن يكفر ويشرك بالله ـ جل وعلا ـ، فإذا فعل ذٰلك؛ استجاب له، وجاء له ببعض الشيء الذي يريده أو كله، ولهٰذا صار الصحيح من أقوال العلماء أن السحر شرك، ولا ينفك عن الشرك؛ لأنه يكون بهٰذه الواسطة أما السحر الذي يكون بالتدخين وبالرقىٰ وبالعلاجات والأدوية وما أشبه ذٰلك، فهٰذا نوع من السحر، ليس هو السحر الحقيقي، ومنه ما تضعه المرأة فتحبب إليها

---

(١) «مسند أحمد» (٣٤٣٣)، «سنن أبي داود» (٣٣٨٥)، وأخرجه ابن ماجه (٣٥٢١).

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: **«من تعلق شيئاً وكل إليه»** رواه أحمد والترمذي[١].

زوجها هو نوع منه ومن أضعفه هٰذا. وكله أيضاً بواسطة، الشياطين، وإلا فالشياطين لا تأتي وتستجيب إلا إذا كفر الإنسان.

وقوله: «عن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: من تعلق شيئاً؛ وكل إليه» أقول: إن الخلاف الذي في الرقىٰ أشار إليه المؤلف، وهٰذا الحديث حديث عبد الله بن عكيم **«من تعلق شيئاً؛ وكل إليه»** هيدل علىٰ العموم، والتعلق مثل ما سبق هو فعل القلب، فإذا تعلق قلب الإنسان علىٰ مخلوق؛ وكل إلىٰ ذٰلك المخلوق، ومن وكل إلىٰ مخلوق؛ فقد وكل إلىٰ ضيعة، وإلىٰ ضعف، وهلك وتركه الله ـ جل وعلا ـ، ولهٰذا لا بد للمسلم أن يكون تعلقه بالله في كل شيء، ولا يجوز أن يقول: أنا أعتز بنفسي، أو أنا ماهر وكذا، أو أنا أعتمد علىٰ نفسي، أو يقول: لا تعتمد أنت علىٰ فلان، واعتمد علىٰ نفسك، هٰذا ضلال، من اعتمد علىٰ نفسه ضاع، يجب أن يكون اعتمادك علىٰ ربك ـ جل وعلا ـ، ليس علىٰ نفسك، ولا غيرك.

وكان الرسول ﷺ يدعو عند القتال: **«اللهم بك أصول وأجول وأقاتل»**[٢]، **«اللهم رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عينٍ، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»**[٣] فهٰذا الذي ينبغي أن يكون، الإنسان يتعلق بالله، ويتبرأ من حوله وقوته، وكذٰلك لا يتعلق علىٰ أحد من الخلق، لهٰذا قال: **«من تعلق شيئاً؛ وكل إليه»**، ومن وكل إليه؛ فإنه يهلك أو يضيع ولا بد، وخبر الرسول ﷺ حق لا يتخلف عن مخبره.

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٠٣٠)، «جامع الترمذي» (١٩٩٨)، وأخرجه النسائي (٤٠١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٢) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٤٢٦) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

التمائم: شيء يعلق علىٰ الأولاد يتقون به العين، لٰكن إذا كان المعلق من القرآن؛ فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

وقوله: «التمائم شيء يعلق علىٰ الأولاد» قال: «شيء» حتىٰ يدخل فيه كل ما يعتقد، وإلا فالغالب أنه كتابة، وقد يكتب فيها طِلَّسْمات، وقد يكتب فيها أسماء الشياطين، وقد يكتب فيها قرآن وأسماء الله، وقد يخلط، وهي العادة أن أهل الانحراف والذين يقصدون ابتزاز أموال الناس يوهمونهم أنهم يكتبون آيات الله وأسماءه، فيكتبون شيئاً من الآيات إما آية الكرسي أو غيرها، ثم يخلط معها أسماء شياطين، أو خطوطاً لا تدل علىٰ شيء، وقد يكون له مقصود فيها، إما أنها اسم شيطان، أو ما أشبه ذٰلك، فتكون من الممنوع.

أما إذا كانت الكتابة التي توضع بالكاغد أو بالورق أو بغيره، وتعلق من آيات الله ومن أسمائه خالصة؛ فهٰذه التي فيها خلاف عند العلماء.

اختلف العلماء هل تجوز أو لا تجوز، علىٰ قولين:

القول الأول: أن هٰذا جائز ولا بأس به، ويروىٰ هٰذا عن عبد الله بن عمرو إذا صح الحديث، وبعض العلماء قدح فيه، وهو أنه كان يعلم أولاده الدعاء الذي روي عن النبي ﷺ: **«أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة»**(١)، يعلمه الصبي إذا كان يحفظ ويعقل، والذي لا يحفظ ولا يعقل كان يكتبه ويعلقه علىٰ رقبته، قالوا: هٰذا دليل علىٰ جواز التعليق، ولٰكن هٰذا فيه إجمال في الواقع، وليس صريحاً، ولٰكن قال بعض الشّراح: وهو يكتبه في ورقة أو في لوح حتىٰ يحفظه ويردده حتىٰ يحفظه، وليس يكتبه لأنه يكون تميمة. أما ما روي عن عائشة؛ فهو أيضاً فيه ضعف.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

....

القول الثاني: أنه غير جائز، روي عن ابن عباس وابن مسعود وعبد الله بن عكيم وحذيفة وغيرهم أنه من الشرك، وقد جاء ذلك صريحاً عنهم.

قد يقال أيهما أرجح؟

نقول ـ والله اعلم ـ: إن الراجح المنع؛ لعدة أمور:

الأول: إن الأحاديث جاءت عامة «**من تعلق شيئاً: وكل إليه**»، و«**من تعلق تميمة: فقد أشرك**»، فلم يأت فيها الاستثناء إذا كان من القرآن أو من الأحاديث، فالذي يمنع يكون هذا دليله، وهو أقوىٰ، وقول الرسول ﷺ، هو المعتمد.

الثاني: أن تعليق ذلك ـ وإن كان جائزاً ـ يكون وسيلة إلىٰ ما لا يجوز، وما كان وسيلة إلىٰ الشرك يجب أن يمنع كما هي قاعدة الشرع.

الثالث: أن هذا إذا عُلّق لا يسلم من الامتهان، فإما أن يدخل فيه الحمام، أو يقضي حاجته وهو عليه، أو يجعله ينام عليه، أو ما أشبه ذلك من الامتهان.

وبالمناسبة يجب أن تعظم آيات الله ﷻ هذا بإجماع العلماء ـ أي: القرآن ـ، فلا يجوز أن تتخذ الآيات وسيلة للزينة أو الاستعمال للنفع الدنيوي الخاص؛ لأن هذا لا يكون من تعظيم آيات الله، كأن تكتب مثلاً للحيطان أو ما أشبه ذلك، وكذلك المصحف يجب أن يعظم، وهذا بإجماع العلماء، فلا يجوز أن يستدبره الإنسان، ولا يمد رجله إليه وما أشبه ذلك. وكذلك لا يجوز أن يضعه علىٰ الأرض كما يفعله كثير من الناس يقرأ فإذا وصل إلىٰ سجدة وضعه علىٰ الأرض فسجد، لا نقول: إن الأرض نجسة، ولكن نقول هذا ليس من التعظيم، كونك تضعه علىٰ شيء تمشي عليه بقدميك يجب أن تعظم كتاب الله، وترفعه فوق، ما تضعه علىٰ الشيء الذي يكون فيه عدم التعظيم. علىٰ كل حال هذا من باب التنبيه فقط؛ لأن هذا يقع كثيراً، فهذه الأمور تدل علىٰ المنع، وهو الراجح والله أعلم.

والرقىٰ: هي التي تسمىٰ العزائم.

وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمة.

والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها، والرجلَ إلىٰ امرأته.

روىٰ أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا رويفع! لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس** ....

وقوله: «وخص منه الدليل» يعني: من الرقىٰ **«ما خلا من الشرك»** يعني: هٰذا خال عن التمائم، **«فقد رخص فيه الرسول ﷺ من العين والحمة»**، وكذٰلك من غير العين والحمة، بل الراجح أن الرقية مستحبة؛ يعني: كون الإنسان يرقي نفسه؛ هٰذا مستحب؛ لأن الراقي يرجو من ربه ـ جل وعلا ـ بذكر آياته وأسمائه الحسنىٰ الشفاء، والله ـ جل وعلا ـ أخبر أن كتابه شفاء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، فالصحيح أن ﴿شِفَآءٌ﴾ هنا مطلق، شفاء للقلوب والشبهات، وشفاء للأبدان، والذي يقول: إنه شفاء للقلوب فقط، ولا يجوز أن نستشفي به من الأمراض؛ لا دليل له علىٰ ذٰلك؛ لأن الدليل علىٰ خلاف هٰذا، أما التولة فقد فسرت.

قال: «روىٰ أحمد عن رويفع»، رويفع طالت به الحياة كما أخبر الرسول ﷺ، وهٰذا ليس خاصاً برويفع، فكل من كان عنده علم من كتاب الله وسنة رسوله؛ يجب أن يخبر الناس إذا احتاجوا إليه، فيجب وجوباً، ليس معنىٰ ذٰلك أنه مستحب؛ لأن بعض الناس يقول: إن هٰذا يجب أن يخبر به؛ لأنه يحتاج إليه، والصحيح أنه يجب أن يخبر بكل ما علم من كتاب الله وسنة رسوله، من كان عنده ذٰلك يخبر الناس به، ولا يجوز كتمان العلم، فمن كتمه؛ فقد وعد بوعيد عظيم.

وقوله: «فاخبر الناس» يدل علىٰ الوجوب، كما هو معروف.

أن من عقد لحيته، أو تقلد وَتَراً، أو استنجىٰ برجيع دابة ....

قوله: «من عقد لحيته» عقد اللحية فسر بتفسيرين:

التفسير الأول: معالجة الشعر حتىٰ يتعقد ويتجعد، تشبهاً بالنساء، وتزييناً في المناظر؛ لأن هٰذا يكون من باب التخنث، والتشبه بالنساء، فلا يجوز أن يفعل ذٰلك، هٰذا تفسير.

التفسير الثاني: أنهم كانوا يصنعونه عند القتال، يعقدونها عقداً ظاهراً، ويجعلونها بصفة مشوهة حتىٰ يكون منظره كريهاً ومخيفاً، فمن لقيه خافه، وكان هٰذا أتىٰ من بعض الأعاجم، كانوا يصنعون هٰذا، فنهىٰ رسول الله ﷺ عن فعله؛ لأن فيه شوهة، وفيه خلاف ما عليه الرسول ﷺ، وهو الذي يجب أن يقتدىٰ به.

ثم التخويف يجب أن يكون بالطرق الشرعية التي أمر الله ـ جل وعلا ـ بها، وهي الاستنصار به، واتباع الحق، فإذا كان الإنسان بهٰذه الصفة؛ فإنه لا بد أن يكون له مهابة، يكون له خوف، وله رعب في قلوب المشركين.

وفسره ابن أبي زرعة بتفسير ثالث غير هٰذا، قال: إن المقصود به عقد اللحية في الصلاة كما جاء في النهي كف الشعر والثوب فيها، فهو من هٰذا، والله أعلم.

وقوله: «أو تقلد وتراً» سبق معنىٰ تقليد الوتر، وأنهم كانوا يتقلدونه لمنع العين.

قوله: «أو استنجىٰ برجيع دابة» والاستنجاء: إزالة النجو أي: أثر الحاجة إذا قضاها، أي: يزيل ذٰلك بدمن الإبل أو الحمار أو غيره، فإن هٰذا ممنوع، أما إذا كان حماراً؛ فهو كما جاء في حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: إنه رجس[١]، وأما إذا كان مما يؤكل لحمه فهو طاهر، ولٰكن

(١) أخرجه البخاري (٥٢٠٨)، ومسلم (١٩٤٠).

أو عظم، فإن محمداً بريء منه»[١].

وعن سعيد بن جبير ﷺ قال: «من قطع تميمة من إنسان؛ كان كعدل رقبة» رواه وكيع[٢].

ممنوع عن ذٰلك شرعاً، والسبب في هـٰذا كما جاء في الحديث أن مؤمني الجن أتوا إلىٰ النبي ﷺ وسألوه الطعام لهم ولدوابهم، فقال: «**لكم كل عظم ذكر عليه اسم الله تجدونه، أوفر ما كان لحماً**»[٣] فنهىٰ أن يفسد عليهم العظام، فلا يجوز أن يفسد، وعلىٰ هـٰذا ليس هـٰذا خاصاً بالاستنجاء، فإذا بال عليه، أو أصابه بقذر يدخل في هـٰذا.

قوله: «**إن محمداً بريء**» البراءة ممن هنا؟ يقول النووي: البراءة من فعله، فهل يكون هـٰذا صحيحاً؟ هـٰذا تأويل، والواجب أن يرجع الفعل إليه أي إلىٰ الفاعل ليس إلىٰ الفعل؛ لأن النبي ﷺ قال: «**بريء منه**»، والبراءة منه كونه لا يتولاه، ولا يكون له أمان المؤمنين، وهـٰذا أمر شديد وهـٰذا هو الظاهر.

قال: «**وعن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان؛ كان كعدل رقبة**» يعني: كأنه أعتق رقبة، وذٰلك أن التميمة من الشرك، والشرك إذا وقع فيه الإنسان؛ فإنه علىٰ خطر عظيم، فإذا قطعها وأخبره وعلّمه؛ خلصه من أسباب العذاب، فيكون كأنه أعتقه، وليس مجرد قطع، كونك تقطعها وتسكت، لا بد أن تعلمه، وتخبره، وتدله علىٰ أن هـٰذا لا يجوز.

أما مجرد القطع فقط والسكوت فلا يكون له أثر، وربما أتىٰ بالعكس.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٨١، ١٦٣٨٢، ١٦٣٨٦)، وأبو داود (٣٣)، والنسائي (٤٩٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/٤٢٨)، والقاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (٧٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (٦٨٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن»[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الرقىٰ والتمائم. **الثانية**: تفسير التولة. **الثالثة**: أن هٰذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء. **الرابعة**: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذٰلك. **الخامسة**: أن التميمة إذا كانت من القرآن؛ فقد اختلف العلماء، هل هي من ذٰلك أم لا؟ **السادسة**: أن تعليق الأوتار علىٰ الدواب عن العين من ذٰلك. **السابعة**: الوعيد الشديد علىٰ من تعلق وتراً. **الثامنة**: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان. **التاسعة**: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

وقوله: «**عن إبراهيم**» هنا مبهم وإبراهيم كثير جداً، فمن هو إبراهيم؟ المقصود هو إبراهيم النخعي من تلامذة أصحاب عبد الله بن مسعود.

قال: «**كانوا يكرهون**» المقصود هنا أصحاب عبد الله بن مسعود خاصة، وهم من سادات التابعين وكبارهم، والكراهة إذا جاءت بلسان السلف؛ فالمقصود بها التحريم، ولا يذكرون الكراهة المقصود بها التنزيه لأنه اصطلاح حادث بعد السلف.

قوله: «**يكرهون التمائم كلها، من القرآن، ومن غير القرآن**» فهو يقصد بذٰلك عبد الله بن مسعود وأصحابه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/٤٢٨).

باب
من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

....

قال رَحِمَهُ اللهُ: «**باب من تبرك بشجر، أو حجر ونحوهما**» يعني: ما حكم ذٰلك؟ وهٰذا من تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إلٰه إلا الله، كالباب الذي قبله الذي هو «**باب الرقىٰ والتمائم**»، وكذٰلك الذي قبله من لَبِسَ حلْقة أو خيطاً ونحوهما، وهٰكذا كل ما فيه مخالفة للتوحيد؛ فإنه جعله تفسيراً له؛ لأن تفسير الشيء بضده يبين معناه.

.... وبضدها تتبين الأشياء(١)

ولٰكن لا يلزم من أن يكون مضاداً من كل وجه، بل يكفي إذا كان قادحاً في الكمال منقصاً له أو مناقضاً له، فنقض التوحيد وإذهابه كله مما يفسر التوحيد، وسبق أن هٰذا أمر واضح.

وقد وضح في كتاب الله ـ جل وعلا ـ، وفي دعوة الرسول ﷺ، بل دعوة الرسل كلهم عليهم السلام، ولٰكن خفي علىٰ كثير من الناس مع وضوحه وجلائه ووجوبه، وهٰذا لكثرة الإعراض وكثرة تقليد الناس بعضهم البعض؛ لأنهم ينظر بعضهم إلىٰ بعض، فلهٰذا رأيت الأمور العامة يشتركون فيها، وإذا كل واحد ينظر إلىٰ الثاني فإنه يصنع مثله، مثل الحج ونحوه، ولو تسأله عن حكم هٰذا الأمر، أو الدليل عليه؛ لوجدته لا يعرف شيئاً، ولهٰذا يتتابعون علىٰ البدع، وعلىٰ الأمور التي لا تجوز، وكل ذٰلك ليس من خفاء الأمر، أو أن فيه صعوبة، بل من عدم الاهتمام به، ولو كان الإنسان مهتماً بالشيء؛ لأتقنه.

---

(١) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي ص١٠٥ [الكامل]:

وَنَذِيمُهُم وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ ... وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ

....

لهـٰذا إذا أراد الإنسان أن يبني بيتاً؛ فإنه تجده مثلاً يخطط، ويسأل من كان عنده خبرة، وينظر إلىٰ من سبقه ماذا وقع فيه من الأخطاء، وكيف التفصيل، فتجده يتقن، أما أمور الآخرة وأمور الدين؛ فلا يهتم بها الاهتمام الذي يكون للدنيا، وهـٰذا من النقص، ومن طول الأمل، وكون الناس يتعلقون بالدنيا أكثر ويزهدون في الآخرة؛ والمفروض العكس، يأتي أمر من الأمور مهم جداً، فيه من الفضائل الشيء الذي يكون عظيماً جداً، ومع ذٰلك تجد الناس يزهدون فيه، وهناك أسباب عدة، منها:

أولاً: عدم الاهتمام.

ثانياً: استبعاد الآخرة، وأن الإنسان سيبقىٰ في الدنيا.

ولهـٰذا تجد الآمال للمستقبل كثيرة، وكل هـٰذا من النقص، انظر مثلاً الحديث الذي جاء بفضل حضور الجمعة والتبكير إليها، فتجد أن الذي يطبقه ويعمل به قليلٌ جداً، وهو حديث صحيح، وقول الرسول ﷺ: **«من غسّل واغتسل، وبكّر وابْتكر، ومشىٰ ولم يركب، واستمع وأنصت؛ كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة ذاهباً وراجعاً»**[1] هل يجوز أن يزهد الإنسان في هـٰذا؟ كل خطوة يخطوها بعمل سنة، ثم تجد الإنسان، وإن كان البيت قريباً يركب السيارة، ويذهب، وقال: **«ومشىٰ ولم يركب»** بل ربما احتقر الإنسان الذي يمشي الآن، العادات تتوالىٰ علىٰ الإنسان. وكذٰلك الزهد في هـٰذه الأمور، وإلا فالأمثلة علىٰ هـٰذا كثيرة جداً.

قال: «باب من تبرك بشجر وحجر، أو نحوهما» التبرك هو طلب حصول البركة من هـٰذه الأشياء، وهل الحجر، أو الشجر، أو المكان، أو نحو ذٰلك فيه بركة؟!

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٨٥)، وأبو داود (٢٩٢)، والترمذي (٤٥٦)، والنسائي (١٣٦٤)، وابن ماجه (١٠٧٧) من حديث أوس ﷺ.

قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم].

البركة ما تكون إلا من الله، فما جعله الله مباركاً؛ فهو المبارك، والمبارك من عِباد الله هو الذي ينفع أينما كان، والبركة من الله، الذي ينفع بها ليست منه، ليست من ذاته، وإنما هي من الله ـ جل وعلا ـ ولهٰذا يقول نبي الله عيسىٰ ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فالله هو الذي جعله مباركاً، وليس هو الذي يجعل نفسه، فإذاً طلب البركة يجب أن يكون من الله، لا من الحجارة، ولا من الأشجار، ولا من القبور، ولا من الأماكن، فإن طلب البركة من هٰذه الأشياء يعتبر من طلب العبادة، لهٰذا جعل هٰذا من تفسير التوحيد؛ لأنه مما يقدح فيه، ويذهب بكماله الواجب، أو أنه ينافيه.

وقصده بقوله: «نحوهما» يعني: بنحو الشجر والحجر، مثل الأماكن، والقبور، والبناء الذي تجد بعض الناس يتمسح به، كالمساجد، أو المسجد الحرام، أو مسجد النبي ﷺ، أو غيرهما، يطلب البركة، وقد يأتي التمسح بالأشخاص، وبغيرها طلباً للبركة، فمن فعل ذٰلك؛ فقد وقع في النهي.

ثم ذكر قول الله ـ جل وعلا ـ مستدلاً به: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ هٰذا استفهام.

وقبل هٰذا يقول ـ جل وعلا ـ في أول السورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ فكأن الكلام هنا فيه شيء مقدر مفهوم من هٰذا السياق، يقول هٰذا الوحي الذي أوحي إلىٰ عبد الله ورسوله؛ فهو حق

....

جاء به جبريل ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أخبروني عن آلهتكم هٰذه، هل أوحت إليكم شيئاً؟ هل نفعتكم بشيء؟ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ إلىٰ آخر الآيات.

و﴿ٱللَّٰتَ﴾ فيها قراءتان: قراءة التخفيف، وقراءة التشديد، قراءة ابن عباس وغيره، فقراءة التخفيف لها معنىً، وهٰذه لها معنىً، فعلىٰ التخفيف أن هٰذا الاسم أخذ من الله، فأنثوها، وهٰكذا يؤنثون آلهتهم، يجعلونها مؤنثة، والتأنيث في الأصل يدل علىٰ الضعف والرخاوة، فكيف الإلٰه يصير مؤنثاً؟

أما إذا كانت القراءة بالتشديد؛ فمعناه مأخوذ من الفعل من اللَّتِّ، وهو الخلط، وقالوا: إن أصله رجل كان يَلُتُّ السَّويق بالزيت أو السمن لمن جاع ويقدمه، ثم مات ودفن تحت صخرة، فعبدوها، وكانت في الطائف، وكانوا يفتخرون بها علىٰ من عاداهم إلا قريشاً، فإن عندها الْعُزَّىٰ، وهي أكبر من اللات.

ولهٰذا قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ والْعُزَّىٰ نفس الشيء مؤنثة، مأخوذة من العزيز؛ يعني: أنها آلهة أنثىٰ، فكيف الآلهة تكون أنثىٰ؟ وهي عبارة عن ثلاث سَمُرات في وادي نخلةَ قرب عرفات، كان عليها بناء، وكانت معظمة، وكانوا يطوفون عندها ويدعون عندها، ويقربون لها شيئاً من القرابين يطلبون شفاعتها، يقولون: تشفع لنا عند الله، وهٰكذا اللات.

أما قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ فليست الأخرىٰ مقابل الأولىٰ؛ لأن هٰذه ثالثة لا تكون الثالثة أخرىٰ، وإنما معناها الأخيرة الحقيرة الملعونة، وكانت قرب قُديد بين مكة والمدينة، وكانت لهذيل والأنصار، ولمن يأتي من تلك الجهة يحرمون منها ويعظمونها، ويهلون عندها، ويجلسون عندها كغيرها من الأصنام.

وقيل: سميت «مناة» من كثرة ما يمنىٰ عندها من الدماء، تراق تقرباً إليها، فهٰذه الثلاثة هي أكبر طواغيت العرب التي كانت في زمن النبي ﷺ، وعندهم أشياء كثيرة، مثل: هُبَل، وإساف، ونائلة، وغيرها.

....

وقد جاء في السيرة في قصة غزوة أُحد لما حصل ما حصل على المسلمين بسبب معصيتهم؛ لأنهم عصوا الرسول ﷺ فحصلت هزيمتهم، وقتل منهم سبعون رجلاً، وجرح الرسول ﷺ في وجهه، وكسرت ثَنِيَّتُه، ووقعت أمور عظيمة؛ صَعِدَ قائد المشركين على أُحد، وصار يهتف بأعلى صوته: أفيكم فلان؟ أفيكم فلان؟ يقول: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم ابن الخطاب؟ والرسول ﷺ يقول: **«لا تجيبوه»**، ثم قال: اعلُ هبل.

فقال ﷺ: **«أجيبوه»** قالوا: ماذا نقول؟

قال: قولوا: **«الله أعلى وأجل»**.

قال: لنا العزى، ولا عزى لكم.

قال: «أجيبوه». قالوا: ماذا نقول؟

قال: قولوا: **«الله مولانا، ولا مولى لكم»**[(١)].

وقبلها يقول: **«لا تجيبوه»** لأنه إنما كان يسأل عن فلان، وفلان، وفلان، فلما انتهك أمر الله وجاء الشرك؛ أمر بإجابته.

فالمقصود أنهم كانوا هكذا، هذه عبادتهم بهذه الطريقة، ولا كانوا يعتقدون أنها تخلق وترزق، وهذه صورة أفعالهم فيها.

أما إساف، ونائلة؛ فإساف اسم رجل في الأصل، ونائلة اسم امرأة كانت من جُرْهُم جاء يطوّفها في البيت، فوجد البيت خالياً؛ ففجر بها في البيت، فقلبهم الله حجرين على صورتهما، فوُضع واحد على الصفا، والآخر على المروة؛ ليعتبر الناس، ويعظموا بيت الله، ولا يتجرؤوا على المعاصي فيه، حتى ما تحل العقوبة، ثم طال الوقت وعُبِدا، هكذا كانت الأمور شيئاً فشيئاً، وهذا دليل على أن نصب الصور وغيرها من وسائل الشرك، وسيأتي في قصة أول عبادة الأصنام كيف كانت.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

....

قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ يعني: هٰذه المعبودات التي هي إما حجارة وإما شجر؛ فهل تنفعكم أو تضركم؟ وهم يقرون أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا توحي إليهم، وأنها لا تكلمهم، وإن كان أحياناً يأتي الشيطان، ويكلمهم منها.

أما اللات فإن أهل الطائف لما أسلموا طلبوا من النبي ﷺ أن يترك لهم اللات، فقال: **«لا»**. فقالوا: تتركها لنا سنة فقال: **«لا»**. قالوا: إذاً أنت تولَّ هدمها. قال: **«أما هٰذه فنعم»**، فأرسل إليها المغيرة بن شعبة، ومعه أبو سفيان فهدها.

أما العزىٰ؛ فإنه لما فتح مكة أمر خالد بن الوليد أن يذهب إليها، ويقطع الشجرة، ويهدم البيت، فذهب وفعل ذٰلك، فرجع فقال ﷺ: **«هل رأيت شيئاً»**؟ قال: لم أرَ شيئاً. قال: **«لم تصنع شيئاً، اذهب وهدها»** فذهب، فوجد عجوزاً ناشرة شعرها، تحثوا علىٰ رأسها التراب، وتقول: «يا ويلي» فعلاها بالسيف وقتلها. فرجع، فقال: **«هل رأيت شيئاً»**؟ قال: نعم رأيت عجوزاً صفتها كذا وكذا. قال: **«تلك اللات شيطانة»** الشيطانة التي كانت تكلمهم وتفتنهم فيها، لا تكون بعد اليوم.

وأما مناة؛ فأرسل إليها علي بن أبي طالب؛ فكذٰلك هدها وأزالها، وهٰكذا كان يبدأ بهد الأصنام وإزالتها.

ولما وصل البيت في فتح مكة، ودخل فيها، ووجد عند البيت أصناماً كثيرة منصوبة أكثر من ثلاثمئة صنم، فكان يطعنها برمح بيده، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾ [الإسراء] وصارت تتهاوىٰ وتتساقط ثم دخل البيت، فوجد فيها صوراً، فأمر أن يبل قماش وتمسح الصور كلها قبل أن يدخل، فلمّا مُسِحَتْ وأزيلتْ؛ دخل فيه، وهٰكذا يجب أن يزال الشرك وآثاره.

هٰذه صورة الطواغيت التي ذكرت هنا، وهي من أكبر طواغيت العرب،

عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين ـ ونحن حدثاء عهد بكفر ـ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها،

هٰذه الآيات وجه الاستدلال بها، من باب القياس، فهٰذه التي كانت تعبدها العرب كانت تتبرك بها، ويعكفون عندها لحصول البركة، وكذٰلك إذا فعل الإنسان شيئاً من هٰذا يكون مشابهاً لهٰذا الشيء، فيدخل في النهي، ويدخل في الحكم.

وأما قول أبي واقد الليثي ﷺ: «**ونحن حدثاء عهد بكفر**» فهو مقدمة للاعتذار لِمَا وقع، وهو يشير أن الذين ليسوا حدثاء عهد بالكفر لا يخفىٰ عليهم هٰذا الشيء، بل يعرفونه، وهٰذا دليل علىٰ أن الإنسان الذي يكون حديث الإسلام قد تخفىٰ عليه أمور كبيرة، وقد يبقىٰ عنده شيء من آثار الكفر والشرك، وما كان عليه، وهٰذا يقع كثيراً.

يقول: «**وللمشركين سدرة يعكفون عندها**» السدر شجر معروف، و«**يعكفون**» يعني: يجلسون عندها، فالعكوف هو الجلوس.

والعكوف عبادة ولهٰذا أمر الله ـ جل وعلا ـ بتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود، فالعاكف هو الذي يجلس في المسجد للتعبد، ويسن للإنسان إذا دخل المسجد أن ينوي الاعتكاف، ولو ساعة، فإن هٰذا عبادة، ويثاب علىٰ ذٰلك، خلاف ما إذا كان دخوله عادة، أو لأجل الصلاة فقط ثم يرجع.

أما إذا جلس إلىٰ الصلاة؛ فهٰذا أمر يكفي؛ لأن الصلاة من أهم الأمور في هٰذا، ولٰكن إذا كان يجلس في المسجد إما للذكر وإما لغير ذٰلك؛ فهٰذا ينبغي له أن ينوي الاعتكاف حتىٰ يتحصل علىٰ أجر أكثر، وليس هٰذا فقط؛ فالإنسان قد يدرك بالنية ما لا يدركه بالعمل، لهٰذا ينبغي أن يتنبه له، بل حتىٰ الأمور العادية كالأكل، والنوم، والمشي، وغير ذٰلك، فينوي بذٰلك النية الطيبة حتىٰ يحصل له الأجر في هٰذا، فالنوم ـ مثلاً ـ أمر مباح، والمباح هو الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب، فإذا نويت أنك بنومك تكف

وينوطون بها أسلحتهم، ....

نفسك عن المؤذيات، أو المؤثرات من المناظر السيئة أو القنوات التي فيها الخنىٰ والبلا، وأنك أيضاً تنام لتقوىٰ علىٰ القيام إلىٰ أداء العبادة؛ يكون نومك عبادة في هٰذا، فتؤجر عليه، بخلاف ما إذا كان النوم عادة، فإن هٰذا شيء مباح.

وكذٰلك الأكل؛ فإذا قدم لك الأكل تسمي الله، وتنوي أنك بهٰذا الأكل تكف نفسك عن التطلع إلىٰ ما عند الناس، ومنعها عن أكل الحرام، وتقوية بدنك علىٰ عبادة الله، فإنك تؤجر علىٰ هٰذا، ويكون الأكل فيه أجر، وهٰكذا في جميع الأعمال.

ولهٰذا جاء في الحديث الذي رواه الطبراني[1] عن النبي ﷺ: «**نية المؤمن أبلغ من عمله**» يعني: أنه يدرك بالنية ما لا يدركه بالعمل، هٰذا ينبغي؛ لأن العبد عمره قصير، وإذا كان يترك كثيراً من أموره غير مقترنة بالعبادة يضيع عليه أوقات كثيرة جداً، بخلاف ما إذا كان مستحضراً لهٰذه الأشياء، وهٰذا يدخل في جميع الأشياء.

والمقصود أن العكوف هو الجلوس عند الشيء، والعكوف لا يجوز أن يكون إلا في المساجد، أما في غير المساجد؛ فهو أمر مباح إذا خلا من الأمور المحظورة.

قوله: «**يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم**» ينوطون يعني: يعلقون، أناط هٰذا بهٰذا يعني: علقه، وتعليقهم للأسلحة بها حتىٰ تكتسب البركة، ويكون أمضىٰ لها في ضربها، وأنكىٰ للعدو، هٰذا مقصودهم، وهو اعتقاد سخيف شركي.

---

(١) أخرجه الطبراني بلفظ «خير من عمله» في «المعجم الكبير» (٥٨٠٩) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
وأخرجه بلفظه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٩٥)، وضعف إسناده من حديث أنس رضي الله عنه.

يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر! إنها السَّنَن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**، ......

وقوله: «**يقال لها ذات أنواط**» يعني: لكثرة ما يناط بها من الأسلحة.

يقول: «**فمررنا بسدرة**» وظنوا أن هٰذا شيء محبوب إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ. قال: «**فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط**» يعني: كما للمشركين ذات أنواط.

فقال ﷺ: «**الله اكبر**»، أو «**سبحان الله**» الذي ثبت بالحديث «**سبحان الله!! سبحان الله!! قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**» كيف أقسم الرسول ﷺ أنهم قالوا كما قالت بنو إسرائيل.

وبنو إسرائيل طلبوا أن يجعل لهم آلهة ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لأنهم مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، وهٰذا من العجائب؛ يعني: كيف بعد ما رأوا الآيات العظيمة، ورأوا فلق البحر، وإغراق عدوهم ـ وهم ينظرون ـ وإنجاءهم، ثم بعد ذٰلك مباشرة يطلبون هٰذا الأمر، ولٰكن هٰذا الذي قاله هٰؤلاء مثل ذٰلك الذي قالته بنو إسرائيل. فدل علىٰ أن طلب البركات والخيرات من الجمادات والأموات ومن الأمور التي لا تملك شيئاً؛ لا تملك أن تنفع أو تضر؛ دلَّ علىٰ أنه من أنواع العبادة التي تضاد التوحيد، وبهٰذا يكون ذٰلك تفسيراً لشهادة أن لا إلٰه إلا الله وللتوحيد.

حلف الرسول ﷺ بهٰذا «**قلتم والذي نفسي بيده**» النفس المقصود بها الحياة والموت، حياة الإنسان وموته بيد الله.

ثم قوله: «**بيده**» يعني: يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يملكها الإنسان، وموته بيد الله، فنفسه بيد الله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا أيضاً يقتضي أن لله يداً حقيقيةً؛ لأنه لا يقال: يد الجبل، أو يد الحائط. الشيء الذي ليس له يد، لا يقال بيده كذا وكذا.

لتركَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه[١].

وقد جاء ذكر يد الله ـ جل وعلا ـ الكريمة في آيات كثيرة جاءت مثناة ومفردة ومجموعة، وجاء أنَّ لها أصابع، وأنه يقبض بها، ويبسطها، وإثباتها من أبلغ الإثبات وأبينه، ومع ذٰلك أُوِّلَتْ بالنعمة أو القوة ونحو ذٰلك كما يقوله الأشعرية، وهـٰذا من التحريف المعنوي، بل يسميه بعض العلماء تلاعباً في كتاب الله؛ لأنه ليس له وجه من وجوه التأويل، فهم ما تجرؤوا علىٰ أن يردوه كما رده المعتزلة، فصاروا يحرفون المعنىٰ، وإلا فالمراد ظاهر وجلي، وهـٰكذا قالوا في جميع الصفات، إما أن يفسروها بشيء مخلوق، أو يفسروها بالإرادة، مثل: الرحمة، والغضب، فيقولون: إرادة الإحسان أو هي الإحسان نفسه، وكذٰلك الغضب إرادة الانتقام، أو هو الانتقام نفسه، فكل ذٰلك من الباطل.

ولٰكن المقصود بهـٰذا إثبات الصفات لله ـ جل وعلا ـ، ولهـٰذا اليد جاء تثنيتها، كما قال الله ـ جل وعلا ـ في خطابه لإبليس حينما امتنع من السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. يقول ـ جل وعلا ـ أنا لم أتكبر عن مباشرته بيدي، وأنت تتكبر عن السجود له. وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤] تعالىٰ الله وتقدس. وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]، وهـٰذا كثير في كتاب الله، وفي أحاديث رسول الله ﷺ.

ثم قال ﷺ: **«إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»** هـٰذا جاء في ضم السين، وفتحها «سَنن» و«سُنن»، وبعض العلماء رجح الضم، وبعضهم رجح النصب. فالمقصود أن كلاهما جائز. والسنن هي المناهج والطرق التي تسلك، وجمعت هنا؛ لأنها باطلة.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢١٠٦)، وأخرجه أحمد (٢٠٨٩٥).

فيه مسائل: **الأولىٰ**: تفسير آية النجم.

أما سنة المصطفىٰ ﷺ، وسنة الله التي أمر عباده أن يسلكوها؛ فهي واحدة لا تتعدد؛ لأن الحق واحد. أما الباطل؛ فهو كثير جداً ومتعدد، ولهٰذا قال: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**» ومعنىٰ تركبنها يعني: تتبعونها، وجاء هٰذا مفصلاً في حديث الرسول ﷺ في أحاديث عدة، وهٰذا الحديث لم يروِه الترمذي فقط، وإنما رواه عدد من أهل العلم بطرق متعددة، فهو حديث صحيح، ويدل علىٰ أن هٰذه الأمة سوف تتبع اليهود والنصارىٰ، فهٰذا خبر جاء من باب التحذير أن يتبعوهم، ويدل علىٰ أن ما ذكره الله ـ جل وعلا ـ عن أهل الكتاب تحذير لنا، أما هم فلم يؤمنوا به، ولم يتبعوه، وبهٰذا يتبين أن طلب البركة من الأماكن، أو الأشجار، أو من الأموات، أو من القبور، أو من غيرها؛ أنه نوع من الشرك.

إذا قال: «تفسير آية كذا» فلا يريد بذٰلك تفسير الألفاظ؛ لأن هٰذا له موضع آخر، وإنما يريد الاستدلال؛ لأن هٰذا من التفسير، وليس هو تفسيرها.

وقوله في آيات النجم: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣] السلطان المقصود به الحجة؛ يعني: ليس لكم علىٰ ذٰلك أي دليل، وإنما هي أمور توارثتموها، وليس لها أي معنىً من هٰذه التسميات، كونها آلهة؛ فهٰذا كلام باطل، فهو اسم وضع علىٰ غير مسمّىً، ولهٰذا قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: ليس فيها معنىً من معنىٰ الألوهية، مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ليس لكم عليها دليل أو حجة إنما هو التقليد الأعمىٰ، كما قال الله عنهم: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فهٰكذا كانت أفعالهم وأعمالهم، ولمّا حاجهم إبراهيم؛ قالوا: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] وما كان يفعله الآباء لا يكفي لأن يكون حجة، وإنما هو التقليد الأعمىٰ، متابعةً وتعظيماً للآباء، وهٰذا من أضر الأشياء؛ لأنه يجعل

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلىٰ الله بذٰلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هٰذا فغيرهم أولىٰ بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

الإنسان مهدراً لعقله، مهدراً لفكره، ولهٰذا ذمهم الله ـ جل وعلا ـ علىٰ ذٰلك.

قوله: «**معرفة صورة الأمر الذي طلبوا**» يعني: أنهم طلبوا من الرسول أن يجعل لهم شيئاً، ولم يفعلوا، وإنما ظنوا أن هٰذا شيء محبوب إلىٰ الرسول، ولٰكن هٰذا فيه دليل واضح علىٰ أن العبادة مبناها علىٰ الأمر، وأنها لا تفعل عن الرأي أو بالعادة، فلا بد أن يأتي الأمر من الله، أو الأمر من رسوله، هٰذا واضح، وأدلته كثيرة، ولٰكن فيه التنبيه علىٰ هٰذا الشيء.

قوله: «**كونهم لم يفعلوا**» ولو فعلوا؛ لوقعوا في الشرك، ولٰكنهم لم يفعلوا، وإنما مجرد طلب موقوف علىٰ الإذن، فبين لهم أن هٰذا لا يجوز، وأنه شرك، ومع ذٰلك أقسم بأنهم قالوا مثل ما قالت بنو إسرائيل، وبنو إسرائيل أيضاً لم يفعلوا؛ إنما طلبوا من نبيهم فقط، فحذرهم، ولٰكن مجرد الطلب يكون نوعاً من الشرك الأصغر؛ لأنه دل علىٰ أنه لم يعرف التوحيد كما ينبغي، فإن هٰذا من المعاني التي ينفيها قولك: لا إلٰه إلا الله، وإثباتها يكون قادحاً فيه، ولهٰذا السبب جعله تفسيراً للتوحيد.

قوله: «**فغيرهم أولىٰ بالجهل**» قَصْدُه المتأخرون من الناس الذين بعُد عهدهم عن زمن النبوة، أولىٰ بالجهل كما وقع الناس في أشياء كثيرة.

قوله: «**لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم**» يعني: هٰذا

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: **«الله أكبر، إنها السنن، لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم»** فغلظ الأمر بهٰذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾. **التاسعة**: أن نفي هٰذا من معنىٰ «لا إلٰه إلا الله»، مع دقته وخفائه علىٰ أولٰئك. **العاشرة**: أنه حلف علىٰ الفُتيا، ولا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا لهٰذا.

الثانية عشرة: قولهم: **«ونحن حدثاء عهد بكفر»** فيه أن غيرهم لا يجهل ذٰلك.

علىٰ تقدير أنهم لو كانوا فعلوا؛ لأنه قال لهم هٰذا القول منكراً عليهم، ومشدداً، «**قلتم - والذي نفسي بيده -**» إلىٰ آخره مع التكبير والتسبيح تنزيهاً لله - جل وعلا -.

قوله: «**لم يعذرهم بل رد عليهم**» لا بد من تعليم الجاهل أي: إذا جهل لا بد من تعليمه والإنكار عليه، وبيان أن هٰذا باطل، وطلب التوبة عن هٰذه الأشياء، ويقلع عنها، ويبتعد عنها.

قوله: «**ولا يحلف إلا المصلحة**» المصلحة التأكيد في هٰذا، وأن هٰذا أمر كبير، وأنه يجب التنبه له الشيء هٰذه هي المصلحة.

قوله: «**لم يرتدوا**» لأنهم لم يفعلوا، وإنما مجرد قول وطلب مبني علىٰ الإذن، ولو أذن لهم؛ لفعلوا، فدل علىٰ أنهم يريدون طاعة الله وطاعة الرسول، ولا يريدون المخالفة، لهٰذا لم يرتدوا في ذٰلك، ولٰكن يدل علىٰ أن هٰذا الفعل لو وقع؛ لكان شركاً.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية. **السادسة عشرة**: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية، لقوله «**إنها السَّنن**».

الثامنة عشرة: أن هٰذا عَلم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر. **التاسعة عشرة**: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ في القرآن أنه لنا. **العشرون**: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها علىٰ الأمر، فصار فيه التنبيه علىٰ مسائل القبر، ....

قوله: «**التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه**» يعني: بعض العلماء يكره التكبير عند التعجب، ولا دليل له عليه بل هٰذا مخالف للدليل تماماً، وقد ذكر هٰذا النووي رحمه الله في كتاب الأذكار.

قوله: «**سد الذرائع**» يعني: أن التبرك بالأمور التي ليس فيها بركة فإنها ذريعة للشرك الأكبر، فيجب أن يمنع مع ما يحصل فيه فهو نوع من الشرك. وسد الذرائع جاءت له أدلة كثيرة.

قوله: «**الغضب عند التعليم**» دل علىٰ أنه غضب لأنه أولاً قال: «**سبحان الله**» فسبح لله تنزيهاً له عن هٰذا القول.

الثاني أنه قال لهم: أنكم «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالوا**» كذا وكذا.

الثالث: أنه قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**».

قوله: «**القاعدة الكلية**» يعني: أن اتباع أهل الكتاب لا بد أن يقع لهٰذه الأمة، هٰذا من أعلام النبوة، ليس معنىٰ ذٰلك أنه خبر للإذن في هٰذا، بل تحذير، ومع ذٰلك سيقع كما أخبر ﷺ، والواقع يدل علىٰ هٰذا.

قوله: «**فصار التنبيه علىٰ مسائل القبر**» هٰذه الأسئلة من أكبر المسائل

أما «**من ربك**»؟ فواضح، وأما «**من نبيك**»؟ فمن إخباره من أنباء الغيب، وأما «**ما دينك**»؟ فقوله: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ إلىٰ آخره.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين. **الثانية والعشرون**: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر».

التي ذكرها هنا، ولهٰذا أشكلت علىٰ كثير من طلبة العلم، والصحيح أن هٰذا لا يدل علىٰ أسئلة القبر، وإنما مسألة القبر تؤخذ من هٰذا، ولهٰذا قال: «فيه التنبيه»، يقول: كان مقرراً عندهم أن العبادات مبناها علىٰ الأمر الذي يأتي من الله، ومن رسوله، «فصار فيه التنبيه علىٰ مسائل القبر»، وهي أمور غيبية، فلا بد من الرجوع فيها إلىٰ ما جاء عن الله، وعن رسوله، ثم فصل: «**أما من ربك، فواضح**» بالأدلة التي تحيط بالناس من جميع الجهات، فهو ربهم الذي خلقهم، والذي يملكهم، ويتصرف بهم، فهو الذي يسألون عنه، ولٰكن ينبغي أن نعرف أن معنىٰ «**من ربك**» هنا معناها «من معبودك» من الذي تعبده، وليس المعنىٰ من ربك الذي خلقك، وملكك، وتصرف فيك، والرب قد يأتي بمعنىٰ المعبود.

وقوله: «**وأما ما دينك؛ فمن قوله: اجعل لنا**» أي: أن الدين مبناه علىٰ الأمر، فلا بد أن يكون جاء عن الله وعن رسوله.

وقوله: «**وأما من نبيك؛ فمن إخباره**»؛ لأنه جاء بالآيات الدالة علىٰ أنه رسول، وليس أن هٰذه الأمور مأخوذة عن هٰذه القصة.

باب
ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ ......

قال: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» يعني: أنه مناف للا إلـٰه إلا الله، فهو تفسير للتوحيد، والمقصود بالذبح أن يذبحها متقرباً بإراقة الدماء إما لميت، أو لجني، أو لقبر، أو ما أشبه ذٰلك من مكان، وغير ذٰلك.

ثم استدل علىٰ هـٰذا بقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾.

يعني: أن الله قرن الذبح بالصلاة، والصلاة من أعظم العبادات، فإذاً يكون الذبح عبادة عظيمة يتقرب بها إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، لهـٰذا قرنت بالصلاة.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ هـٰذا سبق الكلام فيه أنه أمر من الله للرسول ﷺ، وأنه دليل علىٰ أن الرسول بلغ كل ما سمعه من جبريل.

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ نص علىٰ الصلاة والنسك من بين العبادات لعظمهما؛ ولأنهما محبوبتان إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، وإلا فجميع العبادات لله، فإذا لم تكن لله؛ فهي باطلة ووقع الإنسان في الشرك.

وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ هـٰذا من عطف العام علىٰ الخاص، أي الحياة كلها لله، فحياة الرسول ﷺ كلها جهاد، وكلها عبادة، فهي لله.

والممات: أن يموت علىٰ التوحيد، وعلىٰ الإخلاص، وعلىٰ رجاء أن يجزيه الله بعمله والخوف أيضاً من الله، فحياته وموته كلها عبادة، وكلها لله، وهـٰكذا ينبغي للمسلم أن يكون.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ يعني: أنها خالصة ليس فيها شيء للدنيا، ولا لغيرها.

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ....

و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: الذي يملكهم، ويربيهم، ويقوم علىٰ مصالحهم. و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم؛ يعني: المخلوقات كلها بأنواعها، كل نوع من المخلوقات فهو عالم، فبنو آدم عالم، والجن عالم، والملائكة عالم، والبهائم عوالم، وهٰكذا جميع المخلوقات عوالم، حتىٰ الذر عوالم، فهو كل حي من شجر، أو حيوان، فهو يعبد الله ويسبح لله ـ جل وعلا ـ، ولٰكن لا نفقه تسبيحه.

جاء في الحديث أن نبياً من الأنبياء خرج يستسقي بقومه، فوجد نملة مستلقية علىٰ ظهرها، ورافعة قوائمها إلىٰ السماء، وتقول: «اللهم إنا خلقٌ من خلقك، فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك» فقال: ارجعوا، سقيتم بدعوة غيركم[(١)].

وفي «صحيح البخاري»[(٢)] أن نبياً نزل عند قرية نمل، فعضته نملة، فأمر بها، فأحرقت القرية، فأوحىٰ الله إليه: أتقتل أمة تسبح لله من أجل أن عضتك نملة.

وقصة سليمان مع النملة معروفة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

وذكر ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» قال: «حدثني الثقة أنه شاهد نملة تريد أن تحمل حبة، لٰكن الحبة كبيرة، فحاولت حملها فَعَجَزت، فذهبت واستنجدت بجماعة من النمل، فجاؤوا معها، فلما وصلت إلىٰ المكان؛ رفعتُ الحبة، فدارت ودُرْنَ حول المكان، فلم يجدن شيئاً فرجعن، فوضعتُها فجاءت وحاولت الحمل، فما استطاعت، فذهبت وجاءت بجماعة، فلما أقبلت؛ رفعتُها، فدارت في المكان ودُرْنَ، فلم يجدن شيئاً فرجعن،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسير» (١٥١٢٧)، عن أبي الصديق الناجي. وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١١٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ، والدارقطني (١٨١٨). والنبي هو سليمان ﷺ.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٩٦)، ومسلم (٤١٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ الآيـة [الأنـعـام]. وقـولـه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر].

فوضعتُها، فوجدَتْها، وحاولت أن تحملها مرة ثالثة فلم تستطع، فذهبت، وجاءت بالجماعة، فرفعتُها فدارتْ ودرن، فلم يجدنَ شيئاً، فتقابلن عليها، وقطعنها»(١) لأنها كذبت عليهن، فانظر كيف العجائب.

وأشياء كثيرة، فالله ـ جل وعلا ـ خلق هٰذه الأشياء لعبادته، فهو رب العالمين ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ.

وقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي: في صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي، ليس لغيره شيء منها، بل هي خالصة له ـ جل وعلا ـ.

قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ يعني: أوحي إليَّ، وكُلِّفْت بها، وهٰذا أمرٌ لجميع الأمة التي تتبعه، وتؤمن به، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأن النبي هو أول الأمة من المسلمين.

أما **قوله:** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ فهو أمر له بالصلاة والنحيرة، والنحيرة هي النسك الذي ذكر في الآية الأولىٰ، لهٰذا فسر بالأضحيَة، وفسرت الصلاة بصلاة العيد؛ لأنهما مقترنان، وعطفت عليها بالواو.

وكان ﷺ كثير النحر، كان كثيراً ما يقدم الأنساك لربه ـ جل وعلا ـ، وكان يبعث بالإبل إلىٰ البيت تنحر هدياً، وهو في المدينة، وإذا ذهب لعمرة أو لحج؛ فإنه يسوق معه الهدي الكثير، ففي حجته ساق مئةً من الإبل، فنحر بيده ثلاثة وستين ناقة، وأمر علي بن أبي طالب أن ينحر البقية، كذٰلك في عمرته أيضاً، فهٰذا يدلنا علىٰ أن التقرب إلىٰ الله بإراقة الدماء من أفضل الأعمال، فلا يجوز أن يجعل لمخلوق.

أما الذبح للأكل، أو لإكرام الضيف؛ فهو أمر مباح، ولٰكن لا بد أن يكون فيه عبادة، وإلا فلا يكون حلالاً، فلا بد أن يسمي ويكبر ويذكر اسم الله

---

(١) «مفتاح دار السعادة» للإمام ابن قيم الجوزية (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١).

عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «**لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله** ....

عليها حتىٰ تكون حلالاً، وهٰذا نوع من العبادة، فالتسمية عليها نوع من العبادة، أوجب الله ـ جل وعلا ـ ذٰلك.

أما حديث علي رضي الله عنه، ففيه أن النبي ﷺ حدثه بأربع كلمات:

الأولىٰ: قوله: «لعن الله من ذبح لغير الله» اللعن معناه الطرد والإبعاد من رحمة الله، ومن لعنه الله؛ فهو المبعد المطرود الذي لا تناله رحمة ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ. ومعنىٰ هٰذا أن الذبح لغير الله من مقتضيات اللعن، وهٰذا خبر من الرسول ﷺ أن الله يفعل هٰذا؛ لأنه وحي من الله، فبدأ بلعن الذابح لغير الله؛ لأنه شرك، والشرك هو أكبر الذنوب.

الثانية: قوله: «لعن الله من لعن والديه» والوالدان يجب لهما البر والصلة والإحسان وبهٰذا أمر الله، فإذا وضع بدل البر اللعن؛ فهٰذا من أعظم العقوق، فيكون ملعوناً بلعنةٍ من الله ـ جل وعلا ـ.

والعقوق يمنع دخول الجنة كما في الحديث: «**لا يدخل الجنة عاق**»(١)، واللعن قد يكون صريحاً كما يقع لبعض الأشقياء ـ نسأل الله السلامة ـ، فيلعن أباه، ويلعن أمه، وقد يضربهما، وهٰذا يحصل كثيراً حتىٰ إنهم يضربون الأم بالنعل في الوجه، ويعمل فيها أعمالاً أسوأ ما يكون ـ نسأل الله السلامة ـ، وذٰلك لأن الرحمة نزعت من قلبه، ووصم بدلاً منها بالشقاء، وصارت تعلن كثيراً وصار يتلقىٰ ذٰلك من قنوات كفرية تأتينا من اليهود وغيرهم، فيذكرون فيها شيئاً من الأمور التي يريدون أن يبثوها بين المسلمين وأبنائهم حتىٰ يفسدوهم، ويتأثروا بها، من القتل، ومن الأخلاق السيئة، ومن غيرها.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٩٨، ٢٦٢١٢) من حديث أبي الدرداء، ومن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مَنْ آوىٰ محدثاً، ....

والعقوق قد تعجل عقوبته، فيعاقب بعقوق أولاده له، فمن عق أباه؛ عقه أبناؤه، وقد جُرّب هٰذا.

قال ثابت البناني: «شاهدت رجلا يضرب أباه في البصرة، فأردت أن أعاقبه، فرفع الأب الذي يضرب رأسه إلي، وقال: دعه قد كنت أضرب أبي في هٰذا المكان»(١)؛ يعني: كيف صار هٰذا في نفس المكان، وهٰذا كثير ما يقع ـ نسأل الله العافية ـ، فاللعن قد يكون بالمباشرة، وقد يكون بالتسبب.

وقد جاء في غير هٰذا الحديث عن النبي ﷺ قال: **«إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»**. قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: **«يسب أبا الرجل؛ فيسب أباه، ويسب أمه؛ فيسب أمه»**(٢).

وفي رواية: **«من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»**. قالوا: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: **«يلعن والد الرجل، ثم يلعن ذٰلك الرجل والديه»**(٣) يعني: يكون سبباً في لعن والديه، ويكون ملعوناً في هٰذا.

الثالثة: **«من آوىٰ محدثاً»** يعني: حماه، ومنع إقامة الحد عليه، فحال بينه وبين من يريد تأديبه، أو إقامة الحد عليه، هٰذا معناه، والمعنىٰ الثاني أنه رضي به، وساعد عليه، أو عمله؛ لأن «محدثاً» روي علىٰ وجهين:

أحدهما: «محدِثا» بكسر الدال.

الثاني: «محدَثا» بفتح الدال.

فإذا كان بفتح الدال؛ فالإيواء هو الرضىٰ به، والمساعدة عليه، والعمل

---

(١) «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» للسفاريني (١/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٤٧٥) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.
وأخرج أحمد (٦٧٣٤)، والبخاري (٥٥١٦) قال ﷺ: **«يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه»**.

لعن الله مَنْ غير منار الأرض» رواه مسلم[(١)].

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: **«دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب»** قالوا: وكيف ذٰلك يا رسول الله؟! قال: **«مر رجلان علىٰ قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتىٰ يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقربه، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار.**

به، ويكون المحدث للبدعة محدِثاً ـ بالكسر ـ؛ فيكون قد ارتكب حداً، وإيواؤه حمايتُه من أن يُقام عليه الحد، وكلا المعنيين صحيح. ولا يجوز أن يقع من المسلم، وإذا وقع؛ فهو ملعون مستحق للعنة الله ـ جل وعلا ـ.

الرابعة: «**مَنْ غير منار الأرض**» المنار هي العلامات التي تفصل الحقوق، وتبن حق فلان من حق فلان، وتغييرها هو تغيير المراسيم؛ يعني: يقدم هـٰذا، ويؤخر هـٰذا، حتىٰ يكون لهـٰذا أكثر من هـٰذا، فيدخل هـٰذا في حق هـٰذا.

ويدخل في ذٰلك ما يوضع علىٰ الطرق التي تدل الناس، من اللافتات وغيرها، فالذي يزيلها يكون واقعاً في اللعن، هـٰذا من الأشياء الظاهرة.

وقد يكون في هـٰذا ما هو أعظم من ذٰلك وهو أن يُمنع الدعاة الذين يدعون إلىٰ الحق والهدىٰ، فإذا منعوا وقُتلوا فإن هـٰذا من أعظم التغيير لمنار الأرض؛ لأن هـٰؤلاء من منار الأرض، فيكون الذي فعل هـٰذا أولىٰ باللعن من الذي يغير المراسيم أو غيرها.

أما حديث طارق بن شهاب فهـٰذا الحديث رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» أن رسول الله ﷺ قال: «**دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب**» فلما سألوه عن هـٰذه الحادثة الغريبة العجيبة، كيف الذباب الذي

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٦٥٧).

وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ، فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير «إن صلاتي ونسكي». **الثانية**: تفسير «فصل لربك وانحر». **الثالثة**: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله. **الرابعة**: لعن من لعن والديه، وفيه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك. **الخامسة**: لعن من آوىٰ محدثاً وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجئ إلىٰ من يجيره من ذٰلك. **السادسة**: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك في الأرض وحق

أخس المخلوقات وأدناها وأحقرها يكون سبباً في دخول الجنة ودخول النار؟ فبين لهم أنه كان لقوم في طريق صنم لا يتركون أحداً يجاوزه حتىٰ يقرّب له، وإلا يقتلوه، فمر عليه الرجلان، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ما عندي شيء أقربه. قالوا: قرب ولو ذباباً؛ يعني: رضوا بصورة التقريب فقط، وهٰذا يدل علىٰ أن المقصود عمل القلب، وإلا أي غرض في الذباب؟ لا هم، ولا غيرهم، وإنما أرادوا الصورة التي هي عمل القلب، فقرب متخلصاً من شرهم، فدخل النار. والآخر لما قالوا له ذٰلك؛ قال: ما كنت لأقرب شيئاً لأحد من دون الله ـ جل وعلا ـ، فقتلوه. وهٰذا عرف أن هٰذا شرك فصبر علىٰ القتل، وآثر الآخرة علىٰ الدنيا، فدخل الجنة بهٰذا السبب.

وهٰذا يدلنا علىٰ أن الرجلين مسلمان؛ لأنه لو كان كافراً لدخل النار بكفره، وليس بذبح الذباب، ولٰكن قد يقال: أليس هٰذا إكراها؟

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٨٥)، وأبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (١٠٨/١)، والخطيب البغدادي في «الكفاية» (٥٥٢) من طريق ابن شهاب عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

جارك، فتغيرها بتقديم، أو تأخير. **السابعة**: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي علىٰ سبيل العموم.

الثامنة: هٰذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب. **التاسعة**: كونه دخل النار بسبب ذٰلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم. **العاشرة**: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذٰلك علىٰ القتل، ولم يوافقهم علىٰ طلبهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر. **الحادية عشرة**: أن الذي دخل النار مسلم؛

نقول: بلىٰ، هٰذا من الإكراه، ولٰكن هٰذا ليس في هٰذه الأمة، هٰذا فيمن سبقنا، أما هٰذه الأمة؛ فقد عفي لها عن الاستكراه بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان؛ يعني: الإيمان موجود بالقلب، أما إذا شرح بالكفر صدراً ـ وإن كان مكرهاً ـ فهو في النار؛ لأنه رضي بالدنيا علىٰ الآخرة.

قوله: «**الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي**» يعني: أن لعن المعين بعينه لا يجوز، وإنما هٰذا فيه خلاف بين العلماء، والصحيح أنه يجوز؛ لأن الرسول ﷺ لعن بعض الناس بأعيانهم، فقال: «**اللهم العن فلاناً، اللهم العن فلاناً، اللهم العن فلاناً**»(١) وهٰذا جرىٰ في مواقف كثيرة له ﷺ، هٰذا دليل علىٰ جواز لعنه إذا كان رأساً في الكفر، ورأساً في محاربة الله ورسوله، ومحاربة الحق؛ فإنه يجوز لعنه بعينه.

أما إذا كان فعل كبيرة، أو فعل أمراً من الذنوب؛ فلا يجوز لعنه لأجل ذٰلك.

أما لعن أهل المعاصي عموماً؛ فهٰذا كثير، فالرسول ﷺ لعن السارق، قال: «**لعن الله السارق يسرق الحبل فتقطع يده، يسرق البيضة فتقطع يده**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٣١٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأنه لو كان كافراً لم يدخل النار في ذبابة. **الثانية عشرة**: فيه شاهد للحديث الصحيح «**الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذٰلك**»[١] .**الثالثة عشرة**: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتىٰ عند عبدة الأوثان.

ولعن شارب الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها[٢] .

وكذٰلك لعن آكل الربا، ومؤكلها، وكاتبيه، وشاهديه[٣] .

ولعن أنواعاً كثيرة، ولٰكن هٰذا في العموم، ولهٰذا لما جيء بالرجل الذي شرب الخمر، وقد جيء به قبل هٰذه المرة أقيم الحد عليه بالضرب، فقال رجل من الصحابة: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتىٰ به. فقال ﷺ: «**لا تلعنه إنه يحب الله ويحب رسوله**»[٤] والذي يرتكب الحد لا يجوز لعنه بعينه لأجل الحد بخلاف العموم، شارب الخمر، يُلعن وآكل الربا، هٰذا في العموم.

ويقال لعنة الله علىٰ الظالمين، أما رجل بعينه؛ فلا بد أن يكون رأساً في الكفر والضلال، ويكون له أثر في انحراف الناس ومحاربتهم؛ فمثل هٰذا يجوز لعنه، وإن كان بعينه علىٰ القول الصحيح.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٥٤٥٨)، أبو داود (٣١٩٨) من حديث ابن عمر ﷺ، ولأحمد في المسند (٢٧٤٧) من رواية ابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٥) من حديث جابر ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٨٢) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٨].

قال رحمه الله تعالىٰ: «باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله» لأن المعاصي تؤثر بالأمكنة، وليس لأجل هٰذا، وإنما لأجل مشابهة الشرك أن يكون الإنسان قد جاء بفعل يشبه فعل المشرك، ولأن هٰذا قد يكون وسيلة للذبح لغير الله، فيكون من باب سد الذرائع، ومن باب حماية التوحيد وإبعاد المسلم أن يكون قريباً من الشرك.

ثم استدل بقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وهٰذا في مسجد الضرار، ومسجد الضرار قصته كانت في غزوة تبوك، كان أناس من المنافقين بأمر أبي عامر الذي كانوا يسمونه «الراهب» هو ممن حادّ الله ورسوله، وسماه الرسول ﷺ الفاجر، كان قد أمر من يتبعه من المنافقين أن يبنوا مرصداً له يرسل إليهم فيه الرسائل والأوامر التي يحارب بها الرسول ويحارب بها دين الله، فبنوا مسجداً قرب مسجد قباء، ولما قيل لهم؛ قالوا: إنما نقصد أن يكون هٰذا للضعيف، وفي الليلة المطيرة والباردة، وللإنسان الكبير والضعيف والمريض، يكون قريباً لهم يصلّون به، وأتوا إلىٰ النبي ﷺ يطلبون منه أن يصلي لهم فيه حتىٰ يكون ذٰلك مبرراً ومبعداً لما قصدوه، فقال لهم ﷺ: نحن علىٰ جناح سفر، ولٰكن إذا رجعنا إن شاء الله نصلي لكم فيه، فلما رجع وصار قريباً من المدينة؛ نزلت عليه الآية في النهي(١): ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وأمره ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة]، فأمر ﷺ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢١٠ ـ ٢١٧).

....

بعض الصحابة أن يذهب إليه ويحرقه، فذهبوا إليه يشتدون، فلما وصلوا إلىٰ المكان؛ منهم من ذهب يأتي بالحطب، ومنهم من ذهب يأتي بالنار، فأحرقوه.

ومعلوم أن الرسول ﷺ لو قام فيه فإنه يقوم عبادة لله ـ جل وعلا ـ، ومع ذٰلك نهاه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فدل علىٰ أن الأمكنة التي تبنىٰ علىٰ المعاصي، ويكون فيها عبادة غير الله؛ فإنها تجتنب ولا يعبد الله فيها ـ جل وعلا ـ.

وهٰذا يدخل فيه أماكن العذاب، مثل وادي محسّر[1] ولهٰذا سُنَّ للإنسان إذا وصل إليه أن يسرع كما كان الرسول ﷺ يفعل، فإذا وصل إلىٰ وادي محسر أسرع[2]، ووادي محسر هو المحل الذي عذب فيه أصحاب الفيل، ورموا بالحجارة، وغيره من الأماكن، مثل بلاد ثمود فالرسول ﷺ لما مر بها في طريقه إلىٰ تبوك قال لأصحابه: «**لا تدخلوا علىٰ هٰؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين لا يصيبكم ما أصابهم**»[3]، وقد سبقه بعض الصحابة، وأخذوا شيئاً من الماء، وعجنوا به العجين، فأمرهم أن يعلفوه للإبل، ولا يأكلوه، فدل علىٰ أن الإنسان لا ينبغي أن يذهب ليتفرج فقط، بل إذا ذهب يعتبر لأمر الله، فلا بد أن يبكي خوفاً من الله، وإلا فيخشىٰ أن يصاب بالعذاب.

فالمقصود أن أماكن المعاصي والذي يؤسس علىٰ معصية الله، أو يكون فيه عبادة لغير الله ـ جل وعلا ـ من الذبح وغيرها، كالأفعال الجاهلية؛ فإنه لا يجوز للمسلم أن يتعبد الله ـ جل وعلا ـ فيه، وهٰذا جعله المؤلف من تفسير التوحيد؛ لأنه يقدح بالتوحيد، وينقصه ولا يبطله ولا يذهب به، ولٰكنه ينقصه، فالشيء المنقص للتوحيد يكون من تفسيره.

---

(١) مُحَسِّر: بضم الميم وفتح الحاء وتشديد السين وكسرها، هو وادي المُزْدَلفة، بين منى ومزدلفة. «معجم البلدان» (١/ ٣٢٤)، (٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأله النبي ﷺ فقال: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد**»؟ قالوا: لا. قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم**»؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «**أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**» رواه أبو داود[(١)]، وإسناده علىٰ شرطهما.

قال: «**عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة**»، بوانة اختلف العلماء أين هي، وهٰذا لا يضر سواء أعرفه الإنسان أو جهله، إنما هو مكان، يقول ابن الأثير: «إنها في أسفل مكة»[(٢)]، وليست كذٰلك ليس هناك شيء يسمىٰ بوانة، ولٰكن القول الصحيح أنها شمال ينبع، ولا تزال هضبة هناك تسمىٰ «بوانة» إلىٰ الآن، فالاسم باقٍ، وهي المقصود هنا، وهٰذا جاء شبيهه، ويجوز أن يكون هو نفسه؛ لأنه يقول: إن ولد له ولد فإنه يذبح خمسين من الإبل في هٰذا المكان، فجاء يستفتي الرسول ﷺ أن يوفي في النذر، فسأله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية**»؟ قال: لا.

قال: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم**» قال: لا قال: «**أوفِ بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم**» والعيد هو ما يعتاد بعود الزمن، أو باعتياد المكان، ولا بد أن يكون فيه عمل العيد من الفرح، وما يفعلونه مثل ما كانوا يفعلون في عكاظ، وفي ذي المجاز، ومجنة، وغيرها من

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٨٨١)، وأخرجه مختصراً كل من أحمد (٢٥٨١٩)، وابن ماجه (٢١٢١) من حديث ميمونة بنت كردم اليسارية رضي الله عنها.

(٢) والذي وقفت عليه من قول ابن الأثير هو: «هَضبة من ورضاء يَنْبُع». «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٤٣٠).
وإنما هو من قول البغوي رحمه الله، نقله عنه صاحب «عون المعبود» (٢/ ٢٩٨). وقد ذكره السندي رحمه الله في حاشيته على «سنن ابن ماجه» فقال: «اسم موضع بأسفل مكة أو وراء ينبع» (٤/ ٣٦١)، والله أعلم.

....

أسواقهم الجاهلية السابقة، فهي أعياد لهم؛ لأنها في وقت محدد، ويعودون إليها ويعملون هٰذه الأعمال، فالعيد اسم لما يفعل في هٰذا المكان، ولهٰذا المكان الذي يعتاد، ويأتىٰ إليه بعود الوقت والزمن وغيره.

وقد قال ﷺ: **«لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي حيث كنتم»**؛ يعني: لا تجعلوا قبري عيداً بأن تعتادونه في وقت معين، قال: **«صُلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»**[1]، وأنه ينهىٰ أن يعتاد قبره ﷺ.

فالمقصود أن أعياد الجاهلية كثيرة، ولا بد أن تكون في زمن. وقد يطلق العيد علىٰ الوقت، ويطلق علىٰ الاجتماع، وعلىٰ الفعل كما قال ابن عباس: شهدت العيد مع رسول الله ﷺ[2]؛ يعني: صلاة العيد.

والله ـ جل وعلا ـ جعل للمسلمين أعياداً معينة، فجعل عيداً للأسبوع الذي هو الجمعة لتمام الصلاة التي جعلها الله ـ جل وعلا ـ مبنية علىٰ سبع، فإذا كملوا سبعة أيام سُن لهم أن يجتمعوا في مسجد ويذكروا الله ـ جل وعلا ـ، ويشكروه علىٰ تمام هٰذا الوقت الذي كملوه في عبادة الله سبعة أيام. علىٰ العبادة التي أمروا بها، فهي لشكر الله ـ جل وعلا ـ.

وكذٰلك عيد الأضحىٰ وعيد الفطر، فكلها لأجل العبادة، وما عدا ذٰلك؛ فليس للمسلمين عيد، ولا يجوز لهم أن يشاركوا أهل الباطل في أعيادهم.

قوله: «أوفِ بنذرك: فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»، ودل علىٰ أن النذر في مثل هٰذه الأماكن معصية، وأصل النذر مكروه، فهو منهي عنه أصلاً، ولا ينبغي لإنسان أن يقدم علىٰ النذر؛ لأنه قد يقع في حرج، والرسول ﷺ يقول: **«لا يأتي بخير»**[3] ولٰكن إذا وقع وخالف الإنسان فيه؛ فعليه أن يفي به.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٧٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٩٠٩).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٩٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. **الثانية**: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذٰلك الطاعة. **الثالثة**: رد المسألة المشكلة إلىٰ المسألة البيِّنة ليزول الإشكال.

والله ـ جل وعلا ـ أثنىٰ علىٰ الموفين به، ولم يثنِ علىٰ الناذر، وإنما أثنىٰ علىٰ الموفين به فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ فالوفاء به طاعة، ويُثنىٰ علىٰ صاحبه. أما ابتداؤه؛ فإنه مكروه؛ لأنه لا يأتي بخير.

وبهٰذا يتبين أن العبادة في مكان المعصية ومكان عبادة الجاهلية والكفار لا تنبغي، وأنه منهي عنها، وأنه قادح في التوحيد، ومنقص له، فهو معصية.

قوله: «**المعصية قد تؤثر في الأرض وكذٰلك الطاعة**» الطاعة تؤثر في المكان وتؤثر في الإنسان، فالطاعة لها أثر بليغ في الإنسان، ومن أطاع الله ـ جل وعلا ـ صار له سعةٌ في رزقه، وصار له أيضاً طمأنينة في نفسه، وصار له نور في قلبه، ونور في وجهه، بخلاف المعصية؛ لأنها تحدث الضيق والحرج الذي يكون في النفس وفي القلب حتىٰ كأن الإنسان مسجون، ولٰكن قد لا يحس الإنسان بهٰذا لكثرته، الأمر يكون كما قيل[1]:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوانُ عَلَيْهِ ... مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

يعني: الميت لا يألم بالجرح، فإذا مات القلب لا يألم بالضرب، ولا يعلم به، ولٰكن إذا كان فيه حياة عرف هٰذا.

يقول أحد السلف: «والله إني لأفعل المعصية؛ فأجد ذٰلك في خُلق زوجتي، وخُلق دابتي، وخُلق ولدي»؛ يعني: عقاباً له، وهٰذا لأن الله يرحمه، فيجعل له هٰذا الشيء.

أما إذا كان الإنسان لا يحس بذٰلك؛ فهو لكثرة الذنوب، وقد جاء في

---

(١) القائل هو: أبو الطيب المتنبي، انظر: «ديوان المتنبي» ص١٣٤.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلىٰ ذٰلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله. **السابعة**: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله. **الثامنة**: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية. **التاسعة**: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده. ....

تفسير قوله - جل وعلا - في قصة موسىٰ مع الخضر: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ أن هـٰذا الأب هو الجد السابع[1]، أثرت طاعة الله - جل وعلا - في ذريته إلىٰ سابع ولد.

وفي الأثر الآخر القدسي يقول الله - جل وعلا -: «**أني إذا رضيت؛ باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا سخطت؛ لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد**»[2] نسأل الله العافية، وقد يكون الإنسان سبباً لشقاء أولاده، وقد يكون سبباً لسعادتهم، وكل ذٰلك بأمر الله، ولـٰكن من الأسباب الطاعات والمعاصي.

قوله: «**استفصال المفتي إذا احتاج إلىٰ ذٰلك**» لا بد من الاستفصال؛ لأن اللفظ بالإجمال يوقع في الإشكال، ويوقع في الخطأ.

قوله: «**أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع**» يعني: إذا نذر أنه يصلي في مكان كذا؛ فإنه لا بأس به إذا خلا من المانع، كذٰلك

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٩٥)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٢٥٢) مطولاً.

العاشرة: لا نذر في معصية. **الحادية عشرة**: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

إذا نذر أنه يصوم في المكان الفلاني؛ إذا كان ليس فيه محظور؛ فلا بأس به، ولٰكن هٰذا إذا لم يحتج إلىٰ سفر.

أما إذا احتاج إلىٰ سفر؛ فلا يجوز، يقول الرسول ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد**»(١)؛ يعني: لا تشد الرحال للعبادة.

قوله: «**لا نذر في معصية**» يعني: أنه إذا نذر أن يعصي الله؛ فإنه لا يجوز له أن يفي بالنذر، وكذٰلك «**فيما لا يملك**»؛ يعني: نذر أن ينحر ناقة فلان، أو شاة فلان، فإنه لا يجوز الوفاء به؛ لأنه لا يملكه.

ولٰكن هل تلزمه الكفارة؟

أكثر الفقهاء يقول: ليس عليه شيء. وبعضهم يقول: يلزمه كفارة يمين: إطعام عشرة مساكين، وقد جاء في الحديث، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٥) من حديث أبي سعيد ﷺ، وأخرجه مسلم (٢٤٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

باب
من الشرك النذر لغير الله

....

قال ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «باب من الشرك النذر لغير الله»، قد يقال مثلاً: سبق في الباب السابق أن النذر مكروه، فكيف يكون النذر لغير الله شرك وهو مكروه؟ فهو لا يكون عبادة، وتعريف الشرك الأكبر هو أن يجعل ما هو لله أو ما هو من العبادة لغير الله ـ جل وعلا ـ، فما دام النذر مكروهاً؛ فكيف يكون جعله للمخلوق عبادة، هل من العبادات شيء مكروه؟

الجواب: أن العبادة هو الوفاء بالنذر، أما ابتداء النذر فهو مكروه، ولٰكن إذا نذرت وجب عليك ـ إذا كان طاعة ـ أن تفي به؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ أمر به، وكل شيء يأمر الله به فهو عبادة، كما أن الشيء الذي ينهىٰ الله عنه؛ فتركه خوفاً من الله عبادة، فالوفاء بالنذر أَمَرَ الله به، وكلُّ ما أمر الله ـ جل وعلا ـ به فهو عبادة، وأثنىٰ الله ـ جل وعلا ـ علىٰ الموفين به، ولم يثنِ علىٰ الناذرين؛ أي: أن ينذر كذا وكذا، ولهٰذا قد يكون النذر نذر طاعة، وقد يكون نذرَ معصية، ونذرُ المعصية لا يجوز الوفاء به.

والنذر: هو إيجاب ما لم يجب في الشرع؛ أي: أن يوجب الإنسان علىٰ نفسه شيئاً لم يجب عليه شرعاً.

وينقسم النذر إلىٰ أقسام:

القسم الأول: يجب الوفاء به.

القسم الثاني: يستحب الوفاء به.

القسم الثالث: يكون الإنسان مخيراً.

القسم الرابع: يكون محرماً.

القسم الخامس: يكون مكروهاً.

وقول الله تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وهٰذه كلها مذكورة في كتب الفقه، ولٰكن الذي عندنا أنه إذا كان النذر لمخلوق؛ فهو شرك، وإذا كان لله كأن يقول: (لله عليّ أن أذبح ناقة)، أو (لله عليّ أن أصلي ركعتين غير الفريضة)، أو (لله عليّ أن أصوم يوم كذا وكذا)، أو (لله عليّ أن أحج هٰذه السنة)، أو غير هٰذا؛ فيجب عليه الوفاء به؛ لأنه طاعة، وقد ألزم نفسه بذٰلك، فإذا التزم طاعة؛ وجبت عليه.

أما النذر المحرم فهو الذي يحرم الوفاء به، كأن يقول: (لله عليّ ألا أطيع أبي وأمي)، أو (لله عليّ نذرٌ أن أشرب خمراً)، أو ما أشبه ذٰلك، فالوفاء به حرام لا يجوز.

وأما المكروه الوفاء به؛ كأن ينذر أن يطلق زوجته، فهٰذا مكروه.

والمقصود من هٰذا الباب: أن النذر إذا كان طاعة؛ فيجب أن يكون لله ـ جل وعلا ـ، ولا يجوز أن يكون لمخلوق؛ لأن الله أثنىٰ علىٰ الموفين به، والله لا يثني إلا علىٰ من يفعل طاعة، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾.

والمباح ليس علىٰ الإنسان فيه إثم، وليس فيه أجر إلا إذا اقترنت به النية، فيصبح الإثم والعقاب علىٰ النية، وليس علىٰ هٰذا الشيء.

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ هٰذا الثناء علىٰ الموفين بالنذر، وليس علىٰ الناذر ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾.

وفي هٰذه الآية دليل علىٰ أنه يجب أن يكون لله.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ في ضمنه المجازاة، يعلمه وسيجازيكم عليه، فسر بالنفقة، والنفقة تكون واجبة علىٰ الأهل وعلىٰ النفس وعلىٰ من تلزم نفقته هٰذا أمر واجب، أما النفقة علىٰ المحتاجين؛ فهو مندوب إليه، والمندوب

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«من نذر أن يطيع الله؛ فليطعه، ومن نذر أن يعصيه؛ فلا يعصه»**[(١)].

أيضاً داخلٌ في العبادات، فهو طاعة، فإذا كان طاعة؛ فالطاعة هو أن يفي بالنذر أو يفعل الطاعة نفسها.

ولٰكن إذا كان النذر نذر طاعة كأن ينذر أن يحج أو أن يذبح ناقة ويوزعها على الفقراء؛ فكيف يكون مكروهاً؟

الجواب: نقول ليس لأجل هٰذا، بل لأن الإنسان قد يلتزم شيئاً فلا يستطيعه، وقد يتساهل فيه فيتركه، فهو كما قال الرسول ﷺ: **«إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من مال البخيل»**[(٢)]، فإذا كان لا يأتي بخير فهو مكروه، ولٰكن إذا ألزم نفسه شيئاً من الطاعات؛ وجب عليه الوفاء به، كمن دخل في الحج النفل؛ فإنه يجب عليه أن يفي به، لقول الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] مع أنه قبل ذٰلك لا يجب عليه، فهٰذا مثله، فقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ نفقة تدل على العموم، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ في ضمن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أنه سيجازيكم عليه، فمن كان قصده حسناً؛ فإنه سيلقى الجزاء الحسن.

ووجه الاستدلال بالآيتين: أن الله أثنى على الموفين، والله يثني على أهل الطاعات، ولا يثني على من يفعل المباح فقط، وكذٰلك من يفعل المحرم لا يثني عليه، بل يذمه.

وأما في الآية الثانية: فهو ذكر أنه يجزي من ذكر، والجزاء يكون إما على واجب أو على مستحب، ويكون ذٰلك طاعة، هٰذا وجه الاستدلال من الآية.

ووجه الاستدلال من الحديث: أنه سمى النذر طاعة، فقال: **«من نذر أن يطيع الله: فليطعه»** فإذا كان طاعة فيجب أن تكون عبادة، والعبادة لا يجوز أن

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٠٢)، والبخاري (٦٢٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٣٣٥)، ومسلم (٣٠٩٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فيه مسائل:

الأولىٰ: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله؛ فصرفه إلىٰ غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

تصرف لغير الله ـ جل وعلا ـ، فإن صرفت لغير الله؛ فهي شرك، هـٰذا هو وجه الاستدلال.

قوله: «**وجوب الوفاء بالنذر**» يحتاج أن نفهم من أين أخذ وجوب الوفاء بالنذر، يؤخذ من **قوله:** «**من نذر أن يطيع الله: فليطعه**». أما الآية فيؤخذ من مفهوم الاقتران، فقرن النذر مع النفقة، والنفقة التي تجب علىٰ الإنسان عبادة، فإذا أداها خوفاً من الله ورجاء ثوابه؛ فهو من هـٰذا القبيل، أما الآية الأولىٰ فهي واضحة.

قوله: «**إذا ثبت كونه عبادة لله: فصرفه إلىٰ غيره شرك**» لما كان فيه خفاء ـ يعني: في كون النذر شركاً ـ نص علىٰ وجه الاستدلال في هـٰذا الوجه، وثبوت أنه عبادة؛ لأن الله أثنىٰ علىٰ الموفين به، ولأنه قرنه ـ جل وعلا ـ مع ما هو واجب، فهـٰذا دليل علىٰ أنه طاعة، وكذٰلك الحديث «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**».

قوله: «**أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به**» معنىٰ الوفاء بالنذر، إذا نذر الشيء فعل هـٰذا المنذور، وإن كان نَذَرَ الامتناع أن لا يفعل كذا، فالوفاء به أن لا يفعل، وإذا نذر أن يفعل معصية، فالوفاء أن لا يفعلها، وإذا لله أنه لا يفعل هـٰذه المعصية. فهـٰذا يجب الوفاء به ويجب ألا يفعل المعصية، وقد يكون بعض الناس يجعل نذرين في هـٰذا، يقول: عليّ لله إن فعلت هـٰذه المعصية أن أصوم شهراً، أو أنفق ألف دينار، أو أصوم سنة، وما أشبه ذٰلك، فما حكم هـٰذا؟ يفي به أم لا؟ يعني: أنه يلتزم لا يفعل المعصية،

....

وإن فعل المعصية يجب أن يفعل الشيء الذي نذره، وإن كان لا يستطيعه؛ فماذا يصنع؟

الجواب: يقال: ثبت في ذمتك؛ فإذا استطعت؛ فافعل، وإن لم تستطع؛ فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولٰكن إذا نذر أن يعصي الله فلا يفي به، وقال بعض العلماء عليه كفارة يمين لحديث **«وعليه كفارة يمين»**[١] صححه بعض الحفاظ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٢)، وأبو داود (٢٨٦٣)، والترمذي (١٤٤٤)، والنسائي في«السنن» (٣٧٧٥)، وابن ماجه (٢١١٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وجاء من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ولفظه: **«لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين»**.

باب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

....

الاستعاذة هي الاستجارة والاحتماء من المكروه، والعائذ هو الحامي المجير المعين، والمعاذ هو الملجأ الذي يمكن أن يمنع وصول المكروه إليه، وهٰذا قد يكون من الشيء المحسوس، وقد يكون من الأمور المعنوية.

يقول: «**باب من الشرك الاستعاذة بغير الله**» والاستعاذة من الشيء المكروه: يقول: (أعوذ بالله من هٰذا).

والاستعاذة بغير الله فيها تفصيل:

١ ـ فإن كانت الاستعاذة من أمر غيبي؛ فهٰذا لا شك أنه شرك، كأن يستعيذ بفلان من الجن، أو من عين الإنسان، أو من المرض الذي يتوقع وصوله، أو من شيء مستقبل قد يخافه ويأتيه، فهٰذا شرك إذا استعاذ بمخلوق.

٢ ـ أما إذا كانت الاستعاذة من شيء محسوس مشاهد كأن يكون لإنسان قوة وبطش، فيقول: (أعوذ بالله من شرّك)، أو (أعوذ بالله منك)، لا يجوز أن تكون الاستعاذة بالمخلوق، ولٰكن قد يطلق بعض الناس الطلب علىٰ الاستعاذة والامتناع منه، وسيأتي أنه يجب علىٰ من استُعيذ بالله منه أن يعيذ المستعيذ، لقول الرسول ﷺ: «**من استعاذ بالله فأعيذوه**»[1]؛ لأن هٰذا تعظيمٌ لله، وكونك لا تعيذه وقد استعاذ بالله؛ فيه استهانة بأمر الله ـ جل وعلا ـ، لهٰذا أمر بالاستعاذة، ولهٰذا لما دخل علىٰ امرأة يتزوجها، وقد غرر بها، وقيل لها: إذا أردت أن تحظي عنده فقولي: أعوذ بالله منك، فقالت:

---

(١) أخرجه أحمد (٥١١٠)، وأبو داود (١٤٢٤)، والنسائي (٢٥٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن].

أعوذ بالله منك، فقال ﷺ: «قد عذت بعظيم، اذهبي إلىٰ أهلك»[1] فتركها.

أما إذا استعاذ بالله من أمر يلزمه حقاً واجباً عليه؛ فهٰذا الذي يكون فيه التفصيل:

الجواب: أن حقوق الناس لا تترك ولا تهدر لأجل أنه هو ارتكب محرماً، فالإثم عليه، هو الذي قال هٰذا القول.

أما الاستعاذة مطلقاً من الأشياء المستقبلية أو المخوفة الذي جاءت الآية فيه، وهو يكون من الشرك، ولهٰذا جزم المؤلف أنه من الشرك.

صورة الأمر التي ذكرها المفسرون أن العرب كانوا في عادتهم إذا سافر أحدهم وأمساه الليل في الأرض الفلاة - أي: في البر - فإنه يقول: (أعوذ بسيد هٰذا الوادي من سفهاء قومه)، وسيد الوادي هو كبير الجن ورئيسهم، والجن يكونون مع الإنسان يسمعونه ويشاهدونه، وإن كان هو لا يسمعهم ولا يشاهدهم، فأخبر الله - جل وعلا - بهٰذا فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ هٰذا على لسان الجن؛ لأن أول السورة ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلىٰ آخر الآية [الجن ١ - ٢].

فهو الشيء الذي ذكره الله عن الجن، ومنه هٰذا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، فسماهم رجالاً، فإذاً الجن فيهم رجال، وفيهم نساء، وهٰذا شيء معلوم، وهم مكلفون. وعندهم عقول، ولهٰذا خلق لهم العذاب، وإن كان بعض الناس يقول: إنهم لا يكونون في الجنة، ولٰكن الصحيح أن مؤمنهم يكون في الجنة؛ لظاهر النصوص.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فسماهم رجالاً،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٢)، والنسائي (٣٣٦٤)، وابن ماجه (٢٠٤٠) من حديث عائشة ﵂. وهٰذه المرأة هي ابنة الجون ﵂.

وعن خولة بنت حكيم ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل ....

كما أن الإنس منهم رجال، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الضمير (هم) مفعول، والفاعل ضمير مستتر، ولٰكن يعود علىٰ الجن أم علىٰ الإنس؟

إذا كان الجن زادوا الإنس؛ ففاعله الضمير المستتر وليس الضمير البارز، الضمير البارز يكون مفعولاً، ولٰكن كلا المعنيين يصح، ولهٰذا فسر بهٰذا وبهٰذا، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يعني: زاد الجنُ الإنسَ خوفاً وهلعاً، فالزائد هم الجن، والمفعول به هم الإنس.

ويجوز أن يكون الإنس هم الذين زادوا الجن رهقاً كما جاء عن بعض المفسرين[١] جاء عن ابن عباس أنهم لما عاذوا استعاذوا بهم؛ قالوا: سيدنا الجن والإنس، فزاد شرهم وكثر، فزادوهم أي: الذين استعاذوا بهم زادوهم طغياناً وكفراً وإرهاقاً لغيرهم، والصحيح كلا الفريقين زاد الآخر ضلالاً أو كفراً، ويأتي من هٰذا القبيل أشياء في كتاب الله ـ جل وعلا ـ.

وحديث خولة يقول القرطبي في شرحه لمسلم[٢]: «هٰذا خبر طابق مخبره، وقد جربناه بالفعل، فما استعذنا بهٰذه الكلمات بالله ـ جل وعلا ـ، ونزلنا منزلاً؛ إلا حمينا»، يقول: «وفي مرة كنت في مكان، فلدغتني عقرب، ففكرت في نفسي، فإذا لم أقل هٰذا الدعاء».

فالمقصود أن قوله: «من نزل» عام يدخل فيه من نزل في السفر والحضر، فمن قال ذٰلك مصدقاً رسول الله ﷺ فإنه لا يضره شيء حتىٰ يرتحل من ذٰلك المنزل، وهٰذا لا يمنع القدر، وهٰذا الدعاء من الأسباب وهو أيضاً من القدر، ولٰكن الرسول ﷺ يخبر خبراً عاماً بهٰذا، فلا بد أن يكون قوله

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/٦٥٦).
(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للقرطبي (٧/٣٦).

منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، ....

عن يقين وصدق بالخبر، تصديقاً لرسول الله ﷺ، فإذا قال ذلك؛ فإنه لا بد أن يقع ما قاله الرسول ﷺ.

قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**»، دليل على أن الله يتكلم، ووصف كلماته بأنها تامّات، فهي تامّات في الصدق والعدل، وإذا كانت غير دينية قد تكون كلمات كونية تامات؛ لأنها لا يتخلف المراد بها، فلا بد من حصوله، فهي أيضاً فيها الصدق وفيها العدل، وفيها الحق، ولكن لا بد من حصولها.

وعلى هذا نقول كلمات الله تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كلمات شرعية أمرية دينية.

القسم الثاني: كلمات كونية قدرية.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ**»(١) إلى آخره.

فهل هذا يعين لنا نوعاً من النوعين أو لا نعرف معنى «**لا يجاوزهن بر ولا فاجر**» ما هي المجاوزة؟ يعني: عصيان مقتضى الكلمة، ومخالفة ذلك، فهذا لا يكون إلا بالكلمات الكونية، أما الدينية؛ فأكثر الناس جاوزوها وخالفوها.

استعاذ بكلمات الله الدينية التي يتكلم بها، مثل القرآن، وبكلماته الكونية التي يقول بها للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهذه إذا قال للشيء: «كن» كان ولا بد، بخلاف كلماته الدينية قد تفعل وقد لا تفعل، بل أكثر الخلق لا يفعلون مقتضاها ويطيعونها، فإذاً المجاوزة هي المعصية، يجاوزهن يعني: يعصي مراد الله ـ جل وعلا ـ بها.

فالفجار والكفار يعصون الكلمات الدينية. ثم يقال: إن الاستعاذة لا تجوز إلا بالله أو بصفة من صفاته، فإذاً الكلمات من صفات الله ـ جل وعلا ـ،

(١) أخرجه أحمد (١٤٩١٤) من حديث عبد الرحمن بن خَنْبَش رضي الله عنه.

لم يضرّه شيء حتىٰ يرحل من منزله ذٰلك» رواه مسلم[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الجن. **الثانية**: كونه من الشرك. **الثالثة**: الاستدلال علىٰ ذٰلك بالحديث؛ لأن العلماء استدلوا به علىٰ أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. **الرابعة**: فضيلة هٰذا الدعاء مع اختصاره. ....

ولهٰذا استدل العلماء بهٰذا الحديث علىٰ الجهمية[٢] الذين يقولون: «إن القرآن مخلوق»، فقالوا: لو كان مخلوقاً لكانت الاستعاذة شركاً؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، والرسول ﷺ جاء بالتوحيد.

أما **قوله**: «**لم يضره...**» إلخ؛ فهٰذا الجزاء الذي يترتب علىٰ ذٰلك، وهٰذا أمر سهل ميسور لا يعجِز عنه أحد، فكونه يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات» سواء نزل في منزل في البر أو غيره، ولٰكن مفهوم الحديث أن هٰذا في البر إذا كان مسافراً، ويدخل فيه ما إذا نزل في بيته، سواء في النوم وغيره إذا قال هٰذا القول، فإنه يحصل له مراده.

والشاهد من هٰذا أن الاستعاذة بغير الله شرك، فيجب أن يستعيذ بالله أو بصفة من صفاته، فهٰذا والذي قبله من تفسير التوحيد، فوجه التفسير أن هٰذا منافٍ لكمال التوحيد، والذي قبله قد يكون منافياً للتوحيد أصلاً؛ لأنه من الشرك الأكبر، فإذا نذر للقبر أو لإنسان من الخلق؛ فقد صرف عبادة لغير الله ـ وهٰذا هو الشرك الأكبر ـ والواجب أن تكون لله.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٨١)، وأخرجه الترمذي (٣٣٥٩).

(٢) **الجهمية**: نسبة إلى الجهم بن صفوان، وهو الذي أخذ مذهب الجهمية من شيخه الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى سنة ١٢٤هـ، ومن عقائد الجهمية: القول بأن الله في كل مكان، والقول بخلق القرآن، ونفي أسماء الله وصفاته، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ولزيادة الفائدة؛ انظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٧٥، ٤٠٦، ٤٩٧).

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل علىٰ أنه ليس من شرك.

قوله: «كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كف شر أو جلب نفع»... إلخ. هٰذه المسألة الأخيرة أُخذت من الآية ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن]؛ لأنه قد يحصل له مراده إذا استعاذ بالجن، ولٰكن زاده شركاً وتمادىٰ في الاستعاذة، فهٰذا من الرهق، وكذٰلك الجني ازداد طغياناً وكفراً وتمادياً في كونه يطلب من الإنس أن يستعيذوا به، وإذا لم يستعيذوا به آذاهم، وتسلط عليهم، فالرهق من الجانبين، فكونه ـ مثلاً ـ أعاذه من سفهاء قومه ـ كما يقولون ـ منفعة، ولٰكنها منفعة محرمة، ولهٰذا قال: كون الشيء يحصل به منفعة لا يدل علىٰ جوازه، ولا يدل علىٰ أنه ليس من الشرك، فهٰذا ظاهر.

باب
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

....

الاستغاثة طلب من مكروب، استغاثه؛ أي: يطلب أن يغاث، والغوث هو إدراك المكروب بما ينقذه، وإلا فهي دعاء هي استعاذة، ولهٰذا عطف عليها الدعاء؛ لأنها أخص من الدعاء.

أما الاستعاذة فهي عامة، فقد تكون من مكروب، وقد تكون من غير مكروب، وهٰذا السبب في كونه ذكرها في باب خاص.

والاستغاثة يجوز أن تكون بمخلوق بشروط، بخلاف الاستعاذة، ومن هٰذه الشروط: أن يكون المخلوق حياً قادراً سامعاً موجوداً عندك؛ لقول الله - جل وعلا - ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، وهٰذا شيء معروف.

أما إذا كانت الاستغاثة بميت، أو جني، أو غائب؛ فهٰذا من الشرك.

وقول المصنف: «**أو يدعو غيره**» الدعاء أعم من الاستغاثة، فالاستغاثة داخلة فيه؛ لأن الاستغاثة نوع من الدعاء، ولٰكنه خاص يصدر ممن وقع في الكرب والشدة، والدعاء كذٰلك فيه تفصيل، ولٰكن مقصوده ظاهر أنه يدعوه لأمر مما هو غائب عنه أو يدعو الغائب من ميت أو ملك من الملائكة أو نبي أو غيرهم مما يفعله كثير من الناس.

والدعوة عامة يدعوه في أي شيء من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، أما إذا دعا مخلوقاً حاضراً ليعينه أو يعطيه شيئاً؛ فهٰذا أمر آخر وليس المراد هنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [يونس].

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ يعني: من المشركين، والخطاب ـ وإن كان للنبي ﷺ ـ يدل علىٰ أن الأمر عظيم، وأن الدعوة يجب أن تكون لله وحده، وكونه يقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ هٰذه صفة المخلوق، كل المخلوقين لا يضرون ولا ينفعون إلا بإذن الله ـ جل وعلا ـ، ولا يقال: أدعوه لينفعني بإذن الله؛ لأن هٰذا لا يجوز، فالله أمر أن يكون الدعاء له، لهٰذا قال: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ يعني: دعوت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ في هٰذه الحالة؛ حالة دعاء غير الله ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين وضعوا الدعاء في غير موضعه، وهٰذا هو الظلم حقيقة، أن تضع الشيء في غير موضعه، وهو من الشرك.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: إذا أُصِبْتَ بمرض أو فقر أو حاجة أو غير ذٰلك؛ فلن يزيله أحد من الخلق، وإنما الذي يزيله هو الله، فإذاً يجب أن يكون الدعاء له، وإنزال الفقر به تعالىٰ وتقدس، والتوجه إليه لهٰذا قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾، وأخبر ـ جل وعلا ـ أن الأمور كلها بيده ـ تعالىٰ وتقدس ـ، وأن الإنسان إذا أصيب بشيء ينفعه؛ فهو من الله، وإن أصيب بشيء يضره؛ فهو من نفسه، ومن جزاء ذنوبه، وهو رحمة من الله، والله ـ جل وعلا ـ هو الذي عاقبه علىٰ هٰذا، وليس أحد من الخلق، فدل علىٰ أن الأمور كلها بيد الله ـ جل وعلا ـ، فيجب أن يتجه لله وحده، وهٰذا من العبادة، فإذا التفت الإنسان في هٰذه الأمور إلىٰ غير الله؛ فقد أوقع الأمور في غير مواقعها، وهو الظلم الذي هو الشرك.

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآيتان [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ هٰذا في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه عندما أمرهم أن يطلبوا الرزق من الله وحده.

وفي لغة العرب أن الفضلات مثل الظرف، ومثل الحروف، فحقها أن تؤخر عن العامل الذي عمل بها، فإذا قُدمت؛ فهي تقدم لمعنىً أريد؛ أي: تقديم ما حقه التأخير، فلا بد أن يكون لمعنىً، وهٰذا من البلاغة والفصاحة.

فأصل الجملة لو كان في غير القرآن: (وابتغوا الرزق عند الله)؛ لأن (الرزق) مفعول به، و(عند) ظرف متعلق بالفعل (ابتغوا)، فإذا قُدّم المفعول به على الظرف فالفاعل هو الضمير (ابتغوا) الواو التي هي واو الجماعة؛ صار لأجل أمر قصد، وهو الاختصاص؛ يعني: أن تخصَّ الطلب بمن ذكر. وهٰذا كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولم يقل: (نعبدك ونستعينك) بل قدم المفعول؛ لأن إياك مفعول لنعبد، فقدم، هل المفعول يقدم علىٰ الفاعل؟ يقدم لٰكن له غرض، والمقصود أن العبادة يجب أن تكون لله، والاستعانة له فقط، فلا تكون لمخلوق، هٰذا المراد بذٰلك.

وكذٰلك في هٰذه الآية: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ يعني: لا تبتغوا الرزق عند غيره، هٰذا المعنىٰ المقصود، ولهٰذا عطف عليه العبادة ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾، والعبادة معلوم أنها لا تجوز أن تكون إلا لله وحده، فإذاً ابتغاء الرزق الذي هو طلبه نوع من العبادة؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ أمر به، والله لا يأمر إلا بما يحبه ويريده أن يقع من العباد، والشيء الذي يحبه عبادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥﴾ يعني: المدعو ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ هٰذا الأسلوب يفيد أن هٰذا قد بلغ في الضلال الغاية، فلا أحد أضلُّ منه، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: كل الخلق من دون الله كالملائكة والرسل وغيرهم ممن هم دونه، ومعنىٰ ذٰلك أن الذي يدعو غير الله كائناً من كان؛ فهو أضل الضالين.

وقوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنهم أموات أو غافلون عن دعوتهم لا يدرون عنها شيئاً، فإذا كان يوم القيامة جُمع الداعي والمدعو؛ فيسألهم الله: من كنتم تدعون وهٰؤلاء المدعوين هل أمرتموهم؟ فيتبرؤون منهم، ويكفرون بدعوتهم.

والضلال هو أن يتيه الإنسان وتصبح طريقه مخوفة قد يقع في هاوية تهلكه، وهٰذا مثلها بل أشد، وهٰذا يصدق علىٰ الذين يدعون القبور، فهم ضالون غاية الضلال، وسيتبين لهم إذا حشروا جميعاً هم ومن يدعونهم، فيلعنهم الداعون، وهم يتبرؤون من ذٰلك كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة]، (لو) للتمني مثل: ليت؛ أي: ليت لنا رجعة إلىٰ الدنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]؛ لأن المشرك يجمع عليه أنواع العذاب كلها ـ نسأل الله العافية ـ.

قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يعني: هٰذا المدعو غافل، أو أنه غائب، أو أنه لا يستطيع أن يجيب ـ يعني: أنه ميت ـ، أو أنه جماد، أو غير ذٰلك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ويوم القيامة سيسأل عن ذٰلك، ثم يتبرأ إذا سُئل.

المضطر هو الذي وقع في الشدة، وهٰذه الاستغاثة، فهٰذا الاستفهام ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ لأنهم يعلمون تماماً أنهم كانوا إذا وقعوا في اضطرار التجؤوا إلىٰ الله، وتركوا أصنامهم كما هو معلوم، وكانوا إذا ركبوا البحر،

وروىٰ الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هـٰذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله** ﷻ»(١).

وعصفت بهم الريح؛ قالوا: اتجهوا إلىٰ ربكم، ادعوا الله، فإنه لا ينفعكم في هـٰذا إلا الله، ولن تفيدكم الأصنام، حتىٰ إنهم كانوا يلقون الأصنام ـ إذا كان معهم أصنام ـ في البحر، فيتجهون إلىٰ ربهم، ثم ينجيهم، فإذا أنجاهم إلىٰ البر؛ عادوا إلىٰ شركهم. وذكر الله ـ جل وعلا ـ هـٰذا كثيراً في كتابه محتجاً به علىٰ هـٰؤلاء، فجعل هـٰذا دليلاً علىٰ وجوب عبادته، وكون الالتجاء له وحده ـ جل وعلا ـ.

ثم ذكر الحديث يقول: «**روىٰ الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هـٰذا المنافق**» يعني: ذهبوا إليه فقالوا: أغثنا من هـٰذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**»، أليس الرسول ﷺ قادراً علىٰ أن يأمر من يقتل هـٰذا المنافق؟! ولو أشار لأحد الصحابة أنِ اقتله؛ لفعل وقتله وخرج بذٰلك، ولـٰكن لماذا عدل إلىٰ هـٰذا القول: «**لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**» مع أن القتل هنا لا يلزم؛ لأنه بين ﷺ العلة في هـٰذا، فقد جاء في الصحيح أنه أرسل إليه شيء من الذهب من اليمن، قسمه بين أربعة أشخاص من رؤساء العرب يتألَّفُهم؛ أي: يريد أن يرغبهم في الدخول إلىٰ الإسلام، يعطيهم الدنيا حتىٰ يدخلوا في الإسلام من أجل الدنيا، ثم بعد ذٰلك تدخل قبائلهم في الإسلام؛ لأنه معروف إذا دخل الرئيس؛ فالقبيلة تبع له، فلما قسمه بين أربعة

---

(١) أخرجه أحمد بنحوه (٢٢٧٥٨)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٥٩) إلىٰ الطبراني من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وكذا أورده الهندي في «كنز العمال» (١٠/٦٤٨).

....

جاء رجل محلوق الرأس ناتئ الوجنتين، فقال: يا محمد اعدل فإنك لم تعدل!! وفي رواية قال: هـٰذه قسمة لم يرد بها وجه الله!! كيف هـٰذا؟ كيف يُسَوّل للإنسان شيطانه أو نفسه أن ينصب نفسه مرشداً للرسول وواعظاً له؟ هل يمكن؟ أو هـٰذا واقع؟ هـٰذا من الغرائب والعجائب، ولهـٰذا غضب وقال: **«ألا تأمنني وأنا أمين من في السماء؟! يأتيني الوحي في الليل والنهار»** وأنتم لا تأمنوني علىٰ أمور الدنيا، فقام رجل من الصحابة، فقال: دعني أضرب عنقه(١). هـٰذا الشاهد هنا، فقال: **«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**(٢) ما المقصود بهـٰذا؛ الناس البعيدون عنا لا يعرفون الحقائق، يأتيهم الخبر أن الرسول ﷺ قتل رجلاً من أصحابه، ثم يقولون: إذاً كيف ندخل في الإسلام؟ نخشىٰ أن ندخل ثم يقتلنا، هـٰذا السبب الذي منعه من هـٰذا، أن لا يتحدث الناس **«أن محمداً يقتل أصحابه»**.

فالمقصود أن الرسول ﷺ في هـٰذا قال: **«إنه لا يستغاث بي»** أما من هو هـٰذا المنافق؟ ومن الرجل الذي قال: قوموا بنا؛ فهـٰذا شيء قد تكون فائدته ضئيلة، ولهـٰذا لم يذكر اسمه، وإن كان المحدثون اعتنوا بهـٰذا؛ فصاروا يذكرون المبهمات، وقالوا: إن الرجل الذي قال: قوموا بنا هو أبو بكر، والمنافق هو عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، ويجوز أن يكون غيره، فالمسألة لا تتغير سواء كان هو أو غيره.

المقصود كيف قال لهم: **«إنه لا يستغاث بي»** وهو يستطيع أن يمنع هـٰذا المنافق، هـٰذا الشاهد. السؤال هنا لماذا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٤)، ومسلم (١٦٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ مقارب.

(٢) هـٰذا الحديث ليس في سياق الحديث السابق، وإنما هو حديث آخر أخرجه البخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (٤٦٨٢) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن عطف الدعاء علىٰ الاستغاثة من عطف العام علىٰ الخاص. **الثانية**: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾. **الثالثة**: أن هٰذا هو الشرك الأكبر. **الرابعة**: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين. **الخامسة**: تفسير الآية التي بعدها. **السادسة**: كون ذٰلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً. **السابعة**: تفسير الآية الثالثة. **الثامنة**: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه. **التاسعة**: تفسير الآية الرابعة. **العاشرة**: أنه لا أضل ممن دعا غير الله. **الحادية عشرة**: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه. **الثانية عشرة**: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له. **الثالثة عشرة**: تسمية تلك الدعوة عبادةً للمدعو. **الرابعة عشرة**: كفر المدعو بتلك العبادة. **الخامسة عشرة**: أن هٰذه الأمور سبب كونه أضل الناس. **السادسة عشرة**: تفسير الآية الخامسة. **السابعة عشرة**: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هٰذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين. **الثامنة عشرة**: حماية المصطفىٰ حمىٰ التوحيد والتأدب مع الله ﷻ.

الجواب: سداً للذريعة ألا يستغاث بمخلوق، وتأدباً مع الله ﷻ أي: إبعاداً لهم عن ذرائع الشرك وأسبابه، وتأدباً مع الله ـ جل وعلا ـ، هٰذا هو الجواب الصحيح.

باب

قول الله تعالىٰ:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف]

المقصود بهٰذا الباب أن يبين أن الأمر كله بيد الله، وأن كل من يُدعىٰ من دون الله فهو فقير إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، لا يملك شيئاً، سواء كان نبياً، أو ولياً، أو ملكاً، أو غيره من الخلق، كلّهم في هٰذا سواء، وهٰذا معناه أنه يبطل الشرك؛ لأن الذي لا يملك شيئاً فإنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فهو من باب أولىٰ لا يملك لغيره النفع والضر، فكيف يُدعىٰ؛ لأن المدعو إذا لم يكن قادراً علىٰ إيصال النفع إلىٰ داعيه، فدعوته باطلة، ولا فائدة فيها، هٰذا والباب الذي بعده في هٰذا الموضوع.

وقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والشرك معناه أن يدعو الله، ويدعو معه غيره في أمر من الأمور، وهٰذا معروف. والناس يشتركون في الأعمال؛ لأنهم سواء، وأعمالهم سواء، أما العبادة فيجب أن تكون لله وحده ـ جل وعلا ـ.

وقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني: أن الذي لا يخلق لا يجوز أن يُدعىٰ، ولا يُعبد.

وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة، فيدخل فيه كل شيء، وإن كان حقيراً صغيراً مثل الذرة، والذباب، وغيرها، فهم لو اجتمعوا علىٰ أن يخلقوا ذباباً ما استطاعوا، ولو أخذ منهم الذباب شيئاً ما استطاعوا أن يستنقذوه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ الآية [الحج: ٧٣].

وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني: أنهم لا يتصرفون في أنفسهم، فالله ـ جل وعلا ـ هو المتصرف فيهم، وهو الذي أوجدهم من العدم، فكيف تدعون قوماً

وقولـه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

مثلكم فقراء ضعفاء، والله يتصرف فيهم، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ يعني: لا يستطيعون لداعيهم نصراً، فإذا كان لا يستطيع النصر فدعوته خسارة وضلال.

ثم قال زيادة علىٰ هـٰذا: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ وبهـٰذا يتبين أن دعوة غير الله باطلة، ومع كونها باطلة؛ فإن الداعي يستحق عقاب الله، فإذا مات علىٰ ذٰلك؛ فهو في جهنم خالداً فيها مخلداً؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، ولأنه عكس ما خُلق لأجله. فالله خلقه ليعبده، فصار يعبد مخلوقاً مثله ضعيفاً لا يستطيع أن يملك لنفسه شيئاً، فاستحق بذٰلك أشدّ العقاب، وهـٰذا معناه أن المخلوق إذا دعا غير الله ـ جل وعلا ـ، حيث إنه جعل المخلوق مثل الله فيما يدعوه، وتنقصه وصار واضعاً لحق الله فيما لا يستحق شيئاً، وبذٰلك يتبين قبح الشرك، وأنه من أقبح الأعمال، ولهـٰذا جعل الله ـ جل وعلا ـ من مات عليه في النار أبداً لا يخرج منها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: يقول علماء التفسير واللغة: هو القشر الرقيق الذي يكون في نواة التمر[1]، وهـٰذا لا يُنتَفع به في شيء، وهو حقير جداً، فإذا كانوا لا يملكون هـٰذا القدر؛ فكيف تكون دعوتهم، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ هـمطلق دخل فيه كل مدعو من دون الله، وإن كان ملكاً من الملائكة، وإن كان نبياً، فهو لا يملك هـٰذا المقدار مع الله ـ جل وعلا ـ، وستأتي الآية التي فيها السبر والتقسيم بأنهم لا يملكون شيئاً لا شفاعة، ولا شركة في الملك، وليس لهم معاونة مع الله ـ جل وعلا ـ، وليس لهم أي أمر من الأمور.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٤١)، «تاج العروس» (١/ ٣٤١٣) مادة: (قطمر).

وفي الصحيح[١] عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكُسِرَتْ رُباعِيَّتُه، فقال: «**كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم**»؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ثم **قال: «وفي الصحيح»** يعني: في الحديث الصحيح.

قوله: «عن أنس قال: شج النبي ﷺ يوم أحد» الشج: هو الجرح في الرأس[٢]، وهو إزالة جلد الرأس حتىٰ يخرج الدم أو يصل إلىٰ العظم، ثم استعير ذٰلك في الوجه، فأطلق علىٰ ما يقع من الجروح في الرأس والوجه، وشجة الرسول ﷺ كانت في وجهه، **«وكُسَرتْ رباعيَتُه»** الإنسان له أربع رَباعيات، والرَّباعيَّة هي آخر الأسنان، وأول الأضراس، قبل الأضراس ومنتهىٰ الأسنان، من أسفل اثنتان، ومن أعلىٰ اثنتان، وذٰلك أنه ضربه عبد الله بن أبي قمئة في وجهه، فانكسرت ثَنِيَّتُه، وشُجَّ رأسه، ودخلت حَلْقَة المِغْفَر في وجنته ﷺ، فصار الدم يسيل، **فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» فنزلت** ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

والمقصود في هٰذا أنه ليس له مع الله تصرف، فالتصرف والأمر والنهي بيد الله ـ جل وعلا ـ، فيسلط الأعداء علىٰ أوليائه حتىٰ يكون لهم في ذٰلك فضل وأجر، حتىٰ يعلم أنه ليس لهم مع الله شيء؛ لأنهم ما استطاعوا أن يدفعوا عن أنفسهم.

وهٰذا سيد الخلق، فلو كان شريكاً لله؛ فأقل شيء أنه يرفع عن نفسه، فلا يصيبه شيء، وهٰذا هو وجه ذكر الحديث في هٰذا الباب.

أما قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾؛ فالمعنىٰ أنهم عبيدي كما أنك رسولي، امضِ فيما أُمِرتَ به، وأنا أتصرف فيهم، فإن شئتُ عذبتهم، وإن شئت عفوت عنهم، وغفرت لهم،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢/ ٣٠٣) مادة: (شجج).

....

فالأمر إلي، وليس لك شيء من التصرف فيهم، فهٰذا دليل علىٰ أن الله ـ جل وعلا ـ هو الرب، وهو المعبود وحده، وأما الرسول ﷺ فهو عبد الله، ولهٰذا تجري عليه أقداره، ولا يستطيع أن يصرف عن نفسه ما قدره الله عليه، فليس له من الربوبية شيء، ولا من العبودية شيء، وبهٰذا يتبين ضلال الذين يدعون الرسول ﷺ ويتجهون إليه، وقد يصل الأمر بهم إلىٰ أن يستغيثوا به من دون الله، كما يقول قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلةَ القدم
ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي ... إذا الكريم تحلىٰ باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتَها ... ومن علومك علمَ اللوح والقلم

وله قصيدة أخرى، يقول: أنشدتها أمام القبر، وأنا مكشوف الرأس؛ مع أن كشف الرأس عبادة، فلا يكشف الرأس إلا في الحج في الإحرام، وهٰذا كشف رأسه خضوعاً للرسول ﷺ وذلاً، ثم صار يشكو إليه ويقول:

هٰذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفىٰ عليك في القلب داء

كيف الرسول لا يخفىٰ عليه في القلب داء؟!

فهٰؤلاء صار حظهم من رسول الله ﷺ مدحه بالكذب، والغلو الذي نهىٰ عنه، ومع ذٰلك تتخذ هٰذه القصائد شبه الوتر، شبه القرآن، بل أعظم من القرآن، يقرؤونها صباح مساء، فهل هٰؤلاء فهموا قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؟ أو فهموا قوله ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»**(١)، أو قوله ﷺ: **«والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ»**(٢)، هٰكذا يواجه الناس

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٩) من حديث عمر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

....

ويقول لهم، ولٰكن الشيطان يأبىٰ إلا أن يُضِلَّهم، ويسلكهم مسالك النصارىٰ، فالنصارىٰ قالوا: إن عيسىٰ ابن الله، وهٰؤلاء أعطوه المعنىٰ بدون اللفظ؛ يعني: أعطوه معنىٰ الألوهية التي هي التصرف في الكون، فإذا كان يقول مثلا:

ولن يضيق رسولَ الله جاهك بي إذا الكريم تحلىٰ باسم منتقم

يعني: إذا غضب الله يوم القيامة؛ فأنا ألجأ إليك وأحتمي بك من غضبه، لا يجوز هٰذا أن يصدر عن عاقل، فضلاً عن مسلم، ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ....

ضرتها هي الآخرة، فإذا كانت الدنيا والآخرة من جملة جود الرسول ﷺ؛ فماذا بقي لله!

ثم يقول:

.... ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني: اللوح الذي كتب فيه كل شيء، والقلم الذي جرىٰ بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، كل هٰذا من جملة علوم الرسول ﷺ، فماذا بقي لله - تعالىٰ الله وتقدس عن أقوال المفترين -.

وهناك قصائد كثيرة من هٰذا القبيل، فكيف هٰؤلاء وصلوا إلىٰ هٰذا الحد مع أنهم يقرؤون أحاديث رسول الله ﷺ، ويقرؤون سيرته، وكذٰلك يقرؤون كتاب الله - جل وعلا -، إذا طبع علىٰ قلب إنسان فلا حيلة فيه، نسأل الله السلامة.

هٰذه القضية التي حدثت في أُحُدٍ كانت تمحيصاً للمسلمين وابتلاء، وقد وعدهم الله - جل وعلا - النصر، ثم قال لهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى

....

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ [آل عمران]، والصرف هٰذا والابتلاء بمجرد معصية واحدة، ولم تحصل منهم كلهم؛ لأن الرسول ﷺ رتب الجيش وأخذ سبعين رجلاً، ووضعهم في مكان معين، وقال: «**احموا ظهورنا من الخيل، ولا تَعْدوا مكانكم حتىٰ أرسل إليكم، وإن رأيتم الطير تخطفنا**»[1]، وأكد عليهم هٰذا الشيء، وأمّر عليهم رجلاً، ثم بدأ بالقتال، فصار هٰؤلاء ينضحون الخيل، فلا تستطيع الخيل أن تقترب وهم ينضحون بالنبل، فانهزم المشركون، وصاروا يصعدون في الجبل، والمسلمون خلفهم يقتلون ويأخذون ما يتركونه، فلما رأىٰ هٰؤلاء الذين عينوا في هٰذا المكان انهزام المشركين؛ قالوا: علام نجلس هنا، نذهب نقتسم، فذَكَّرهم أميرهم بقول النبي ﷺ، فلم يبالوا به، فتركوا المكان، وكان علىٰ خيل المشركين خالد بن الوليد، فجاء من هٰذا المكان من خلف المسلمين وصار يقتل فيهم، فحصلت الهزيمة، وانهزم كثير منهم، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ، وبعض الصحابة، جرح وكسرت ثنيته ﷺ، ثم أرسل الله ـ جل وعلا ـ عليهم الطمأنينة والسكينة كما يقول أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحُدٍ، حتىٰ سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه[2]، بينما أنا كذٰلك سمعت رجلاً يقول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وكأنها حلم، ونزول النعاس في القتال علامة النصر بخلاف المنافق، فإنها تُهِمُّه نفسه، فلا يتطرق إليه النوم من الخوف والهلع.

أما المؤمن فيود أنه يقتل ولا يبالي في هٰذا، غير أنه يحامي ويدافع أشد المدافعة عن دينه وعن إخوانه وغير ذٰلك.

المقصود أن هٰذه الواقعة التي وقعت فيها تأديب بسبب معصية واحدة حصلت، فلينظر المسلمون إلىٰ حالهم، هل يستحقون النصر وهم يبارزون الله بالمعاصي؟!

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٥٣)، وأبو داود (٢٢٨٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦١).

وفيه عن ابن عمر ﵄ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «**اللهم العن فلاناً وفلاناً**» بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**» فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨][(١)].

وفي رواية: يدعو علىٰ صفوان بن أمية، ....

إذا كان هـٰؤلاء مع الرسول ﷺ، وهم في طاعة، وفي جهاد، ومخالفة واحدة فقط أوجبت هـٰذا الأمر، فإذاً قد يسلط العدو علىٰ المسلمين، وليس هـٰذا فيه مبالغة؛ لأن هـٰذا حصل مراراً، والله ـ جل وعلا ـ بينه وأخبر أنهم إن صبروا وامتثلوا الأمر؛ جاءهم النصر، وإلا فالنصر لا يكون لمن يخالف.

والمقصود هنا هو أن الرسول ﷺ سيد الخلق، وهو أقرب الناس إلىٰ الله، وأحبهم إليه؛ ومع هـٰذا يحصل له هـٰذا الأمر الشديد، شُجَّ في الوجه، وكُسِرَ بعض أسنانه، وسالت الدماء علىٰ وجهه، حتىٰ حاولوا إيقافه فلم يقف، حتىٰ جاءت فاطمة وأحرقت حصيراً ثم صارت تضعه علىٰ الجرح حتىٰ توقف الدم، ودخلت حَلْقة المِغْفر في وجنته، فحاول بعضهم أن يخرجها فما استطاعوا، فجاء أبو عبيدة بن الجراح، فعضها في فمه وأخرجها بعد ما سقطت أسنانه، وهـٰذا يدل علىٰ أنها متمكنة، كل هـٰذا بسبب هـٰذه المعصية فقط.

فعلىٰ هـٰذا نقول: إن الذي عصىٰ بعضهم، وحصل للرسول مثل هـٰذا الأمر الشديد، مع أنه هو الذي يديرهم، وهو الذي ينفذ أمر الله فيهم، فمعنىٰ ذٰلك أن المعصية إذا حصلت في قوم؛ فإنها لا تقتصر علىٰ العاصي، بل تتعداه إلىٰ غيره.

قال: «**وفيه**» يعني: في الصحيح. **قوله**: «**يدعو علىٰ صفوان بن أمية،**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٤٦).

وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾(١).

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] قال: «**يا معشر قريش** ـ أو كلمة نحوها ـ **اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً**، ....

وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام» هٰؤلاء الذين سماهم الرسول تاب الله عليهم، وأسلموا وحسن إسلامهم، وصاروا يقاتلون في سبيل الله، وهٰذا من آيات الله ـ جل وعلا ـ، أولاً: كانوا يقاتلون الرسول ويحرِصون كل الحرص علىٰ قتله، ثم صار أحدهم لا يستطيع أن يحقق النظر في رسول الله ﷺ حياءً منه وتقديراً له، حتىٰ قال أحدهم: والله لو طلب مني أن أصفه ما استطعت أن أصفه؛ لأني لا أستطيع أن أحدد النظر فيه؛ تعظيماً له ومحبةً له، تبدلت الأحوال بضدها، هل هٰذا من فعل الإنسان؟

كلا إنه من فضل الله ـ جل وعلا ـ، فهو يحبب الإيمان إلىٰ من يشاء ويزينه في قلبه، ويكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، ويجعله راشداً، ولٰكن لا بد لهٰذا من أسباب، لا بد أن يتعرض الإنسان لأسباب هٰذه الأمور.

يقول: «وفيه» أيضاً في الحديث الصحيح.

وقوله: «**يا معشر قريش**» المعشر هم الجماعة.

قوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**» هذا تصريح رسول الله ﷺ أنه لا يغني شيئاً من الله، وأنه ليس للإنسان إلا عمله الذي يجزيه به الله ـ جل وعلا ـ.

وفي التفسير وأسباب النزول: أنه لما نزلت عليه هٰذه الآية خاف أنه قصر بالبلاغ وخاف من الله خوفاً شديداً، فقام إلىٰ أقرب جبل عنده، وهو

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠٤).

....

جبل الصفا، وصَعِدَ علىٰ الجبل، وصار يهتف بأعلىٰ صوته: «**ياصباحاه**» وهٰذه عادة العرب إذا شاهد أحدهم عدواً مقبلاً بلا نذارة؛ يصيح بقومه (ياصباحاه) يعني: صبحكم العدو فاستعدوا، فسمع كل أهل مكة، وكلهم أتوا إليه، فلما اجتمعوا قال لهم: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خلف هٰذا الجبل جيش يريد اكتساحكم وأخذكم أمصدقي؟**» قالوا: نعم، لم نجرب عليك كذبة واحدة.

قال: «**إذاً أنقذوا أنفسكم من النار، فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال له عمه أبو لهب: تباً لك سائر هٰذا اليوم، أجمعتنا لهٰذا، فأنزل الله ـ جل وعلا ـ قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١﴾ [المسد][(١)]، فخص وعم، أولاً عمَّهم كلهم، وأنذرهم جميعهم، كل قريش، قال: «**أنقذوا أنفسكم من النار فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، ثم صار يخص قرابته، وقبيلته، حتىٰ ذكر ابنته فاطمة «**لا أغني عنك من الله شيئاً، سليني من مالي ما شئت**» يعني: أني لا أملك إلا المال الذي بيدي، أمَا أن أحميك من عذاب الله؛ فهٰذا لا أملكه، فلا بد أن تعملوا.

فكيف بالذي يحتمي برسول الله، والرسول ﷺ يقول هٰذا القول؟! يقول لابنته التي يقول فيها: «**هي بَضعة مني، يَريبني ما رابها**»، وذٰلك لما أراد علي بن أبي طالب ﷺ أن يتزوج بنت أبي جهل؛ قال: «**والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد، فإن أحب ابن أبي طالب أن يتزوج بنت عدو الله فليطلق ابنتي**»[(٢)]، قام وقال هٰذا علىٰ المنبر، فلما سمع ذٰلك علي انتهىٰ عن ذٰلك.

فالمقصود أن الرسول ﷺ لا يملك من الله شيئاً، فهو عبد تعبّده الله

---

(١) أخرجه البخاري بألفاظ متقاربة في عدة مواضع (٤٣٩٧، ٤٤٢٧، ٤٥٨٩، ٤٥٩٠، ٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٤٤٨٢) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

يا عباسُ بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيةُ عمةَ رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمةُ بنت محمد

ـ جل وعلا ـ، وكلفه بالرسالة، هٰذه مهمته. أما أنه يُدْعىٰ مع الله، أو يستغاث به؛ فهٰذا ضلال وخروج عن سبيل الله ـ جل وعلا ـ.

ثم هٰذه الآية مكية نزلت في مكة، وأبو هريرة ﷺ أسلم في السنة السابعة من الهجرة، وجاء الرسولَ وهو يقسم غنائم خيبر، وهٰذا دليل علىٰ أن الأحاديث التي يرويها أبو هريرة تكون بواسطة الصحابة؛ لأنه لم يشاهد هٰذه القضية، وقد جاء من طرق متعددة.

قوله: «**اشتروا أنفسكم**» الشراء يطلق علىٰ المبادلة من الجانبين، ومعنىٰ اشتروا أنفسكم؛ أي: بالتوحيد؛ توحيد الله وإخلاص العمل له، لا قيمة للنفس إلا بهٰذا، فمن لم يفعل ذٰلك؛ فقد غبن، وقد هلكت نفسه، فلا بد من عذابه وإلقائه في النار.

وقوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**» يعني: أني لا أملك مع الله شيئاً حتىٰ أحميكم وأنفعكم، فلا ينفعكم إلا أعمالكم التي تخلصونها لله ـ جل وعلا ـ علىٰ وفق الأمر الذي جئتكم به، ولا بد من هٰذا، وبدون ذٰلك لا نجاة لكم.

ثم قال: «**يا عباس بن عبد المطلب**» هو عم رسول الله ﷺ كما هو معلوم، وخاطبه لأنه مسلم، وإلا فأعمامه غيره عدد، مثل: أبي لهب، فهو عمه، ومع ذٰلك نزل فيه ما نزل. وكذٰلك حمزة وغيره من أعمامه.

وكذٰلك قرابته الذين صار يخصهم ويُعَيّنهم، **يقول**: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**».

ثم ذكر ﷺ عمته صفية، **قال**: «**لا أغني عنك من الله شيئاً**»، وهٰذا معناه ذكر بعض من خصهم بالذكر فقط ليبين أنه بلغ أمر الله ـ جل وعلا ـ حسب ما أمره الله ـ جل وعلا ـ.

سليني من مالي ما شئتِ، لا أغني عنك من الله شيئاً»[١].

وقوله في فاطمة: «سليني من مالي ما شئت» يعني: أن هٰذا الذي أملك، أملك المال فقط الذي عندي، أما شيء بيد الله من شفاعة أو غيرها؛ فلا أملكها، وإنما الشفاعة لله إذا أمرني أن أشفع شفعت، وإلا فلا أستطيع أن أشفع بدون أمره كما سيأتي.

ومن هٰذا يتبين أن الذين يتعلقون بالرسول ﷺ في ضلال بعيد، فكيف بالذي يتعلق بمن لا يداني نعال رسول الله ﷺ؟ فكيف بمن يتعلق بمن ليس بمسلم ولا عرف الإسلام، وإنما عرف أنه جاسوس للباطنية مثل أحمد البدوي الذي يقولون عنه: يجتمع عند قبره ما يقرب من ثلاثة ملايين وقت المولد، يدعون ويتضرعون، ويقدمون النذور، ويستشفعون به؛ أي: أكثر من الذين يجتمعون في عرفات، نسأل الله العافية من الانتكاس.

ومن الأمور التي تدمي القلوب: كيف المسلمون يكونون بهٰذه الحالة يجتمعون علىٰ قبر ميت ـ كما يقول السخاوي ـ لم يعرف منه إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة، ثم بال فيه، ثم خرج بدون صلاة، حتىٰ لو عرف أنه ولي فدعوته ضلال، والالتجاء إليه شرك أكبر يجعل صاحبه خالداً في النار إذا مات عليه، وهو سخافة، وإهدار للعقل والفطرة، فضلاً عن أمر الله ـ جل وعلا ـ، فكيف العاقل يلجأ إلىٰ ميت رميم العظام ويدعوه، ثم يزين شياطين الإنس الذين يريدون سلب أموال الناس أنه لا يدخل مصر شيء إلا بإذنه؛ لأنه يتصرف في الكون، ويتصرف بكذا وكذا، ويدجلون علىٰ السفهاء والسذج الذين ليس لهم عقول نسأل الله العافية، ولهٰذا يكونون من أشد الناس عذاباً؛ لأنهم لم ينظروا لآيات الله، ولم ينظروا إلىٰ أنفسهم، فالمخلوق ضعيف لا يملك لنفسه شيئاً حتىٰ يملك لغيره أنه ينفعه أو يدفع عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٨)، ومسلم (٣٠٥).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآيتين. **الثانية**: قصة أُحُد. **الثالثة**: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار. منها: شَجُّهم نبيَّهم وحرصُهم علىٰ قتله، ومنها: التمثيل بالقتلىٰ مع أنهم بنو عمهم.

قوله: «قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون في الصلاة» يعني: أنهم فعلوا ذٰلك فلم يستجب لهم؛ يعني: كان الرسول ﷺ سيد المرسلين وخلفه الصحابة سادات الأولياء يُؤمِّنون علىٰ دعائه بأن يلعن الله فلاناً وفلاناً، فلم يستجب له، ومعنىٰ هٰذا أن الأمر بيد الله، فإن شاء استجاب، وإن شاء لم يستجب.

قوله: «أن المدعو عليهم كفار» يعني في ذٰلك الوقت كانوا كفاراً، ومع ذٰلك فلم يستجب فيهم الدعاء، مما يدل علىٰ أن الأمر بيد الله وحده.

قوله: «التمثيل بالقتلىٰ» يعني صاروا يقطعون آذانهم ويبقرون بطونهم لما قتلوهم، وهٰذا من الإجرام ومن التعدي، قتل فلماذا تصنع هٰذه الأشياء كما يفعل المجرمون؟ ولهٰذا كان الرسول ﷺ إذا أرسل جيشاً وأمّر أميراً؛ يقول: **«اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تمثلوا»**(1) وكان ينص علىٰ هٰذا **«ولا تمثلوا»**، والتمثيل هو تشويه القتيل، يقطع شيئاً منه، فلا يجوز، هٰذا من المحرمات إلا أن يفعل العدو هٰذا بالمسلمين، فإذا فعل ذٰلك؛ جاز لهم أن يفعلوا مثل ما فعل؛ تنكيلاً لهم، ومعاقبة لهم بمثل ما فعلوا ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل].

---

(1) أخرجه مسلم (٣٢٦١) من حديث بريدة رضي الله عنه.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فتاب عليهم فآمنوا. **الثامنة**: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعنة المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء].

الثانية عشرة: جِدُّه ﷺ في هٰذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلىٰ الجنون، وكذٰلك لو يفعله مسلم الآن.

قوله: «**القنوت في النوازل**» يعني: أن القنوت في النوازل سنة.

قوله: «**تسمية المدعو عليهم**» يعني: أن هٰذا لا يضر بالصلاة تسميهم بأسمائهم وأسماء آبائهم.

قوله: «**لعنه المعين في القنوت**» يعني: أن هٰذا جائز، وهٰذا هو القول الصحيح، ولٰكن ليس كل معين يجوز لعنه.

قوله: «**جِدُّه ﷺ في هٰذا الأمر... إلخ**» يعني لما صار يصيح علىٰ الصفا، فيقول: «**ياصباحاه**» ثم اجتمعوا إليه، وأخبرهم بأنه نذير؛ قالت الناس: أنت مجنون، كيف تجمعنا لهٰذا، ويقول: كذٰلك لو فعله مسلم اليوم صار يصيح يقول: يا أيها المسلمون أنقذوا أنفسكم من النار فإنكم علىٰ خطر، انتشرت المعاصي وكذا وكذا؛ لقالوا: أنت مجنون.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «**لا أغني عنك من الله شيئاً**» حتىٰ قال: «**يا فاطمةُ بنتَ محمد لا أغني عنك من الله شيئاً**» فإذا صرح ﷺ وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن، تبين له التوحيد وغربة الدين.

قوله: «ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن، تبين له التوحيد وغربة الدين» قصده إذا نظر في مثل من يقول مثل هٰذه الأبيات التي ذكرت لكم ولغيرها كيف توجهوا إلىٰ الرسول في الدعوة والتضرع إليه وعبادته، والآن لو يذهب الإنسان الىٰ قبر الرسول هناك يسمع ويشاهد أشياء تنافي هٰذا الأمر من بعض الناس، حتىٰ يوضع جنود هناك يمنعون الناس، ويرون أنهم إذا منعوا مظلومون؛ لأنهم جاؤوا إلىٰ الرسول وكثير منهم إذا دخل المدينة أو أقبل علىٰ المدينة صار ينادي: يا رسول الله جئتك من بلاد بعيدة!! فكأن الرسول هو المعبود، نسأل الله العافية.

فأين معرفة الإسلام؟ وأين دعوة الرسول ﷺ، وهٰذه الطريقة توارثها الكثير من الناس، ثم ليس هٰذا خاصاً بالرسول ﷺ، بل هٰذا يفعل مع غيره في القبور الأخرىٰ التي يزعمون أنها قبور أولياء، وهي كثيرة جداً، غير أن هٰذه البلاد ـ وبحمد الله طهرها الله بسبب دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هٰذه البلاد، وصار لها بركة، بل تعدت إلىٰ غيرها، فأزيلت هٰذه الظاهرة منها، وطهرت، وهٰذا فضل من الله ـ جل وعلا ـ.

أما غير هٰذه البلاد مثل بعض بلاد المسلمين، كمصر وباكستان والهند والسودان وغيرها، فإذا ذهب الإنسان إلىٰ هناك فإنه يشاهد كيف الناس يعملون في القبور، كيف يطوفون علىٰ القبور، ويقدمون لها النذور، ويستنجدون بأصحابها، فأين دعوة الرسول ﷺ للتوحيد وإخلاص التوجه

....

إلىٰ الله وحده؟ كأنها لم يكن لها أثر، وإنما توارثوا هـٰذا الشيء بعضهم عن بعض.

ثم لو تكلم متكلم في هـٰذا المكان؛ لكان عليه خطر أنهم يقتلونه، ويصيحون به من كل جانب: هـٰذا وهابي، وبعضهم يقول كافر.

أردت مرة أن أكلم شخصاً في الهند، فوضع إصبعيه في أذنيه، وقال: لا أسمع لك، أنت وهابي كافر. يعني: صار عندهم هـٰذه الظاهرة، توارثوها وصارت تسمع، مثل هـٰذا يضع إصبعيه في أذنيه حتىٰ لا يسمع شيئاً، ويزعم أن الذي يكلمه كافر، ولا أحد يقبل من الكافر؟

وقال لي بعض الدعاة في بلاد الهند: إني التقيت بمشرك كبير، وكان يدعو: يا عبد القادر، يا عبد القادر، فقلت: عبد القادر ما ينفعك، عبد القادر مدفون في العراق، وأنت في الهند!! قال: اسكت إن هـٰذا أمر جربته، ووجدت نفعه. فقلت: ماذا جربت؟ قال: ذهبت للبلد الفلاني والوقت بارد أنا وفلان وفلان، فلم نجد أحداً يؤوينا، فاستغثنا بعبد القادر، فجاء إلينا وعلىٰ يده بطانيات وأعطىٰ كل واحد بطانية، يقول فقلت له: هـٰذا إبليس، هـٰذا الشيطان سرق البطانيات من بعض الحوانيت، وجاءك ليضلك، وإلا عبد القادر في قبره، ولـٰكن بدون جدوىٰ، يصل الأمر إلىٰ هـٰذا الحد، أين العقول؟ وأين التوحيد؟ نسأل الله السلامة، ثم يزعم أنه مسلم.

باب

قول الله تعالىٰ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

هٰذا الباب شبيه بالباب الذي قبله، وفيه أن الملائكة الذين هم أطوع الخلق لله وأعظم المخلوقات خلقاً وأقربهم إلىٰ الله؛ أنهم إذا سمعوا كلام الله صَعِقوا خوفاً من الله مع عظم خلقهم وقوتهم، فهم يخافون أشد الخوف من الله، بل السماء كلها ترجف وترتعد خوفاً من الله ـ جل وعلا ـ، فكيف مع هٰذه الحالة يجرؤ الإنسان الذي فيه عقل علىٰ أن يتجه إلىٰ غيره، ويدعو غيره مع هٰذه العظمة، فالله أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء.

وملائكة الله منهم من لو أذن الله له أن يحمل الأرض كلها لحملها وطار بها، ومع ذٰلك يخافون هٰذا الخوف الشديد من الله ـ جل وعلا ـ، ومن كان بالله أعلم؛ كان له أخوف، فهم يعلمون عظمة الله ـ جل وعلا ـ، لهٰذا يخافونه.

قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ كأن الكلام فيه تقدير محذوف قد عرف من سياق الآيات، فهم يسمعون شيئاً ثم يصعقون، و﴿فُزِّعَ﴾ يعني: ذهب الفزع عن القلوب. ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ يعني: يقبل بعضهم علىٰ بعض، ماذا قال؟ فهم يسمعون كلام الله ولم يفهموه، وإنما علموا أنه تكلم، فخافوا أن تكون القيامة قد قامت؛ لأن كل من في السماء مشفق منها وخائف؛ لأن يوم القيامة يوم يجمع له الخلق، ويغضب الله ـ جل وعلا ـ غضباً لم يغضب مثله قبله، ولن يغضب بعده مثله كما أخبر الرسول ﷺ، فينتهي الأمر إلىٰ جبريل؛ لأن جبريل هو أقرب الملائكة إلىٰ الله، وهو الذي يتولىٰ تنفيذ أمر الله، ويرسله إلىٰ رسله، وإلىٰ من يشاء الله من ملائكته.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**إذا قضىٰ الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله، كأنه سلسلة علىٰ صفوانٍ ينفُذُهم ذٰلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُوا۟**

والملائكة كلهم رسل يأتمرون بأمر الله ـ جل وعلا ـ، وينتهون عن نهيه، فإذا سألوه؛ قال لهم: ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾؛ يعني: أنه لا يخبرهم بالشيء الذي أمروا به؛ لأنه ما أمر بذٰلك، وإنما يقول: «**قال الحق**» فينتهون عند ذٰلك؛ لأنهم يخافون من الله ـ جل وعلا ـ أشد الخوف.

الشاهد من الآية: أنهم علىٰ عظمهم وقربهم من الله يخافون هٰذا الخوف الشديد، بحيث إنهم إذا سمعوا كلامه صُعقوا خوفاً منه، فكيف يجرؤ العاقل أنه يدعو غير الله، ويدعو مقبوراً أو غير مقبور من شجر أو حجر أو غيره، فلا شك أن هٰذا غاية الجهل بالله ـ جل وعلا ـ، ومع ذٰلك لا يعذر؛ لأن عنده عقلاً، وفيه فكر، وحوله آيات يشاهدها في نفسه، وفي المخلوقات وغيرها.

ثم ذكر الحديث في تفسير هٰذه الآية، **فقال**: «**في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إذا قضىٰ الله الأمر في السماء**» قضىٰ يعني: أمر به، و«**قضىٰ**» تأتي بمعنىٰ الأمر، يعني: أمر وألزم وأوجب، و«**في السماء**» لأن الله فوق، وأن هٰذا القضاء يكون في السماء بين الملائكة.

قوله: «**ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً**» الملائكة لها أجنحة، و«**خضعاناً**» يعني: خضوعاً لله وذلاً وخوفاً «**خضعانا لقوله، كانه سلسلة علىٰ صفوان**»؛ يعني: أنهم يسمعون صوتاً كأنه جَرُّ سلسلة علىٰ الصفوان، ويعلمون أن هٰذا هو صوت الله ـ جل وعلا ـ، ولٰكن لا يفقهون ماذا يقول.

وقوله: «**ينفذهم ذلك**» يعني: أن هٰذا الصوت يسمعونه كلهم.

قوله: «**حتىٰ إذا فزِّع عن قلوبهم**» يعني: أنهم يُصْعقون عند ذٰلك ويُغْشىٰ عليهم، ثم يذهب الخوف والفزع، فإذا ذهب صاروا يسأل بعضهم بعضاً:

مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]، فيسمعها مُسْتَرِقُ السمع، ومُسْتَرِقُ السمع هٰكذا بعضه فوق بعض ـ ووصفه سفيان بكفه، فحرفها، وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة، فيلقيها إلىٰ من تحته، ثم يلقيها الآخر إلىٰ من تحته، ....

«**ماذا قال ربنا**» ينتهي السؤال كما سمعنا إلىٰ جبريل ﷺ، فإذا وصل إليه؛ قال لهم: «**قال الحقُّ**» فيصيرون يرددون هٰذه الكلمة: (قال: الحق، قال: الحق)، وهٰذا تعظيماً لله ـ جل وعلا ـ.

أما **قوله**: «**فيسمعها مسترق السمع**» يعني: أن الشياطين يركب بعضها بعضاً، ووصف سفيان فعلهم، يقول: «**فوضع يده وفرق بين أصابعه وبددها**» يعني: ليصف لتلامذته كيف الشياطين تركب بعضها بعضاً؛ يعني: أنه قال: يركب الآخر فوق الآخر إلىٰ أن يصلوا إلىٰ قرب السحاب، والسحاب فيه ملائكة أو قرب السحاب، فيستمع الأعلىٰ، لعله يسمع كلمة من الملائكة، فإذا سمعها فرح، فخَطِفَها بسرعة، وألقاها إلىٰ من تحته، ومن تحته يلقيها إلىٰ من تحته، وهٰكذا بسرعة؛ خوفاً من أن يصيبهم الشهاب قبل أن تصل إلىٰ من في الأرض، ويُرْسَلُ عليهم شهابٌ، وهٰذا كله بأمر الله، فقد يقتل الشهاب الذي استرق السمع، وقد يذهب عقله بذٰلك، وقد يخطئه، وكل هٰذا مخاطرة عظيمة من الشياطين، كيف يخاطرون هٰذه المخاطرة حتىٰ يضلوا بني آدم؟! وهٰذا نوع منهم، والشياطين كلهم متفرغون لإضلال بني آدم، يتفرقون علىٰ الناس، هٰذا فريق منهم يعمل هٰذا العمل، وهم الذين يتصلون بالكهنة، فإذا وصلت الكلمة إلىٰ من في الأرض أخذها مسرعاً، وذهب بها إلىٰ الكاهن الذي هو قرينه، فيلقيها في أذنه، «**ثم يزيد معها مئة كذبة**» يعني: كلها يقول: سمعناها، وهو كذاب، وهٰذا مقصوده، وهٰذا لأن الكذب الخالي من الصدق لا يصدق، ولٰكن كيف تُصَدَّق مئة كذبة، ومن أجل كلمةٍ واحدةٍ صُدِّق؟! وهٰذا يدل علىٰ أن النفوس تميل إلىٰ الباطل أكثر من ميلها إلىٰ الحق، فإذا قيل مثلاً: إن الكاهن كذاب؛ قال بعض الناس: ألم يقل كذا فصدق مرة!!

حتىٰ يُلقيَها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن، ....

يعني: أنه يخبر بهٰذه الكلمة التي سُمعت من الملائكة، فتكون حقاً، ويقع هٰذا في الأمور المستقبلة كالمطر يأتي يوم كذا أو فلان يموت يوم كذا، وما أشبه ذٰلك، فيكون هٰذا من الفتن.

وقوله: **«حتىٰ يلقيها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن»** كلاهما الساحر والكاهن صلتهما بالشياطين، ويخبرون عن الشياطين، والسحر لا ينفذ إلا بواسطة الشيطان، ولٰكن الشيطان لا يأتي هٰكذا عفواً إلىٰ الساحر والكاهن، فلا بد أن يسجد له، ولا بد أن يكفر بالله ـ جل وعلا ـ ويأتي بما يرضيه، فإما أن يبول علىٰ المصحف، أو يدوسه بقدمه، أو يعمل إجراماً من الذبح للشيطان، أو غير ذٰلك؛ أي: لا بد من الكفر، فإذا كفر جاء له ببعض مطالبه، وليس كلها، ومع ذٰلك يُقْدِمون علىٰ الكفر والإجرام؛ لأنهم مجرمون. وفي هٰذه الأيام كثر السحر، وآذىٰ كثيراً من الناس، ووقعوا في أذيتهم؛ لأنه أتانا من لا خلاق له ولا دين من الخدم وغيرهم، همهم التحصل علىٰ أموال الناس بأي طريقة كانت، فهٰذه من المصائب، ومع ذٰلك هم يزعمون أنهم مسلمون، وأنهم وأنهم، فكم آذوا، وكم أفسدوا كثيراً، ونحن لنا يد في هٰذا الشيء، لماذا نستقبل كل من هبَّ ودبَّ؟ ولماذا نأمن هٰؤلاء الذين ظهر أن عندهم من الإفساد ومن الأمور التي لا تصلح الشيء الكثير؟

يجب علىٰ الإنسان أن يتحرز، وأن لا يفرط بنفسه وأولاده وأهله، فيصبح ضحية لهٰؤلاء السحرة، أنا أعرف بيوتاً كاملة صارت في أسوء حال من المرض، ومن الحالة السيئة، بسبب السحر، وكل أهل البيت سُحروا بسبب امرأة تخدم عندهم، أو ما أشبه ذٰلك، فانتشر هٰذا الأمر، ما كنا نعرف هٰذه الأشياء حتىٰ قدم علينا من قدم.

ثم جاءت الآن قنوات خبيثة تبث السحر، وتدعو إليه، يستقبلها أعداد كبيرة جداً من الناس، وحينما لا يعرف الإنسان المسلم الباطل ويجتنبه، فلا بد أن يكون عنده دين يمنعه من الإقدام علىٰ هٰذه الأشياء، وإلا سيهلِك، ولا يهلِك في بدنه فقط، وإنما يهلِك في دينه وبدنه.

فربما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيَها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذبُ معها مئة كَذْبة، ويقال: أليس قد قال يوم كذا: كذا وكذا؛ فيصدَّق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء»(١).

وعن النواس بن سمعان ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله تعالىٰ أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، ....**

ثم **يقول: «فربما أدركه الشهاب»** هو شهاب يرسله الله ـ جل وعلا ـ من النجوم التي أخبر الله ـ جل وعلا ـ أنه جعلها ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥] وجعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها، وهٰذا من الحكمة في إيجاد النجوم.

يقول: «ربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها» يعني: علىٰ الساحر، والشهاب يأتيه وهو فوق، أما إذا وصل إلىٰ الأرض؛ فلا يأتيه الشهاب إلا أن يشاء الله.

وقوله: «فيكذب معها مئة كذْبة» يحتمل أمرين:

الأمر الأول: يحتمل أن الذي يكذب هو الشيطان، وهو الأقرب.

الأمر الثاني: يحتمل أن الكاهن والساحر كلاهما يكذب.

قوله: «ويقال: أليس قد قال يوم كذا: كذا كذا» يعني: يقول بعض الناس إذا كثر كذبه: إنه قال يوم كذا وكذا، وصَدَق بها، فيُصَدّق بسبب تلك الكلمة التي سُمعت من السماء، هٰذا كلام رسول الله ﷺ وخبره الذي هو صدق وحق مطابق للواقع.

قوله: «تكلم بالوحي» وقوله في الحديث الأول **«سمع صوتاً كجر السلسلة علىٰ صفوان»** يدل صراحة علىٰ أن الله يتكلم بكلام يُسمع، والكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، هٰذا هو المعقول، وغيره لا يعقل، والأشاعرة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٢).

....

يزعمون أن هـٰذا ممتنع علىٰ الله، فهـٰذا عندهم مثل الأكل والشرب، فالأكل والشرب والنوم ممتنع علىٰ الله، لماذا هم يقولون هـٰذا؛ لأن الكلام يدل علىٰ الحدوث، فنشاهد الذي يتكلم أنه حدث، وفيه مقاطع حروف، ويحتاج إلىٰ لهاة وحَنْجَرة، وإلىٰ لسان وإلىٰ وإلىٰ. . والسبب في هـٰذا أن التشبيه مستكن في نفوسهم، لم يعرفوا من صفات الله إلا ما عرفوه في أنفسهم، فصاروا ينفون هـٰذا الأمر عن الله؛ لأنهم شبهوا أولاً، ثم عطلوا ثانياً، وهـٰكذا كل مبطل، ولو آمنوا بأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته، ولا في أوصافه؛ لسلموا من هـٰذا الهراء وهـٰذا الباطل. فيقال لهم: ليس كل كلام يحتاج إلىٰ لسان وإلىٰ لهاة وإلىٰ حَنْجَرة، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت] هل الجلود تحتاج إلىٰ لسان أو إلىٰ غيرها؟ الله يُنطق الحجارة، ينطق كل شيء، قالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات. فهـٰذا مخلوق يتكلم، وليس له لسان.

وثبت أن الرسول ﷺ كان يستند إلىٰ جذع نخلة في المسجد يخطب الناس، ثم أمر أن يُتَّخذَ له منبرٌ من خشب من طرفاء الغابة، فترك الجذع، وقام علىٰ المنبر يخطب، فسمع أهل المسجد حنين الجذع، يحن مثل ما تحن الناقة التي فقدت ولدها، حتىٰ نزل والتزمه، فصار يهدأ مثل ما يهدأ الصبي حين يبكي عندما تلتزمه أمه، وقال: «**لو لم أحتضنه؛ لحنّ إلىٰ يوم القيامة**»[1]، جذع هامد يسمع له الصوت والحنين كحنين الناقة، وقدرةُ الله ـ جل وعلا ـ ظاهرة جداً. ولـٰكن نقول: الله أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، والله لا يشبهه شيء، ولا يجوز أن يخطر ببال المؤمن أنه علىٰ صفة

(١) أخرجه أحمد (١٣٧٦٤)، وابن ماجه (١٤٠٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
وأصله في «صحيح البخاري» (٨٦٧)، و«جامع الترمذي» (٤٦٣، ٣٥٦٠)، و«سنن النسائي» (١٣٧٩).

أخذت السماواتِ منه رجفةٌ ـ أو قال رعدة ـ شديدة خوفاً من الله ﷻ، فإذا سمع ذٰلك أهل السماوات صَعِقوا وخروا سجداً، فيكون أول من

كذا وكذا تعالىٰ الله وتقدس، الله لا نظير له حتىٰ يقاس عليه، ولا أحد يشاهده، وقد أعلمنا أنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه يكلم عباده، وأنه تكلم في كتبه، فوجب الإيمان بهٰذا، فمن لم يؤمن به فإيمانه مردود أو مفقود؛ لأن الله تعرف إلينا بأسمائه وصفاته، وما تعرف إلينا به فهو حق وكاف في معرفته؛ لأنه وصفه بما سمىٰ به نفسه وبما وصف به نفسه، هٰكذا عرف المؤمنون ربهم بصفاته وأفعاله. ومن قال: إنه ليس كذا وليس كذا؛ فهٰذا قد ظلم نفسه، وحاد عن الطريق الصحيح.

قوله: «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله ﷻ» إذا كانت السماوات كلها علىٰ كبرها وسَعتها ترتجف وترتعد؛ فكيف بالذي يتجه إلىٰ قبر يسأله، وينزل به حاجته، هل عرف الله؟ نقول: كلا لم يعرف ربه، لهٰذا صرف حقه إلىٰ ميتٍ لا يستطيع أن يرد الديدان عن بدنه، ولا يستطيع أن يمحو سيئة في صحيفته، أو يزيد حسنة في صحيفته، مرتهن فقير، فهو أفقر من الحي، وأحوج من الحي الذي يدعوه، أليست هٰذه سخافة؟ إنها نهاية السخافة في الواقع، ونهاية إهدار العقول، وإن كان الشيطان يزين لهم ويقول لهم: إن الأولياء يفعلون ويفعلون، ولٰكن لا دليل، أدلتهم إما حكاية مكذوبة أو حلم يلقيه الشيطان علىٰ أحدهم، أو كذب صريح من الكاذبين الذين هم سدنة يريدون أن يستولوا علىٰ أموال الناس، هٰذه عمدتهم فقط، هل مثل هٰذا يكون له عذر؟ لا عذر لهم لأنهم أهدروا عقولهم، وأهدروا أمر الله ـ جل وعلا ـ.

يقول: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات» أي: الملائكة **«صعقوا وخروا لله سجداً»**، والصعق هو الغشي، وذهاب العقل، ثم بعد ذٰلك إذا ذهب؛ سجدوا لله تعظيماً له، فيكون أول من يرفع رأسه من السجود جبريل ؑ،

يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل علىٰ الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله ﷻ»(١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآية. **الثانية**: ما فيها من الحجة علىٰ إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق علىٰ الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

فيكلمه الله ـ جل وعلا ـ من وحيه بما أراد يعني: بأمره أن ينفذ الوحي. ثم يمر جبريل علىٰ الملائكة في السماوات كلها، وكلما مر من سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل، فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل؛ قال الحق، حتىٰ ينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث يأمره الله ـ جل وعلا ـ.

في هٰذا الباب ذكر شيئاً من عظمة الله ـ جل وعلا ـ حتىٰ يتبين للإنسان أن الواجب عليه أن يتجه إلىٰ هٰذا العظيم الكبير الذي هو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، فينزل به حاجته، ويدعوه، ويعبده، ولا يجعل شيئاً من العبادة لمخلوق.

قوله: «**تفسير الآية**» الآية التي تقطع عروق شجرة الشرك من القلب هي قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ [سبأ] ستأتي الآية، فبين أنهم لا يملكون شيئاً، ولا مثقال ذرة، لا في السماء ولا في الأرض، فالذي يملك هٰذا المقدار لا يجوز أن يدعىٰ، ثم بين

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١٧٠).

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. **الرابعة**: سبب سؤالهم عن ذٰلك. **الخامسة**: أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذٰلك بقوله: «**قال كذا وكذا**». **السادسة**: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل. **السابعة**: أن يقول لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه. **الثامنة**: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم. **التاسعة**: ارتجاف السماوات لكلام الله. **العاشرة**: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلىٰ حيث أمره الله. **الحادية عشرة**: ذكر استراق الشياطين. **الثانية عشرة**: صفة ركوب بعضهم بعضاً. **الثالثة عشرة**: إرسال الشهب. **الرابعة عشرة**: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه. **الخامسة عشرة**: كون الكاهن يَصْدُقُ بعض الأحيان. **السادسة عشرة**: أنه يكذب معها مائة كذبة. **السابعة عشرة**: أنه لم يُصَدَّقْ كَذِبُه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. **الثامنة عشرة**: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!. **التاسعة عشرة**: كونهم يلقي بعضهم إلىٰ بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها. **العشرون**: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

أنه ليس لهم اشتراك مع من يملك، ثم بين أنه ليس لهم لا مظاهر ولا معاونة لمن يملك، ثم بين أنهم لا يشفعون إلا إذا أمرهم الله ـ جل وعلا ـ. بهٰذا يتبين أن الذي يتعلق بالصالحين وغيرهم ليس بيده شيء، وأنه خالف كتاب الله الصريح الواضح، فلا عذر له.

قوله: «**إثبات الصفات خلافاً للأشعرية**» مقصوده إثبات كلام الله، وأنه حقيقة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي كانا خوفاً من الله ﷻ.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

ولٰكن قد يقول قائل مثلاً: الأشعرية يؤمنون بسبع صفات من ضمنها الكلام.

نقول: إيمانهم بالكلام إيمان علىٰ وجه غير صحيح؛ لأنهم يقولون: الكلام ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: كلام لفظي حرفي، وهٰذا يمتنع أن يتكلم الله به، أو يوصف به.

القسم الثاني: كلام يوصف الله به، وهو معنىً واحد يقوم بذات الله.

وإذا قيل لهم مثل القرآن؟ قالوا: القرآن عبارة عن كلام الله. من الذي عبّر عن كلام الله؟ يقولون: جبريل، أو محمد. فإذاً القرآن ليس كلام الله علىٰ هٰذا القول، وإنما هو عبارة عن كلامه، وهٰذا كله كذب، وكله ضلال بعيد.

وكذٰلك لا يؤمنون بأن الله مستوٍ علىٰ عرشه، بل يقولون: الله في كل مكان، وهٰذا أيضاً من الأمور الكبيرة، نجد كل إنسان ـ مثلاً ـ يرفع يده إلىٰ السماء، يقول: يا رب يا رب، هل يوجد أحد يطلب ربه في الأرض من الأسفل أو يمين أو شمال؟ هٰذا أمر فطر الله عليه الخلق، فخالفوا الفطرة، وخالفوا النصوص، وخالفوا العقول في هٰذا وفي غيره.

باب
الشفاعة

....

الشفاعة مأخوذة من الشفع، وهو ضد الوَتْر، الواحد وَتْر، والاثنين شفع، والثلاثة وَتْر، والأربعة شفع، وهٰكذا؛ وذٰلك أن الشافع يضم دعاءه إلىٰ المشفوع له فيصبح اثنين.

والشفاعة هي أصل الشرك الذي دخل علىٰ الناس منذ القدم إلىٰ الآن، وهم يتعلقون بها، فلهٰذا ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب التوحيد» وفي إيضاح وتفسير شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ وذٰلك أن المشركين قاسوا رب العالمين علىٰ ما يتعارفونه بينهم، فالرئيس الكبير والملك والأمير لا يدخل عليه هـٰكذا بدون واسطة، فلا بد أن يكون هناك واسطة ومقدمات، فقالوا: الوساطة عند الكبراء هي التي يحصل بها المقصود، بخلاف ما إذا جاء الإنسان غير المعروف؛ فإنه قد لا يجاب، وقد لا يلتفت إليه، قالوا: إذاً الشفاعة من باب التعظيم، وليست من باب التنقص، فإذاً نحن نبحث عن العباد الذين ليس لهم ذنوب، أو أنهم مكرمون عند الله، فنطلب منهم أن يتوسطوا لنا عند الله. هٰذا هو أصل الشرك؛ لأنهم قاسوا رب العالمين ـ جل وعلا ـ علىٰ الضعيف المخلوق الذي لا يعلم إلا ما عُلّم، ولا يدري مثلاً إذا ما كان أميراً أو رئيساً ما يعرف عن قومه إلا إذا بلغوه عن الأمر، فيحتاج إلىٰ مساعدة، فيحتاج إلىٰ من يخبره، ويحتاج إلىٰ من يعلمه، وإلىٰ من يعاونه ويساعده.

أما رب العالمين ـ تعالىٰ وتقدس ـ فهو العليم بكل شيء، العالم بالضمائر، والمطلع علىٰ كل شيء، فليس بينك وبينه حجاب أو واسطة أينما كنت، وفي أي أمر وقعت، فارفع يديك إليه واسأله، فهو عندك قريب، فمعنىٰ ذٰلك أن هـٰؤلاء أوقعوا في أنفسهم أن هـٰذه الأشياء تكون مطلوبة ومحبوبة، وأنها تكون أنجح للدعوة، فوقعوا بالشرك في ذٰلك. وهـٰكذا المتأخرون؛ ظنوا

....

هـٰذا الظن، فقالوا: إذا سألنا الله ـ جل وعلا ـ بفلان وفلان؛ لأن فلاناً لا ذنوب له، أو أنه مكرم عند الله، فهو يتوسط لنا، فظنوا أن الله ـ جل وعلا ـ كالمخلوق قد يشفع عنده مثلاً من لا يريده، قد تشفع زوجته، قد يشفع خادمه، قد يشفع الوزير، أو القريب، أو ما أشبه ذٰلك في أمور يكرهها، فيجيبهم؛ إما مجاملةً، وإما لأنه يخاف أن ينتقضوا عليه، أو أنهم لا يخلصوا له.

أما رب العالمين ـ جل وعلا ـ؛ فكل شيء في يده يتصرف فيه كيف يشاء، فلا يمكن أن يجعله الشافع عاطفاً علىٰ المشفوع، هـٰذا مستحيل؛ لأنه ـ جل وعلا ـ هو الغني بذاته عما سواه.

والمقصود أن نبين أن وجه إدخال الشفاعة في هـٰذا الباب وبعد ذٰلك؛ أن الشفاعة في كتاب الله جاءت علىٰ قسمين:

القسم الأول: قسم مثبت وواقع.

القسم الثاني: قسم منفي لا وجود له.

فالقسم الواقع هو الذي يقع بشرطين: **أحدهما** رضىٰ الله عن المشفوع له. **والثاني** إذنه للشافع. فلا بد من هذين الشرطين كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهـٰذا استفهام إنكاري يعني: أن هـٰذا غير واقع، فلا أحد يشفع إلا إذا أذن له، ولهـٰذا قال ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر] يعني: هو الذي يملكها، ولا أحد يملك منها شيئاً.

وأما القسم الثاني المنفي فهو الذي يتخلف فيه شرط من هذين الشرطين، إما أن يظن أنه يقع بدون إذنه، أو أن يظن أنه يقع لمن لا يرضاه، ولا يتبع أمره ونهيه، وهـٰذه الشفاعة التي يدّعيها الكفار، يدّعون أنها تقع لأصنامهم أو غيرهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. أي: يشفعون لنا عند الله، هـٰذا معناه، فلذٰلك صارت الشفاعة؛ يعني: فهمها ومعرفة المقصود منها داخلاً في كتاب التوحيد.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] الشاهد من الآية قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الولي هو الذي يتولىٰ الأمر ويقوم به، ويحامي دونه، فالذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم هم الذين ينتفعون بأمره ونهيه، وخص الإنذار بهم؛ لأنهم المنتفعون بذلك. والإنذار هو الإعلام بمواقع الخوف، الإعلام بالأمر المهم الذي يخاف أن يبغت الإنسان أو أنه يعذب به، بخلاف البشارة؛ فإنها بالأمر الذي يسر.

قال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن الذي أُنزل عليك ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يخافون أي: يعلمون أنهم سوف يحشرون إلىٰ الله، والحشر هو الجمع، وقد جاءت صفته: حشر يكون في الدنيا قبل نفخ الصور كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك أنهم تحشرهم نار تَقيل معهم حيث قالوا، ومن تأخر منهم أكلته وأحرقته[١].

وجاء في الحديث الثاني الذي في الصحيح يحشرون علىٰ طرق، منهم: ثلاثة علىٰ بعير، وعشرة علىٰ بعير، واثنان علىٰ بعير، وسائرهم يمشي علىٰ قدميه[٢]. هٰذا الحشر في الدنيا؛ لأن الحشر بعد الموت كما قال ﷺ:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٧٨٩)، ولفظه: **«تخرج نار من مشارق الأرض تسوق الناس إلى مغاربها، تسوق الناس سوق البرق الكسير، تَقيل معهم إذا قالوا، وتبيت معهم إذا باتوا، وتأكل من تخلف»**.
وفي البخاري (٦٠٤١)، ومسلم (٥١٠٥): **«ويحشر بقيتهم النار، تَقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»**.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤١)، ومسلم (٥١٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولفظه: **«يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير»**.

....

«تحشرون حفاةً عراةً غرلاً»(١)، غرلاً؛ أي: غير مختونين.

وجاء أيضا عندهما زيادة، قالت عائشة ﵂ واسوأتاه! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلىٰ بعض؟ قال: «**يا عائشة الأمر أعظم من ذاكِ لا أحد يهمه النظر**» كل إنسان شاخص بصره، الأمر عظيم جداً، ما يدري من بجواره، فالحشر الذي يكون يوم القيامة يكونون هٰكذا يخرجون من قبورهم ليس معهم أي شيء، والدنيا انتهت ليس فيها شيء.

فالحشر في الأصل هو الجمع، ويسمىٰ الحشر إذا كان فيه شيء من الزحام والضنك، حُشِر في هٰذا.

وقوله: ﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾ يعني: يجمعون لرب العالمين كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين] هٰذا هو الحشر، يقومون علىٰ أقدامهم، يقومون خمسين ألف سنة، وهم قيام علىٰ أقدامهم، أمر لا بد أن نقع فيه، ولٰكن ليس علىٰ كل أحد، المتقون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وربما يكون بعضهم في ظل يأكل ويشرب، والناس في الشمس التي تحرق، وليس عندهم أي شيء، وهٰذا الطول الشديد العظيم خمسون ألف سنة ليس علىٰ كل أحد.

والمقصود بيان معنى الحشر، وفيه كتب خاصة، وفيه آيات كثيرة، ولٰكن المقصود ﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الله ـ جل وعلا ـ يجمعهم ويحاسبهم.

والشفاعة تكون في هٰذا اليوم؛ والله ـ جل وعلا ـ من رحمته بهم ـ كما يأتي ـ يلهمهم الشفاعة، فأخبر ـ جل وعلا ـ أن المؤمنين الذين يؤمنون بما أنزل الله ـ جل وعلا ـ ينتفعون بما أمر ونهىٰ، ويقبلون ما جاء به الرسول.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٤)، من حديث ابن عباس ﵄، ومسلم (٥١٠٢) من حديث عائشة ﵂.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ فكيف بغيرهم؟ كيف بالمشرك؟ هل يكون له ولي أو شفيع؟ هٰذا هو وجه الاستدلال من الآية؛ أن المؤمن المتّقي الذي يقبل من الله ـ جل وعلا ـ ليس له من دونه ولي ولا شفيع، ومعنىٰ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من غيره، ليس له غير الله ولي أو شفيع.

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ الآية ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ والغالب أن (أم) إذا جاءت في القرآن؛ فمعناها (بل).

ثم قال: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: يتخذونهم شفعاء، وهم بهٰذه الصفة لا يملكون شيئاً، تصور (شيئاً) حتىٰ العود يدخل فيه، كيف يطلُبُ من الإنسان المفلس نهائياً يطلب منه شيئاً ليس عنده، هٰذا معناه أن طلبه باء بالفشل والخسارة، ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم أشياء، إما جماد مثل اللات والعزىٰ، أو قبور لا تسمع، أو غائبون، أو أمور متصورة ليس لها حقيقة، أو نجوم أو شمس أو غيرها مما يعبده البشر كثيراً، لهٰذا قال: كيف تطلبون الشفاعة وهم بهٰذه الصفة؟! تطلبون منهم شفاعة!! وهٰذا الواقع!! واقعهم أنهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون.

ثم قال ـ جل وعلا ـ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فيملككم في الدنيا وفي الآخرة، مرجعكم إليه، سوف يحاسبكم ويجازيكم علىٰ أعمالكم، فالذي يطلب الشفاعة من غيره قد وقع في الشرك، فإذاً معناه يكون طَلَبُ الشفاعة من غير الله ـ جل وعلا ـ ومن دون إذنه شركاً أكبر، وهٰذا مما ينافي التوحيد.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله ـ جل وعلا ـ أنه هو الذي لا إلٰه إلا هو الذي له الأسماء الحسنىٰ، وله الصفات العلا ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم ....

بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لتمام ملكه وعظمته، فلا أحد يستطيع أن يشفع عنده؛ لا ملك، ولا رسول، ولا ولي، ولا غيرهم، فلا يمكن لأحد أن يتقدم لطلب الشفاعة إلا بإذن الله وأمره، ولٰكن هٰذا لا يعقله المشركون، ولا يعقله الذين يطلبون الشفاعة من المخلوقين أو من الأموات وغيرهم، فهٰذا الاستفهام استفهام إنكاري ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ فبين - جل وعلا - أن الشفاعة لا تقع إلا بإذنه، والمقصود بالإذن هنا: الأمر، بإذنه يعني: بأمره.

(كم) تأتي علىٰ معنيين:

أحدهما: أنها تأتي خبرية، ومعناها أنه كثير، كهٰذه الآية، فالمعنىٰ كثير من الملائكة في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً؛ يعني: أنهم لا يملكون شيئاً من الشفاعة إلا إذا أذن الله لهم، والله لا يأذن إلا لمن يرضىٰ عنه، ولهٰذا قال: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ أي: عن المشفوع له، فبيّن أن الشفاعة في هٰذه الآيات تنقسم إلىٰ قسمين: إلىٰ شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية.

قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ هٰذه الآية هي التي قيل فيها: تقلع عروق شجرة الشرك من القلوب، ولٰكن لِمَنْ يفهمها ويفقهها ويعمل بها، وإلا فكم من الناس يقرؤونها وهم يدعون الأموات، ويدعون غيرهم.

وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ تحدٍ تحداهم، ادعوا من تدعونهم، فدعوتكم إياهم ضائعة، بل هي ضلال ووبال عليكم، ثم أخبر بالحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ وكلمة زعم في اللغة تطلق في الغالب علىٰ الكذب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، فالزعم مطية الكاذبين، لهٰذا قال: ﴿زَعَمۡتُم﴾ لأنه اعتقاد فاسد، وشيء متوقع، وهو لا حقيقة له، بل هو منافٍ لما يتوقعونه ويطلبونه منافٍ

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتين [سبأ: ٢٢].

قال أبو العباس: (نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، ....

له تمام المنافاة، وهٰذا من أكبر الخسارة أن يأتي الإنسان بعمل يظن أنه ينجيه ويسعده، وهو بالعكس يشقيه ويبعده عن الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ بين الله في هٰذه الآية تقديرات أربعة كلها نفيت، وهي:

التقدير الأول: نفىٰ أنهم يملكون شيئاً وذٰلك بقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والذي لا يملك هٰذا المقدار؛ كيف يُدعىٰ؟

والذرة تطلق علىٰ النملة الصغيرة، غالباً تقصد بهٰذا، وقد تطلق علىٰ الجزء الصغير من الشيء الذي يتجزأ، أصغر جزء منه يسمىٰ ذرة.

التقدير الثاني: نفىٰ أن يكونوا شركاء له، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ يعني: في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ يعني: ما يشاركون المالك في شيء.

التقدير الثالث: نفىٰ المساعدة والمظاهرة والمعاونة، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعني: مساعد ومعاون ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ.

التقدير الرابع: نفىٰ الشفاعة، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ تبين بهٰذا أن طلب الشفاعة من غير الله شركٌ، وأنه عمل يقصي الإنسان عن الشفاعة، ويبعده عنها، وأنه أيضا من الأعمال التي توجب سخط الله، وتوجب الخلود في النار، هٰذا من زين له سوء عمله فرآه حسناً، هذه مصيبة أن الإنسان إذا زين له عمل سيئ فرآه حسناً.

ثم ذكر كلام شيخ الإسلام أبي العباس، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تقي الدين.

يقول: «**نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون**» يعني: في هٰذه

فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهٰذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «**ارفع رأسك، وقل يسمع، وسَلْ تُعطه**، ....

الآية «**فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك**» القسط من الملك هو الاشتراك كما في الآية «**أو يكون عوناً لله**» يعني: المظاهرة، كونه له ظهيراً، كالوزير، والمساعد، والجنود، وجنود الله ـ جل وعلا ـ في الحقيقة هم الذين يخافونه أشد الخوف، الملائكة يأتمرون بأمره، ولا يعصونه طرفة عين، ويسبحونه الليل والنهار ولا يفترون، ولا أحد يجرؤ أن يطلب الشفاعة بدون أن يأمره ـ جل وعلا ـ.

قال: «ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب» يعني: أمره أن يشفع «**كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، فهٰذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية**» يعني: قد نفاها الله ـ جل وعلا ـ في القرآن، وبين أنها غير واقعة، ولا حقيقة لها إلا الظنون الكاذبة، وسوف يتبين لأصحابها أنهم علىٰ ضلال، وأن هٰذا الطلب الذي يطلبونه أبعدهم عن الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: «كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه، ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسلْ تعطه» هٰذا مذكور في حديث الشفاعة، وخلاصة حديث الشفاعة: أنه إذا طال وقوفهم بالموقف، واشتد أمرهم، وصاروا يتمنون أن يُقضىٰ بينهم ولو إلىٰ النار؛ يُلهم الله بعضهم أن يطلبوا الشفاعة ـ كما في «صحيح مسلم»، فيلهمهم الله طلب الشفاعة إذا أراد رحمتهم، والأمر كله بيده ـ جل وعلا ـ، فيقول بعضهم إلىٰ بعض: ألا

....

نستشفع إلىٰ ربنا، فيتشاورون فيما بينهم، وهٰذا ليس لهم كلهم، ولٰكن لبعضهم، فيقولون: من أولىٰ بذٰلك من أبيكم آدم؟ وآدم معهم واقف في الموقف هو والأنبياء كلهم، والملائكة والخلق كلهم محشورون في هٰذا الموقف يذهبون إلىٰ آدم، فيقولون: أنت أبونا، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ألا ترىٰ ما نحن فيه، اشفع لنا إلىٰ ربك ليريحنا من هٰذا الموقف، فيقول: أنا الذي أخرجتكم من الجنة، ولا أطلب اليوم إلا نفسي لعلي أنجو بنفسي، فإني قد نهاني ربي عن الأكل من الشجرة، وأكلتها. انظر كيف أنه يعلم يقيناً أن الله تاب عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب عليه، ولٰكنه يعتذر بهٰذا؛ لأن الأمر شديدٌ جداً، فيقول: اذهبوا إلىٰ غيري، ويرسلهم إلىٰ نوح، ويقول: إن الله سمىٰ نوحاً عبداً شكوراً، اذهبوا إليه. وليس معنىٰ ذٰلك أنه اعتذار فقط، بل هٰذا منتهىٰ الجهد.

فيذهبون إلىٰ نوح، ويقولون له مثل ما قالوا لآدم: أنت أول رسول، أرسلك الله إلىٰ أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فيعتذر، ويقول: سألت ربي ما ليس لي به علم، وإني لا أسأل اليوم إلا نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ إبراهيم. ويقولون: يا إبراهيم أنت خليل الرحمٰن، اشفع لنا إلىٰ ربك، فيقول: أنا خليل من وراء وراء، وإني كذبت ثلاث كذبات، وإن ربي قد اشتد غضبه، اليوم غضب غضباً لم يغضبه قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني لا أسأل إلا نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ موسىٰ، فإنه كليم الله. فيذهبون إليه، فيقول: إني قتلت نفساً، وإني لا أستطيع أن أشفع، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ، فيذهبون إليه، ولا يذكر ذنباً، ويعتذر، يقول: لا أستطيع، ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولٰكن اذهبوا إلىٰ محمد. فيأتون إلىٰ محمد ﷺ، فإذا جاؤوا إليه؛ قال: **«أنا لها، أنا لها»**، يقول: **«فأذهب إلىٰ مكان تحت العرش، ثم أخِرُّ ساجداً،**

....

فيدعني ربي قدر أسبوع، وأنا ساجد، فيفتح علي من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن، ثم يقول لي: ارفع رأسك، وسَلْ تعطه، واشفع تُشَفَّع».

فإذا قال له: «اشفع تُشَفَّع»؛ عند ذٰلك يأتي رب العالمين، ليفصل بين عباده، فيخاطبهم ويسمعون خطابه، ويقول لهم: أليس عدلاً مني أن أولّي كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا، فيقولون: بلىٰ يا رب. فيؤتىٰ بكل معبود علىٰ صورته، فإن كان المعبود نبياً أو ولياً جيء بشيطان علىٰ صورة ما يتخيله ذٰلك العابد، ثم يقال لهم: اتبعوهم، اتبعوا معبوداتكم، فيذهبون ويقتحمون جهنم، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء]. يقول: فيبقىٰ المؤمنون، وفيهم المنافقون فيأتيهم ـ جل وعلا ـ في صورة لا يعرفونه بها، فيقول: ما الذي أبقاكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: تركناهم أحوجَ ما كنا إليهم، أما اليوم فلا نحتاج إليهم في شيء. وإن لنا رباً ننتظره. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هٰذا مكاننا حتىٰ يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا؛ عرفناه. وهٰذا من المحن، ومن تمام الابتلاء، فيقول: هل بينكم وبينه آية؟ فيقولون: نعم، الساق، فيكشف عن ساقه، فيخرون له سجداً، ويبقىٰ المنافق ظهره طبقة واحدةً، فإذا أراد أن يسجد خَرَّ علىٰ قفاه. ثم تضرب عليهم الظلمة، ثم توزع عليهم الأنوار علىٰ قدر إيمانهم، كلٌّ يعطىٰ نوراً بقدر إيمانه، ويبقىٰ المنافقون حائرين ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فيقال لهم: ارجعوا إلىٰ المكان الذي وزعت فيه الأنوار، اطلبوا لكم نوراً، ثم يضرب بينهم ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ثم بعد ذٰلك تصير المحاسبة والجزاء[1].

---

(١) هٰذا حديث الرؤية، أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (٢٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم كذلك من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (٢٦٩)، وهو غير حديث الشفاعة.

واشفع تُشفع»[١] وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: **«من قال لا إلـٰه إلا الله خالصاً من قلبه»**[٢]، ......

هـٰذا هو ما جاء في الحديث ـ حديث الشفاعة ـ أن هـٰذا هو الذي يقع علىٰ الصفة، ولهـٰذا قال: «**ثم أذهب، فأسجد، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسَلْ تُعْطَه، واشفع تشفع**» فهـٰذا دليل علىٰ أنه لا يشفع حتىٰ يقال له: اشفع.

وفي الأحاديث الأخرىٰ التي في الصحيحين: **«فيَحُدّ لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة»**[٣].

بقي أن نعرف ما هو التعريف الاصطلاحي للشفاعة، نقول: الشفاعة هي إرادة رب العالمين رحمةَ المشفوع له، وإظهار كرامة الشافع، فيأمره بالشفاعة، هـٰذه هي حقيقة الشفاعة، وهو معناها في الشرع.

وقوله: «**وقال أبو هريرة: من أسعد الناس في شفاعتك يا رسول الله؟ قال: من قال: لا إلـٰه إلا الله خالصاً من قلبه**» هـٰذا الحديث في الصحيحين، وهو من أصح الأحاديث، وقد جاء في «صحيح البخاري» أن أبا هريرة لما قال هـٰذا القول، قال له الرسول ﷺ: «**لقد ظننت أن لا يسألني أحد قبلك هـٰذا الحديث، لما أرىٰ من حرصك علىٰ الحديث**»[٤]؛ لأنه كان حريصاً علىٰ حفظ الأحاديث، ولهـٰذا صار حافظ الأمة، فهو أحفظ الصحابة، وأكثرهم حديثاً مع أنه كان متأخر الإسلام، وقد رماه أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء أصحابه بما ليس فيه من أنه كذاب، وأنه كذا وكذا.

وفي «صحيح مسلم» عنه قال: قلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يحببني

---

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري (٦٩٥٦)، ومسلم (٢٨٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٢) أخرجه أحمد (٨٥٠٣)، والبخاري (٩٧).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٨٠)، ومسلم (٢٨٤) من حديث أنس ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري (٩٧، ٦٠٨٥).

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته: أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه، ....

إلىٰ المؤمنين، فقال: **«اللهم حببه إلىٰ المؤمنين، وحبب المؤمنين إليه»**، يقول: فلا يحبني إلا مؤمن، ولا يُبغضني إلا منافق(١).

والحقيقة أن هٰذه ليست خاصة في أبي هريرة، كل الصحابة بهٰذه المثابة، فقد جاء أن الأنصار كذٰلك **«لا يحب الأنصار إلا مؤمن، ولا يُبغضهم إلا منافق»**(٢)، والمهاجرون من باب أولىٰ، رضي الله عن الجميع.

فالمقصود أن قوله: **«أسعد الناس في الشفاعة من قال: لا إلـٰه إلا الله»** يعني: أن الذي يشفع لهم هم أهل الإخلاص، هم المخلصون الذين أخلصوا العبادة لله ـ جل وعلا ـ، فمن قال: لا إلـٰه إلا الله خالصاً من قلبه؛ هو الذي يشفع له.

ثم قال: «فالشفاعة لأهل الإخلاص» يعني: إخلاص العمل لله **«فبإذن الله»** يعني: أيضاً لا يستحقونها هٰكذا، بل لا بد أن تقوم بأمر الله.

قال: «ولا تكون لمن أشرك بالله» لأن الله نفاها عن المشركين.

ثم قال: «وحقيقته» يعني: حقيقة الأمر **«أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص، فيغفر لهم»** يعني: بفضله **«بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه»** يعني: ليظهر كرامته أمام الناس، ولهٰذا فإنّ الطلب الذي يقع من رسولنا ﷺ سماه الله المقام المحمود ووعده إياه كما قال تعالىٰ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٦)، ولفظه: قلت يا رسول الله ادعُ الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم حبب عبيدك هٰذا ـ يعني: أبا هريرة ـ وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين»** فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩٩)، ومسلم (١١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهٰذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص)[١]. انتهىٰ كلامه.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء].

والمقام المحمود ـ علىٰ القول الصحيح ـ هو الشفاعة، وسمي محموداً؛ لأنه يحمده الأولون والآخرون؛ لأنه يحصل فصل القضاء بسبب هٰذه الشفاعة، وإن كان كله بفضل الله وبأمره ـ جل وعلا ـ، ولٰكن الله يتفضل علىٰ من يشاء، ولهٰذا قال: «**وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك**» يعني: جعل لمخلوق أنه يطلب بدون إذن الله، واعتقد هٰذا؛ فهٰذا شرك، لا يمكن أن يقع.

قال: «**ولهٰذا أثبت الشفاعة بإذنه**» يعني الله ـ جل وعلا ـ أثبت أن الشفاعة واقعة بإذنه «**في مواضع**» من كتابه، «**وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص**» انتهىٰ كلام ابن تيمية رحمه الله.

هٰذا؛ وللشفاعة أنواع:

النوع الأول: شفاعة خاصة بنبينا ﷺ، وهي الشفاعة للفصل بين العباد في الموقف، وهٰذه خاصة به، وهو الذي وعده الله إياه وأكرمه، كما تقدم.

النوع الثاني: شفاعة خاصة أيضاً به ﷺ، وهي شفاعته في دخول أهل الجنةِ الجنةَ، فإنهم إذا خَلَصوا من الموقف، وعبروا علىٰ الصراط؛ يحبسون قبل أن يصلوا إلىٰ الجنة، ويقتص لبعضهم من البعض المظالم التي علم الله ـ جل وعلا ـ أنها لا تأتي علىٰ حسناتهم، فيطهرون، وينقون[٢]، ويصبح ليس لأحد

---

(١) كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «**يَخْلُصُ المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**».

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآيات. **الثانية**: صفة الشفاعة المنفية. **الثالثة**: صفة الشفاعة المثبتة. **الرابعة**: ذكر الشفاعة الكبرىٰ، وهي المقام المحمود. **الخامسة**: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً، بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع. **السادسة**: من أسعد الناس بها؟. **السابعة**: أنها لا تكون لمن أشرك بالله. **الثامنة**: بيان حقيقتها.

عند أحد شيء، وليس في قلب أحد علىٰ أحد شيء، عند ذٰلك يستفتح لهم رسول الله ﷺ باب الجنة، فيضرب الباب؛ لأنه مغلق، فيقول من في داخله من الملائكة: من؟ فيقول: محمد. فيقولون أُمرنا أن لا نفتح لأحد قبلك، فيفتحون الباب، ويدخلون الجنة.

النوع الثالث: شفاعة خاصة به أيضاً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولٰكنها لرجل واحد فقط، وهو عمه أبو طالب يكون في طبقات النار، فيشفع فيه فيخرج إلىٰ ضحضاح من نار يصل إلىٰ كعبيه يغلي منها دماغه(١)، ويبقىٰ فيها أبداً يرىٰ أنه أشد الناس عذاباً، وهو أخف أهل النار عذاباً بسبب حمايته للرسول ﷺ.

ولٰكن هل ينتفع الكفار بأعمالهم؟

الجواب: نقول لا؛ لأن هٰذه خاصة فقط لهٰذا الرجل.

النوع الرابع: شفاعة يشترك فيها الرسول، والملائكة، والشهداء، والعلماء، والأطفال، وغيرهم، كلّهم يأذن الله ـ جل وعلا ـ لهم، يقول: اشفعوا فيشفعون شفاعات متعددة، منها في قوم استحقوا دخول النار أن لا يدخلوها، وفي قوم دخلوا النار أن يخرجوا منها، وتتعدد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٦)، ومسلم (٣١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

....

والذي جاء في أصح الأحاديث أنها ثلاثة أقسام، فتكون الشفاعة ستة أقسام علىٰ هٰذا، وبعضهم أوصلها إلىٰ ثمانية، فجعل منها ما مر معنا في قصة عكاشة، وجعل منها الذين يسبقون إلىٰ الجنة، فصارت ثمانية أقسام.

باب
قول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ الآية [القصص: ٥٦].

هٰذا الباب يكمل الباب الذي قبله، وذٰلك أن أفضل الشافعين عند الله - جل وعلا - هو محمد ﷺ، وقد نفىٰ الله - جل وعلا - عنه أنه يهدي من أحب، وإنما الهداية لله - جل وعلا -، فالهداية التي نُفيت عنه هي خلق الهدىٰ في القلب، وكون الإنسان يحب الدين، يحب الإسلام، يحب الخير، ويكره أضداد ذٰلك؛ هٰذه لا يملكها إلا الله - جل وعلا -، وقد يكون الإنسان بعكس ذٰلك، وقد يكون محباً للخير، ومقبلاً عليه، ومؤثراً له عن غيره، وكل هٰذا بفضل الله، وليس هٰذا بقوة الإنسان، ولا بعقله، ولا بكونه قريباً من أولياء الله، أو غير ذٰلك، وظاهرٌ من الآية أن الهداية لله وحده.

أما القسم الثاني من الهداية: فهداية البيان والإرشاد والدلالة، هٰذا إلىٰ الرسول، بل وإلىٰ أتباعه، ومن يقوم بذٰلك كما قال - جل وعلا - ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]؛ يعني: تبين ذٰلك، وتوضحه، ولٰكن القبول بيد الله. فإذا أراد الله بالإنسان خيراً قَبِل، وإلا لم يقبل، فمعنىٰ ذٰلك أن الأمور كلها ترجع إلىٰ الله - جل وعلا -.

وهٰذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] كما هو واضح في سورة القصص، وهي مكية بالاتفاق؛ يعني: نزلت في مكة، والآيات التي ذكرت أخيراً ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، هٰذه من آخر ما نزل، وهي في سورة التوبة، والتوبة نزلت في غزوة تبوك كما هو معروف، فهٰذه قد يكون فيه إشكال، كيف قال: فنزلت لما مات أبو طالب فنزل كذا وكذا، وأظن أن الذي يتأمل هٰذه القصة يتبين له الجواب.

وفي الصحيح[١] عن ابن المسيب ....

والجواب أنه بعد موت أبي طالب لم تنزل الآية مباشرة، فاستغفر الرسول ﷺ له، فلما سمع المؤمنون قالوا: إذاً نستغفر لآبائنا الذين ماتوا علىٰ الشرك، فلما حصل ذٰلك أنزل الله ـ جل وعلا ـ هٰذه الآية، ونهاهم عن الاستغفار، ولهٰذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، فصار الاستغفار للمشرك لا يجوز، بل منهي عنه.

ولا يلزم أن تكون هٰذه الآية نزلت مباشرة، مع أن بعض العلماء يقول: نزلت في مكة، ولا مانع من كون بعض الآيات نزلت في مكة، والسورة تكون مدنية، وهٰذا يوجد في القرآن، ولٰكن يكفينا هٰذا؛ لأن هٰذا هو المتيقن.

قوله: «**وفي الصحيح**» يعني: في الحديث الصحيح، ولماذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**في الصحيح**» لما في الصحيحين، لماذا لا يقول: في الصحيحين كما في بعض الأبواب؟ لأن هٰذا تغيير في النهج، وهٰذا لا شك، لكن لأنه كان علىٰ سفر، وكتب هٰذا من حفظه، فكأنه ما تأكد هل هو في الصحيحين أو في الصحيح فقط، لهٰذا جاء بالشيء العام الذين يشمل الصحيحين كلاهما وغيرهما.

قال: «**عن ابن المسيب**» هو أفضل التابعين إلا أن يشاء الله كما يقول العلماء، وهو من كبار التابعين، وهو الذي يقول: «لم أنظر إلىٰ قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة»[٢]؛ يعني: أنه يكون في الصف الأول خمسين سنة.

ولما حصلت وقعة الحرة؛ صار مسجد النبي لا يصلي فيه أحد، لا يصلي فيه إلا هو، يقول: «وكنت أسمع الأذان من القبر»[٣] من قبر

(١) «صحيح البخاري» (١٢٧٢)، «صحيح مسلم» (٣٥).
(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٢٨٠).
(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ١٢٣) من طريق عبد الحميد بن سليمان، وأورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٢٨)، وقال: «عبد الحميد هٰذا ضعيف»، وقد ضعفه ابن حجر في «تقريب التهذيب» (١/ ٥٥٥).

عن أبيه قال: «لما حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «**يا عم، قل: لا إلٰه إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا، ....

الرسول ﷺ؛ لأن أهل الشام استباحوا المدينة، وعملوا أعمالاً من أخبث الأعمال ـ نسأل الله العافية ـ قتلوا الناس، وعملوا المصائب التي يدمىٰ لها قلب المؤمن، نقول كيف يقع هٰذا في مدينة المسلمين؟ كيف يقع هٰذا في مدينة الرسول ﷺ لأجل الدنيا؟

قال: «**في الصحيح عن ابن المسيّب عن أبيه**» أبوه يظهر أنه حاضر؛ لأنه من نفس القوم الذين كانوا حاضرين من بني مخزوم.

قال: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» يعني: حضرت علاماتها وأماراتها؛ لأن الموت له علامات وأمارات. جاءه رسول الله ﷺ ولما دخل كان قد جلس عند رأسه رجل، وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية كانا جالسين مقابله عند أبي طالب، فقام رجل ثالث فجلس في المجلس الذي عند رأسه خوفاً أن يأتي الرسول ويجلس فيه، فكلمه وهو واقف: «**يا عم قل لا إلـٰه إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**» فنظر إليه كأنه يريد أن يقولها، فقال له أبو جهل وزميله: «**أترغب عن ملة عبد المطلب**» يعني: ما قالا له: لا تقول، قالا: «**أترغب عن ملة عبد المطلب**» هٰذا الذي قال الشيخ فيهم «**فقبح الله مَنْ أبو جهل أعلمُ منه بأصل الإسلام**» يعني: أن أبا جهل يعرف أنه إذا قال: لا إلٰه إلا الله؛ ترك ملة عبد المطلب، ودخل في ملة محمد بن عبد الله، هٰذا معناه، فلا إلٰه إلا الله تنقل من ملة إلىٰ ملة، وليس مجرد الكلمة فقط؛ يعني: أنه يكفر بملة عبد المطلب التي هي الشرك بالله جل وعلا ـ ويكون موحداً مخلصاً لله ـ جل وعلا ـ.

ولهٰذا لمّا ردّ عليه الكلمة؛ ردوا عليه هٰذه الكلمة، وجاء أنه قال: لولا

فكان آخر ما قال: هو علىٰ ملة عبد المطلب، وأبىٰ أن يقول: لا إلـٰه إلا الله. ....

الخوف أن تعيرني قريش أو نساء قريش لقلتها[١]؛ يعني: كون نساء قريش لا تعيره يتحمل عذاب جهنم! ولـٰكن هـٰذه إرادة الله ـ جل وعلا ـ.

ومن حكمة الله ـ جل وعلا ـ أنه جعله مشركاً حتىٰ مات؛ لأنه لو دخل في دين الرسول ﷺ لتجرؤوا عليه أكثر، ولـٰكن احترموه، فصار بذٰلك حماية النبي ﷺ، صاروا لا يستطيعون يقدمون عليه، وكان ذٰلك حماية لرسول الله ﷺ، ولم يبعث الله ﷻ نبياً إلا في عزة في قومه ـ يعني: في قبيلته القريبة ـ كما أخبر الله ـ جل وعلا ـ عن شعيب أن قومه قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١]، والرهط هم قبيلته القريبة يحمونه، فهي حمية جاهلية عصبية يعني: عصبية قبلية، ولـٰكنها نافعة تنفع في مثل هـٰذا، وإن كانت الحمية التي بهـٰذه الصفة في الإسلام لا تفيد شيئاً، ولا تنفع عند الله، ولـٰكن هـٰذا مما يهيئه الله ـ جل وعلا ـ لرسله وأتباعهم، ولهـٰذا جاء في الحديث: «**إن الله يؤيد هـٰذا الدين بالرجل الفاجر**»[٢].

فلما قال الرسول ﷺ له هـٰذا القول وأبىٰ، قال الراوي: «**فكان آخر ما قال هو علىٰ ملة عبد المطلب**» الراوي كره أن يأتي بلفظه؛ لبشاعته، كره أن يقول: (أنا علىٰ ملة عبد المطلب) فعبر بأن قال: (هو) لئلا يكون المتكلم مضيفاً إلىٰ نفسه الشرك والكفر، وهـٰذه طريقة حسنة يتبعها أهل العلم وأهل الحديث.

قوله: «**وأبىٰ أن يقول لا إلـٰه إلا الله**» وهـٰذا ـ كما يقول المؤلف ـ فيه رد

---

(١) من ذٰلك ما قاله أبو طالب:

وَدَعَوْتَنِي وَعَرَفْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وعرضتَ ديناً قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلا الْمَلَامَةُ أو حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم (١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فأنزل الله ﷻ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

علىٰ من يزعم أن أبا طالب ومن كان معه حتىٰ والد الرسول ﷺ أنه أسلم.

أما أبو الرسول ﷺ وأمه؛ فقد جاء من الوضاعين الكذابين أنهم قالوا: «إن الله أحياهما له، فآمنا به، ثم ماتا» هٰذا من الآيات الكبرىٰ، لو حصل لعلم، وهٰذا تتوافر عليه همم الناس فينقل، فلما لم يحصل ذٰلك علم أنه كذب.

ثم إن الرسول ﷺ قال كما في «صحيح مسلم»: «**إن أبي وأباك في النار**»[١] لما سأله الرجل، وكذٰلك قال في أمه لما ذهب للعمرة، مَرَّ علىٰ قبرها، فبكىٰ، وقال لأصحابه: «**إني استأذنت ربي في أن أستغفر لها، فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها، فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكر الموت**»[٢] وغير ذٰلك من الأحاديث التي جاءت عن النبي ﷺ.

فالله ـ جل وعلا ـ ليس بينه وبين الناس صلة إلا بالطاعة فقط، ومعروف أن والد إبراهيم ﵇ كافر، وأنه يوم القيامة يقول: «**يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد**»[٣] فيقول: انظر إليه فإذا صورته صورة كلب فيتبرأ منه، والله لا يدخل الجنة إلا من كان مؤمناً.

فلهٰذا بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﵁ في الحج ينادي بأربع كلمات، ومنها: «**ألا إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[٤]؛ لأن هٰذا أمر

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢) من حديث أنس بن مالك ﵁.
(٢) أخرجه مسلم (٩٣١١) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٤) أخرجه أحمد (٥٦٠)، والترمذي (٣٠١٧)، والنسائي (٢٩٠٩).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] **الثانية**: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] **الثالثة**: وهي المسألة الكبرىٰ تفسير قوله ﷺ: «**قل: لا إلـه إلا الله**» بخلاف ما عليه من يدعي العلم. **الرابعة**: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل: «**قل لا إلـه إلا الله**»، فقبح اللهُ مَنْ أبو جهلٍ أعلمُ منه بأصل الإسلام. **الخامسة**: جِدُّه ومبالغته في إسلام عمه.

عام، وقد أخبر الله ـ جل وعلا ـ أن الكافرين ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: ٤٠] سَمُّ الخياط هو الثقب الذي يدخل فيها السلك، فهل يمكن للجمل أن يدخل في هـٰذا؟ هـٰذا مستحيل؛ يعني: أن دخول الجنة للكافرين مستحيل ممتنع.

باب

ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركَهم دينَهم هو الغلو في الصالحين

....

الغلو هو الزيادة في الأمر المشروع وتجاوزه، وقال إذا زاد ترك ما أمر الله ـ جل وعلا ـ به، وجاء بما لم يشرع.

ويقابل الغلو الجفاء والشرك، ودين الله ـ جل وعلا ـ كما يقال: وسط بين الغالي والجافي، فالغالي: يكون خارجاً عن أمر الله، كما أن الجافي يكون مقصراً، ولم يأت بما أمر به؛ وذٰلك لأن الشرع هو اتباع ما أمر الله ـ جل وعلا ـ به، وما أمر به رسوله ﷺ، والشيطان له نزعتان في الناس؛ لأنه إذا رأىٰ أن الإنسان عنده جِد وإقبال؛ زين له الزيادة والغلو؛ حتىٰ يخرجه من دين الله، وإذا رأىٰ أن الإنسان عنده فتور أو قصور؛ فإنه يزين له الشرك والتقصير، حتىٰ يستطيع أن يحصل ما يحصله ليكثر من يكون معه في النار.

ولهٰذا فإن الإنسان في هٰذه الحياة بحاجة إلىٰ أن يجاهد نفسه، ويجاهد الشيطان، ويحرِص علىٰ اتباع كتاب الله وسنة رسوله؛ لأن العمل القليل علىٰ السنة، خير من أعمال كثيرة علىٰ الغلو والبدعة، إن الثمرة هو ما يُقْبَل، ليس الثمرة الكثرة، لذٰلك كان ابن عمر يقول: «لو أعلم أن الله قبل مني حسنة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[(١)]، فتأمل مثل هٰذه الآية، وإنما تفيد الحصر؛ يعني: الذي ليس بمتقٍ؛ فإنه لا يقبل منه؛ والتقوىٰ تختلف، فالمتقون هم الذين يتقون الغلو، والجفاء، والبدعة، والزيادة، والنقص؛ ويقتصرون علىٰ أمر الله ـ جل وعلا ـ ويمتثلون ما أمر الله به.

وقوله: «ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»

---

(١) روي عن فضالة بن عبيد، «حلية الأولياء» (١/٢٠٨)، «سير أعلام النبلاء» (٣/١١٦).

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

يعني: كأنه جعل لترك الدين سبباً واحداً فقط هو الغلو في الصالحين.

والمقصود في هٰذا شيءٌ معينٌ، وليس معنىٰ ذٰلك أنه لا توجد المعاصي وترك الدين إلا في هٰذا، فإن ترك الدين كثير جداً وفيه أنواع شتىٰ، ولٰكن هٰذا أول ما حدث لبني آدم، لتركهم دينهم، هٰذا هو غلوهم في الصالحين كما سيأتي.

وقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أهل الكتاب قالوا: إن عيسىٰ هو الله، وقالوا: إنه ابن الله، وقالوا: إنه ثالث ثلاثة، أي: الله وعيسىٰ وأمه، هٰذا معنىٰ ثالث ثلاثة، ثم بقوا علىٰ التثليث الذي هو كفر.

والحقيقة أن الغلو هنا كونهم وصفوا المخلوق بأنه الله ـ جل وعلا ـ، سواء كان عيسىٰ أو أمه أو كليهما، أو طائفة أخرىٰ من اليهود الذين قالوا: إن عزيراً ابنُ الله، والنصارىٰ ضاهوهم وشابهوهم في ذٰلك، فهٰذا غلو.

وسبق أن النهي لأهل الكتاب، والمقصود نحن ؛لأن أهل الكتاب لم يلتفتوا إلىٰ ما جاء به الرسول ﷺ، والنهي عن شيء يكون نهياً للأمة كلِّها، كما أن الأمر عن شيء واحد يكون أمراً للأمة كلها، وإنما ينتفع بالأمر والنهي الذي يمتثل أمر الله، فإذاً نحن المقصودون بهٰذا؛ لئلا نكون مثلهم، مع أنه لو قيل: إن أهل الكتاب يدخل فيه كل من آتاه كتاباً من الله جل وعلا.

وكتابنا هو آخر الكتب التي أنزلها الله ـ جل وعلا ـ، وهو مهيمن عليها، وحاكم عليها، فهو العبرة، وبه الاعتبار، لهٰذا لا يجوز أن نأخذ ما يقوله اليهود والنصارىٰ، وما ينسبونه إلىٰ كتابهم ـ كما هو معلوم ـ غير أن الخطاب موجه لهم أصلاً، وذٰلك أنهم كانوا في المدينة كثيرين، والذين كانوا في المدينة اليهود فقط، لم يكن فيها نصارىٰ، وسبب مجيئهم للمدينة أنهم

....

ينتظرون مبعث النبي ﷺ؛ لما عندهم من وصفه في التوراة والإنجيل، وقد أخبر الله ـ جل وعلا ـ أنهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] يعني: معرفة تامةً.

قال عبد الله بن سلام ـ وهو من كبار علمائهم ـ لما أسلم: والله إنا لنعرفه أكثر من معرفتنا لأبنائنا؛ لأن أحدنا يخرج من بيته فما يدري ماذا تفعل زوجته، أما هو فلا نشك فيه.

هٰذا الوصف الذي أنزله الله عليهم هو وصفٌ مطابقٌ لما جاءهم، ورأوه وشاهدوه، فمجيئهم لهٰذا المكان لأجل أنهم يستقبلونه، وكانوا قبل مبعثه يستفتحون علىٰ المشركين ـ الأوس والخزرج ـ؛ لأنه بينهم قتال، والاستفتاح هو طلب الفتح، يقولون: اللهم ابعث نبيك حتىٰ نتبعه، ونقاتل المشركين معه، ثم لما بعث كفروا به، وآمن به الوثنيون الذين يعبدون الأوثان، وكان هٰذا الكلام الذي يفوهون به ويقولونه من الأسباب التي دعت الأنصار إلىٰ أن يؤمنوا بالرسول ﷺ فلما كان يعرض نفسه علىٰ الناس في الموسم، ويأتي إلىٰ منازلهم، يقول: «**من رجل يحملني إلىٰ قومه حتىٰ أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعتني أن أبلغ كلام ربي**»(١)، فلا يجد أحداً يلتفت إليه ويؤويه، وكان معه عمه العباس، ومعه عمه أبو لهب، يقول: لا تصدقوه، فإنه كذاب! وهٰذا من البلوىٰ. أما عمه العباس فهو يؤيده. فأتىٰ إلىٰ الأنصار، وهم يحلقون رؤوسهم عند الجمرة، فعرض عليهم هٰذا القول، فقال بعضهم لبعض: إنه النبي الذي توعدكم به اليهود لا يسبقونكم إليه، فآمنوا به، وهٰذا من فضل الله عليهم، وأن الذين يعرفونه ويستفتحون به كفروا به حسداً؛ لأنهم كانوا يتوقعون أنه منهم من بني يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم،

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٥٩)، وأبو داود (٤١٠٩)، والترمذي (٢٨٤٩)، وابن ماجه (١٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنه في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، قال: **«هـٰذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ...**

فلما رأوا أنه من العرب من ابن إسماعيل أخي إسحاق كما هو معروف، حسدوا العرب، وقالوا: ليس هـٰذا الذي ننتظر.

يقولون: إن كثرة الخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم موجودون في المدينة مع العرب، فقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، فالغلو هو التجاوز، وأهل الكتاب إذا كانوا هم اليهود فالنصارىٰ داخلون فيهم.

وغلو اليهود في هـٰذا: أنهم اتخذوا أحبارهم أرباباً؛ أي: صاروا يطيعونهم في المعاصي، ويطيعونهم فيما حرم الله ـ جل وعلا ـ، وترك ما أحل الله ـ جل وعلا ـ، فهـٰذا غلو، وغير ذٰلك من أفعالهم، ثم نحن مقصودون به، فلا يجوز لنا أن نتبعهم، وقد يأتي من يزيد عليهم في هـٰذه الأمة، فيكون قد غلا، وإذا عرفنا أن الغلو هو التجاوز للمشروع والزيادة فيه فيكون عاماً.

قال: «وفي الصحيح» يعني: في «صحيح البخاري».

قال: «هـٰذه أسماء رجال صالحين» يعني: وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، أسماء رجال صالحين في قوم نوح عليه السلام، وليس في قوم نوح علىٰ ما يبدوا هـٰكذا؛ لأنهم كانوا قبل نوح، قبل أن يبعث إليهم نوحاً، ولـٰكن لا بأس أن يقال: قوم نوح؛ لأنه استمر الأمر فيهم، وصار هـٰذا هو سبب كفرهم، فكانوا من الصالحين من قوم نوح.

قوله: «فلما هلكوا؛ أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً»، الأنصاب هي الصور؛ يعني: صوروهم، واجعلوا

....

الصور في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها، حتىٰ إذا رأيتموهم؛ تذكرتم أفعالهم واجتهادهم وعبادتهم، فتجتهدون اجتهادَهم، فاستحسنوا هٰذا، ففعلوه فصاروا علىٰ هٰذا زمناً، حتىٰ مات هٰؤلاء الذين فعلوا هٰذا الشيء، وجاء من بعدهم، ونسي السبب الذي من أجله صوروا، فجاء الشيطان إلىٰ الأبناء أو أبناء الأبناء، فقال: إن آباءكم لم يصوروا هٰذه الصور إلا للتبرك بها، وسؤال الله بها، ودعوة الله بها، ففعلوا ذٰلك، فوقعوا بالشرك، هٰذا أول شرك وقع في الأرض.

أما قبل هٰذا؛ فكانوا علىٰ الحق والهدىٰ والإسلام؛ لأن أباهم آدم كان يعلمهم، ويدعوهم إلىٰ ذٰلك، واستمروا علىٰ هٰذا، وقد جاء أنهم كانوا قبل هٰذا بعشرة قرون علىٰ الإسلام، حتىٰ حدثت هٰذه الحادثة.

والعجيب أن بني آدم تتابعوا علىٰ هٰذا من ذٰلك الوقت، إلىٰ اليوم فلما أرسل نوح إليهم يدعوهم؛ صاروا متمسكين بهٰذا الشيء، وصار بعضهم يوصي بعضاً، كما في هٰذه الآية: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ﴾ تأكيد، لا تتركوا آلهتكم لدعوة نوح، ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ آلهتكم عام؛ يعني: كل ما تألهونه من دون الله ـ نسأل الله العافية ـ، ثم خصوا الآلهة، وهٰذا يدل علىٰ أنها انتشرت، ثم خصوا، قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أولاً أوصىٰ بعضهم بعضاً أنهم يتمسكون بآلهتهم، والآلهة هي التي تؤله وتعبد، من أي نوع كان، وهٰذا شيء يجب أن يفهم؛ لأن الغلط كثيراً ما يقع في معنىٰ الإلٰه، كثير من الناس لا يعرف معنىٰ الإلٰه، ويظن أن معنىٰ الإلٰه الذي يخلق ويرزق ويدبر وليس كذٰلك، معنىٰ الإلٰه المألوه الذي تألهه القلوب، وتحبه وتخافه وترجوه، فهو المعبود الذي يعبد، ولهٰذا يكون الإلٰه متعدداً، يكون شجرة، ويكون حجراً، ويكون قبراً، ويكون الهوىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] يتبعه بدون أن يتقيد بأمر الله، ما هَوِيَ من شيء أي: أحبه وأراده اتبعه.

....

وقد يكون الإنسان إلـٰهه شهوته، وقد يكون إلـٰهه فرجه، فيحرص علىٰ هـٰذا الشيء، ولا يبالي فيما نهاه الله عنه، وقد يكون بطنه، وقد يكون رئيسه، وقد يكون ماله كما في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»**(١) سماه عبداً للمال، فكل ما استولىٰ علىٰ قلب الإنسان؛ فهو إلـٰهه.

والواجب أن الذي يستولي علىٰ قلبه هو ربه ـ جل وعلا ـ، فكانوا يتألهون هـٰذه الأشياء، ومعنىٰ يتألهون جاء تفسيره أنه طلب الشفاعة، وأنهم يتيقنون يقيناً أنهم عباد مثله، غير أنهم قالوا: إنهم صالحون، فنتوسل بهم؛ يعني: نطلب شفاعتهم، وندعوهم ليشفعوا لنا، هـٰذا هو حقيقة الشرك الذي وقع منهم، لهـٰذا قال: **«هـٰذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»** لما حصل هـٰذا أطاعوا الشيطان أخيراً، لما قال: إن آباءكم ما صوروا هـٰذه الصور إلا للتبرك بها وسؤالها والتشفع بها، ففعلوا ذٰلك واستمعوا إليه.

فأرسل الله ـ جل وعلا ـ إليهم نوحاً يدعوهم، فبقي يدعوهم زمناً طويلاً، وحاول معهم كل المحاولات، وصار يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، ولـٰكن تمادَوْا، حتىٰ صاروا إذا سمعوا نوحاً أو رأوه؛ غطَّوْا وجوههم، وسدوا آذانهم؛ لكي لا يروه، ولا يسمعوا كلامه، فتمكن الشيطان، وظفر بهم، واستولىٰ عليهم، فصاروا لا يسمعون الحق. ولهـٰذا تجد كثيراً من الناس إذا سلك مثل هـٰذا المسلك أبغض ما إليه، وأعدى ما عنده، مَنْ يدعوه إلىٰ تركه، فالعداوة في الدين هي أشد العداوات؛ لأنهم يرون أن هـٰذا الدين دينهم، كيف هـٰذا يدعوهم إلىٰ ترك دينهم، وهـٰذا الإنسان الذي يدخل مثل هـٰذه الأشياء، ثم يخرج منها يكون غريباً، ويكون منّ الله عليه بأن أنقذه من الهلاك الذي لا يخرج منه إلا النوادر.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٣، ٥٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

فلما استمروا علىٰ هـٰذا الشيء، وحاول فيهم نوح كل المحاولات، فصار يرجو أن أولادهم إذا ولدوا أنهم يستجيبون له؛ لأن الغالب المعروف أن الشباب أحسن قبولاً من الكبار، وأنقىٰ قلوباً، وأصفىٰ أذهاناً، وأنهم إذا دعوا استجابوا وقبلوا، وكانت الدعوة فيهم أنجح وأفضل وأحسن، فكان ينتظر كل جيل أن يأتي بعده، ثم بعد ذٰلك يئس منهم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح] يعني: أولادهم يصيرون مثلهم. فاستجاب الله ـ جل وعلا ـ له، وقال له: ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فصاروا يضحكون ويسخرون منه، انظروا إلىٰ المجنون هـٰذا، يصنع الفلك في البر، الفلك يكون دائماً في البحر، فقال لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩] وهـٰذه سنة الله، فأهلكهم الله ـ جل وعلا ـ بالغرق عن آخرهم، بل كل من في الأرض هلك؛ لأن الماء طغىٰ علىٰ أعلىٰ جبل، ولم يبق في الأرض يابس، ولم ينجُ إلا من في السفينة.

ولهـٰذا نوح هو أبونا الثاني، وكل من علىٰ الأرض هم من ذرية نوح؛ لأنه خلف ثلاثة أبناء، فانتشروا في الأرض.

أما الذين معه؛ فلم يُعْقِبوا لقول الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]، ذرية نوح هم الذين بَقوا إلىٰ اليوم. وكل هـٰذا بسبب الغلو، ثم بعد وقت طويل نمت الأمم وكثرت، فأرسل الله هوداً إليهم، وقد أشركوا، وصارت الطريقة واحدة، وهـٰكذا صارت ترسل الرسل، وهم يتمسكون بالشرك.

ذكر ابن الكلبي في كتابه «الأصنام» أن هـٰذه الأسماء والصور التي صوروها بقيت إلىٰ زمن عمرو بن لُحيّ الخزاعي الذي كان رئيساً لخزاعة، الذين استولوا علىٰ البيت، وطردوا أهله، فعمرو هـٰذا كان رئيسهم، وكان

....

يقودهم، وكان له شيطان يأتيه؛ أي: كان كاهناً، فأتاه شيطانه، قال له وهو نائم: «قم أبا ثمامة، ولا تخف ملامة، واذهب إلىٰ جدة، تجد أصناماً معدة، فخذها ولا تهب، وانشرها في العرب، وادعُ إليها تجب». فقام فذهب إلىٰ ساحل جدة، فحفر هناك، ووجدها قد دفنت ـ يعني: دله الشيطان عليها ـ من الطوفان، فاستخرجها، ونشرها في العرب، كما قال له الشيطان، جعل في كل بلد واحداً منها، والذي كسرها هو محمد لمّا بعثه الله، كسّرها وحطمها.

ولهٰذا جاء في «صحيح مسلم» عن عمرو بن عَبَسة السلمي قال: كنت في الجاهلية أرىٰ أن الناس ليسوا علىٰ شيء؛ لأنهم يعبدون الأصنام والشجر، ويقتلون أولادهم، ويقتل بعضهم بعضاً. يقول: فكنت أسأل عن الأخبار؛ يعني: يبحث عن خبر يفيد؛ يعني: ما يكون علىٰ هٰذه الطريقة، يقول: فكنت أذهب إلىٰ موارد المياه، وأسأل الركبان كلما جاء ركب سألتهم: هل من خبر، فلا أجد من يخبرني، وفي يوم من الأيام جاء ركب من قبل مكة، فقلت: هل من خبر؟ قالوا: نعم رجل يخبر خبر السماء. فركبت علىٰ راحلتي، وذهبت إلىٰ مكة، فلمّا أتيت مكة؛ وجدت الناس عليه جرآء وكان مختفياً، فتلطفت، حتىٰ دخلت عليه فقلت: ما أنت؟ فقال: «**أنا نبي**». فقلت: «**وما نبي**»؟ فقال: «**أرسلني الله**»، فقلت: وبما أرسلك؟ قال: «**بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**» هٰذا الشاهد «**كسر الأصنام**» كثير من الناس يعيب كسر الأصنام، الآن يقول: هٰذه آثار، وهٰذه حضارات يجب أن تبقىٰ حتىٰ يعتبر فيها، أو كذا وكذا، فزين الشيطان لهم أن الأصنام لا تكسر.

وقصة الرسول ﷺ في اللات معروفة، فقد طلب أهل الطائف أن تبقىٰ لهم، فأبىٰ، قالوا: سنة، قال: لا، قالوا: شهر، قال: ولا ساعة، لا بد من كسرها، فقالوا: إذاً تولى أنت كسرها، قال: أما هٰذه؛ فنعم، فإذا قدر المسلمون علىٰ أصنام يجب أن يهدموها ويكسروها مهما كانت.

....

يقول: فقلت هل معك علىٰ هـٰذا أحد؟ فقال: «**حر، وعبد**» ومعه يومئذ أبو بكر وبلال فقط، فقلت: إني متبعك، فقال: «**لا تستطيع، ألا ترىٰ ما أنا فيه، ولـٰكن اذهب إلىٰ قومك، فإذا سمعت بي قد خرجت؛ فائتني**»، لما سمعت به أنه ذهب إلىٰ المدينة؛ ذهبت إليه، فقلت: أتعرفني؟ فقال: «**نعم أنت الذي أتيتني بمكة**» إلىٰ آخر الحديث[1]، وفيه سؤال عن الصلاة، وسؤال عن الوضوء.

الشاهد في هـٰذا أن الرسول ﷺ بعث بهدم الشرك، وأول ما يهدم من الشرك كسر الأصنام، وقوله في هـٰذا «**أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً**» الأنصاب هي الصور التي تصور، والظاهر أن كلمة «**أنصاباً**» أنها صور مجسمة؛ لأن هـٰذا الغالب، يسمىٰ النصب الشيء المجسم، وقد يطلق علىٰ الصورة التي تخط بخط من الخطوط، وسموها بأسمائهم؛ يعني: بأسماء الرجال الصالحين، والسبب في حزنهم عليهم أنهم ماتوا في وقت متقارب، حتىٰ ذهبوا كلهم، فأسفوا عليهم أسفاً شديداً؛ لأنهم كانوا يقتدون بهم، ويهتدون بأقوالهم. وهـٰذا يدلك علىٰ أن الزيادة في الحب مآله إلىٰ الشرك والكفر، ويجب أن لا يكون الحب إلا بالقدر الذي أمر الله ـ جل وعلا ـ به، وهـٰذا هو الغلو؛ ولهـٰذا أوصل من أوصل من هـٰذه الأمة إلىٰ عبادة الصالحين وعبادة الرسول ﷺ، والحمد لله ما عبد كغيره من أصحاب القبور، عبادة صريحة يسجدون للقبور، والذي لا يسجد يدعو صاحب القبر، ويجلس عنده، وهـٰذا شيء لا يخفىٰ علىٰ من ينظر في الناس.

وقد حمىٰ الله ـ جل وعلا ـ قبر نبيه من أن يقع شيء من ذٰلك عنده؛ استجابةً لدعائه، فإنه كان يقول: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد**

(١) أخرجه مسلم (١٣٧٤).

....

غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١] فاستجاب الله ـ جل وعلا ـ له، فلما هدم المسجد الوليد بن عبد الملك، والله أعلم بمقصده، ومراده أنه أمر سياسي ليس لأجل التوسعة، والسبب أن أبناء الحسن والحسين كانوا يجتمعون في بيت فاطمة قرب القبر، فقال: هٰؤلاء يجتمعون يخططون لقلب الحكم، وللحصول علىٰ الأمر، فأمر بهدم البيوت التي عند المسجد كلها، فاعترض من اعترض عليه من العلماء، فلم يلتفت إليهم، بل ضرب بعضهم، وسجن من أجل هٰذا، أصبح ليس لهم أمر، فأدخل الحجرة في المسجد. وكان أمير المدينة عمر بن عبد العزيز، فلما رأىٰ أنه لا بد من إدخالها بنىٰ ثلاثة جدران علىٰ القبر، وجعلها علىٰ شكل مثلث زاويته من جهة الشمال؛ حتىٰ لا يستطيع أحد استقبال القبر، لهٰذا يكون قد حماه الله ـ جل وعلا ـ بهٰذه الطريقة، ولا تزال هٰذه الجدران موجودة علىٰ هٰذه الصفة ولٰكن جعل من خلفها هٰذا الشباك؛ لأنه حصل بعض الحوادث التي دعت إلىٰ عمل الشباك، ولله في ذٰلك حكمة لو كان في البقيع، أو خارج المسجد ماذا يكون، ما يترك أبداً يشال ترابه كله، حتىٰ يُستولىٰ عليه، ولٰكن لا يزال فيه حراسة، وفيه مصلون، فهٰذا من حكمة الله وحفظه لنبيه ﷺ.

ولا يقال إن المسجد صار فيه قبر ـ كما يقول ويحتج به من يحتج من المتطرفين ـ؛ لأنه ليس من المسجد، ولهٰذه الزيادة التي زيدت الآن لم يدخل فيها، وصنع علىٰ وضعه السابق، وجعلت الزيادة من خلف، ومن اليسار.

وأما من جهة القبر؛ فلم يزد شيء، بل ترك علىٰ وضعه، وهٰذا من

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٣٧٦) مرسلاً، وأحمد (٧٠٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وسَمّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتىٰ إذا هلك أولـٰئك ونسي العلم، عبدت»(١).

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا علىٰ قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

حماية الله ـ جل وعلا ـ، القبر في بيت رسول الله ﷺ الذي دفن به ليس بالمسجد؛ في البيت الذي كان يسكنه، والبيت أدخل فيه، وهو بني بنايات حالت بين الناس، وبين كونهم يجعلونه فيه.

ويقول محمد بن إسماعيل الصنعاني: «لا يجوز أن يحتج علينا بهـٰذا الفعل؛ لأن هـٰذا فعل الملوك، وليس هو أمراً شرعياً الذي يفعله أهل الشرع، وفعل الملوك يفعلون دون النظر للأمر الشرعي».

وقوله: «**ولم تعبد**» يعني: أول ما صنعت ما عبدت، وإنما يقتدون بهم، ويذكرون أفعالهم، «**حتىٰ هلك أولـٰئك**» يعني: الذين صنعوا هـٰذا الصنيع، «**ونسي العلم**» يعني: نسي السبب الذي صوروا من أجله عند ذٰلك «**عبدت**» بأمر الشيطان.

وابن القيم يقول: إنهم جمعوا بين شيئين وكلاهما من أسباب الكفر، جمعوا بين التصوير وبين الغلو في الحب والزيادة فيه، وهـٰذا هو سبب الشرك غالباً الذي وقع فيه بني آدم، والعكوف هو الجلوس والمكث، وكانوا يعكفون عندهم، والعكوف عبادة، لا يجوز أن يكون إلا بمساجد الله، وكل جلوس يقصد به التعبد في المسجد هو عكوف حتىٰ وإن كان ساعة، لهـٰذا يقول الفقهاء في أحكام المساجد: يسن لمن دخل المسجد أن ينوي العكوف؛ يعني: في غير الفريضة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٩).

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني** ....

قال: «عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني» الإطراء هو المدح، إذا مدحه وأثنىٰ عليه، والرسول نهىٰ عن المدح، قال: «**لا تطروني**» والإطراء مأخوذ من الذكر، إذا ذكره؛ فقد أطراه، وهٰذه اللغة لا تزال موجودة عند الناس؛ يقولون: فلان يطري فلاناً، وتقول: أطريته بكذا؛ يعني: ذكرته بكذا، فيقول: «**لا تطروني**» يعني: لا تمدحوني، والمدح غالباً يكون كذباً، وهو فتنة للممدوح الذي يمدح؛ وذٰلك أن النفوس تحب العلو، وتحب الظهور علىٰ الناس، كل نفس إن لم يتدارك الله ـ جل وعلا ـ بفضله ولطفه ويحميه من هٰذا، ولهٰذا تجد كل أحد يحب أنه يمدح ويفرح بهٰذا؛ ولٰكن لأجل ميل النفس لهٰذا الشيء، قال: «**لا تطروني**» فإذا كان ينهىٰ أن يطرىٰ هو، وهو المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فكيف بغيره؟

ولهٰذا يقول العلماء: المدح في الوجه حرام لا يجوز؛ لأن فيه هلكة الإنسان، وإذا وجد من يقر هٰذا؛ فيوسف ﷺ قال للملك: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف] ولٰكن هٰذا خبر؛ لأنهم لا يعرفون ذٰلك عنه، فاضطُر إلىٰ أنه يذكر ذٰلك، فلا بأس به عند الحاجة، فيذكر الإنسان ما فيه إذا احتاج إليه.

أما الغالب؛ فالإطراء يكون بالكذب؛ أي: يزاد فيه، وأنت تشاهد الناس كيف إذا مدحوا أحداً تجاوزوا الحد، وإذا ذموه تجاوزا الحد، والواجب أن يكون القول بالعدل، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] العدل: أن تقول الحق، وإذا كنت لا تعلم؛ فلا تتكلم، قل: الله أعلم، أمره إلىٰ الله، وهٰذا كما في «صحيح البخاري» كان مع النبي ﷺ أحد الصحابة يمشي، فمرَّ علىٰ أحد الصحابة، فأثنىٰ عليه، قال: «**ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**» مراراً، ثم قال: «**من كان**

كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» أخرجاه. وقال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**.

منكم مادحاً أخاه لا محالة؛ فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذٰلك منه»[1]، وفي رواية: **«لا تسمعه، فتهلكه»**[2]، فكان يخاف علىٰ مثل الصحابة، فكيف بالضعفاء الذين مثلنا، ضعفاء العقول، وضعفاء الدين، لا شك أنه مُضر.

وقوله: «كما أطرت النصارىٰ ابن مريم» هٰذا الذي نهىٰ عنه، فإذاً الإطراء الذي نهىٰ عنه هو التجاوز الذي يكون باطلاً، وهٰذا خاص به ﷺ.

قوله: «إنما أنا عبد» يعني: لست إلٰهاً ولا رباً، إنما أنا عبد تعبّدَني ربي ـ جل وعلا ـ، **«فقولوا عبد الله ورسوله»**، هٰذا الواجب. أما إذا كنا تركنا نهيه وتجاوزناه كما تجاوز الآن الصوفية الذين يقيمون الموالد، ويقعون في الشرك في ذٰلك، بسبب أنهم عصوا رسول الله ﷺ في هٰذا، وأطاعوا الشيطان، ووقعوا في الشرك، حتىٰ صاروا يقولون أقوالاً لا يجوز أن تقال إلا لله ـ جل وعلا ـ، وكذٰلك يفعلون أفعالاً تدل علىٰ العبادة.

وقال رسول الله ﷺ: **«إياكم والغلو»** هٰذا تحذير لنا، ولٰكن هٰذا القول له سبب وهو ما جاء عن ابن عباس، يقول: قال لي رسول الله ﷺ صبيحة جَمْعٍ ـ يعني: صبيحة المزدلفة ـ قال: **«القط لي الحصىٰ»**، فيقول، فلقط له سبع حصيات، هن حصىٰ الخذف، والخذف هو أن يضع الإنسان علىٰ ظهر إبهامه هٰذه الحصاة، ثم يقول بها هٰكذا.

يقول ابن عباس: فأخذهن وصار يقلبهن بيده، ويقول: **«بمثلهن فارموا، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**، وأنت ترىٰ الآن ماذا يصنع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجها أحمد (١٨٢٠٨).

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«هلك المتنطعون»** قالها ثلاثاً[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن من فهم هٰذا الباب وبابين بعده، تبين له غربة

بعض الحجاج فيأخذ حجارة كبيرة، وقد يأخذ النعال، يتصور أن هٰذا الشيطان، ولهٰذا يأتي الإنسان بغضب وحنق، هٰذا كأنه مقبل علىٰ عدو ليقتله، والرجم إذا أصاب إنساناً يمكن يفقع رأسه، أو عينه، وقد رأينا الدماء. وبعضهم يسميه شيطاناً، وهٰذا أيضاً لا يجوز أن يسمىٰ الشيطان، هٰذا منسك يفعله الإنسان اتباعاً لرسول الله ﷺ، ويؤديه بسكون وخضوع وذل لله ـ جل وعلا ـ.

أما إذا أداه بهٰذه الصورة؛ فإنه من اللعب، يأسف الإنسان من جهل المسلمين، لهٰذا نقول: لو فقهوا المراد منه، وجاؤوا بسكينة؛ لما صارت هٰذه الكوارث التي تحدث في رمي الجمرات من القتل، ولٰكن المشتكىٰ إلىٰ الله، كونهم يجهلون دينهم.

والمقصود أنهم تجاوزا أمر الرسول ﷺ؛ **لقوله**: «**إياكم والغلو**» يعني: لا تظنوا أن الرمي بالحجارة الكبيرة أبلغ في ذٰلك، **وقوله**: «**وإياكم والغلو**» يعني: إياكم أن تزيدوا علىٰ هٰذا الأمر، وهٰذا ليس خاصاً بالحجارة هٰذه، بل في الدين كله لا يجوز أن يتجاوز الإنسان الأمر المشروع، فإن تجاوزه؛ وقع في الشرك، نسأل الله العافية.

قوله: «**هلك المتنطعون**» المتنطع هو المتعمق بالشيء الذي يزيد فيه علىٰ ما هو معلوم، سواء كان في الكلام، أو في الفعل، أو في غيره.

قوله: «**ومن فهم هٰذا الباب وبابين بعده... إلخ**» المقصود من تأمل هٰذه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

الإسلام، ورأىٰ من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث علىٰ وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غيّر به دين الأنبياء، وما سبب ذٰلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذٰلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول:

النصوص التي ذكرت؛ تبين له أن كثيراً من الناس جانب ما جاء به الرسول ﷺ، والمقصود العلماء، وليس عوام الناس، وقع من العلماء الذين يشرحون الحديث، ويفسرون كتاب الله، ومع ذٰلك وقعوا في الغلو الزائد حتىٰ صار حظهم من رسول الله ﷺ هو المدح بالكذب، ويقول: هٰذا من العجائب، كيف يسمع الإنسان النصوص ويشرحها، ثم يحرفها عمّا دلت عليه.

قوله: «معرفة أول شرك حدث علىٰ وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين» يعني: بسبب شبهة حبِّ الصالحين، وهٰذا ليس حباً في الواقع، وإنما هٰذا تجاوز وزيادة، وهو طاعة للشيطان، ولهٰذا صار سبب الشرك، هو التعلق بالمخلوق، وجعله واسطة بين العبد وخالقه، ومن فعل ذٰلك؛ فقد وقع في الشرك.

قوله: «مع معرفة أن الله أرسلهم» يعني: أنهم يعرفون أنه رسول، ولٰكن لم يطيعوه، ولم يتبعوه.

قوله: «أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل... إلخ» يقول: السبب في ترك الدين والوقوع في الشرك هو خلط الحق بالباطل، فالأول هو محبة الصالحين، ولٰكن يجب أن لا تتجاوز الحد.

الثاني: فعل أناس أرادوا الخير، فأخطؤوا، وهو تصوير الصور.

محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح. **السابعة**: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد. **الثامنة**: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل. **العاشرة**: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح. **الثانية عشرة**: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هـٰذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

قوله: «**أن البدعة سبب الكفر**» وأنها أحب إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها، هـٰذا معنىٰ قول السلف: صاحب البدعة لا توبة له، وليس معناه أن الله لا يتوب عليه، ولـٰكن المعنىٰ أنه لا يتوب، لأنه يرىٰ أن هـٰذا دين فلا يتوب من الدين، وإذا تبين له، وهو يريد الحق، وأراد الله به الخير؛ تاب وتركها.

قوله: «**القاعدة الكلية**» يعني: في كل شي في أمور الدين كله لا يجوز الغلو، يجب أن يتقيد العبد بما شرعه الله، وشرعه رسوله ﷺ.

قوله: «**معرفة النهي عن التماثيل**» يعني: الصور، فهي سبب الضلال.

قوله: «**معرفة عظم شأن هـٰذه القصة**» يعني قصة نوح مع قومه؛ لأنها كثيرة ومتيسرة ولهـٰذا ذكرها الله ـ جل وعلا ـ؛ لعظم النفع فيها؛ لأن الإنسان

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب، قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنىٰ الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتىٰ اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهىٰ الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.
السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذٰلك.
السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**» فصلوات الله وسلامه علىٰ من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين. **التاسعة عشرة**:

إذا عرف سبب الشرك والكفر اجتنبه، ولٰكن مع ذٰلك؛ وقعوا فيما وقع فيه قوم نوح عليه السلام.

قوله: «**وهي أعجب العجب..**» هٰذا لأنهم يقولون هٰذا توسل؛ أي: نتوسل بالصالحين، والتوسل أمر الله به كما قال: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فجهلوا مراد الله، وجهلوا ما فعلوه، بل ظنوا أن الشرك مأمور به، وهٰذا من المصائب، ولا يزال كثير من الناس يقولون مثل هٰذا القول، ويظن أن التوسل محبوب ويتقرب فيه، فيجعل الشرك هو التوسل؛ لأن الألسنة فسدت، والمعاني خفيت علىٰ كثير من الناس، يظن أن التوسل هو الذي يصطلحون عليه. والتوسل الذي أمر الله ـ جل وعلا ـ به هو العمل الصالح ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ يعني: اعملوا الأعمال الصالحة التي تقربكم إلىٰ الله، والشرك لا يأمر الله ـ جل وعلا ـ به، ولا يأمر به رسوله.

قوله: «**البيان العظيم في قوله ﷺ**» يعني: أنه نص علىٰ هٰذا الشيء، فخالفوه صراحة، ووقعوا فيما نهىٰ عنه.

التصريح بأنها لم تعبد حتىٰ نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

قوله: «حتىٰ نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده» يعني: وجود العلم أمر ضروري، العلم بالأشياء وحقيقتها، والعلم بما جاء به الرسول ﷺ، وإذا فُقِدَ؛ هلك الناس.

باب
ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

....

في هٰذا الباب الذي يقول فيه المؤلف: «من فهم هٰذا الباب والذي بعده» يعني: الباب السابق، وكلاهما من شرح التوحيد، وتفسير لا إلـٰه إلا الله؛ لأنه ينافي لا إلـٰه إلا الله، وينافي التوحيد، ومن فهم هٰذا «عرف غربة الدين».

وكانت في بلاد نجد في وقت الشيخ عبادة القبور والشجر وغير ذٰلك منتشرة، في أشياء كثيرة جداً، وكانت منتشرة بجميع بلاد نجد فلهٰذا كان يقول: «**إنّ من عرف الباب والذي قبله عرف غربة الدين**» لما أراد الله ـ جل وعلا ـ بأهل نجد خيراً هيأه لهم فصارت دعوته فتحاً عظيماً لأهل نجد، فعرفوا التوحيد واتبعوه بعد جهد في الدعوة وحروب طالت، وسيرته معروفة رحمه الله.

لما قال: «**باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده**» إذا عبد الله عند القبر، فهٰذا من المحرمات الكبيرة؛ لأنه وسيلة إلىٰ الشرك مع أن العبادة لا تصح؛ للنهي الذي جاء في «صحيح مسلم» يقول ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[1] هٰذا معناه أن القبور لا تعمل فيها العبادات، ولا يقرأ فيها القرآن.

وقوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**» يعني: لا تجعلوها شبيهة بالقبور، فإن القبور معطلة عن العبادة، لهٰذا قال: «**فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»، فكيف إذا كانت العبادة تفعل لأجل القبر؟! أي: يتجه إليه،

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح؛ بنوا علىٰ قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور**، ....

ويدعوه، ويسأله، هٰذا شرك صريح، بل المسألة الأولىٰ ليست من الشرك؛ يعني: كونه يعبد الله عند القبر ليست شركاً، وإنما هي من المحرمات؛ لأنها من وسائل الشرك، والشرك هو عبادة غير الله، وهٰذا يعبد الله، ولٰكن يعبده في مكان لا يجوز وقد نُهي عنه، ولا يمكن أن تكون العبادة في الشيء المنهي عنه.

ولهٰذا قال العلماء: إن العبادة باطلة؛ يعني: لو صلىٰ عند القبر لله خالصاً؛ فصلاته باطلة، يجب أن يعيد صلاته.

ومثل ذٰلك المساجد التي فيها القبور، فلا تجوز الصلاة فيها، وإذا صلىٰ فيها؛ وجب عليه أن يعيد الصلاة؛ لأن صلاته باطلة لهٰذا النهي.

قال: «في الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة» الٰكنيسة معروفة متعبد النصارىٰ.

وأم سلمة كانت هاجرت إلىٰ أرض الحبشة مع من هاجر قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

قولها: «وما فيها من الصور» يعني: أن النصارىٰ يصورون من يعظمونهم من كبارهم ومن علمائهم، ويتعبدون بالصور.

قال: «أولئِكِ» بكسر الكاف، خطاب للمرأة.

قال: «إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح» شك الراوي، أقال: **«الرجل الصالح»** أم **«العبد الصالح»**، وكلاهما سواء.

قوله: «بنوا علىٰ قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور» مسجداً يعني: كنيسة، وهي مسجدهم الذي يتعبدون فيه، فإذا بنىٰ المسلمون مسجداً علىٰ القبر؛ صاروا مثلهم. **«وصوروا فيه تلك الصور»** يعني: تعظيماً للصور.

أولئك شرار الخلق عند الله»[١].

فهٰؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال ـ وهو كذٰلك ـ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا، ولولا ذٰلك أُبرِزَ قبره، غير أنه خشي ....

قوله: «فهٰؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل» فتنة الصور هٰذه أعظم ما وقع الشرك بسببها، بسبب الفتنة في القبور؛ لأن كثيراً من الناس يتعلق بالقبور والصالحين وغيرها، وهٰذا أمر مشاهد.

قال: «ولهما عنها» يعني: عن عائشة **«قالت لما نُزل برسول الله»** نُزل أي: نزل الموت به أي علاماته.

قولها: «طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه» طفق: أسرع في طرحها، وقال وهو كذٰلك بهٰذه الحالة الشديدة من حرصه ﷺ علىٰ أمته، ونصحه لهم: **«لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا»** أي: يحذر الأمة أن تقع فيما وقعت فيه اليهود والنصارىٰ.

تقول: «ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خُشي» هٰكذا خُشي بضم الخاء مبني للمجهول، وكان الصحابة لما اختلفوا أين ندفن رسول الله ﷺ؟ هل ندفنه مع أصحابه؟ فروىٰ لهم أبو بكر حديثاً عن النبي ﷺ يقول سمعته يقول: **«ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه»**[٢]؛ يعني: في المكان الذي مات فيه، فأخروا السرير الذي كان عليه، فحفروا له، ودفنوه في مكانه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٦)، ومسلم (٨٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٣٩) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

أن يتخذ مسجداً. أخرجاه[١].

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: **«إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً،** ....

قوله: «خُشي أن يتخذ مسجداً» يعني: يُصَلىٰ عنده، ويُدعىٰ عنده، ويتعبد عنده، هٰذا الذي خُشي، وهٰذا استجابة لدعائه.

قوله: «إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل» البراءة هي الخلوص من الشيء، وكونه خَلَصَ من هٰذا؛ لأنه هو خليل الله، والله اتخذه خليلاً، **«فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»** الخلة هي نهاية الحب، وسمي خليلاً؛ لأن الحب تخلل القلب كله، فليس في القلب موضع لغيره، فهٰذا بالنسبة للمخلوق، إذا قال: (فلان خليلي)، فالمعنىٰ اللغوي هو هٰذا، و

والخلة هي نهاية الحب، فأول الحب العلاقة، ثم الصبابة، ثم تتدرج كثيراً إلىٰ أن تصير خلة، وبعد الخلة التعبد، والتعبد لا يجوز أن يكون إلا لله - جل وعلا -، فلا يجوز أن يكون لمخلوق.

والكلام في المحبة كثير، ويغلط كثير من الناس، فيقول: (إن إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيبه)، يزعمون أن المحبة أخص من الخلة، وهٰذا غلط، فالخلة أعلىٰ درجة من المحبة.

ولهٰذا قال: «اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً منكم خليلاً: لاتخذت أبا بكر خليلاً» وهٰذا نص صريح بأن أبا بكر هو أفضل الصحابة، وهو أولىٰ بالخلافة من غيره مع أمره ﷺ إياه بالصلاة، وغضب لما

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧)، ومسلم (٨٢٦).

....

روجع في هـٰذا، وفيه أحاديث كثيرة يكاد بعضها يكون صريحاً، وبعضها إشارة.

وقد اختلف العلماء هل خلافة أبي بكر بالتصريح والنص أو بالإشارة؟

والإشارات كثيرة في هـٰذا، مثل حديث المرأة التي جاءت إليه تسأله، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن لم أجدك ـ تقصد الموت ـ. فقال: **«إن لم تجديني فائتي أبا بكر»**[(١)].

وكذٰلك حديث الرؤيا الذي في «الصحيحين» يقول: **«رأيت الناس مجتمعين في صعيد، فقام أبو بكر فنزع ذَنوباً أو ذنوبين، وفي بعض نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم أخذها عمر، فاستحالت بيده غرباً، فلم أرَ عبقرياً في الناس يفري فريه، حتىٰ ضرب الناس بعطن»**[(٢)]، فكل هـٰذا إشارة إلىٰ خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وخلافته سنتان فقط وشيء.

وقوله: «وفي نزعه ضعف» لِما وجد في وقته من ردة الناس والقتال، هـٰذا الضعف الذي كان، بخلاف خلافة عمر رضي الله عنه؛ فإنه صار فيها الفتوح والأموال الكثيرة، وهـٰذا الذي عبر عنه، حتىٰ شرب الناس وضربوا بعطن. والأحاديث كثيرة في هـٰذا، وليست هـٰذه فقط، وكلها إن لم تكن صريحة بخلافته؛ فهي إشارات وتلميحات.

وفي «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ أمّر عمرو بن العاص رضي الله عنه علىٰ سرية أرسلها الرسول ﷺ للقتال، فتخلف عمرو ليصلي مع الرسول، فلما صلىٰ ﷺ؛ قال: **«لم تخرج مع أصحابك؟»**، فقال: حتىٰ أصلي معك، فقال: **«لن تدرك الروحة التي راحوها»** ـ يعني: أنك لو ذهبت كان أفضل لك ـ. ثم قال بعد ما رجع: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: **«عائشة»** فقال: من الرجال؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٦)، ومسلم (٤٣٩٨) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦١، ٣٣٩١، ٣٤٠٠)، ومسلم (٤٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذٰلك»[١].

فقد نهىٰ عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن - وهو في السياق -

قال: «**أبوها**»، يقول: ثم قلت له: ثم أي؟، قال: «**عمر**»، يقول: فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم[٢].

والمقصود أن الأحاديث في أبي بكر كثيرة جداً، ومع ذٰلك أهل البدع يرون أن علياً هو الخليفة، وأنه منصوص عليه؛ لأنهم يفترون الكذب، ولو أمعنوا النظر، واستعملوا العقل وتأملوا؛ لأدركوا الحق بلا شك.

ولهٰذا يرجع من تكون هٰذه صفته، ومع ذٰلك فالدعوة إلىٰ الله - جل وعلا - واجبة، وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والهدوء. وأما المهاترات والأمور التي فيها سبّ؛ فإنها لا تجدي في شيء، ولا تزيد الأمر إلا شدة.

وقوله: «**ألا وإن من كان قبلكم**» (ألا) يؤتىٰ بها للانتقال من معنىً إلىٰ آخر، وتسمىٰ أيضا أداة الاستفتاح لكلام جديد.

قوله: «**وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**» هٰذا تأكيد وتكرار مما يدل علىٰ أنه ﷺ قد علم بالوحي الذي جاء أن أمته ستقع في هٰذه الأمور، فكرر ذٰلك وصار من آخر ما قال صلوات الله وسلامه عليه.

لهٰذا يقول المؤلف: «**فقد نهىٰ عنه في آخر حياته**» يعني: قبل أن يموت بخمس، وهٰذا معناه أنه نهىٰ عنه في مرضه؛ لأنه بقي اثني عشر يوماً مريضاً صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «**ثم إنه لعن وهو في السياق**» في سياق الموت، وهو ما سبق من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠١٠)، ومسلم (٤٣٩٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

مَنْ فَعَلَه، والصلاة عندها من ذٰلك، وإن لم يُبْنَ مسجد، وهو معنىٰ قولها: خُشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمىٰ مسجداً، كما قال ﷺ: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**[1].

يقول: «والصلاة عندها من ذلك» لأن الصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، واستدل علىٰ هـٰذا أن الأرض كلها مسجد، وكل ما صليت في مكان؛ فهو مسجد لقوله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**» طهوراً يعني: بالتيمم، فإذا فقدت الماء تيمم في أي مكان من الأرض، وصلِّ فيه، وهـٰذا من فضل الله علىٰ هـٰذه الأمة. وكانت الأمم السابقة ـ اليهود والنصارىٰ ـ لا يصلون إلا في كنائسهم وبيَعِهم، أما هـٰذه الأمة؛ فوسع الله ـ جل وعلا ـ عليها، فجعل لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً، فمكان الصلاة يسمىٰ «مسجداً» ولو لم يُبْنَ فيه مسجد؛ فهو مسجد بهـٰذا الحديث.

لهـٰذا **يقول: «وهو معنىٰ قولها خُشي أن يتخذ مسجداً»** يعني: خُشي أن يصلىٰ عنده، ويُدعىٰ عنده، ليس أنه يبنىٰ عليه مسجد، فالصحابة ﷺ يعلمون أن هـٰذا لا يجوز أصلاً، فلا يمكن أن يكون، ولـٰكن يخاف أن أحداً يأتي فيدعو أو يقرأ أو يصلي عند قبره، فدفن في بيته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ولهـٰذا **قال: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً»** لعلمهم بتحريم هـٰذا، وأنه لا يجوز، وإن كان هـٰذا وقع فيما بعد في بلاد المسلمين كلها، فصاروا يبنون المساجد علىٰ القبور، وقد يدخلون القبر في المسجد المبني.

ثم **قال: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلىٰ فيه فهو مسجد»** للحديث السابق «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٠٦٨)، وابن ماجه (٥٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه النسائي (٧٢٨) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٢/ ٢١٧).

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**» رواه أبو حاتم في صحيحه(١).

فتبين بهٰذا أنه لا يجوز أن يُصلىٰ عند القبر، سواء كان على القبر بناءٌ، أو ليس عليه بناء؛ لأن الصلاة عنده باطلة، وفاعل ذٰلك آثم واقع في المعصية.

قوله: «من شرار الناس» جمع شرّ، وهي صفة مشبهة مثل بَرّ؛ قيل: من شرارهم يعني: أكثرهم شراً، وأكثرهم معاصي وكفراً وبُعداً عن الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: «من تدركهم الساعة وهم أحياء» لأن الذين تدركهم الساعة فُقِد العلم فيهم، فأصبحوا لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فإنهم يتهارجون كما تتهارج الحمر كما جاء في الحديث(٢).

وفي حديث آخر: «**لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: الله الله**» يعني: لا يذكر الله، هٰذه مصائب، وكل ذٰلك بسبب فقد العلم؛ لأن القرآن يُرْفَع، ولا يبقىٰ في الأرض من حرف واحد، يسرىٰ عليه في ليلة واحدة من المصاحف وصدور الرجال، فلا يبقىٰ منه شيء، فإذا رفع القرآن؛ وضع الجهل والكفر، ولعب الشيطان في الناس علىٰ حسب ما يريد، فلهٰذا تقوم الساعة علىٰ شرار الناس.

والساعة هي النفخ في الصور، والنفخ في الصور نفختان:

إحداهما: يموت كل حي في الأرض وفي السماء، ثم يبقون وقتاً، وتحصل كوارث، وأمور هائلة جداً.

قال الله ـ جل وعلا ـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٦٨٤٧)، وأخرجه أحمد (٣٦٥١، ٣٩٢٩).

(٢) هو في «صحيح مسلم» (٢٩٥٥) وأخرجه الترمذي (٢١٦٦)، وابن ماجه (٤٠٦٥).

فيه مسائل:

الأولىٰ: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنىٰ مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل. **الثانية**: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذٰلك. **الثالثة**: العبرة في مبالغته في ذٰلك. كيف بيّن لهم هـٰذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم. **الرابعة**: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر. **الخامسة**: أنه من سنن اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم. **السادسة**: لعنه إياهم علىٰ ذٰلك. **السابعة**: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره. **الثامنة**: العلة في عدم إبراز قبره. **التاسعة**: في معنىٰ اتخاذها مسجداً. **العاشرة**: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلىٰ الشرك قبل وقوعه مع خاتمته. **الحادية عشرة**: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد علىٰ

[الواقعة] فالأمر هائل جداً، ثم تبدل الأرض.

ثم ينفخ في الصور **النفخة الثانية**، وفي الصحيح: «**بين النفختين أربعون**» يعني: أربعون سنة[(١)]، فيبعث الناس في النفخة الثانية، فشرار الناس الذين تدركهم الساعة وهم أحياء، ثم تقوم الساعة، نسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يحمينا من الشرور ومن البدع ومن المخالفات في دين الله ـ جل وعلا ـ، وأن يرزقنا الإخلاص في العمل، واتباع سنة رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٠)، ومسلم (٥٢٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه سئل أبو هريرة: أربعون يوماً قال: أبيت، قال: أربعون سنة، قال: أبيت، قال: أربعون شهراً قال: أبيت.

الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنىٰ عليها المساجد. **الثانية عشرة**: ما بلي به من شدة النزع. **الثالثة عشرة**: ما أكرم به من الخلّة. **الرابعة عشرة**: التصريح بأنها أعلىٰ من المحبة. **الخامسة عشرة**: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة. **السادسة عشرة**: الإشارة إلىٰ خلافته.

باب
ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روىٰ مالك في «الموطأ»: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**، ....

يقول رحمه الله: «**يصيرها أوثاناً تعبد**» الوثن هو المعبود علىٰ غير صورة، والصنم ما كان مصوراً إما علىٰ صورة إنسان أو حيوان أو ما أشبه ذٰلك من الصور، هٰذا القول الصحيح عند أهل اللغة.

وخص قبور الصالحين؛ لأن الفتنة فيها أكبر وأعظم، وإلا فلا فرق بين المعبود سواء كان القبر قبر صالح، أو كان قبر غيره، فإنه يكون وثناً، ويكون الفاعل لذٰلك مشركاً.

وذٰلك أن العبادة إذا صرفت لغير الله فذٰلك الذي صرفت له العبادة يكون شريكاً لله ـ جل وعلا ـ، وهو جعل العبادة في غير ما وضعت له، ويكون الفاعل لذٰلك مشركاً، والذي وقعت عليه العبادة إن كان راضياً؛ فهو وثن أو طاغوت، وما أشبه ذٰلك.

أما إذا كان غير راضٍ؛ فهو لا يختلف في أنه وثن أو طاغوت، ولٰكن يكون كارهاً لهٰذا الشيء فلا يكون آثماً.

ولهٰذا ذكر الله ـ جل وعلا ـ أن أضل الناس من يعبد من لا يشعر بعبادته، فإذا كان يوم القيامة؛ صار عدواً له، وتبرأ منه؛ لأنه لا يرضىٰ بذٰلك.

وهٰذا الحديث يدل علىٰ خوف النبي ﷺ من أن يكون قبره معبوداً، وفيه أنه لو عبد؛ لصار وثناً، لهٰذا قال: «**لا تجعل قبري وثناً يعبد**»، وذٰلك لأن قبور الأنبياء السابقين قد عبدت، والآن لا يعرف في الأرض أي قبر لنبي علىٰ الوجه الصحيح إلا قبر نبينا ﷺ، وقبر الخليل؛ لأنه وإن كان غير معروف

اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[(١)].

باليقين، ولٰكن هٰذا مكانه الذي يسمونه، وما عدا ذٰلك فكله كذب، ليس هناك قبور للأنبياء معلومة.

ومن الغريب أنهم جعلوا لعيسىٰ عليه السلام قبراً! وعيسىٰ رفعه الله ـ جل وعلا ـ حياً، وسوف ينزل في آخر الزمان، ويقتل الدجال، ثم يتوفاه الله ـ جل وعلا ـ.

وما جاء في الحديث أنه يقبر مع النبي ﷺ فهو حديث واهٍ لا يجوز أن يعتمد عليه.

وقوله: «اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يدل علىٰ أن غضب الله يتفاوت بحسب شدة الذنب، وأن الله يغضب، فغضبه صفة له ـ جل وعلا ـ، تليق بعظمته وجلاله.

وقد أنكر كثير من الناس أن يتصف الله بالغضب أو الرحمة أو غير ذٰلك، كما تقوله الأشاعرة، فأوجبوا التأويل في هٰذا، فقالوا: غضبه انتقامه أو عذابه، أو إرادة الانتقام أو العذاب، وهٰكذا يقولون في سائر صفاته، يُؤولونها أو يجعلونها هي المخلوقات ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ عن قولهم علواً كبيراً.

وقوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم» لا يلزم أن تكون الإضافة حقيقية، بل إذا اتخذوا القبور مساجد؛ فهم مستحقون لغضب الله، سواء كانت قبور أنبياء أم قبور غيرهم، فالعلة واحدة إلا أن الافتتان في الصالحين أعظم ـ كما سبق ـ، ولهٰذا نص عليهم.

والمساجد سبق أن المقصود بها الصلاة عندها، ليس المقصود أنها يبنىٰ عليها مسجد، فإن بني عليها مسجد؛ فهٰذا أعظم وأكبر، ولٰكن إذا صلىٰ عندها فقد اتخذها مسجداً، كما سبق الاستدلال علىٰ ذٰلك بقوله ﷺ: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**[(٢)]، فأي مكان تصلي فيه فهو مسجد.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٣٧٦) عن عطاء بن يسار.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣).

ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾، قال: كان يلُتُّ لهم السَّويقَ فمات، فعكفوا علىٰ قبره. ....

قوله: «فعكفوا علىٰ قبره» لأنه كان رجلاً صالحاً، فيصير هٰذا من أنواع الشرك أي: من أنواع المعبودات؛ لأنهم يعبدون قبوراً، وهٰذا علىٰ قراءة التشديد، بتشديد التاء «اللاتّ» أي: أنه أخذ من اللَّتِّ كما سبق، وهو الخلط كونه يخلط السمن بالسويق، ثم يقدمه لمن جاء إليه، وقد افتتنوا به، فكانوا يزعمون أنه إذا أكل أحد من سويقه؛ فإنه يسمن وينشط، وهٰذا من تزيين الشيطان، ثم لما مات دفنوه تحت صخرة، فعكفوا عنده، وطافوا بها، وصاروا يعبدونها، وسموها آلهة، ثم بنوا عليها البناء تعظيماً لها، وستروها بستور من قماش، فصارت معظمة عندهم، بل من أعظم ما تعظم الأصنام والأوثان.

والشاهد في هٰذا أن الأصل في هٰذا أنه قبر فعبدوه، إذاً كل قبر يعبد يكون بهٰذه المثابة، وهي من الطواغيت الكبيرة التي سبق ذكر شيء من تفصيلها، وهٰذه القراءة هي قراءة مجاهد راوي هٰذا الأثر، فيقرأ بالتشديد، وأخذ ذٰلك عن ابن عباس. وقرأ غيره أيضاً من الصحابة هٰذه القراءة.

والقراءة الثانية التي هي القراءة السبعية بالتخفيف، والقراءة إذا كانت شاذة؛ فحكمها حكم الحديث المرفوع؛ أي: يستدل بها، وإن كان لا يقرأ بها في الصلاة، ولا تُجعل قرآناً؛ لأن من شرط ثبوت صحة سندها مع اشتهارها، وأن تكون موافقة لرسم المصحف العثماني، وأن يكون لها وجه صحيح من أوجه اللغة، لا بد من هٰذه الشروط الثلاثة فيها، فإذا توفرت هٰذه الشروط؛ صح أن يقرأ بها، وتكون قرآناً، ويجب الاعتقاد بأنها ثابتة من القرآن.

أما إذا صح سندها، وتخلف الشرط الثاني أو الثالث؛ فتكون حجة، ولا يقرأ بها، ويكون لها حكم الحديث المرفوع.

وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لَعَن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج» رواه أهل السنن[(٢)].

قال: «**وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس**» يعني: مثل ما قال مجاهد: «**كان يلت السويق للحاج**»، وقال غيرهما مثل ذلك، وتبين بهذا أن عبادة القبور كانت معروفة عندهم، وهذا نوع منه، وأن القبر إذا اتجه إليه بالتعظيم والعبادة؛ فإنه يكون وثناً، فيشتد غضب الله على من فعل ذلك.

أما حديث ابن عباس: «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج**»، وفي رواية: «**زوّارات القبور**»[(٣)] للمبالغة، والمقصود بهذا النساء؛ فإنهن ممنوعات من زيارة القبور، واللعن يدل على أن أقل ما يقال فيها: إنها كبيرة من كبائر الذنوب، وسبق معنى اللعن أنه الطرد من رحمة الله ـ جل وعلا ـ، وهذا تكرر النهي عنه من رسول الله ﷺ، ويقول العلماء: السبب في هذا أن المرأة رقيقة القلب، ضعيفة التحمل، فقد يصدر منها الأمور التي لا تجوز من البكاء والندب والنياحة وما أشبه ذلك عند القبر، وهذا أمر محرم لا يجوز، ولهذا سد الباب، وأذن للرجال أن يزوروا بشرط ألا يفعلوا منكراً عند القبور، وأكبر المنكرات أن يُعْبدَ الله عند القبر، وإذا تعدى هذا إلى سؤال المقبور؛ صار ذلك من الشرك، وهو أكبر المعاصي نسأل الله السلامة.

وقد جاء تعليل الأمر بالزيارة أنها تذكر الآخرة[(٤)]؛ لأن الإنسان ينبغي له

---

(١) أخرجهما الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٥٢٣).
(٢) أخرجه أحمد (١٩٢٦)، أبو داود (٢٨١٧)، والترمذي (٢٩٤)، والنسائي (٢٠١٦).
(٣) أخرجه أحمد (٨٠٩٥)، الترمذي (٩٧٦)، وابن ماجه (١٥٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) وذلك في حديث بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها، فإنها تذكر الآخرة**» أخرجه الترمذي (٩٧٤). وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (١٦٢٣).

....

أن يتصور أنه سوف يقبر كما قبر هٰذا الميت، فيتعظ، ويزداد خيراً وعملاً؛ لأنه بإمكانه ذٰلك، فالوقت أمامه، وعنده الاستطاعة، ولا يجوز للعبد الذي يعرف أنه سائر إلىٰ القبر وإلىٰ ربه أن يضيع شيئاً من وقته بدون فائدة؛ لأن في قولك: «سبحان الله» يغرس لك بها شجرة في الجنة[1] إذا كنت من أهل الجنة، وكذٰلك التكبيرة والتحميدة وغيرها من الأعمال، لهٰذا صار إضاعة وقت العبد من أكبر الخسارة وأعظمها، بل هو إضاعة الإنسان نفسه، فالإنسان عبارة عن وقت، فإذا ضاع وقتك أضعت نفسك، والوقت غالٍ جداً، فلا يجوز إذهابه بالأمور التافهة، فكيف بمن يضيعه بالمعاصي، فهٰذا ما تُقَدَّر خسارته بشيء نسأل الله العافية إن لم يتداركه الله ـ جل وعلا ـ، وإلا فهو يتزود إلىٰ النار من كانت أوقاته معاصي، فهٰذا زاد النار، نسأل الله العافية.

وقد قال بعض العلماء: إذا بلغ الإنسان أربعين سنة، ولم يكن يومه أفضل من أمسه؛ فهو في خسارة مستمرة، ولٰكن ما نعرف نحن هٰذا، ولا نقدره.

والسبب الثاني للأمر بزيارة القبور: الإحسان إلىٰ الميت، فتحسن إلىٰ نفسك أولاً، ثم إلىٰ المقبور، فتدعو له، وتسأل الله ـ جل وعلا ـ له العفو والمغفرة، فإنه بِأَمَسِّ الحاجة إلىٰ ذٰلك، فكيف من قلب القضية فصار يدعوه؟! صارت خسارة عليه، وعلىٰ الميت أيضاً إن رضي بذٰلك.

فكان أول الأمر منع الناس من زيارة القبور، ثم قال ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة»**، وفي رواية: **«ولا تقولوا هجراً»**[2] والهُجر هو المعصية، كأن يستنجد به، أو يسأله، أو ما أشبه ذٰلك.

وبقىٰ النهي عن زيارة القبور للنساء لم ينسخ، ولا فرق بين قبر وقبور،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجها البيهقي (٤/ ٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الأوثان. **الثانية**: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهٰذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

وإذا كان قبراً واحداً أيضاً لا تجوز زيارته للنساء، قد يقول قائل: إنه هنا جمع القبور، فالمعنىٰ واحد لا يختلف، ولا فرق بين كونه قبر للنبي، أو قبر لغيره، كلها سواء، فالنهي بحاله.

قوله: «**تفسير العبادة**» سبق أن فسرنا العبادة، وهٰذا له معنىً؛ لأنه قال: «**وثناً يعبد**»، فيجب أن نفهم معنىٰ «**وثناً يعبد**»، وهو واضح أن من اتجه إليه، وطلب منه شيئاً، فقد عبده، وسبقت صفة عبادة المشركين لأوثانهم أنهم يتبركون بها، ويطلبون شفاعتها، وليس عندهم أنها خَلَقت شيئاً من الأرض، أو من السماء، أو أنها تنزل المطر، أو تحيي أو تميت، هٰذا ما كانوا يقولونه ولا يعتقدونه.

قوله: «**أنه لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه**» يعني: الشيء المتوقع، وهٰذا معناه، خاف أن تقع عبادة لقبره ﷺ، فسأل ربه ألا يقع ذٰلك، فدل علىٰ أن هٰذا يجب علىٰ المؤمن أن ينهىٰ عنه، وألا يسعىٰ في الأسباب التي توصل إليه، بل يسعىٰ إلىٰ سد كل ذريعة توصل إليه، وينهىٰ عن ذٰلك أشد النهي، ويحول بين ذٰلك وبين من يفعله إذا كان له حيلة.

قوله: «**ذكر شدة الغضب من الله**» يعني: أن الله يشتد غضبه علىٰ بعض أهل المعاصي، فمعنىٰ ذٰلك أن صفاته تتفاوت بالنسبة للمخلوق ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ. وكذٰلك الرحمة، فقد تكون الرحمة لفلان أعظم من الرحمة لفلان، وهٰكذا؛ لأن هٰذا يترتب علىٰ الأعمال التي يعملونها، والله ـ جل وعلا ـ يفعل الحق والعدل ويحكم به ـ تعالىٰ وتقدس ـ مع أن عقابه علىٰ الذنوب ولا

السادسة ـ وهي من أهمها ـ: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

يعاقب إلا علىٰ ذنب، ويعفو عن كثير، ولو عاقب علىٰ كل ذنب؛ لم يسلم أحد.

أما الجزاء؛ فإنه يجزي بلا حساب، والحسنة كما هو معلوم يجزي بها إلىٰ سبعمئة ضعف، إلىٰ ما لا يعلمه إلا هو، وكل ذٰلك من فضله ـ جل وعلا ـ، وكل هـٰذا ينبغي للعبد أن يعرفه، حتىٰ يحببه إلىٰ ربه، مع أن الله ـ جل وعلا ـ غني عن كل مخلوق، وإنما هـٰذا لمصلحتنا وهو يأمرنا لمصلحتنا فقط.

أما هو ـ جل وعلا ـ فلو كفر كل الخلق، وصاروا علىٰ أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذٰلك من ملكه حبة خردل، ولو اجتمعوا كلهم علىٰ طاعته؛ ما زاد ذٰلك في ملكه حبة خردل، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل الخلق فقراء إليه، ومع هـٰذا فهو يدعوهم ويرغبهم فيما عنده، ويذكر لهم فضله، ويرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتىٰ يكون ذٰلك طريقاً لسعادتهم، ولهـٰذا يقول الرسول ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ**» قال الصحابة: يا رسول الله ومن يأبىٰ؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»(١)، فلا بد من ثمن للجنة، وهو طاعة الله، وإن كانت الجنة لا تقدر بثمن، فإنما العمل هو سبب لدخولها، وكله بيد الله جل وعلا.

قوله: «**معرفة صفة عبادة اللات**» صفة عبادة اللات، والعزىٰ، ومناة، وهبل، وأساف، ونائلة، وغيرها من الأصنام: طلب الشفاعة، والعكوف عندها، والنذر لها، وذبح القرابين عندها تقرباً حتىٰ تشفع لهم كما يفعل الآن، ويصنع في كثير من القبور.

---

(١) تقدم تخريجه.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنىٰ التسمية.

التاسعة: لعنه زَوَّارَات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

قوله: «**أنه اسم صاحب القبر**» يعني: اللات اسم للرجل المقبور.

قوله: «**لعنه زوارات القبور**» بعض العلماء قدح في الحديث وقال: إنه ضعيف، وقد رواه أصحاب السنن وغيرهم، ولٰكن الذي جاء بالتشديد، ففهم من بعضهم أن معناه المبالغة، فإذا لم تحصل المبالغة؛ فلا لعن، ولا منع، وهٰذا فهم غير مستقيم؛ لأن المقصود موجود في المبالغة وغير المبالغة، فينزه حديث الرسول ﷺ عن هٰذا الفهم.

قوله: «**لعنه من أسرجها**» الإسراج هو التنوير، أي أن ينورها، ويدخل فيه التجصيص، وأن يضاف إليها كتابة، وما أشبه ذٰلك، وكل شيء يَلفت النظر حتىٰ يدخل فيها أن يضاف إليها ما ليس منها، فإنه جاء النهي أن يوضع علىٰ القبر إلا ترابه، وجاء النهي عن رفعه، ففي «صحيح مسلم» عن أبي الهيّاج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا صورة إلا طمستها[1]، والتصوير من وسائل الشرك كما سبق ولا سيما صور المعظمين؛ لأنها مظنة العبادة وكذٰلك القبور.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٠٩).

باب
ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ....

قوله: «**باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التوحيد**» الحماية هي الصيانة والمنع من أن يأتي إليه ما يفسده أو يناقضه، والمصطفىٰ هو النبي ﷺ؛ لأن الله اصطفاه، والاصطفاء هو الاختيار، فاختاره علىٰ خلقه لرسالته، ولتفضيله والإنعام عليه بما أنعم الله ـ جل وعلا ـ عليه، وجناب الشيء هو جانبه، فمعنىٰ ذٰلك أن الأمور التي قد تكون وسيلة أو قد تكون مدخلاً للشيطان إلىٰ الشرك قد مُنعت، سدها الرسول ﷺ. **وقوله:** «**وسدّه كل طريق يوصل إلىٰ الشرك**» يدل علىٰ أن هٰذا عام في جميع الطرق التي توصل إلىٰ الشرك كلها مسدودة، ولٰكن هٰذا السد معنوي، وليس حسياً، وهو لمن علم أوامر الرسول ﷺ ونواهيه، أما الذي يجهل؛ فهٰذا لا يصل إليه، ولا بد من معرفة ما جاء به ﷺ، وهٰذا لو تتبعناه لكان كثيراً جداً في أحاديثه وأفعاله، وليس في هٰذه الأحاديث التي ذكرت فقط، وذكر حديثين: أحدهما حديث أبي هريرة، والثاني حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده.

وجه الاستدلال من الآية أن حرصه علىٰ هدايتنا ورأفته ورحمته جعلته يسد الطرق التي توصل إلىٰ ما فيه شقاؤنا، وفيه عنتنا، وما يشق علينا، فالشيء الذي يشق علينا يشق عليه ﷺ.

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ نكّر ﴿رَسُولٌ﴾ لتعظيمه، رسولٌ عظيم كريم.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: تعرفونه وتعرفون كلامه وتفهمونه، فهٰذا فضلٌ عظيم عليكم، وجاء في بعض القراءات الشاذة «من أنفَسِكم» يعني: من أشرفكم وأعلاكم، وكله يدل علىٰ المنة، فالله امتنَّ علينا، فإذا قارنت مثلاً بين من هو عربي ومن هو أعجمي؛ تبين لك الفرق؛ لأن الأعجمي يلزمه أن يتعلم اللغة، حتىٰ يفهم كلام الرسول، ويفهم كلام الله. أما العربي، فالمنة عليه أعظم، ولهٰذا ذكر - جل وعلا - العرب بذلك ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء] معنىٰ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يعني: فيه شرفنا ورفعتنا، وسوف نسأل عن هٰذه النعمة العظيمة، وهنا نفس الشيء يعني: منة من الله - جل وعلا -، قد جاءكم رسول من أنفسكم، تعرفون صدقه، وتعرفون لغته، لا يشق ذٰلك عليكم، فهٰذه من أكبر النعم من الله - جل وعلا -.

أما **قوله:** ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني: أنه يعز عليه ويشق الشيء الذي فيه عنتكم، والعنت هو المشقة، وما يكون فيه العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حريص علىٰ إيمانكم وسلامتكم من عذاب الله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ خص المؤمنين بالرأفة والرحمة، أما الكافرين فهو شديد عليهم كما قال - جل وعلا -: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ولهٰذا سمي «الضحاك القتّال» هٰكذا جاء في صفته ﷺ ضحاك للمؤمنين، قتّال للكافرين، بخلاف الذين يريدون أن يتفقوا مع الكفر والكفرة، يقولون: ما جاء الإسلام بشيء فيه معاداة من المسلمين، فهم ينكرون وصف الرسول وفعله وسيرته، كما أنهم ينكرون كتاب الله - جل وعلا -، وهٰذا الإنكار إما تجاهل وعدم مبالاة، أو جهل فظيع، وهٰذا شيء لا يجوز أن يجهل؛ لأن هٰذا دين يجب أن يتدين به.

إذاً عرفنا وجه الدلالة من الآية علىٰ حماية المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» رواه أبو داود[(١)] بإسناد حسن، ورواته ثقات.

من أن يدخل عليه شيء ينافيه أو يخدش من كماله، فالرسول ﷺ حماه من كل جانب.

قوله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**» أي: لا تعطلوها من العبادة، وهٰذا يدل علىٰ أن المقابر معطلة من العبادة، فيقول: لا تجعلوا بيوتكم شبيهة بالقبور، لا يفعل عندها شيء من العبادة، ولهٰذا قال في الحديث الذي في «صحيح مسلم»[(٢)]: «**فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**» أي: لا تعطلوا بيوتكم من العبادة، فإن الشيطان يفرُّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة.

وقوله: «**ولا تجعلوا قبري عيداً**» العيد اسم لما يعود ويتكرر من الفعل أو الاجتماع أو الزمن أو مجموع هٰذا كله، فعيد الفطر مثلاً أو عيد الأضحىٰ فيه زمن يعود ويتكرر، وفيه أفعال واجتماعات وأعمال، والعيد اسم لهٰذا، وسمي عيداً لعوده بعد ما مضىٰ، يعود ويتكرر؛ يعني: لا ترددوا علىٰ قبري، ولو كلَّ الحول مرة، ولهٰذا قال: «**وصلوا عليّ**» يعني: صلوا عليّ أينما كنتم «**فإن صلاتكم تبلغني**».

وفي حديث آخر: «**فإني أبلغ صلاتكم**»[(٣)].

فهٰذا الحديث فيه التصريح بالنهي عن التردد علىٰ قبر الرسول ﷺ،

---

(١) «السنن» (٢٠٤٢).
(٢) أخرجه مسلم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه بنحوه البيهقي في «السنن» (٥/ ٢٤٥).

وعن علي بن الحسين: أنه رأىٰ رجلاً يجيء إلىٰ فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ ....

وقصده للصلاة عليه، فهو نهي صريح، ولهٰذا لم يكن أحد من الصحابة يقصد القبر ليصلي عليه إلا ما عرف عن عبد الله بن عمر، وكان ما يفعل ذٰلك إلا إذا أراد السفر أو رجع من السفر يأتي ويقول: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه» ثم يمضي، وإذا عاد من السفر فعل مثل ذٰلك، قال سالم: ولم أرَ أحداً من الصحابة يفعل هٰذا، فيظهر أن هٰذا اجتهاد من ابن عمر، وليس عنده فيه دليل. وهٰذا الحديث يخالف ذٰلك.

وقال الحسن بن الحسن بن علي: **«ما أنتم ومَنْ بالأندلس إلا سواء»**[1]؛ يعني: مَنْ في المدينة، ومَنْ في الأندلس.

أما حديث علي بن الحسين: فعلي هٰذا هو زين العابدين، وهو مشهور معروف من أفاضل أهل البيت، وأما أبوه؛ فهو الحسين بن علي رضي الله عنه، وأما جده فهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهٰذه سنة جاءت من أهل البيت توارثوها، وذٰلك أن علي بن الحسين كان جالساً في البيت قريباً من بيت فاطمة رضي الله عنها فرأىٰ هٰذا الرجل يأتي إلىٰ فرجة في حجرة النبي ﷺ قبل أن تدخل ويبنىٰ عليها، فقال له: ما تصنع؟ قال: آتي وأسلم. قال: لا تفعل. ثم ذكر له هٰذا الحديث.

وفيه حديث الحسن بن أبي الحسن حديث يشبه هٰذا، الحسن بن الحسن بن علي أنه كان يتعشىٰ في هٰذا المكان، فجاء رجل إلىٰ هٰذه الفرجة، فقال: هلّم إلىٰ العشاء. فقال: لا أريده. قال: ما لي أراك تأتي هنا؟ قال: آتي أسلم علىٰ رسول الله ﷺ. قال: لا تفعل. ثم روىٰ له نفس

---

(١) أورده ابن عبد الهادي في «الصارم المنكي» (٣٢٢).

. . . .

الحديث، وقال: «ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء صلِّ عليه أينما كنت»، هٰذان حديثان أحدهما متصل والآخر مرسل، وكلاهما من أهل البيت، وأهل البيت هم أحوج إلىٰ مثل هٰذا من غيرهم، فلهٰذا حفظوه وأفشوه، وهٰذا كله من حماية رسول الله ﷺ جناب التوحيد، ووجه الحماية أن السلام عليه فضيلة؛ لأن من سلم عليه صار له بتسليمه من الله ـ جل وعلا ـ عشر تسليمات، والمقصود بالتسليم أن تقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» اللهم صلِّ وسلم عليه»، هٰكذا، فإذا صليت عليه وسلمت؛ صلىٰ وسلم عليك بالواحدة عشراً، كما نص علىٰ ذٰلك رسول الله ﷺ، فإذا كان هٰذا أمر مطلوب، ثم نهينا عنه، وقيل لنا: صلوا أينما كنتم دلّ علىٰ أنه يخاف أن يدخل الشيطان من هٰذا الباب، فيحصل ما حصل لبعض الناس بأنه يدعو النبي ﷺ، وقد وقع هٰذا من كثير من الناس، وأعرضوا عن مثل هٰذه الأحاديث، واستدلوا بحكاية لا تثبت، انظر كيف حب الناس للباطل.

يحكىٰ عن أعرابي وعن رجل يقال له: العتبي، ولا يعرف العتبي من هو، ولا الأعرابي من هو.

يقول: كنت عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: إني سمعت الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وإني جئت إليك يا رسول الله، أستغفر الله، وأطلب منك أن تستغفر لي. يقول: ثم ذهب ونمت. يقول: فأتاني آتٍ كأنه رسول الله ﷺ. وفي رواية أنه قال: أنه رسول الله ﷺ، وقال: أدرك الأعرابي، وأخبره أن الله غفر له[1]. هٰذه

---

(١) هٰذه الحكاية أوردها الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٤٨)، والثعالبي في «الجواهر الحسان» (١/ ٣٢٤)، وابن الضياء في «تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام» (١/ ١٧٧)، والسمهودي في «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» (١/ ٥٦)، كما ذكرها أبو عمر ابن قدامة في «الشرح الكبير» (٣/ ٤٩٤)، وأبو محمد =

قال: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في «المختارة».**

حكاية باطلة، سندها مجهول عن مجهول، وهي حلم منام، يحتمل أن يكون إذا قدر أنها واقعة فإنه من الشيطان؛ لأن الشيطان يريد أن يضل الناس في مثل هٰذا، وهٰكذا أفعال أهل الباطل، إما منام، أو حكاية مكذوبة، أو إنسان يقول: رأيت كذا وكذا، أو إن هٰذا المكان فيه رجل صالح، وما أشبه ذٰلك.

وأما النصوص الواضحة الجلية؛ فلا يلتفتون إليها، وهٰذا من الفتنة نسأل الله العافية.

وقوله: «لا تتخذوا قبري عيداً» تقدم معنىٰ العيد.

قوله: «ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم. رواه في المختارة»، المختارة هو كتاب اختار فيه الضياء المقدسي رَحِمَهُ اللهُ الأحاديث الصحاح الجياد، يقول شيخ الإسلام: هو أحسن وأصح من «مستدرك الحاكم»[(١)]، وقد طبع الكتاب، ولٰكنه ناقص طبع .

يظهر أنه يشير إلى الحديث: **«من صلىٰ علي عند قبري سمعته، ومن صلىٰ علي نائياً أبْلغته»**[(٢)]. هو فضل لا شك، وفضله لو لم يكن فيه إلا أن الله

= ابن قدامة في «المغني» (٧/ ٤٢٠)، والنووي في «المجموع» (٨/ ٢٧٤)، والقصة لا إسناد لها.

وجاء أن الأعرابي أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفنَتْ بالقَاعِ أعْظُمهُ … فطابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القاع والأكُمُ

نفسي الفِداءُ لقبْرٍ أنْتَ ساكنهُ … فيهِ العَفَافُ وفيه الجُودُ والكرمُ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١١١)، وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وهٰذا الكتاب لم يتم، وكان بعض الحفاظ من مشايخنا يرجحه على «مستدرك الحاكم». «اختصار علوم الحديث».

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هٰذا الحمىٰ غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره علىٰ وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه علىٰ النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلىٰ في المقبرة.

يصلي عليك ويسلم عليك، وإذا ثبت هٰذا؛ فهو فضل عظيم.

قوله: «**نهيه عن الإكثار من الزيارة**» يعني: أن الزيارة جائزة، ولٰكن الإكثار منها منهي عنه.

قوله: «**حثه علىٰ النافلة في البيت**» يعني: أن قوله: «**صلوا في بيوتكم**» للنوافل فقط، وليست للفرائض، فيجب أن تكون الفرائض في المساجد. أما النوافل؛ فصلاتها في البيوت أفضل، حتىٰ وإن كنت في المسجد النبوي الذي تضاعف فيه الصلاة إلىٰ ألف صلاة. أما مكة فلا إشكال فيها؛ لأن الصلاة في مكة بمئة ألف صلاة.

قوله: «**أنه متقرر عندهم أنه لا يصلىٰ في المقبرة**» هٰذا معروف عند الصحابة مشتهر أن القبور ليست محلاً للتعبد، لا الصلاة، ولا قراءة القرآن، ولا غيرها من العبادات.

الثامنة: تعليله ذٰلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلىٰ ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

أما السلام والدعاء للميت؛ فلا يدخل في هٰذا، وكذٰلك الصلاة عليه إذا مات، يصلىٰ عليه أو علىٰ قبره ولا يدخل في هٰذا، للدليل الذي جاء في ذٰلك، فالدليل خصّ هٰذه الخصلة.

باب
ما جاء أن بعض هـٰذه الأمة يعبد الأوثان

....

ومقصوده بهـٰذا الباب الرد علىٰ الذين يقولون: إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب، فلا يقع فيها شرك، ولا يقع فيها عبادة شيء لغير الله - جل وعلا -، هـٰذا كان يقوله طوائف من الناس من العلماء الذين يردون علىٰ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وما يقرره، ويقولون: الدليل علىٰ هـٰذا قوله ﷺ: **«إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب»**[1] فقولك: إن فيها شركاً، غير صحيح؛ لأن هـٰؤلاء الذين تقول: عندهم شرك هم فقط يتوسلون بأناس صالحين، وهم يعمرون المساجد ويبنونها ويرتادونها، ويوقفون الأوقاف ويتصدقون، ويقرؤون القرآن، ويحجون ويصومون.

وهـٰذا القول من الرسول ﷺ يريد به أن جزيرة العرب لا تعود كما كانت قبل مبعثه؛ لأن أحاديثه لا تتضارب؛ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ فهو وحي من الله - جل وعلا -، ولـٰكن بعض الناس يكون له مقصد معين فيريد أن تكون النصوص علىٰ مراده.

فأراد أن يبين أن الشرك يقع في هـٰذه الأمة، وأنه واقع بكثرة، وأن هـٰذا القول قول جاهل لا يميز بين الشرك وبين التوحيد.

ولهـٰذا قال: **«باب ما جاء أن بعض هـٰذه الأمة تعبد الأوثان»**، فقال: **«بعض»** حتىٰ لا يتوهم أن الأمة كلها تعبد، ولهـٰذا ذكر الحديث: **«ولا تزال طائفة من هـٰذه الأمة علىٰ الحق منصورة»**.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥١٧).

....

ثم ذكر آيات في أهل الكتاب، وذكر وجه الاستدلال منها بالحديث، فأولها قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء] وقد ذكر سبب نزولها مما يعين علىٰ فهمها، وهو أن كعب بن الأشرف وحُيَيَّ بنَ أخطَبَ اليهوديين ـ وهما من رؤساء اليهود وكبرائهم ـ ذهبا إلىٰ مكة بعد وقعة بدر يُؤلبان قريشاً علىٰ رسول الله ﷺ، ويعدانهم أنهم سوف يقاتلون معهم، وهٰذا من خبث اليهود ومكرهم وحيلهم وحقدهم، مع أنهم أعطوا العهود والمواثيق أن يناصروا الرسول ﷺ علىٰ كل من أتىٰ إلىٰ المدينة بشر، فسرعان ما نكثوا العهد كعادتهم، فلما ذهبوا إليهم فرحت بهم قريش، وقالوا لهم: أنتم أهل العلم، وأنتم أهل الكتاب، أخبرونا أينا أفضل، نحن أم محمد؟ نحن أصحاب بيت الله، نسقي الحجيج الماء واللبن، وننحر الكوماء لمن أتانا ـ والكوماء الناقة التي عليها الشحم ـ. أما محمد؛ فهو صنبور[١]، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فقالوا: أنتم خير وأفضل وأهدىٰ سبيلاً، فنزلت الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١][٢]. وسيأتي كلام الشيخ عليها في المسائل، يقول: هل قولهم هٰذا عن عقيدة، أو مجرد موافقة؟ حتىٰ يتأمل الإنسان؛ يعني: أنه موافقة في اللفظ فقط، إنما اعتقادهم فلا شك أنهم يعتقدون أن رسول الله ﷺ أفضل، ولٰكن منعهم الحسد والكبر أن يتكلموا بالحق، فقالوا بضده.

---

(١) رجل صُنْبُورٌ فَرْد ضعيف ذليل، لا أهل له، ولا عَقِب، ولا ناصر. «لسان العرب» (٤/٤٦٩).

وفي «النهاية» (٣/١١٠): «أي أبتر لا عقب له».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

والشاهد في هٰذا أن الذي يفضل دين المشركين علىٰ دين المسلمين يكون له هٰذا الحكم؛ يعني: مجرد تفضيل بالقول فقط، ولو كان كاذباً يكون له هٰذا الحكم، فكيف إذا فعل؟ فإنه يكون عبادة للطاغوت.

ولهٰذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] الجبت فسر بأنه السحر، والطاغوت بالأصنام وعبادة غير الله.

والجبت يطلق علىٰ غير السحر، كما ذكر ذٰلك الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «تهذيب اللغة»[(١)].

أما الطاغوت فمأخوذ من الطغيان، وهو الزيادة كما سبق، والإيمان به إما الرضا به أو أن يفعل ذٰلك، وهٰذا أعظم وأكبر، أو أنه يكون موافقاً له، ولو بالظاهر كما وقع لهٰؤلاء الذين وافقوا الكفار وأرضوهم بمجرد القول فقط حسداً لرسول الله ﷺ وللمسلمين.

قوله: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ يعني: أوتوا حظاً من الكتاب، فمعنىٰ ذٰلك أنهم قالوا هٰذا عن علم؛ لأن عندهم الكتاب، وقالوه وهم كاذبون.

أما قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ يعني: اليهود، يقولون في المسلمين: ما رأينا أهل دين أشر منكم، فقال الله ـ جل وعلا ـ لنبيه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ يعني: بأشر مما تظنونه بنا ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني: ثواباً وجزاءً عند الله، وهو أنتم، ثم قال: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ

---

(١) (٣/٤٨٦).

وقـولـه تـعـالـىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَتَتَّبِعُنّ سَنَنَ**

ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ يعني: أن هـٰؤلاء هم اليهود، فلعنهم الله؛ لأنهم أهل علم، ولـٰكن أهل عناد وكبر مع العلم، واللعن سبق أنه إبعاد عن رحمة الله ـ جل وعلا ـ، والغضب زيادة علىٰ اللعن، فهو أمر آخر.

﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾ الذي عرف أن القردة منهم، والقردة هم أصحاب السبت الذين اعتدوا في السبت، وذٰلك أن الله حرم عليهم صيد الحيتان يوم السبت، فاحتالوا بأن نصبوا الشّباك يوم الجمعة، وحفروا حفراً بحيث إذا جاء الماء امتلأت الحفر، تبقىٰ الحفر فيها السمك، فأخذوها يوم الأحد، فقال لهم أصحابهم الذين معهم: هـٰذه حيلة، والله لا يخفىٰ عليه، اتقوا الله، وطائفة أخرىٰ قالوا: دعوهم هـٰؤلاء سوف يهلكهم الله ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ قالت الطائفة التي نهتهم ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ وهـٰذا الواجب أن العبد ينهىٰ، ويعذر إلىٰ ربه، ولعله ينتهي، فلما لم ينتهوا؛ قالوا: لن نجالسهم، لن نساكنهم، فاعتزلوهم، وفي يوم من الأيام لم يخرجوا من بيوتهم في الصباح، فقالوا: لا بدّ أن لهم شأناً فجاؤوا إليهم، وإذا هم قردة وخنازير، شبابهم قردة وشيوخهم خنازير، وقال رسول الله ﷺ يخاطبهم: «**يا إخوان القردة والخنازير**»(١).

وأما **قوله**: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ يعني: الذين بيدهم السلطة، وهم الذين ينفذون أمرهم، وكل هـٰذه الآيات في أهل الكتاب، ويتبين مراد المؤلف منها في مطابقتها للترجمة في ذكر حديث أبي سعيد ﵁ قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن**

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ لما قالت اليهود للنبي ﷺ: السام عليك، فردت عائشة ﵂ بهـٰذا القول: «السام عليكم يا إخوان القردة والخنازير».

مَنْ كان قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقذّة، حتىٰ لو دخلوا جُحْرَ ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن»؟ أخرجاه[1].

ولمسلم[2] عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوىٰ لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، ....

من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب؛ لدخلتموه» وسبق الكلام في هٰذا، وأن الرسول ﷺ خص جحر الضب لمعنىً فيه، فإذاً الشيء الذي فعله أهل الكتاب لا بد أن يقع في هٰذه الأمة لخبر النبي ﷺ بذٰلك. وبهٰذا يتبين كذب الذين يقولون: إنه لا يقع الشرك في هٰذه الأمة مع أن هٰذا مخالف للواقع، ومخالف للنصوص التي ذكرها ربنا ـ جل وعلا ـ، وبينها رسولنا ﷺ، وسبق أن قوله ﷺ وتمثيله في جحر الضب أنه من باب المبالغة؛ يعني: أن كل فعل فعله اليهود والنصارىٰ، فسوف يفعله بعض هٰذه الأمة، ولهٰذا لما استفسروا منه ﷺ أتريد اليهود والنصارىٰ؟ فقال: «فمن»؟ يعني: فمن أريد غيرهم؟ فهٰذا بيّن واضح.

وقوله: «لمسلم عن ثوبان ﷺ» ثوبان هو مولىٰ رسول الله ﷺ.

قوله ﷺ: «إن الله زوىٰ لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها» وزَوَيْتَ الشيء إذا جمعتَه، وكان بيدك تتصرف فيه، وزَوْيُ الأرضِ من آيات الله ـ جل وعلا ـ، حيث إنه كُشِفَ له، وصار ينظر إليها كأنه ينظر في مرآة. ومعنىٰ الزوي جمعت أطرافها له، فرأىٰ مشارقها ومغاربها؛ أي: رأىٰ كل ما سيبلغه ملك أمته، وهٰذا من إكرام الله له، أنه يقول: انظر إلىٰ ملك أمتك إلىٰ أين

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (٤٨٢٢). بلفظ: «شبراً بشبر، ذرعاً بذراع»، ولفظ «حذو القذة بالقذة» أخرجه أحمد (١٦٥١٢) من حديث شداد ﷺ.

(٢) «صحيح مسلم» (٥١٤٤).

وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمرَ والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسَنَةٍ بعامّة، ....

يبلغ، لهـٰذا قال: «**زوىٰ لي الأرض**» ولم يقل بعضها أو كذا وكذا، غير أنه ذكر المشارق والمغارب فقط، ولهـٰذا لم يمتد ملك أمته شمالاً وجنوباً، وإنما امتد شرقاً وغرباً حسبما أخبر ﷺ.

وقوله: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» الكنزان هما كنز كسرىٰ وقيصر، فالمقصود بالأحمر الذي يغلب عليه الذهب، والأبيض الذي يغلب عليه الجواهر والفضة، فيقال: الذي يغلب عليه الفضة هو كنز قيصر، وقيصر اسم لكل من ملك الروم من الكفار، كما أن كسرىٰ اسم لكل من ملك الفرس من الكفرة، كما أن النجاشي اسم لكل من ملك الحبشة، وفرعون اسم لكل من ملك القبط؛ لأن هـٰذه أسماء أجناس.

أما هـٰذا الخبر الذي يقول: «**وأعطيت الكنزين**» يعني: يقصد صلوات الله وسلامه عليه أن هـٰذا أعطيته أمته؛ لأن هذين الكنزين أنفقا في سبيل الله في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وجيء بتاج كسرىٰ الذي كان يلبسه إلىٰ المدينة، وألبس أعرابياً من أعراب المسلمين، وليس معنىٰ إلباسه إياه أنه وضعه عليه ملك له، وإنما حتىٰ يعتبر الناس كيف أنّ الذي ما كان أحد يجرئ أن يكلمه سُلب ملكُهُ، وجيء بتاجه الذي يوضع علىٰ رأسه، وأُلبِس من آحاد الأمة، وكذٰلك كنز الروم أنفق في سبيل الله في زمن عمر ﷺ.

وقوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة» السَّنة هي القحط الذي لا ينبت فيها شيء، ومعلوم أنه إذا منع الماء من السماء ولم ينبت زرعٌ أو كلأ؛ فإنها تموت البهائم، ويموت الناس، والباء هنا «**بعامة**» زائدة، ولهـٰذا جاء بعض الروايات بدونها «**بسنة عامة**»؛ يعني: تعم الأمة كلها، فهـٰذا لا ينافي أن يصيب بعضها سنة؛ يعني: قحط.

وألا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً».

قوله: «**وألا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم**» يعني: من الكفار «**فيستبيح بيضتهم**» بيضتهم يعني: معظمهم، وأكثر ما بأيديهم من أموال وغيرها.

قوله: «**وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء: فإنه لا يرد**»، ومعنىٰ هٰذا أن قضاء الله لا يتخلف بسبب دعاء يدعىٰ أو ما أشبه ذٰلك، ولٰكن لا يقال: إذاً فالدعاء لا فائدة فيه؛ لأن الدعاء من القضاء، فإن الله يقضي القضاء بأسبابه، فإذا وجدت أسبابه، وهو مقضي؛ وجد، وإذا لم توجد؛ لم يوجد، الله يعلم ما الذي يقع، ولا يقع إلا ما يشاء، ولا يقع إلا ما كتبه ـ جل وعلا ـ وقضاه أزلاً. «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة**» يعني: هٰذا الشيء قضاه الله وكتبه، أنهم لا يهلكون بسنة عامة، يعني: بقحط يعمهم كلهم، «**وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها**»؛ يعني: لو اجتمع الخلق كلهم الذين في الأرض؛ ما استطاعوا أن يستولوا عليهم جميعاً، ولا ينافي أن الكفار قد يستولون علىٰ جهة من جهات بلاد المسلمين، وإنما المقصود استباحة أكثرهم وأعظمهم؛ لأن بيضة القوم هي أعظمهم وأكثرهم، ولٰكن هٰذا مغياً بغاية، وهي قوله: «**حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضها**» فإذا وجد هٰذا؛ جاز أن يسلط عليهم عدواً يستبيحهم، ويأخذ ما بأيديهم ويقتلهم، كما حصل في الأندلس لمّا كان بعضهم يقتل بعضاً؛ سلط عليهم العدو فقتلوهم، وأخذوا بلادهم جميعاً.

ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «**وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبد فَئَام من أمتي الأوثان،** ....

قوله: «ورواه البرقاني في «صحيحه» وزاد: وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين» الأئمة المضلون هم العلماء والأمراء؛ لأنهم هم رؤساء الناس، فإذا ضلَّ العلماء؛ ضلَّ الناس كلهم، ولهـٰذا سماهم أئمة، ولم يقل: «أخاف المضلين» لأنه ليس كل مضلٍّ يضلُّ الأمة، وإنما يضلهم من كان له إمامة.

وقوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة» السيف وقع بقتل الخليفة عثمان ﷺ، فاستمر فيهم حتىٰ أصبح القتل فيهم لا يشبه القتال الذي سبق، فقتل منهم عشرات الآلاف في وقعة الجمل، ووقعة صفين، وغيرها، وكلّها بسبب مقتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ، وهـٰذا خبر من الرسول ﷺ، ولن يزال إلىٰ يوم القيامة، ولـٰكنه يكثر في وقت، ويقل في وقت، وهـٰذا مما قضاه الله ـ جل وعلا ـ.

وليس المعنىٰ أن المقضيَّ أمرٌ يرضىٰ به من ناحية العمل، فإن الإنسان مُؤاخذ بأفعاله، ولا يجوز أن يقدم علىٰ أمر يعلم أنه ممنوع منه شرعاً، فإن فعل ذٰلك؛ فاللوم عليه، والعذاب يكون لازماً له إلا أن يتوب، ويتوب الله عليه.

وقوله: «ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حيّ من أمتي المشركين» هـٰذا الشاهد الذي ساق المؤلف الحديث من أجله، والحي هم الجماعة؛ يعني: أن يرتدوا عن دينهم، ويصيروا مشركين.

وقوله: «وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان» الفئام الجماعات، يعني: ليس جماعة واحدة، وإنما جماعات، وهـٰذا صريح بأن الأوثان تعبدها أمة الإجابة الذين أجابوا؛ أي: فئام منهم.

وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ....

قال: «**وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي**» الدجالون الكذابون هٰؤلاء هم الذين يكون لهم تبع، أما مجرد دعوة يدعي أنه نبي، فهٰذا لا حصر له، وإنما المقصود أن يأتي كذاب مثل مسيلمة، والعنسي، ومثل غلام أحمد الخبيث الذي لا يزال له أتباع الآن، وله مجلات، وله قوة في دعوته، ويزعم أنه نبي، وغيرهم الكثير. وسيكون آخرهم المسيح الدجال، وهو آخر الكذابين الثلاثين؛ لأنه أول ما يخرج يزعم أنه مسلم، وأنه يريد أن يزيل الظلم والجور، فيتبعه الناس، فيدّعي أنه نبي، فيتركه من يتركه منهم، ثم بعد ذٰلك يدّعي أنه رب العالمين، ومعه فتن ومحن، ولهٰذا أمرنا رسولنا أن نستعيذ من فتنته في كل صلاة.

وقال ﷺ: «**إنه لم يأتِ للأرض فتنة أعظم من فتنة الدجال منذ أُهبط آدم إلىٰ الأرض**»، وأخبر ﷺ بقوله: «**من سمع به منكم فَلْيَنْأَ عنه**»[(١)]؛ يعني: يبعد، فإن الرجل يأتي إليه، وهو واثق من دينه، فلا يزال حتىٰ يتبعه؛ لأن معه أشياء عظيمة، يأتيه الرجل، ويقول له: أرأيت إن أحييت لك أباك وأمك؛ أتؤمن بي؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان، واحد بصورة أمه، والآخر بصورة أبيه، فيقولان له: اتبعه يا بني، فإنه ربك[(٢)].

ولٰكن ينبغي أن يعلم أن الرسول ﷺ لا يقول قولاً، أو يأمر بأمر لا يكون له معنىً؛ لأنه أمر أمته أن تستعيذ من فتنة الدجال في كل صلاة؛ لعظم ذٰلك، وهو يعلم أنه لا يخرج في أصحابه، ولهٰذا لـمّا ذكره، وخرجوا ينظرون، قال: «**ماذا تصنعون**»؟ قالوا: ننظر نخشىٰ أنه يكون في طائفة المدينة ـ والطائفة؛ أي: النخل ـ قال: «**لا، إن يخرج وأنا فيكم؛ فأنا حجيجه دونكم،**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٢٩٨) من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية ﷺ.

....

وإن يخرج ولست بها؛ فكل مسلم حجيج نفسه، والله خليفتي علىٰ كل مسلم»[١]؛ يعني: يعرف أنه لن يأتي في ذٰلك الوقت، فلماذا يأمر من كان في وقته أن يستعيذ من فتنته وهو يعلم أنهم سيموتون قبل خروجه؟ وهـٰذا طال زمنه، وليس هـٰذا بخافٍ عن رسول الله ﷺ.

الجواب أن الدجال يقصد به شيئان:

أحدهما الدجل وهو الكذب، والتزوير، وقلب الحقائق، وهـٰذا بدأ من وقته لمّا جاء ابن سبأ وغيره، فلبّس علىٰ كثير من الناس. وفي أيامنا هـٰذه زاد التلبيس، فأصبحت تسمع الإذاعات، والقنوات، والصحف؛ والكلام خلاف الواقع، يكذبون ثم يكررون الكذب حتىٰ يصدق، فهـٰذا من مقدمات الدجال؛ لأن سنة الله ـ جل وعلا ـ أن الأشياء لا تأتي بغتة، فلا بد أن يهيأ لها، ويوطأ لها، ثم تأتي، فالظاهر أن وقته ليس بعيداً؛ لأن العلامات والأمارات ظهر كثيرٌ منها.

وقد سئل أحد العلماء قبل ثمانين سنة تقريباً قيل له: خرجت آلة يُمَدُّ سلك من بلد إلىٰ آخر، فيكلم من في هـٰذا البلد الآخر، وهـٰذا أول ما خرج الهاتف.

فأجاب وقال: هـٰذه محدثة، وهو من مقدمات الدجال، وبعض الذين سمعوا الجواب لم يفهموا مقصوده، فوضحه، وقال: جاء في الحديث أن الناس في الأرض يسمعون بخروجه في وقت واحد، فكان أهل العلم يعتقدون أنه ينادي منادٍ من السماء أن الدجال خرج، فلمّا خرجت هـٰذه الآلة قربت المعنىٰ، فمعنىٰ ذٰلك أن الناس سيكون عندهم آلات توصل الكلام من مكان إلىٰ مكان بسرعة، والآن ولو حدث في مكان من الأرض حدث تناقلته الأخبار في وقت واحد كما هو معروف، فهـٰذا تصديق لما قاله النبي ﷺ: **«إذا خرج سُمع به في آن واحد»**[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان ﵁.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٨).

ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، ....

النوع الثاني هو الدجال، هو بعينه وشخصه، وهٰذا سيكون في آخر هٰذه الأمة، فإذاً المعتزلة والجهمية والمرجئة مثلاً معهم نوع من الدجال؛ لأنهم لبَّسوا علىٰ الناس دينهم، وكذبوا، وهٰكذا أهل البدع الذين يكون لهم أثر في الأمة في إغراقها وتركها دينها، هم داخلون في هٰذا، فأُمر بالاستعاذة من شرهم، ومن فتنتهم، فالإنسان قد يقع في فتنتهم، وفتنتُهم قد تكون أعظم من فتنة الدجال.

وجاء أنه لا يترك بلداً في الأرض إلا ويدخلها، إلا مكة والمدينة؛ فإن عليها ملائكة تذوده وتصده.

وجاء أنه يأتي إلىٰ سبخة في المدينة، وينصب خياماً، ثم يصعد علىٰ أحد، ويقول: انظروا إلىٰ قصر محمد، ذاك الأبيض يقصد مسجده(١).

وقوله: «**كلهم يزعم أنه نبي**» يزعم أي يكذب، وأولهم العنسي، وقد قتل في زمن الرسول ﷺ، وتبعه مسيلمة، فآمن به قومه بنو حنيفة، وقاتله الصحابة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وصارت مقتلة حتىٰ قتل من علماء الصحابة سبعون رجلاً، وهٰذا هو السبب في كون أبي بكر اقتنع برأي عمر وأمر بكتابة القرآن كله؛ خوفاً من ذهاب شيء منه.

وطليحة الأسدي تنبأ في بني أسد، وتبعه قومه علىٰ ذٰلك، وقاتله الصحابة، ثم تاب وعاد إلىٰ الإسلام، ثم تتابع الدجالون بعد ذٰلك. ولٰكن المقصود الذي يكون له قوة من هٰؤلاء.

وقوله: «**ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة**»؛ يعني: كما سبق أن الحق يبقىٰ ظاهراً لا خفىٰ فيه، وإن كانت هٰذه الطائفة قد تقل وقد تكثر، وقد تتوزع في البلاد، وقد تنتقل من بلد إلىٰ آخر.

وقد جاء في «صحيح البخاري» في رواية معاذ بن جبل رضي الله عنه أنهم في

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٣٨).

لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله تبارك وتعالىٰ»[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النساء. **الثانية**: تفسير آية المائدة. **الثالثة**:

الشام، والشام اسم لمنطقة كبيرة يدخل فيها الأردن، وفلسطين، وسوريا، وبعض البلاد الأخرىٰ، ولا يلزم أن تكون دائماً، وقد يكون هٰذا في وقت من الأوقات كما قال العلماء.

وقوله: «**لا يضرهم من خذلهم**» الخذلان يكون من جنسهم؛ أي: أصحابهم الذين مثلهم علىٰ عقيدتهم يخذلونهم؛ فلا يساعدونهم، ولا ينصرونهم.

قال: «**ولا من خالفهم**» المخالفة تكون في العقيدة، وفي الدين؛ يعني: أن الناس كلهم لا ينصرونهم، فيبقون علىٰ الحق.

وقوله: «**حتىٰ يأتي أمر الله تبارك وتعالىٰ**» المقصود بأمر الله: قيل: إنه الساعة. وقيل: إنه الريح التي تهب من قِبَلِ اليمن، ويموت بها كل مؤمن ومؤمنة.

وقوله: «**تبارك وتعالىٰ**» تبارك؛ أي: تعاظم، وتعالىٰ؛ أي: علا وتقدس ذاتاً، وقدراً، وصفاتٍ، وتبارك لا يجوز أن يطلق علىٰ غير الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ، فلا يقال تبارك بكذا، ونتبارك بكذا؛ ومن الخطأ أن يقال نتبارك بكذا، وتباركنا بفلان.

قوله: «**تفسير آية النساء**» يشير إلىٰ سبب النزول في الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يقول: إنهم مجرد موافقة للكفار مع اعتقادهم أنهم علىٰ باطل، فجعل هٰذا إيماناً بالجبت والطاغوت. هٰذا يجب أن يفهم؛ لأن موافقة أصحاب الباطل ـ ولو ظاهراً ـ تجعل الإنسان منهم نسأل الله السلامة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٤٥)، وبنحوه أبو داود (٣٧٠١).

تفسير آية الكهف. **الرابعة** ـ وهي من أهمها ـ: ما معنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت في هٰذا الموضع؟ هل هو اعتقاد قلب؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدىٰ سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة: أن هٰذا لا بد أن يوجد في هٰذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد. **السابعة**: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هٰذه الأمة في جموع كثيرة. **الثامنة**: العجب العجاب خروج من يدّعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هٰذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هٰذا يصدق في هٰذا كله مع التضاد الواضح. وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

قوله: «قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدىٰ سبيلاً من المؤمنين» يعني: هٰذا قول هٰؤلاء اليهود ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وكذٰلك الذي يفضل دين المشركين علىٰ دين الإسلام هٰذا حكمه، يكون قد ضلَّ وكفر.

قوله: «وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة» المختار بن أبي عبيد الثقفي أول ما بدأ صار يقول: سوف أثأر لقتل الحسين وآل البيت، فتتبع من قتل الحسين، وقتلهم، فأحبه الناس، واتبعوه، ثم بعد ذٰلك ادعىٰ أنه نبي، وبقي متبعاً له جماعات علىٰ هٰذا، وقد أخبر بذٰلك رسول الله ﷺ، وقال: **«إن في ثقيف كذاباً ومبيراً»**[1] الكذاب هو هٰذا المختار بن أبي عبيد، أما المبير فهو الحجاج بن يوسف؛ لأنه أكثر القتل في الأمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦١٧).

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضىٰ، بل لا تزال عليه طائفة. **العاشرة**: الآية العظمىٰ أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذٰلك الشرط إلىٰ قيام الساعة. **الثانية عشرة**: ما فيه من الآيات العظيمة، منها: إخباره بأن الله زوىٰ له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنىٰ ذٰلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، وخوفه علىٰ أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هـٰذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هـٰذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول.

قوله: «**بل لا تزال عليه طائفة**» يدل علىٰ أنهم قليلون، ومع ذٰلك «**لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم**» من أصحابهم، ومعنىٰ أنه لا يضرهم أنهم باقون علىٰ الحق، ولا يلزم ـ كما مضىٰ ـ أن يكونوا ظاهرين، وإنما هـٰذا يدل علىٰ أنهم يتمسكون بالحق، وإن قتلوا، وإن ماتوا عليه، فمن مات علىٰ الحق؛ فقد نصر، ولـٰكن ليس هـٰذا الذي يعطيه المعنىٰ كله، فقد تكون الطائفة كبيرة، وقد يكون لها قوة وصولة، كما وقع في الأمة، فإنها أحياناً يكون لها قوة وجيش يقاتل في سبيل الله، ويغزو العدو، وأحياناً تضعف، ولا شك أن هـٰذه الطائفة باقية إلىٰ قيام الساعة، فإن الحق لا يزول، ولا يضمحل، ولا بد أن تبقىٰ حجة الله علىٰ العباد.

قوله: «**وكل هـٰذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول**» يعني: عقول الناس؛ لأن هـٰذه إخبارات عن أمور واقعة، والتي

الثالثة عشرة: حصر الخوف علىٰ أمته من الأئمة المضلين.
الرابعة عشرة: التنبيه علىٰ معنىٰ عبادة الأوثان.

يستبعدها الناس اليوم، يقول: كيف بعض المسلمين يهلك بعضهم بعضاً؟ وكيف الرجل الذي يكون عنده عقل يدعي أنه نبي مع أن في نصوص القرآن ما يكذبه، وكيف يُتَّبع ويُصدَّق والقرآن فيه أن محمداً خاتم النبيين؟ خاتم ليس بعده نبي.

قوله: «**التنبيه علىٰ معنىٰ عبادة الأوثان**» ومعناها الرضىٰ بعبادتها، ولو لم يعبدها الإنسان، ويسجد لها؛ فهي عامة.

باب
ما جاء في السحر

....

السحر في اللغة: هو ما خفي سببه ولَطُفَ، وكل ما خفي سببه ولطف يسمىٰ سحراً، ولهٰذا يُسمىٰ البيان سحراً؛ لأن الإنسان الذي يُعطىٰ الفصاحةَ والبلاغة قد يغطي علىٰ الحق، ويجعل الباطل هو المقبول.

والسحر يعرفه العلماء: بأنه رُقىً وعزائمُ بواسطة الشيطان تؤثر في المسحور، وقد تمرضه، وقد تقتله، وكلها بإذن الله الكوني القدري، لا يقع شيء إلا بإذن الله تعالىٰ.

وينقسم السحر إلىٰ قسمين:

القسم الأول: ما يطلق عليه سحر؛ لأنه يشابه السحر، كالنميمة، وكالنظر في النجوم.

القسم الثاني: هو السحر الحقيقي الذي لا يكون إلا بواسطة الشياطين؛ فهٰذا بعلاجات، ودخان، وعزائم، وطلاسم، ولٰكن بواسطة الشيطان؛ لأن الشياطين هي التي تذهب إلىٰ المريض أو المسحور وتوقع فيه هٰذا الشيء.

وكل ذٰلك عندما يسجد الساحر للشيطان، ويعبده، أو يذبح له شيئاً أو يكفر بسبِّ الله، أو سبِّ رسوله، أو بإهانة كتابه، أو ما أشبه ذٰلك مما يفعله السحرة، وهٰذا ظاهر في أفعالهم.

وقد كثر السحر في هٰذه الأيام بواسطة العمال والخادمات وغيرهم، وصار بعض الناس يتعلم السحر، ثم زاد الأمر شراً بنشره، وصارت له قنوات تنشره بين الناس.

والسحر علم، ولٰكنه لا يكون إلا بواسطة الشياطين، وقد يلبّسون علىٰ الناس، ويأتون بأشياء هي تلبيسات، مثل ما يسمونه قراءة البن، أو قراءة

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

الكف، أو النظر في المولد، والطالع كذا وكذا، ويموهون علىٰ الناس في ذٰلك، وهم في الواقع يتبعون في ذٰلك الشياطين الذين يضلون الناس، وتأتيهم بأشياء تخبرهم ببعض الشيء، ولهٰذا كثير منهم يسأل عن اسم الأم واسم الأب، حتىٰ يخبر الشيطان، ويقول: اذهب إلىٰ فلان أو إلىٰ فلان.

قال: «وقول الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ الذي ليس له في الآخرة من خلاق يكون كافراً، ومقصوده بهٰذا أن يبين أن السحر منافٍ للتوحيد؛ لأنه شرك بالله ـ جل وعلا ـ، وكفر به، كما أن ادعاء النبوة في الباب السابق أو عبادة الأوثان منافٍ للتوحيد؛ فكل هٰذا ـ كما قال سابقاً ـ هو من تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ لأن التفسير يكون بالضد، وهٰذا في الآية التي ذكرها الله ـ جل وعلا ـ من أن اليهود اتبعوا ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والشياطين كَذَبَتْ علىٰ سليمان، وقالت: إنه سَخَّرَ ملوك الجن بالسحر، وكان ساحراً، فصارت اليهود تعتقد أن سليمان ساحرٌ ـ قاتلهم الله ـ فنفىٰ ربنا ـ جل وعلا ـ ذٰلك، وأخبر أن السحر كُفْرٌ، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قالوا: إن الملكين هما ملكان امتحنا لتعليم الناس السحر.

وفي الآية أنهما إذا أتاهما آتٍ قالا له: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي: لا تكفر في تعلم السحر، وفيها عدة مواضع تدل علىٰ أن السحر كفر، وهٰذا مقصوده أن يبين أن السحر كفر؛ لأنه شرك بالله، ومحاربة له.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] تقدم في الباب الذي قبل هٰذا أن الجبت يدخل فيه السحر والشرك والأوثان وغيرها، فالجبت كلمة

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان(١).

وقال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«اجتنبوا السبع الموبقات»** ....

تجمع الشرّ كله، والمفسرون من السلف قد يعنون بعض المقصود بالنص لحاجة السائل؛ ولا ينافي شمول النص للمعاني كلها.

وأما **قول عمر**: **«الجبت: السحر»**؛ فمقصوده أن السحر داخل فيه.

وكذٰلك **قوله**: **«الطاغوت: الشيطان»** مقصوده أن الشيطان هو الذي يأمر الناس، فيكفرون ويعبدون غير الله، وإلا الطاغوت أعمّ من هٰذا.

وأما قول جابر؛ فالكهان الذين يخبرون بالغيوب والمستقبلات، وذٰلك بواسطة الشياطين، فإذاً الكاهن الذي يدّعي علم الغيب يكون قد كفر بالله ـ جل وعلا ـ كما جاء التصريح بذٰلك أن مدعي علم الغيب يكون من الطواغيت.

وقوله: **«في كل حي واحد»**؛ يعني: من أحياء العرب، فكانوا يفتخرون بالكهان، فإذا وجد فيهم كاهن كانوا يتحاكمون إليه، ويسألونه، ويفتخرون به، وهو منافٍ لدين الله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه يطيع الشيطان، ويعبده ويدّعي معرفة الأمور الغيبية، وهي في الواقع تختلف باختلاف الناس لأن هٰذا قد يغيب عن إنسان ويعرفه الشيطان في مكان آخر، فيأتي ويخبره، فإذا أخبر به قال: إنه يعلم الغيب.

قوله: **«اجتنبوا السبع الموبقات»** الموبق هو المهلك الذي يهلك صاحبه بعذاب أو بالنار، وأوبقه إذا أهلكه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» معلقاً في كتاب التفسير مجزوماً به (٣/ ٢١٧).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٤٦)، وانظر التخريج السابق.

قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(١).

والسبع هٰذه بدأها بالشرك، **فقال**: «**الشرك بالله**» ثم أتبعه «**السحر**»، فالسحر من الموبقات، وهي قد تكون كفراً، وقد تكون دون الكفر، فالشرك كفر بالله ـ جل وعلا ـ، وكذٰلك السحر.

الثالثة: «**قتل النفس بغير حق**» قتل النفس من أعظم الموبقات، وإن لم يكن ذٰلك كفراً بالله ـ جل وعلا ـ، ولٰكنه قد لعن فاعله، فقال ﷻ: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣]، فهو أمر عظيم جداً، واستثنىٰ القتل بالحق، كالقاتل مثلاً يُقتل، وكالذي يزني وهو محصن يُقتل، فهٰذا بحق؛ فالذي يلزم قتله شرعاً لا يدخل في ذٰلك.

قوله: «**وأكل الربا**» فأكل الربا من الموبقات التي توبق صاحبها في النار، والربا سمي بالربا؛ لأنه يأخذ بالزيادة؛ ومعنى ربا يربو إذا زاد، وهو المبادلات في أشياء متجانسة، وله أنواع كثيرة جداً.

قوله: «**وأكل مال اليتيم**» وقد جاء النص في كتاب الله ـ جل وعلا ـ علىٰ الربا وأكل مال اليتيم أن صاحبها في النار.

قوله: «**والتولي يوم الزحف**»؛ يعني: الانهزام، والزحف هو مقابلة الكفار للمسلمين في القتال، فمن انهزم في هٰذا المكان إلا بشرطه؛ فإنه متوعد بالنار، والشرط أنه يستعد للقتال أو أنه ينحاز إلىٰ طائفة أخرىٰ من المقاتلين. أما إذا كان انهزامه لأجل خوفه من الموت ورغبته في الحياة؛ فهٰذا الذي يتوعد أنه في النار.

قوله: «**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**» المحصنات يقصد بها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

وعن جندب مرفوعاً: «**حد الساحر ضربةٌ بالسيف**» رواه الترمذي[١]، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي «صحيح البخاري» عن بَجَالَةَ بن عَبَدَةَ قال: كتب عمر بن

العفيفات، وتطلق المحصنات علىٰ المتزوجات، ووصفهن بالغافلات؛ لأنهن لا يفكرن بالفاحشة، غافلات عنها؛ لكونهن مستقيمات، ولا يفعلن شيئاً مما يخالف الحق، وهٰذا؛ لأن الغالب هٰكذا.

فإذا قُذفت المرأة، وكانت غافلة عن ذٰلك؛ فهي من عظائم الذنوب، وكبائر الذنوب، ويلزم قاذفَها الحد.

أما **قوله**: «**المؤمنات**» فيخرج بذٰلك الكافرات، فالكافرات إذا قُذفن بالزنىٰ؛ فليس علىٰ قذفهن حد، ولٰكنه لا يجوز إلا إذا كان ذٰلك واقعاً.

والشاهد في ذكر هٰذا الحديث أنه ذكر السحر من الموبقات.

أما **قوله**: «**عن جندب**» هو جندب بن عبد الله، قول النبي ﷺ: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»: يعني: أنه يقتل، وهٰذا الذي عليه جمهور العلماء؛ أن الواجب أنه يقتل، فحده القتل؛ لأنه مرتد إذا كان مسلماً، وإن لم يكن مسلماً؛ فهو يفسد الناس، ويفسد العقول.

من أنواع السحر التي ذكرها الله ـ جل وعلا ـ عن سحرة فرعون ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وبهٰذا احتج المعتزلة أن السحر تخييل، وليس كذٰلك إنما هٰذا نوع منه، وإلا فالسحر له حقائق، يُمرض، ويقتل، وقد سحر النبي ﷺ حتىٰ صار يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، كما قالت عائشة حتىٰ دعا ربه، فشفاه الله ـ جل وعلا ـ، سحره اليهود، وحاولوا قتله في عدة أشياء، حاولوا قتله بالسمّ، وحاولوا قتله بالسحر، وحاولوا قتله بإلقاء الرحىٰ عليه.

قوله: «**بجالة**» كان أميراً في بعض الجهات لعمر رضي الله عنه.

---

(١) «الجامع» (١٤٦٠).

الخطاب: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[١].

وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت[٢]، وكذلك صح عن جندب[٣].

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ[٤].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية البقرة. **الثانية**: تفسير آية النساء. **الثالثة**:

قال: «**فقتلنا ثلاث سواحر**»؛ يعني: ثلاث نساء.

قوله: «**وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت**» كان لها جارية، فأعتقتها من دُبر، قالت: إذا مت فأنت عتيقة، فاستبطأت موتها، فسحرتها حتىٰ تموت لِتَعْتِقَ، فأمرت بها فقتلت.

قوله: «**وكذٰلك صح عن جندب. قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ**» الثلاثة هم عمر، وابنته حفصة زوج النبي ﷺ، وجندب، وصحّ أنهم أمروا بقتل الساحر، وقتلوه، وهٰذا هو الصحيح من أقوال العلماء، أن حد الساحر القتل.

والشاهد من الباب أن السحر ينافي التوحيد، فمن سَحَر، أو رضي بالسحر وسُحر له؛ فهو إما أنه خرج من التوحيد نهائياً، أو أنه أتىٰ بما يقدح فيه قدحاً بليغاً إذا كان لم يفعله، أما إذا فعل السحر؛ فلا ينفك عن الشرك، وهو عبادة الشيطان.

---

(١) أخرجه أحمد مطولاً (٦٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٥)، وأخرجه البخاري (٢٩٨٧) مختصراً من غير ذكر الأمر بقتل الساحر والساحرة.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٨٠).
(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ١١٤)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).
(٤) نقله عنه ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٤٥).

تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما. **الرابعة**: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس. **الخامسة**: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي. **السادسة**: أن الساحر يكفر. **السابعة**: أنه يقتل ولا يستتاب. **الثامنة**: وجود هٰذا في المسلمين علىٰ عهد عمر، فكيف بعده؟

قوله: أنه يقتل ولا يستتاب» لأن السحر لا يتاب منه؛ لأنه تعلم وعبادة للشيطان، والصحابة لم يستتيبوا ساحراً. وجاء أيضاً قتله عن عدد من الأئمة، وكونه في المسلمين هٰذا هو الواقع، يكون كثيراً، وقصده أنه لا ينكر وجوده في المسلمين، فإنه وإن كان في المسلمين؛ فإنه يدل علىٰ الكفر، فمن فعله فهو كافر.

باب
بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حَيّانَ بن العلاء، حدثنا قَطَنُ بن قَبِيصة، عن أبيه أنه سمع النبي قال: «**إن العِيافةَ والطَّرْق والطِّيَرة من الجبت**»(١).

قال عوف: «العيافة: زجر الطير. والطَّرْق: الخط يخط بالأرض». ....

قال: «**باب بيان شيء من أنواع السحر**» ومقصوده بهٰذا أن هناك أموراً تلحق بالسحر وإن لم تكن سحراً حقيقياً، فما كان نظير الشيء؛ فله حكمه، ولا يلزم أن يكون مماثلاً له في الحكم، ولا في الصفة، والأثر من كل وجه.

ثم ذكر الحديث من رواية أحمد بسنده عن قبيصة عن أبيه أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «**إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت**» فسّر عوفٌ العيافة بأنها «**زجر الطير**» وزجره؛ أي: إطارته لينظر طيرانه، ويسمع نعيبه، أو ما أشبه ذٰلك، فيحكم علىٰ ذٰلك بأنه سيقع كذا وكذا، يعني الطيرة.

والعيافة هي الطيرة التي كانت ظاهرة عند العرب يفعلونها، وهي الاستدلال علىٰ المستقبل بطيران الطير، أو بصوته، أو ما أشبه ذٰلك من الحيوانات، وكانوا يتطيرون بأشياء معينة، مثل: الغراب، والبومة، ويتشاءمون بها أشدَّ التشاؤم، وكذٰلك الأرنب، وغيرها من الدواب التي كانوا يفعلون بها ذٰلك، فيقصدون هٰذا. وهٰذا نوع من الشرك؛ لأن هٰذه الأشياء ليس عندها شيء من التدبير وعلم المستقبل ولا غيره، وإنما هي أمور يلقيها الشيطان في نفوسهم، وسيأتي الكلام ـ إن شاء الله ـ في الطيرة.

أما «**الطرق**» يقول: «**الطرق الخط يخط بالأرض**»؛ يعني: الخطوط التي

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٢٢).

والجبت، قال الحسن: «رنة الشيطان». إسناده جيد، ولأبي داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، المسند منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ....

يستدل بها على المستقبل أو على الغائب، وهي نوع من الكهانة أيضاً، وقد سئل النبي عن ذلك، فقال: **«كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك»**[1]، وهذا كان ولا يزال يستعمله بعض الناس، فيخطون خطوطاً، ثم يحكمون بأن الغائب كذا وكذا حصل له كذا، ويحصل له كذا، أو أن الذي خُط له يكون له كذا، وكله حدس وتخمين وحكم على الغيب بلا علم، فمن عملها فقد وقع في أمر عظيم، حيث ادعى علم الغيب.

وأما الجبت؛ فقال الحسن: **«رنة الشيطان»** رنة الشيطان هي صوته بحزن، وإذا صوت بحزن؛ فإنه يكون له أثر خبيث للاجتهاد في إضلال الناس وإفسادهم.

وقد جاء أنه رنَّ عدة مرات: رن لمّا لُعن وأهبط، ورنَّ لما ولد النبي ﷺ، ورنَّ لما رأى الملائكة تنزل لنصرة المسلمين في بدر، فإذاً رنينه هو حزنه، وصوته بحزن على أنه رأى ما يغيظه. **«رنة الشيطان»** أنه إذا رنَّ جمع جنوده، وحضهم على إضلال الناس، ولكن هذا جزء من المعنى، وتقدم أن الجبت يطلق على السحر، وعلى الكهانة، وعلى الأوثان، وغيرها، ويكون هذا منه وداخل فيه.

أما **قوله: «من اقتبس شعبة من النجوم»** فمعناه أن الذي ينظر في النجوم، ويستدل بها على المغيبات وعلى الحوادث؛ فقد وقع في نوع من أنواع السحر، وهو يدل على تحريمه، وسيأتي إن شاء الله الكلام في النجوم، وأن التنجيم ينقسم إلى قسمين؛ يعني: النظر في النجوم، وأنها تطلع في وقت كذا، وتغيب في وقت كذا، وأنها يختلف الزمن في نجوم الصيف والشتاء،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

«من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

وللنسائي من حديث أبي هريرة ﷺ: **«من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر، ومن سحر؛ فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً؛ وكل إليه»**(١).

وكذٰلك كون الإنسان ينظر إليها ويستدل عليها بجهات، وما أشبه ذٰلك.

ولقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ الحكمة في خلق النجوم، أنها زينة للسماء، وعلامات يهتدىٰ بها، ورجوم للشياطين، ولا يجوز أن يعتقد غير هٰذا.

وقوله: «**اقتبس شعبة من السحر**»؛ يعني: أن هٰذا نوع من السحر، حيث يستدل بما يراه من النجوم على أنه يحصل كذا وكذا.

وقوله: «**زاد ما زاد**»؛ يعني: كلما زاد اقتباسه؛ زاد في الشر والسحر.

وقوله: «**من عقد عقدة، ثم نفث فيها: فقد سحر**» لأنه تشبه بالساحر؛ لأن السحرة يعقدون الخيوط، ويأخذ الحبل، فيعقد فيه، ثم ينفث إشارة إلىٰ أن ما يريد ينعقد بالساحر، ولٰكن هٰذا النفث، وهٰذا القصد بواسطة الشيطان، فينعقد ما أراده بقدرة الله وبمشيئته الكونية، فمن تشبه به؛ فقد وقع بشيء من السحر، فإن المتشبه به إما أن يكون معجباً بأمره، وراضياً به؛ فيكون له حكمه، أو أن يكون يريد أن يتعلم ذٰلك لعله يتفق له ما يريد كما يفعله بعض الناس عند أمور معينة يأخذون الخيوط ويعقدون حتىٰ ينعقد ما يريدون، فهٰذا يكون قد وقع بالسحر؛ لأنه لو لم يعلم فهو يتمنىٰ أن يكون كذٰلك، ويريد ذٰلك.

ويقول: «**ومن سحر: فقد أشرك**»؛ يعني: من وقع في السحر؛ فقد وقع في الشرك؛ يعني: من تعلمه؛ فهو مشرك.

قوله: «**ومن تعلق شيئاً: وكل إليه**»؛ لأن من تعلق علىٰ شيطان أو علىٰ كهانة أو غيرها؛ وكله الله إليها، ومن وكل إليه؛ فقد هلك.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٧٩).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**ألا هل أنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة، القالة بين الناس**» رواه مسلم(١).

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: «**إن من البيان لسحراً**»(٢).

قوله: «**العضه**» يطلق على السحر، والنميمة شبيهةٌ بالسحر، والنميمة هي نقل الحديث على وجه الإفساد؛ لأنها تفسد أكثر مما يفسده الساحر.

وقد جاء في الحديث: «**لا يدخل الجنة قتات**»(٣) والقتات هو النمام، ويدخل في ذلك أيضاً الغيبة، وإن كانت أقلَّ، والغيبة هي الكلام في الناس في غيبتهم، وإذا كان الكلام في أهل العلم وطلبة العلم؛ فهو أشدُّ وأعظم. وقد صار الآن كثيراً من الناس هذا ديدنه، وهذه عادته، فتجده يقول: فلان فيه كذا، وفلان فيه كذا، وفلان من النهج الفلاني، وهكذا.

والمصيبة أن هذا يقع من طلبة العلم، فكان من شأنهم أنهم يصنفون الناس، ولا سيما المشايخ، فتجدهم إذا جلسوا هكذا يصنعون، وقد يكون ذلك في المجلس العام.

وإذا رأيت الإنسان يتكلم في الناس؛ فارفع يدك عنه، واعلم أنه مخذول، وأنه لن يوفق ـ نسأل الله السلامة ـ؛ لأن هذا أمر مجرب، ولا خير فيمن يتكلم في غيبة الناس؛ لأن هذا أمر من أعظم المحرمات، وقد صوره الله ـ جل وعلا ـ بأسوأ ما يكون، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] هذا من أبشع الأشياء، فالكلام فيه من هذا القبيل، أكل من لحمه، فيجب على العبد أن يبتعد عن هذا، ويصون لسانه عن ذلك.

وقوله ﷺ: «**ولهما**»؛ يعني: لمسلم والبخاري «**عن ابن عمر أن رسول الله** ﷺ **قال: إن من البيان لسحراً**» هذا الحديث تنازعه أهل الحديث

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥١).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٩).

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن العِيافة والطَّرْقَ والطِّيَرَة من الجبت. **الثانية**: تفسير العيافة والطَّرْق. **الثالثة**: أن علم النجوم نوع من السحر. **الرابعة**: أن العقد مع النفث من ذٰلك. **الخامسة**: أن النميمة من ذٰلك. **السادسة**: أن من ذٰلك بعض الفصاحة.

وأهل الأدب، فأهل الأدب قالوا: هو على سبيل المدح، وخرج مخرج المدح، فيقولون: إنه يمدحه، فقال: البيان سحر أي كالسحر؛ يعني: مدحاً له.

أما علماء الحديث؛ فيقولون: إنه على سبيل الذم؛ لأن المقصود به أن البيان الذي يغطي علىٰ الحق ويظهر الباطل هو نوع من السحر، وهٰذا هو المقصود، وسبب قول الرسول ﷺ ظاهر بأنه يريد ذٰلك، فمعنىٰ هٰذا أن الفصاحة والبلاغة إذا استعملت في إظهار الباطل وإخفاء الحق أنها نوع من السحر، ويكون صاحبها ملحقاً به[1].

---

(١) أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٦٦٤٥) عن ابن عباس ﷺ قال: جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان، فقال: يا رسول الله، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب فيهم، أمنعهم من الظلم، فآخذ لهم بحقوقهم، وهٰذا يعلم ذاك ـ يعني: عمرو بن الأهتم ـ، فقال عمرو بن الأهتم: والله يا رسول الله، إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في ناديه.
قال الزبرقان: والله يا رسول الله، لقد علم مني غير ما قال، وما منعه أن يتكلم به إلا الحسد.
قال عمرو: أنا أحسدك؟ فوالله إنك لئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيع في العشيرة، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت آخراً، لٰكني رجل رضيت؛ قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت؛ قلت أقبح ما وجدت، ووالله لقد صدقت في الأمرين جميعاً، فقال النبي ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**».

باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

روىٰ مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«من أتىٰ عرّافاً فسأله عن شيء، فصدقه؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**(١).

قال رحمه الله: **«باب ما جاء في الكهان ونحوهم»**؛ يعني: ما جاء من الوعيد ومِنْ حُكْمِهم، هل هم كفار أو مشركون؛ لأنهم يأتون بما يناقض التوحيد، ونحو الكهان العراف، والرمال، والحادس، ومن يسلك هٰذا المسلك.

والكُهّان من الكهانة، وهي تعاطي علم الغيب، وكل من تعاطىٰ علم الغيب بطرق كاذبة حديثة ظنية بعيدة عن الواقع؛ فهو داخل في ذٰلك، كالذي يتكلم عما في الضمائر، وعما في المستقبل، وما أشبه ذٰلك من الذين يحدثون ويظنون، ويقولون علىٰ الله ما لا يعلمون، ينسبون أنفسهم أنهم يعرفون ما في الكون وما في الغيب.

وفي رواية: **«من أتىٰ عرّافاً لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»** بدون قوله: **«صدّقه»**، وإذا لم تقبل له صلاة، فقد أتىٰ باباً عظيماً من أبواب الضلال، وهو منافٍ لكمال التوحيد إن لم يكن منافياً له. والعراف يطلق علىٰ الكاهن.

وقوله: **«من أتىٰ»**؛ يعني: من ذهب إليه، أو من نظر في حاله، وفيما يفعله، وإن لم يأتِ إليه، فالمقصود الذي ينظر إليه، ويعجبه ما هو فيه.

أما التصديق؛ فمعنىٰ ذٰلك أنه يصدق بأنه يعرف، وأنه يعلم الغيب، أما الإتيان؛ فهو عنده ظن وشك، هل يعلم أو لا يعلم، فيأتي إليه وينظر، وهٰذا

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٤١)، ومسلم (٤١٣٧) بدون زيادة «فصدقه» من حديث صفية رضي الله عنها.

. . . .

لا يجوز، والواجب أن يجزم جزماً بأنه لا يعرف شيئاً من علم الغيب، فعلم الغيب مختص بالله ـ جل وعلا ـ.

والرواية الأخرىٰ جعل مجرد الإتيان إليه مرتباً عليه العذاب، ذٰلك واقع موقعه، ويراد بقوله: «**لم تقبل له صلاة**» أنه لا يثاب عليها.

وكونه حدده بأربعين يوماً؛ هٰذا شيء لا نعلم حكمته، فعلمه عند الله ـ جل وعلا ـ، التحديدات التي تأتي بمثل هٰذه أمرها إلىٰ علام الغيوب الذي أنزلها وأمر رسوله ﷺ أن يقولها، ولٰكنه يدل علىٰ أنه ارتكب جرماً، وجعل مجرد الإتيان في هٰذا يترتب عليه عدم قبول الصلاة بهٰذه المدة.

ومجرد مضي المدة لا يكفي، فلا بد من التوبة من عمله، ولا يأتي إلىٰ الكاهن.

أما إذا استمر علىٰ أنه يجوز إذا تهيأت له الأمور أن يأتي إليه؛ فهو غير تائب، وكل ذنب يجب علىٰ العبد أن يتوب منه، ولٰكن يجب أن يعلم أن التوبة فيها ما هو واجب، وفيها ما هو مستحب.

فالتوبة الواجبة تكون من تَرْكِ واجب، أو فِعْلِ محرم، فكل من تَرَكَ واجباً أو فعل محرماً؛ فإنه يجب عليه أن يتوب، وإن لم يتب؛ فهٰذا ذنب آخر؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، فأمر أن تكون التوبة نصوحاً.

والتوبة النصوح مأخوذة من النصح، وهي تصفية الشيء، ويقول العلماء: إن التوبة النصوح التي تشتمل علىٰ شروط ثلاثة:

الشرط الأول: الإقلاع عن الذنب وتركه.

الشرط الثاني: العزم علىٰ أنه لا يعود له.

الشرط الثالث: الندم، وهو ألم القلب، وحزنه علىٰ أنه وقع في هٰذا الشيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ**» رواه أبو داود[١].

أما الشروط الأخرىٰ: أن تكون التوبة في حياته قبل أن يأتيه الموت، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها؛ فذكرها غير لازم؛ لأن هٰذا أمر معلوم.

قوله: «**فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**» هنا قال: إنه قد كفر، وفي الأُولىٰ: «لم تقبل له صلاة»، ولا يكون بين هٰذا وهٰذا تعارض؛ لأن **قوله**: «**لا تقبل له صلاة**» ليس فيه نفي أنه لا يكفر، مع أن بعض العلماء يرىٰ أن الحديث الذي في «صحيح مسلم» أنه ليس فيه «**فصدقه**»، فيكون عدم قبول الصلاة لمن لم يصدق، والكفر لمن صدّقه. وكفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ؛ يعني الذي أنزل عليه هو القرآن والسنة، بل هو الشرع الذي جاء به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وهٰذا يدل علىٰ أن تعاطي الكهانة منافٍ للإيمان.

وكذٰلك من يرضىٰ بها ويصدق يكون خارجاً عن الدين الإسلامي في ظاهر اللفظ، فإذا كان كذٰلك؛ فهٰذا منافٍ للتوحيد، وإن كان هٰذا يقصد به الزجر والوعيد بدون الردة؛ فأقل ما يقال فيه أنه جاء بما ينافي كمال التوحيد الواجب الذي ينجو به، وهو لا ينجو إلا بهٰذا، فإذا لم يأتِ به؛ فهو معرض لعقاب الله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا أقل ما يقال فيه.

وقد جاءت زيادة في هٰذا في بعض الروايات، وهي قوله: «**ومن أتىٰ امرأة في دبرها؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**»[٢]، وقد ضعفوا هٰذه الرواية، ولٰكن لها شواهد كثيرة.

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٩٧٧٩)، والترمذي (١٢٥)، وابن ماجه (٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد**».

وللأربعة، والحاكم - وقال: «صحيح على شرطهما» - عن أبي هريرة: **«من أتى عرّافاً، أو كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**(١). ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفاً(٢).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: **«ليس منا من تَطَيَّر .....**

وقوله: «من أتى عرّافاً، أو كاهناً» عطف الكاهن على العراف، فيكون العراف هو الذي يستدل على المغيّب بمقدمات، كالخط الذي يخطه في الرمل، أو الضرب بالحصى، أو ما أشبه ذلك، وكل هذه نوع من الكهانة، ولهذا عطفه على الكاهن.

أما الكاهن؛ فهو الذي يأتيه الشيطان، ويكون له قرين من الشياطين يخبره بما غاب عنه، أو عن أمثاله، مع أن الشياطين لا تعلم الغيب، ولكنها تَطَّلع على ما لا يطلع عليه بنو آدم.

ومعلوم أن الشيطان لا يأتي لإخبار الإنسان بما يريد عمله، وأن يعمل له ما يريد إلا إذا عبده وكفر بالله - جل وعلا -؛ لأنه عدو الإنسان، فهو يريد أن يكون معه في النار، وهذا هو الذي يسعى إليه الشيطان.

والشيطان: اسم جنس يدخل فيه جميع الشياطين.

وقوله: «ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً»؛ يعني: مثل هذا اللفظ، وهذا يكون شاهداً له.

قوله: «ليس منّا من تطير» التطير سيأتي الكلام عليه، وهو الاستدلال بفعل الطير أو بصوته على ما سيقع، وهو من الشرك؛ لأنه جاء في الحديث:

---

(١) أخرجه أحمد (٩١٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٥)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٩٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٥٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «مسند أبي يعلى» (٥٢٨٠).

أو تُطُيِّر له، أو تَكَهَّن أو تُكُهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له، ومن أتىٰ كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ» رواه البراز بإسناد جيد[1]، ....

«**الطيرة شرك**»[2] كما سيأتي، وهو إضافة الفعل إلىٰ غير الله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا شرك في الربوبية، وهو أعظم من الشرك في الألوهية.

وقوله: «**أو تُطُيِّر له**»؛ يعني: أنه ذهب إلىٰ الذي يتطير، أو يرىٰ أنه يحسن التطير، فسأله شيئاً مما يريد أن يفعله، فيستدل به علىٰ أشياء، إما بطيور أو غيرها من البهائم، فيكون له حكمه.

وقوله: «**أو تَكَهَّن**» يعني طلب فعل الكهانة وباشره، وإن كان لا يحسن.

قوله: «**أو تُكُهِّن له**» أي: طلب من غيره أن يفعل ذٰلك، فالكهانة كلها باطلة؛ لأنها مبنية علىٰ أمور بعيدة، والاستدلال بما يشاهد علىٰ الأمور المستقبلية، وجميع الخلق ليس لهم تصرف في أفعال الله، وما يقدره ويدبره.

لٰكن الله ـ جل وعلا ـ قد يبتلي الإنسان بما يعتقده؛ عقاباً له، ويكون ذٰلك فتنةً له، وبعداً له عن الخير، وعن عبادة الله ـ جل وعلا ـ، والغالب أن الله يعاقب الإنسان من جنس عمله.

وقوله: «**أو سَحَر أو سُحِر له**»؛ يعني: أنه استعمل السحر، أو طلب من الساحر أن يسحر له فلاناً، والساحر وطالب السحر كلاهما سواء، وسبق أن السحر كفر، وأنه لا ينفك عن الشرك، فيكون الطالب له حكمه.

قوله: «**ومن أتىٰ كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنْزل علىٰ محمد**» فهٰذه النصوص تدل علىٰ أن الكهانة والعرافة، ومَنْ يصدق مَنْ فعلها أو يأتي

(١) «مسند البزار» (٣٠٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٠٤، ٣٩٧٨)، وأبو داود (٣٤١١)، وابن ماجه (٣٥٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

ورواه الطبراني في «الأوسط»(١) بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتىٰ..» الخ.

قال البغوي: «العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها ....

إليه يسأله - وإن كان شاكاً في ذٰلك -؛ فهو إما أن يكون ذاهب التوحيد، أو أنه ناقصٌ النقصَ الذي يترتب عليه العذاب؛ لأن نقص التوحيد نوعان:

النوع الأول: نقص لكماله المستحب.

النوع الثاني: نقص لكماله الواجب.

أما نقص الكمال المستحب؛ فهٰذا لا يعاقب عليه، وإنما يفوته ثواب ودرجات.

أما النقص في الكمال الواجب؛ فهٰذا يترتب عليه العذاب إن لم يعفُ الله - جل وعلا -، ويترتب عليه نقص توحيده الذي يأمن به من عذاب الله - جل وعلا - في الدنيا والآخرة، فإذا ذهب هٰذا الكمال؛ فإنه معرض لعذاب الله في الدنيا والآخرة، أو فيهما كليهما.

وقوله: **«ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس، دون قوله: ومن أتىٰ...إلخ»**؛ يعني أن هٰذا شاهد له، فيتقوىٰ به، ويكون ذٰلك دليلاً علىٰ الثبوت عن النبي ﷺ.

أما ما ذكره عن البغوي؛ فهو تفسير للعراف، قال: **«العراف الذي يدعي معرفة الأمور»** الغائبة، كالأمور المسروقة مثلاً، أو الغائب.

قوله: «بمقدمات يستدل بها» المقدمات مثل الخط في الرمل الذي يخطه، ومثل الضرب بالحصىٰ، ومثل النظر في الكف، وقراءة الكف، أو الفنجان؛ أي: فنجان البن، أو غير ذٰلك من الأمور الكاذبة التي لا تَمُتُّ إلىٰ معرفة

---

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (١٤٧٧٠).

علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذٰلك. وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير»[١].

الغيب بشيء، وإنما هي أوهام يوهم بها الفاعل أنها أدلة في ذٰلك، وقد صدر في هٰذه الأيام كتب كثيرة في هٰذا، يدعي أصحابها أنه يمكن أن يتوصلوا إلىٰ معرفة ما يستقبله الإنسان بالنظر في الكف، وكذٰلك بالنظر في مولده، يقولون: المولد الذي ولدت فيه كذا وكذا، وطلع فيه نجم كذا وكذا، فيزعمون أنه سيوظف، أو أنه يلقىٰ مالاً، أو كذا أو كذا، أو العكس، وإنما هٰذه كلها حيلٌ، وأكلٌ لأموال الناس، لإضلالهم، وإفساد عقائدهم.

وهٰذا كله يجب أن يبتعد عنه العبد، فيعلم أنهم كاذبون، وأنهم ضالون مدّعون علىٰ الله ما ليس لهم؛ لأن هٰذا نوع من تعاطي علم الغيب، وعلم الغيب هو لله ـ جل وعلا ـ، فهو من خصائصه، لا يطلع عليه إلا من يشاء من أنبيائه؛ ليكون ذٰلك دليلاً علىٰ صدقهم.

يقول: «**العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك**»، ويقول: أسأله، فيضرب بحصىٰ، أو ينظر في الأرض في الخط، أو ما أشبه ذٰلك، ثم يقول: غائبك له كذا وكذا، أو إنه يأتي، أو ما أشبه ذٰلك؛ فهٰذا كله كذب.

العراف هو الكاهن، فيطلق العراف علىٰ الكاهن، «**والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل**» وخبره كما سبق أنه يكون بواسطة الشيطان.

قوله: «وقيل: الذي يخبر عما في الضمير»؛ يعني: الشيء الذي يُكنّه الإنسان في نفسه، يقول: هٰذا أن ينوي يفعل كذا وكذا، وهٰذا يريد أن يتكلم بكذا وكذا، هٰذا نوع من علم الغيب.

ولهٰذا ذكر الله ـ جل وعلا ـ أنه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]

---

(١) «شرح السنة» (١٢/ ١٨٢).

وقال أبو العباس بن تيمية: «العراف: اسم للكاهن، والمنجم، والرمال، ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهٰذه الطرق»(١)

وقال ابن عباس في قوم يكتبون «أبا جاد» وينظرون في النجوم: «ما أرىٰ من فعل ذٰلك له عند الله من خلاق»(٢).

يعني الحالات التي تكون في الصدور من النيات والمقاصد، فيقول ـ جل وعلا ـ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، فالسر هو الذي في الضمائر، يسره الإنسان، ولا يتكلم به، وأما الأخفىٰ منه؛ فهو الذي لم يكن، ويعلم الله ـ جل وعلا ـ أنه سوف يكون في وقت كذا بكذا وكذا.

المقصود أن هٰذا من صفات الله، فمن نازع الله ـ جل وعلا ـ في شيء من صفاته؛ فإنه وقع في الإجرام، وهو متعرض لعقاب الله ـ جل وعلا ـ، وقد يكون ذاهب التوحيد أو ناقصاً نقصاً عظيماً.

وقوله: «العراف: اسم للكاهن، والمنجم، والرمال، ونحوهم ممن يتكلم بمعرفة الأمور بهٰذه الطرق»؛ يعني: بطرق النظر في النجوم، والنظر في الخط الذي يخطه، أو النظر في الحصىٰ التي يضربها، أو الودع الذي يضرب به، أو غير ذٰلك من الحيل التي يوهم هٰؤلاء أنهم يعرفون شيئاً من الغيب، وهم كذابون لا يعرفون شيئاً.

قول ابن عباس: **«لا أرىٰ من فعل ذٰلك له عند الله من خلاق»** الذي ليس له عند الله من خلاق ليس بمسلم، وهٰذا يسمىٰ بعلم الحروف، وعلم الحروف ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: علم يعرف به العدد، ويسمى حساب الجمل، كما هو

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٨٠٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٩)، وفي «شعب الإيمان» (٤٩٧٧).

فيه مسائل:

الأولىٰ: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. **الثانية**: التصريح بأنه كفر. **الثالثة**: ذكر من تُكهن له. **الرابعة**: ذكر من تُطير له. **الخامسة**: ذكر من سحر له. **السادسة**: ذكر من تعلم أبا جاد. **السابعة**: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

معروف، الألف واحد، والباء اثنان، والجيم ثلاثة... إلخ[1]، فهٰذا لا بأس به.

القسم الثاني: الاستدلال بهٰذه الحروف علىٰ المغيبات، وعلىٰ المستقبل، وعلىٰ أنه سيحدث في هٰذه السنة كذا وكذا، ويحدث لفلان كذا وكذا، فهٰذا نوع من الكهانة وادعاء الغيب، فهو من الموبقات التي توبق من فعلها، وتكون قد ذهبت بتوحيده، وأصبح ما له عند الله من خلاق.

---

(١) وهي مشهورة كانت تستخدم في السابق، وهي: (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ)، فكل حرف يدل على رقم، والتفصيل كما يلي:

أ:١	ب:٢	ج:٣	د:٤	هـ:٥	و:٦	ز:٧
ح:٨	ط:٩	ي:١٠	ك:٢٠	ل:٣٠	م:٤٠	ن:٥٠
س:٦٠	ع:٧٠	ف:٨٠	ص:٩٠	ق:١٠٠	ر:٢٠٠	ش:٣٠٠
ت:٤٠٠	ث:٥٠٠	خ:٦٠٠	ذ:٧٠٠	ض:٨٠٠	ظ:٩٠٠	غ:١٠٠٠

باب

ما جاء في النُّشْرة

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله سئل عن النُّشْرة فقال: **«هي من عمل الشيطان»**(١) رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هٰذا كله.

قال: **«باب ما جاء في النشرة»**، فسرها بأنها حَلّ السحر عن المسحور، وهي أيضاً يدخل فيها الرقية، يقول: نشَره ونَشَر إذا رقىٰ عليه، وإذا عالجه. فالنشرة تُطلق علىٰ المعالجة من السحر، ولهٰذا ذكرها؛ لأن فيها باطلاً وحقاً، والباطل يكون منافياً للحق.

قوله: «هي من عمل الشيطان» لما كانت من عمل الشيطان؛ فهي نوع من السحر، فتحمل علىٰ حل السحر عن المسحور، وبالحل الذي هو الإخراج لا يكون ذٰلك إلا من ساحر؛ لأن الشياطين بعضها أقوىٰ من بعض، كالإنس مثلاً، فإذا سحره ساحر يذهب إلىٰ ساحر شيطانه أقوىٰ منه، فيطلب منه إما أن يقتل ذٰلك الشيطان، أو أن يستولي عليه، ويأخذ السحر، ويأتي به، أو يخبره بمكانه، أو ما أشبه ذٰلك؛ فينحل سحره؛ لأن السحر من هٰذا النوع يكون بعقد، ويكون بجمع أشياء من شعر، أو مسامير، أو ما أشبه ذٰلك، ثم يوضع في مكان خفي، فما دام محفوظاً؛ فالسحر يعمل عمله، وإذا اكتشف واستخرج؛ بطل السحر، وإذا جاء الشيطان الذي يكون للساحر الثاني أو الساحر نفسه؛ يفعل هٰذا حتىٰ يؤتىٰ إليه، ويأخذ المال، ويقول نحله، فيأمر شيطانه يأتي به، أو أنه يخرجه هو نفسه.

والسحر ـ كما سبق ـ له حقيقة، ويمرض البدن، ويذهب بالعقل، أو

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٦٢١)، وأبو داود (٣٣٧٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٥١).

....

يذهب بجزء من العقل، وقد يميت ويقتل، وقد يكون أيضاً له وقت، ثم يزول عندما ينتهي المقصود الذي قيده به الساحر.

وقد وقع السحر لرسول الله ﷺ، وزعم كثير من الناس أن هٰذا باطل، وأن هٰذا لا يقع له، مع أن هٰذا ثابت في «الصحيحين» وفي غيرهما من الكتب التي تروي عن النبي ﷺ. والذي ينكره هم أهل البدع من المعتزلة ونحوهم؛ لأنهم يقولون: هٰذا ينافي العصمة، وليس كذٰلك؛ لأن هٰذا في بدنه ﷺ، وبدنه يتعرض له الأذىٰ من الكفار والفساق وغيرهم، ولا ينافي العصمة، فالعصمة له فيما يخبر به عن الله، ويشرعه من الدين، فهٰذا معصوم فيه لا يخطئ، ولا يأتي بباطل.

وقد يقول بعض العلماء: إن هٰذا قد يدخله شيء مما يعمله الشيطان، ولٰكن هٰذا لا يقر، وإنما يزال وينسخ كما في القصة المشهورة، التي تعرف بمسألة الغرانيق، عرفت بهٰذا؛ لأن هٰذا اللفظ جاء فيها، وإلا هي ليست خاصة بهٰذا، وأصل هٰذه القصة موجود في «الصحيحين» فإنه ثبت فيهما أن الصحابة الذين ذهبوا إلىٰ الحبشة لما أشيع أن النبي ﷺ قرأ علىٰ الكفار سورة النجم أنهم آمنوا، وسجدوا، ووصل الخبر إلىٰ من في الحبشة، فرجعوا يظنون أنهم آمنوا، فلما جاؤوا، وإذا الأمر أشد مما كانوا عهدوه قبل[1].

هٰذا ثابت ولٰكن القصة عينها جاءت بأسانيد ليست ثابتة، جاءت بإسنادين صحيحين، ولٰكنهما مرسلان، والمرسل ليس كل أحد من العلماء يثبته، بعضهم يقول: إنه ضعيف ما دام مرسلاً ولا نقبله، ولٰكن من المحققين من يقول: إن هٰذا ثابت بنص القرآن، ولٰكن الواجب أن يذكر كلام الناس، وكلام الناس فيها علىٰ ثلاثة مذاهب: مذهبان متقابلان، ومذهب وسط:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٤).

وحادثة الغرانيق: أخرجها الطبري في «تفسيره» (١٨/٦٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٨٠).

....

المذهب الأول: أن الرسول ﷺ لما قرأ سورة النجم، وجاء إلىٰ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النجم] أن الشيطان ألقىٰ علىٰ لسانه فقال: «**تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجىٰ**» ففرح المشركون بهٰذا، وقالوا: هٰذا الذي نريد، لا نريد إلا شفاعتهن، فلما وصل إلىٰ السجدة؛ سجدوا كلهم.

أما السجود فهٰذا ثابت أنهم كلهم سجدوا، يقول ابن مسعود: إلا رجلاً منهم رأيته رفع كفّاً من حصىً أو تراب بيده، ووضعها علىٰ جبهته، وقال: يكفيني هٰذا. يقول: رأيته بَعْدُ قُتِلَ كافراً(١)، هٰذا قول.

المذهب الثاني: يقابل الأول، وهو أن هٰذا كذب، ولا يقع، وهو ينافي العصمة، والرسول ﷺ معصوم.

المذهب الثالث: وهو وسط بين هذين القولين، وهو أن الرسول ﷺ لما قرأ هٰذه السورة، ووصل هٰذا المكان؛ ألقىٰ الشيطان في مسامع الكفار، حاكىٰ صوت النبي ﷺ، وقال لهم: «**تلك الغرانيق العلىٰ، وإن شفاعتهن لترتجىٰ**»، والرسول لم يسمع هٰذا، فسمعه الكفار، ففرحوا بذٰلك، ولما قالوا له: إنك قلت كذا وكذا؛ أنكر ذٰلك، وقال: لم أقل، وخاف أن يكون جرىٰ علىٰ لسانه بدون قصد، فأنزل الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [الحج] الذي يقول هٰذا القول: ما دام أنه ينسخ ويزال وتحكم آيات الله؛ فلا محذور في ذٰلك، ويكون هٰذا من باب الفتنة والامتحان.

ولهٰذا ذكر بعد ذٰلك أن هٰذا جعله الله ـ جل وعلا ـ فتنة لمن في قلبه مرض، وللقاسية قلوبهم، وأنه يزيد أهل الإيمان إيماناً، نقول: ما دام بهٰذه

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٥)، ومسلم (٩٠٢). والرجل هو الوليد بن المغيرة.

وفي «البخاري» عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طِبٌّ أو يؤخذ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنْهَ عنه[١]. اهـ.

الصفة؛ فلا بأس به، وهٰذا هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] ومن تبعه، والعلم عند الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: «إن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة، فقال: هي من عمل الشيطان» النشرة التي سئل عنها هي حل السحر بالسحر، فحل السحر بالسحر من عمل الشيطان، وذٰلك أن حل السحر ـ كما سيأتي في كلام ابن القيم ـ يكون نوعين:

النوع الأول: حل السحر بسحر مثله، فهٰذا الذي هو من عمل الشيطان.

النوع الثاني: حل السحر بالعلاجات الطبيعية وبالأدوية وبالدعاء وبالقراءة والرقية، فهٰذا علاج نافع، ويزيل السحر ـ بإذن الله ـ وهو جائز، أو يكون مستحباً، ويجب أن يحمل قول سعيد بن المسيب علىٰ هٰذا، ولا يجوز أن يحمل علىٰ الكفر الذي هو عمل الشيطان.

قوله: «رجل به طبٌّ» الطب هو السحر، **«أو يُؤخذ عن امرأته»**؛ يعني: أنه يمنع من الوصول إلىٰ زوجته، **«أيحل عنه أو يُنَشَّر؟ فقال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح»**؛ يعني: لا بأس أن يحل عنه بالأدوية الجائزة الطبيعية، وبالعلاجات، وبالقراءة، والرقية، فإن هٰذا إما أن يكون مستحباً، أو يكون علىٰ الأقل جائزاً، فيجب أن يحمل قول سعيد علىٰ هٰذا، ولا يجوز أن نظن أن العلماء يجيزون الكفر والشرك بالله ـ جل وعلا ـ؛ لأن حل السحر لا يكون إلا من ساحر.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (١٨/ ٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٧٣).

وروىٰ عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر».

قال ابن القيم: «النُّشْرة: حَلُّ السحر عن المسحور، وهي نوعان: إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلىٰ الشيطان بما يحب، ويبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات المباحة، فهٰذا جائز».

أما قول من يقول: إن هٰذا للضرورة، وأن الضرورة تبيح المحظورات؛ فنقول: هٰذا له حدود، فالضرورة لا تكون بالكفر، وإنما تكون في شيء معين محرم؛ منع لأجل أمر من الأمور، فإذا وقع الإنسان فيما هو مضطر إليه؛ جاز أن يستحل بعض المحرمات، مثل الإنسان يصاب بفاقة، فلا يجد ما يأكله حتىٰ يشبع، وهٰكذا إذا أصابه ظمأ، وخاف الموت، وعنده ما هو محرم؛ كالخمر أو ما أشبه ذٰلك؛ جاز أن يتناول منه بقدر ما يدفع ما فيه هلكته، ثم يقف، أما أنه يفعل الكفر، فهٰذا لا يجوز.

وقوله: **«لا يحل السحر إلا ساحر»** هٰذا هو الصحيح، أن السحر لا يحل إلا بساحر، ولٰكن المقصود بالسحر حله وإخراجه وإبطاله، لا يحل إلا ساحر مثل السحرة.

أما حله بالرقية والقراءة والعلاجات؛ فهٰذا أمر معروف ومشهور، والرسول ﷺ لما سُحر؛ أنزل الله ـ جل وعلا ـ عليه المعوذتين، فأبطل الله السحر بقراءته، ولهٰذا قالت عائشة: استخرجتَه؟ فقال: **«لا. أما أنا؛ فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذٰلك علىٰ الناس شراً، ثم دفنت البئر»**(١).

قوله: **«والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات المباحة، فهذا جائز»** وهٰذا الذي يجب أن يحمل عليه قول سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٨).

فيه مسألتان:

الأولىٰ: النهي عن النشرة. **الثانية**: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

قوله: «الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال» المرخص فيه هو القراءة عليه، والتعوذات، والدعاء، وكذٰلك الأدوية المباحة، وهي طبيعية، وقد ذكروا أن من العلاجات في هـٰذا أن يأخذ سبع ورقات سدر، ثم يدقها بين حجرين، ثم يقرأ عليها آية الكرسي، والمعوذتين، ثم يقذفها في الماء، ثم يحتسي منها ويشرب، ويصب علىٰ بدنه، هـٰذا مجرب للذي يمنع من زوجته ونافع جداً، وقد يزيل ذٰلك حسب ما يقوم بنفس الراقي، وكذٰلك المرقي.

باب

ما جاء في التطير

التطير تفعّل، أخذ من الطير، من أصواته، وطيرانه، وكانوا يُعْنَون بهٰذا في الجاهلية، فإذا طار الطير، وجاء ناطحاً له؛ سموه النطيح. وإذا كان عن يمينه؛ سموه البارح، وعن يساره السانح.

وإذا سمعوا صوتاً ولا سيما صوت الغراب؛ فإنهم يتشاءمون به أشد التشاؤم، فيرجعون عن مقاصدهم؛ لأنهم يأخذون هٰذا من لفظة الغراب؛ لأن الغراب يدل علىٰ الغربة، فهو يدل علىٰ الموت، أو أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً مما أراده، وكل هٰذه ظنون كاذبة من الشيطان يلقيها في نفس الإنسان.

ولهٰذا كان بعض الجاهلية لا يهتم بذٰلك، ويفتخر بأنه لا ترده الطير، ولا يبالي بها، ويقول: إن الطيور هٰذه ليس عندها شيء، وإنما هي عادات اعتادها ضعفاء العقل، ومن يستولي عليهم الشيطان. فإذا كان هٰذا يكون في الجاهلية الذين لا يؤمنون بما جاء عن الله وعن رسوله؛ فكيف بمن يؤمن بالله ـ جل وعلا ـ، كيف يلتفت إلىٰ مثل هٰذه الأشياء؟ والواجب أن يكون بعيداً عن هٰذه الأمور، وهي من الشرك، وذٰلك أن المتطير يضيف الأشياء التي تقع أو ستقع إلىٰ ما يشاهده أو يسمعه، سواء من فعل الطير أو غيره.

وليست الطيرة مقصورة علىٰ الطيور، أو علىٰ الغراب، أو البومة، أو نحو هٰذا، بل كانوا يتطيرون حتىٰ في البهائم، وحتىٰ في الرجال، وغيرهم.

وكان أحدهم إذا شاهد مشهداً لا يعجبه؛ تطير، وقال: هٰذا يوم مشؤوم، سوف يلاقي كذا وكذا، وقد يعاقب الله ـ جل وعلا ـ الإنسان بعقيدته، فإذا اعتقد ذٰلك؛ فقد يعاقبه الله ويصيبه بما كان يتوقع، فيكون أيضاً هٰذا زيادة فتنة، ويقول في نفسه: إن التطير حق، وإنه يدل علىٰ الواقع، فأراد الله ـ جل وعلا ـ من عباده أن يؤمنوا بأنه هو المدبر المتصرف في

وقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

الأشياء كلها، وأن الطيور وغيرها ليس عندها من ذٰلك أي تأثير، التأثير من الله ـ جل وعلا ـ. أما أن يقول: إن هٰذه أسباب، فيقال: ليست أسباباً؛ لأن السبب ما جعله الله سبباً، وهٰذه ليست كذٰلك.

ثم إن التطير من فعل الكافرين كما ذكره الله ـ جل وعلا ـ عنهم أنهم يتطيرون برسله إذا جاؤوهم؛ فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨] يعني أننا أُصبنا بسببكم، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩] يعني أن الشيء الذي أصابكم بسبب أعمالكم وكفركم، وأما الرسل؛ فهم لا يأتون إلا بالخير والإيمان من الله ـ جل وعلا ـ، والدعوة إلىٰ الحق.

قوله : ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في هٰذه الآية ردٌّ علىٰ الذين ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فأخبر الله ـ جل وعلا ـ فقال: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: حظهم ونصيبهم وجزاؤهم الذي يجزون به علىٰ أعمالهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من الله، هو الذي عاقبهم بهٰذا، أما الرسل فلا دخل لهم في ذٰلك.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون ما لله ـ جل وعلا ـ من التصرف، وأنه هو المالك لكل شيء، وأن الطيور ليس عندها أي تصرف، وكذٰلك الرسل، فلا يأتون إلا بما هو حق وخير وصلاح، وإنما أفعالهم هي التي فيها الشؤم، وفيها العقاب، فأصيبوا بسببها، هٰذا هو معنىٰ الآية، وكذٰلك الآية التي بعدها.

يعني: أنهم لما قالوا تطيرنا بكم يخاطبون رسلهم، ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾؛ يعني: بسبب أعمالكم وأفعالكم، فما أُصبتم به؛ فهو جزاء أعمالكم، وهٰذا ليس هو كل الجزاء، وقد يُجازَوْنَ بما هو أعظم من ذٰلك عذاباً ونكالاً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «**لا عَدْوىٰ، ولا طِيَرَةَ، ولا هامة**، ....

فالمقصود بهٰذا: أن الله ـ جل وعلا ـ ذكر أن التطير من فعل الكافرين، وما يقابلون به الرسل، فلا يجوز أن يصدر من مؤمن.

قوله: «**لا عدوىٰ**» العدوىٰ لا تزال معروفة عند الناس، أن الإنسان إذا كان به مرض وقارن غيره من الأصحاء أنه يُعْديه، وهٰذا ليس في كل الأمراض، بل في بعضها التي تتعدىٰ إلىٰ الصحيح، وهٰذا قد اكتشف الناس اليوم أنه واقع، فإذا كان واقعاً؛ فلا يمكن أن يكون خبر الرسول بخلاف الواقع، فعلىٰ هٰذا نقول: هٰذه تحتمل احتمالين:

الاحتمال الأول: النفي.

الاحتمال الثاني: النهي.

قوله: «**لا عدوىٰ**»؛ يعني: لا يعدي بعضكم بعضاً إذا كان نهياً، وهٰذا يدل عليه قوله: «**ولا يُورِدُ مُمْرِضٌ علىٰ مُصِحٍّ**»[1]، وكذٰلك قوله: «**وفرّ من المجزوم كما تفرّ من الأسد**»[2] يدل علىٰ أن المقصود هنا النهي؛ يعني: لا تتسببوا للعدوىٰ، فيكون هٰذا ليس مخالفاً للواقع، هٰذا قول.

والاحتمال الثاني أن «لا» نفي؛ يعني: لا وقوع للعدوىٰ، فإذا كان نفياً؛ فيجب أن يكون لشيء معين، وليس مطلقاً، فيكون المنفي ما كانت تعتقده الجاهلية من أن المرض يتعدىٰ بطبعه ونفسه وليس بأمر الله ـ جل وعلا ـ وبتقديره، فإن اعتقد أنه بتقدير الله؛ فلا بأس، فيكون المنفي الشيء الذي يكون مخالفاً للواقع.

أما قوله: «**ولا هامَةَ**» فالهامة فسرت بتفسيرين: تفسير مشهور معروف، وتفسير فيه خفاء:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٢٨)، ومسلم (٤١١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٤٥)، وأخرجه البخاري معلقاً ـ باب الجذام (١٧/٤٧٦).

ولا صَفَر» أخرجاه[1]، زاد مسلم: ....

أما المشهور فهو أنّ الهامَةَ هي البومة الطائر المعروف، الذي يأتي بالليل، وهي تألف الخراب، فكانوا يتشاءمون بها أشد التشاؤم إذا وقعت علىٰ بيت أحدهم.

قال: نَعَتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهلي؛ لأنها تألف الخراب، تجدها تألف البيوت الخربة والأماكن الخالية التي ليس فيها أحد، فلهٰذا أخذوا هٰذا المعنىٰ من ذٰلك، أنه يدل علىٰ أن صاحب البيت سيموت أو سيموت من فيه، هٰذا كله توهّم، وهو من الشيطان، وهي طائر ليس عنده أي خير، ولا عنده نفع ولا ضر، وإنما هي أوهام يلقيها الشيطان.

وقد يقع عقاباً لمن اعتقد ذٰلك، فيعاقبه الله بأن يصيبه ما يتوقع؛ عقاباً من الله، وليس لأن هٰذا الطائر يدل علىٰ ذٰلك، هٰذا تفسير.

وأما التفسير الخفي فهو أن المقصود بالهامةِ هو الرأس؛ يعني: الدماغ ـ دماغ الإنسان ـ وهي أنهم يعتقدون أن الإنسان إذا قتل مظلوماً أنه يطير من دماغه طائر اسمه الهامَةُ، يصيح علىٰ قبره يقول: اسقوني اسقوني، حتىٰ يؤخذ له بالثأر، فإذا أخذ له بالثأر؛ ذهب. أما ما دام لم يؤخذ له بثأره؛ فإنه يبقىٰ يصيح، ولهٰذا قال أحد الشعراء:

يا عَمْرُو إنْ لا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتي ... أَضْرِبْكَ حتىٰ تقولَ الهامةُ اسقوني[2]

فهٰذا شيء معروف في هٰذا، وقد يكون عند بعضهم، ولا يكون هٰذا هو معنىٰ الحديث، أو يكون هٰذا داخلٌ به، والمعنىٰ هو الأول، ولا شك أن هٰذا باطل.

أما قوله: «ولا صفر» فأيضاً له تفسيران:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣١٦)، ومسلم (٤١١٦).

(٢) القائل هو ذو الإصبع العدواني، انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٢١٥)، «لسان العرب» (١٢/ ٦٢٤).

«ولا نَوْءَ، ولا غُولَ»(١).

التفسير الأول أنهم كانوا يتشاءمون بشهر صفر، فلا يسافرون فيه، ولا يتزوجون فيه، ولا يعملون فيه أعمالاً، ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فيتطيرون به، فأبطل الرسول ﷺ ذٰلك، فهو كسائر الشهور، وإنما هـٰذا من الشرك، وأوهام يلقيها الشيطان.

التفسير الثاني أنه مرض يكون بالبطن وهو يعدي، فيكون أشد من عدوىٰ الجرب.

فإذاً النفي هنا يكون نفياً لما كانوا يعتقدونه، فإنه توهم وباطل.

أما قوله: «ولا نوء» النوء مأخوذ من الأنواء، وسيأتي الكلام علىٰ الأنواء ـ إن شاء الله ـ. والأنواء هي منازل القمر، والقمر له ثمانية وعشرون منزلة، وكل ليلة ينزل في واحدة، سمي نوءً؛ لأنه إذا ناء أحدها طالعاً غرب مقابله من الغرب، وهم يعتقدون أن المطر والرياح تأتي بهـٰذه الأنواء، لهـٰذا يقولون: «مُطِرنا بِنَوْء كذا وكذا»، وسيأتي أن هـٰذا من الكفر.

أما **«الغول»** فهي سحرة الجن أو مردتهم، فيعتقدون أنها تتراءىٰ للإنسان الذي يسلك البر في الليل، فتضله، ويكون هـٰؤلاء من سحرة الجن، والجن لهم سحرة، وقد يكون من شياطينهم، وهـٰذا قد يقع، ولـٰكن إذا ذكر الله زالت وذهبت، فيكون النفي لما يعتقدون أنها تضل الناس وتقتلهم؛ فهـٰذا لا وجود له.

ولهـٰذا جاء في الحديث: **«إذا تغولت لكم الغيلان؛ فبادروا بالأذان»**(٢)،

---

(١) لم يخرجه مسلم بهـٰذا السياق، وإنما بوب عليه النووي رحمه الله (١١/٢٤٩).
وقد أخرج مسلم زيادة «غول» (٤١١٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
وأخرج زيادة «نوء» كذٰلك (٤١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
فلعل المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع بين اللفظين في سياق واحد، مع وجودهما متفرقين في الصحيح، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥٥٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

ولهما عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا عدوىٰ، ولا طيرة، ويعجبني الفأل»** قالوا: وما الفأل؟ قال: **«الكلمة الطيبة»**[١].

فالأذان يطردها؛ لأن الشيطان إذا سمع الأذان؛ هرب، فيكون النفي أنها لا تقدر، ولا تستطيع، ولا لهم من سلطان عليه، ولهٰذا جاء الحديث الآخر: **«لا غول»** فإذا ظهر شيء منهم، فبادر بذكر الله أو أذن، فسوف تذهب.

وقوله: «لا عدوىٰ، ولا طيرة، ويعجبني الفال» الفأل نوع من الطيرة، ولٰكنه فيما يسر، وفيما يطيب، وهو رجاء الخير، ورجاء الخير مطلوب، وإن كان السبب ضعيفاً، أو أنه لا حقيقة له؛ لأنك إذا رجوت من الله خيراً؛ فإنك علىٰ خير، وإن الله عند ظن عبده.

أما أن يكون هٰذا له شيء من التأثير فلا، والرسول يعجبه الفأل، وفسره بالكلمة الطيبة، والكلمة الطيبة كأن يكون الإنسان فاقداً شيئاً فيسمع قائلاً يقول: يا راشد، أو يا هادي، أو ما أشبه ذٰلك، فيتفاءل بأنه سيصيب ما أضله، أو يكون مريضاً مثلاً فيسمع قائلاً يقول: يا سالم، أو ما أشبه ذٰلك، فيتفاءل بأنه يسلم، فهٰذا لا بأس به؛ لأنه رجاء للخير، وهو ظن بأن سيشفيه، أو سيأتيه بما فقد، وهٰذا الظن يلزم أنه لا يعتقد أن هٰذه الكلمة أو هٰذا الذي رأىٰ أن له تأثيراً في المقدرات، وإنما هو يتفاءل فقط بأنه سيصيبه.

وإذا كان يعجب الرسول ﷺ؛ فهو مستحب، وقد كان ﷺ ينظر إلىٰ ذٰلك، فإنه لما ذهب إلىٰ خيبر؛ فرآهم قد أخذوا المساحي، وآلات الحرث؛ قال: **«الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة القوم؛ فساء صباح المنذرين»**[٢]، فتفاءل بأنهم رأوا آلات الهدم، وهي المساحي ونحوها، فهٰذا من الفأل.

---

(١) أخرجه البخاري بلفظ: «الفأل الصالح الكلمة الحسنة»، وفي لفظ: «كلمة طيبة» (٥٣١٥، ٥٣٣١)، وأخرجه مسلم (٤١٢٣، ٤١٢٤)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨)، ومسلم (٢٥٦١) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنها الفأل، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئاتِ إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**»، وما منا إلا، ولٰكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود، والترمذي

وكذٰلك قصته في اللقحة وأسماء الذين يريد أن يرسلهم، فيترك من كان اسمه قبيحاً، ويرسل من اسمه حسناً، فهو من باب الفأل.

قوله: «**لا ترد مسلماً**»؛ يعني: أنه إذا وقع في نفس الإنسان شيء من ذٰلك؛ فلا يجوز أن يرجع عن عمله، أو أن يتأثر بذٰلك، أو أن يقدم من أجلها، فإن فعل ذٰلك فقد وقع في الطيرة، لهٰذا قال: «**لا ترد مسلماً**» وفيه تعريض بأنها تردّ الكافر، أما المسلم فهي لا ترده؛ لأن المسلم يتوكل علىٰ ربه ـ جل وعلا ـ، ولهٰذا قال: «**فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره**» من الطيرة أو يقع في نفسه شيء؛ «**فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»؛ يعني: لا أحد يستطيع أن يتحول من حال إلىٰ أخرىٰ إلا بقوة الله وإرادته وقدرته، فهو تفويض إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، وتوكل عليه.

أما حديث ابن مسعود، **وقوله**: «**وما منّا إلا**» ثم ترك كلامه، فالمعنىٰ وما منّا إلا وقد وقع في نفسه شيء، هٰذا هو تقدير الكلام، «**ولٰكن الله يذهبه بالتوكل**».

وقوله: «**وما منّا إلا**» الصحيح أن هٰذا من كلام ابن مسعود، وليس من

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤١٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٢٢٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٩).

وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود[١].

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطيرة عن حاجة فقد أشرك**» قالوا: فما كفارة ذٰلك؟ قال: «**أن تقول: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طيرَ إلا طيرُك، ولا إلـٰه غيرُك**»[٢].

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**»[٣].

كلام الرسول ﷺ، فهـٰذا فيه التصريح بأن الطيرة شرك، فإذا كانت شركاً؛ فهي شرك في الربوبية؛ لأنه يعتقد أن الطير له تصرف في الكون وفي الأشياء، أو أن الأمور تأتي علىٰ وفق ما يسمع، وهـٰذا أعظم من الشرك نسأل الله العافية، وهـٰذا إذا تحققه، أما إذا لم يتحققه؛ فهو لا يقع في ذٰلك؛ ولا يلتفت إليه.

وقوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك**» قلنا: هـٰذا أيضاً هو الذي يكون فيه الطيرة المنهي عنها أنها شرك.

قوله: «**قالوا: فما كفارة هـٰذه؟ قال: أن تقول: اللـهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إلـٰه غيرك**»؛ يعني: هـٰذا توحيد يكفر الشرك؛ لأنه تفويض إلىٰ الله، واعتماد عليه، وتوكل عليه.

أما حديث الفضل؛ فهو ضعيف، ثم إن فيه حدّ الطيرة فقط، قال: «**الطيرة ما أمضاك أو ردك**»؛ يعني: الشيء الذي يعمل به، أما الوساوس التي تقع في قلب الإنسان، أو الخواطر؛ فلا أثر لها، وإنما الذي يكون طيرة هو الذي يترتب عليه الفعل أو الترك.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥٠٤، ٣٩٥٧)، وأبو داود (٣٤١١)، والترمذي (١٥٣٩)، وابن ماجه (٣٥٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٤٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٢٧).

فيه مسائل:

الأولىٰ: التنبيه علىٰ **قوله**: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، مع **قوله**: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾. **الثانية**: نفي العدوىٰ. **الثالثة**: نفي الطيرة. **الرابعة**: نفي الهامة. **الخامسة**: نفي الصفر. **السادسة**: أن الفأل ليس من ذٰلك بل مستحب. **السابعة**: تفسير الفأل. **الثامنة**: أن الواقع في القلوب من ذٰلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل. **التاسعة**: ذكر ما يقوله من وجده. **العاشرة**: التصريح بأن الطيرة شرك. **الحادية عشرة**: تفسير الطيرة المذمومة.

باب

ما جاء في التنجيم

قال البخاري في «صحيحه»: «قال قتادة: خلق الله هٰذه النجوم لثلاث: ....

قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب ما جاء في التنجيم**»؛ يعني: من الوعيد، وأن ذٰلك مما يذهب بكمال التوحيد، أو قد يذهب به كله؛ لأن التنجيم ينقسم إلىٰ أقسام:

القسم الأول: تنجيمٌ هو كفر باتفاق العلماء، وهو عبادة الكواكب، والنظر إليها، واعتقاد أن لها تأثيراً في الكائنات الأرضية وغيرها، كالذين يبنون لها الهياكل أي: الصور والبيوت، ويزعمون أن لها روحانيات تنزل عليهم، وتأتيهم بما يطلبون أو بعضه، وهٰذه الروحانيات التي يسمونها روحانيات هي شياطين تنزل عليهم؛ لتضلهم، وهٰذه الطريقة كانت عبادة الصائبة الذين بعث إليهم إبراهيم ﷺ.

القسم الثاني: الاعتقاد بأن النجوم لها تأثير في الحوادث الأرضية، مثل هبوب الرياح، ومثل نزول الأمطار، ومثل غلاء الأسعار أو رخصها، ومثل إتيان الأوبئة والأمراض، وما أشبه ذٰلك، وهٰذا اختلف العلماء فيه، فمنهم من يكفّر معتقد ذٰلك وقائله، ومنهم من لا يكفّره، والذي ينبغي أن يلحق هٰذا بالأول؛ لأنهم يجعلون للنجوم تصرفاً وتأثيراً في بعض الأكوان.

القسم الثالث: ما ذكره عن قتادة من تعلم المنازل، وهٰذا لا بأس به، وكذٰلك النظر في النجوم؛ لأجل معرفة القبلة، ومعرفة الجهات، والاهتداء بها في السير في البحار، وفي البراري، ومثل هٰذا تدل عليه النصوص التي ذكرها الله ـ جل وعلا ـ في كتابه.

قوله: «**خلق الله هٰذه النجوم لثلاث**» هٰذه الثلاث التي ذكرها قتادة قد

زينةً للسماء، ....

ذكرها الله ـ جل وعلا ـ في كتابه لما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وفي هٰذه الآية ذكر اثنتين: أنها زينة للسماء، وأنها رجوم للشياطين.

الشياطين الذين سبق ذكرهم أنهم يركب بعضهم بعضاً حتىٰ يسترقوا السمع من الملائكة الذين يكونون في السحاب، أو في العَنان، ويتكلمون بالوحي الذي أمرهم الله ـ جل وعلا ـ به، ويخطفون الكلمة منهم، ويأتون بها إلىٰ أوليائهم من الكهنة، فيكذبون معها مئة كذْبة، حتىٰ يصدق الناس ذٰلك الكذب الكثير من أجل هٰذه الكلمة التي هي من الحق.

أما الخصلة الثالثة؛ فهي قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل] يعني يهتدون في سيرهم، وكذٰلك إلىٰ الجهات التي يريدونها، ومنها القبلة، ولهٰذا ذكر الفقهاء في كتبهم أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم من النجوم ما يهتدي به إلىٰ معرفة القبلة.

وقد رصد العلماء ذٰلك، فعرفوا ذٰلك؛ وذٰلك أنهم ينظرون إليها في حال وجودهم عند الكعبة، ثم ينظر إليها إذا كانوا بعيداً عنها، وسبروا ذٰلك فكان صحيحاً، وما عدا ذٰلك فلا يجوز، بأن يقول: إنها تدل علىٰ نزول المطر، أو هبوب الرياح، أو كون الإنسان إذا سافر في هٰذا يحصل له سعادة، أو يحصل له نحوس وانعكاس أمر؛ فهٰذا من الضلال الذي لا يجوز، وهو من القوادح في التوحيد، وقد يصل إلىٰ الكفر إذا اعتقد الإنسان بها، وأنها تؤثر بنفسها وهو شرك منافٍ للتوحيد ويضاده.

وقوله: «زينة للسماء» كأن الظاهر هنا أن النجوم في السماء، والواقع أن السماء اسم لكل ما هو فوقنا، ولٰكن في نظر الناظر كأن النجوم معلقة بالسماء، فلهٰذا صارت زينة، فهي كالحلي علىٰ صدور النساء، زينة لها، زينها الله ـ جل وعلا ـ بالكواكب، وهٰذا أمر ظاهر، فإنها تكون جميلة في نظر الناظر، فهي زينة، فتكون زينة في نظرنا، ولا يلزم من أن تكون ملصقة بالسماء أو أنها في قلب السماء.

ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يهتدىٰ بها، فمن تأول فيها غير ذٰلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به». اهـ[1].

وكره قتادة تعلم منازل القمر. ولم يرخص ابن عيينة فيه، ....

أما قوله: **«ورجوماً للشياطين»** فرجوم الشياطين ليست الكواكب الثوابت السائرة، وإنما هي نجوم أخرىٰ، أو أن منها شهباً ترسل عليهم.

وقوله: **«وعلامات»** كونها علامات ظاهرة؛ لأن العلامات في النجوم الثابتة التي يكون مسيرها واحد يختلف.

وقوله: **«ومن تاول فيها غير ذٰلك: أخطأ وأضاع نصيبه»** يعني: من نظر فيها لأجل أن يستدل بها علىٰ ما يحدث في الأرض، أو ما يكون له من سعادة وغيرها؛ فقد أخطأ الصواب، وأضاع نصيبه من الله ـ جل وعلا ـ، وتكلف ما لا علم له به؛ لأنه من تعاطي علم الغيب، وعلم الغيب خاص بالله ـ جل وعلا ـ، لا يطلع عليه الناس، وإنما يُطلع الله ـ جل وعلا ـ عليه من يشاء من رسله؛ ليكون ذٰلك دليلاً علىٰ صدقهم.

وقوله: **«وكره قتادة تعلم منازل القمر»** الكراهة إذا جاءت في لسان المتقدمين؛ فهي تحمل علىٰ التحريم؛ لأن كراهة التنزيه اصطلاح حادث لحصر وسبر الأقسام التي تجوز والتي لا تجوز، فقد قسموا الكراهة إلىٰ قسمين: قسم للتحريم، وقسم لكراهة التنزيه؛ وذٰلك حسب الأدلة والمفاهيم التي يفهمونها من النصوص.

وكراهة تعلم المنازل سداً للباب، حتىٰ لا يصل به إلىٰ ما لا يجوز.

وقوله: **«ولم يرخص ابن عيينة فيه»**؛ يعني: أنه رآه من قبيل المكروه الذي لا ينبغي.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (١٠/ ٤٧٢) ـ كتاب بدء الخلق ـ باب في النجوم.

ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق.

وعن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر»** رواه أحمد وابن حبان في صحيحه(١).

وقوله: «ذكره حرب عنهما» هو حرب الكرماني صاحب الإمام أحمد، له كتب متعددة، منها المسائل التي جمعها عن الإمام أحمد، وأودعها علماً كثيراً.

وقوله: «ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق» وهٰذا هو الصحيح؛ لأنه خالٍ من علم التأثير، وإنما مجرد معرفة أن المنزلة هٰذه تطلع في وقت كذا، ويغيب مقابلها في وقت كذا، والقمر ينزل في كل ليلة منزلة، فله ثمان وعشرون منزلاً، فإذا كان الشهر تسعة وعشرون يبقىٰ له ليلة لا منزلة لها تسمىٰ ليلة الاستسرار، وإن كان قد كمل ثلاثين، فيكون له ليلتان ليس له فيهما منزلة.

والمنازل نجوم معينة معروفة بأعينها لمن ينظر في ذٰلك ويسبره، منها أربعة عشر تدور علىٰ القطب الشمالي، وأربعة عشر تدور علىٰ القطب اليماني، ولهٰذا يسمون هٰذه يمانِيَّة وهٰذه شاميّة علىٰ حسب ذٰلك، فتعلم ذٰلك لا بأس به في النظر، وبها تعرف الأوقات، وكذٰلك معرفة الجهات، وغير ذٰلك.

قوله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» مثل هٰذا الحديث للعلماء فيه ثلاثة أقوال، وينبغي أن يكون قولان فقط؛ لأن الثالث قول باطل قطعاً، وهو قول الخوارج الذين يكفرون الناس بالذنوب، وهٰذا إذا ذكر؛ فإنه لأجل حصر الأقوال فقط، وإلا فهو غير معتبر؛ لأنه باطل.

القول الأول: أن هٰذا من نصوص الوعيد، ونصوص الوعيد تمر ولا

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٧٤٨)، «صحيح ابن حبان» (٦٢٤٣).

....

تفسر، وتترك علىٰ ما جاءت عليه، مع الاعتقاد أن الذي يفعل هٰذه الأفعال لا يكون خارجاً من الدين الإسلامي، ولا يكون كافراً، وإنما هو متوعد بما ذكر، وهٰذا يكون إلىٰ الله، فإن شاء أوقع به ذٰلك، وإن شاء عفا عنه.

القول الثاني: أن هٰذا يُؤوّل، فيفسر بالتفسير الذي يناسب، فيقول لا يدخلون الجنة في أول الأمر أو في وقت محدد، ثم فيما بعد إذا طُهروا وأخذوا نصيبهم من العذاب الذي يستحقونه؛ يدخلون الجنة، ونحو هٰذا من التأويل؛ لأنهم علموا أن هٰذه الذنوب لا تجعل الإنسان كافراً، فإذا لم يكن كافراً؛ فيكون هٰذا من باب الوعيد الذي جاء، مثل وعيد آكل الربا، وآكل مال اليتيم، فآكل الربا جاء أنه خالد في النار، وهٰذا إما أن يكون للمستحلِّ الذي استحله واعتقد أنه حلال، أو أن يكون هٰذا في أمرٍ مُحدد يعلمه الله ـ جل وعلا ـ، ثم بعد ذٰلك يدخل الجنة، هٰذا قول الجمهور.

وكأن المؤلف يميل إلىٰ القول الأول؛ يعني: كونها لا تُؤوّل، وتترك علىٰ ظاهرها في اعتقاد أن فاعلها لا يكفر إلا باستحلالها.

قوله: «**مدمن الخمر**» هو الذي يقيم علىٰ شربها، ولا يتوب، وجاء في أحاديث كثيرة، منها: أنه لا يشرب من خمر الجنة[١].

ومنها: أنه «**يسقىٰ من طينة الخبال**». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «**عصارة أهل النار**»[٢]. وفي رواية: «**صديد أهل النار**»[٣]، نسأل الله العافية.

أما «**قاطع الرحم**» فالقاطع هو الذي لا يصل رحمه، ولا يقوم بما يجب

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧٣٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «**من شرب الخمر في الدنيا؛ لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب**».

(٢) أخرجه مسلم (٣٧٣٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٣٢١) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، وأبو داود (٣١٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فيه مسائل:

الأولىٰ: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد علىٰ من زعم غير ذٰلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. **الرابعة**: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

عليه مما يكون صلة في التعارف وقد جاء ذٰلك أيضاً في كتاب الله، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد]، وهٰذا وعيد شديد.

أما «**مصدق السحر**» فتقدم أن الذي يصدق السحر ويأمر به ليسحر؛ فحكمه حكم الساحر، وهٰذا هو محل الشاهد من الحديث، وذٰلك أن النظر في النجوم كأنه شيء من السحر؛ أي: نوع من السحر الخفي؛ لأن السحر اسم لما لطف وخفي سببه عن كثير من الناس، وهٰذا يخفىٰ علىٰ كثير من الناس، فألحق بالسحر، وإلا فليس هو من السحر، وإنما له حكمه.

قوله: «**الحكمة في خلق النجوم**» عرفنا أنها ثلاثة أمور: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدىٰ بها في السير بالليل في البحر والبر.

قوله: «**الرد علىٰ من زعم غير ذٰلك**» يعني: من أن النجوم لها تأثير في الحوادث، ولهٰذا يقول العلماء: النظر في النجوم ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: علم تسيير.

القسم الثاني: علم تدبير وتأثير.

فالقسم الأول لا بأس به، والثاني لا يجوز، وقد يكون كفراً، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب التي تقدح في التوحيد.

باب

ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة].

الاستسقاء طلب السقيا، والأنواء هي منازل القمر، سميت بالأنواء؛ لأنها إذا خرج واحد غاب الآخر، أخذاً من ناء إذا ظهر أو غرب، فالأنواء اسم لهٰذا الفعل الذي يحصل بنظر الناظر، وهو لا يغيب، وإنما يغيب في الأرض، وإلا فهو دائم في مسيره كما هو معلوم.

وكانوا يستسقون بذٰلك، فينسبون المطر إليها، يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا مع أنهم يعتقدون أن الله ـ جل وعلا ـ هو الذي ينزل المطر، ولٰكن يضيفونها إليها، فالإضافة إليها لا تجوز؛ لأنه إضافة إلىٰ مخلوق مدبّر ليس له في إنزال المطر أي أثر، وإنما هٰذا بتدبير الله ـ جل وعلا ـ، وهٰكذا إضافة الأشياء إلىٰ بعض المخلوقات.

أما الإضافة إلىٰ الأسباب؛ فهٰذا أيضاً قد يدخل في هٰذا، ولٰكن هٰذه ليست أسباباً، ولم يجعلها الله أسباباً، وإنما الله ـ جل وعلا ـ جعل ذٰلك نعمة ينعم بها علىٰ عباده بإنزال المطر، فإذا أضيفت إلىٰ الكوكب؛ صار هٰذا كفراً بالنعمة ـ وهٰذا الذي سيأتي أنه كفر بالله ـ، وإيماناً بالكوكب؛ لأنه إضافة النعمة التي أنعم الله ـ جل وعلا ـ بها علىٰ عباده إلىٰ هٰذا الكوكب الذي هو مدبّر ومسخر، وليس له أي أثر لا في إنزال المطر ولا غيره، وإنما هٰذه عادة اعتادها العرب في جاهليتهم؛ لأنهم يحتاجون أشدَّ الحاجة إلىٰ المطر، فينظرون متىٰ يأتي، فإذا جاء في وقت لا تخلو من نوء من الأنواء؛ لأن كل ثلاثة عشر يوماً يخرج واحد ويغيب مقابله آخر.

قبل هٰذه الآية قوله ـ جل وعلا ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ

عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب،** ....

لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة]، في هٰذه الآية أقوال للمفسرين:

القول الأول: قولهم: مطرنا بنوء كذا، فهٰذا من الكذب بحيث أضافوا نزول المطر إلىٰ الكوكب، والكوكب ليس له تصرف ولا تدبير، وإنما هٰذا نعمة أنعم الله ـ جل وعلا ـ بها علىٰ عباده.

القول الثاني: أن المراد ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تجعلون حظكم من هٰذا الكتاب العظيم الذي أنزله الله علىٰ نبيه هو التكذيب به، ومن كان حظه منه التكذيب؛ فحظه مبخوس وهو خاسر، ومصيره إلىٰ النار ـ نسأل الله العافية ـ، ولٰكن القول الأول هو الذي يشهد للباب الذي أراده المؤلف.

قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن**»؛ يعني: أنها تبقىٰ فيهم.

والأمة، أي: مجموع الأمة، والمقصود بالأمة أمة الإجابة التي استجابت للنبي ﷺ، وهٰذا ذكره الرسول ﷺ من باب التحذير منه وذم من فَعَله؛ لأن الشيء الذي يضاف إلىٰ الجاهلية شرٌّ ولا خير فيه.

والجاهلية ضد العلم؛ لأنها مأخوذة من الجهل، وهي تطلق علىٰ الزمن الذي كان قبل مبعث النبي ﷺ، ثم أطلقت علىٰ كل جهل، سواء كان قديماً أو متأخراً، فما خالف الحق والعلم الذي جاء به المصطفىٰ؛ فهو جاهلية.

وقوله: «**لا يتركوهن**»؛ يعني: أن هٰذه الأربع خصال تبقىٰ في هٰذه الأمة يعني في مجموعها، وليس في كل فرد.

ثم ذكر هٰذه الخصال، فقال: «**الفخر بالأحساب**» الأحساب هي الأعمال التي يمتدح الإنسان بها من شجاعة وكرم ونحو ذٰلك.

والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، ....

قال: «**والطعن في الأنساب**» الأنساب هي التي ينتسب الإنسان إليها من قبيلة وأجداد ونحوهما، والطعن فيها والفخر فيها كلاهما من أعمال الجاهلية؛ لأن الإنسان ليس له إلا ما عمل. أما أعمال آبائه وكذٰلك نسبه؛ فإنه لا يقربه إلىٰ الحق ولا يبعده عن الباطل، والناس كلهم خلقوا من آدم، وآدم خلق من التراب، وإنما جعلهم الله ـ جل وعلا ـ شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ولهٰذا أخبر ـ جل وعلا ـ بذٰلك، فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فليس بالنسب، وإنما هو بالتقوىٰ والعمل الصالح، ولٰكن هٰذه عادة لا تترك، ولذٰلك تجد هٰذا سارياً في الناس، ولا سيما في العرب، فإنهم يطعنون في نسب بعض القبائل أو بعض الأشخاص من باب الاستنقاص والازدراء، وهٰذا لا يجوز.

والخصلة الثالثة: «**الاستسقاء بالنجوم**»؛ يعني: إضافة السقيا إليها، وهو نزول المطر، يقولون مُطِرنا بنوء كذا، ونَزَل المطر بالنجم الفلاني، ومثل ذٰلك إضافة هبوب الرياح، وإضافة الحر والبرد وما أشبه ذٰلك، يقول: هٰذا برد النجم الفلاني، أو هٰذا ريحه، أو هٰذا حره، النجوم ليس لها أي تأثير، وإنما هي مخلوقات، وهٰذا تدبير الله ـ جل وعلا ـ، وتصرفه في ملكه.

فالواجب أن تنسب هٰذه الأشياء إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، فالنعمة يشكر عليها، وإذا كان خلاف ذٰلك؛ فإنه من الابتلاء أو من المكفرات التي تكفر عن الناس ذنوبهم، فيجب أن يتوبوا ويرجعوا إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ.

الخصلة الرابعة: «**النياحة**» أي النياحة علىٰ الميت، والنياحة هي رفع الصوت بتعداد محاسن الميت، كما هي عادة العرب، فيقولون: واجبلاهْ، واناصراهْ، ومن لي بعدك، إلىٰ آخره، فهٰذه النياحة.

وليست النياحة مجرد البكاء؛ فإن بكاء العين وحزن القلب يكون رحمة إن لم يصاحبه الكلام الذي يدل علىٰ التسخط وعدم الصبر علىٰ ذٰلك، فلا بد

وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**» رواه مسلم[(١)].

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية ....

من الموت، فيجب أن يوطن الإنسان نفسه علىٰ أن هٰذا أمر قضاه الله وقدره، وأنه شيء سيسلكه هو ومن حوله فيصبر، ويلاحظ أنه إذا صبر واحتسب فإنه يؤجر، أما إذا لم يصبر؛ فإنه يفوته الأجر، وقَدَرُ الله ماضٍ ولا بد، ثم بعد ذٰلك يسلو كما تسلو البهائم، ويكون قد خسر الربح الذي يكون للصابر المسترجع المحتسب.

ثم قال: «**والنائحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**» السربال هو ثوب من قطران تلبَسه النائحة حتىٰ يشتد حريق النار بها؛ لأنه أشد اشتعالاً.

قال: «**ودرع من جرب**»؛ يعني: في جلدها من شدة العذاب، فإذا اجتمع الجرب والحريق الذي سبقه القطران فيها؛ فإن الاشتعال يكون أعظم، والعذاب أصعب ـ نسأل الله السلامة ـ، وهٰذا وعيد شديد، وعلّق ذٰلك بعدم التوبة، أما إذا تابت؛ فالله يعفو ويقبل التوبة، ويعفو عما سلف، وهٰذا مثل ما سبق من نصوص الوعيد.

وجعل هٰذا راجعاً للنائحة يعني المرأة؛ لأن الغالب أن النوح يكون من المرأة، فإذا وقع للرجل، فحكمه كذٰلك، ففي هٰذا أن نسبة النعم للمخلوق يكون نوعاً من الكفر، وأن الذي لا يصبر علىٰ الأقدار ويحتسب؛ فهو مصاب بأمرين: **أحدهما** فقد الأجر والثواب الذي يعد للصابر المحتسب. **والثاني** ترتب العذاب علىٰ فعله ذٰلك، وهٰذه خسارة كبرىٰ.

وقوله: «صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية» فيه جواز هٰذا

---

(١) «صحيح مسلم» (١٥٥٠).

علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: **«هل تدرون ماذا قال ربكم؟»**، ....

التعبير، بقوله: «**صلىٰ لنا**»؛ يعني: صلىٰ بنا، وإلا الصلاة لله ـ جل وعلا ـ، وإنما هو إمام يأتمون به، فيجوز أن يقال: صلىٰ لنا فلان؛ يعني: إماماً نأتم به.

قوله: «**صلاة الصبح**»؛ يعني: الفجر.

وقوله: «**في الحديبية**» الحديبية موضع معروف بين مكة وجدة، ويسمىٰ الآن بالشميسي، وهٰذا لمّا منعه الكفار من الدخول إلىٰ الحرم لأداء العمرة، فأقام هناك حتىٰ حصل الصلح بينه وبين كفار قريش، ثم رجع بعدما حل من عمرته في ذٰلك المكان، وهٰذا شأن المُحْصَر إذا أُحْصِر ومُنع من دخول البيت، فيتحلل بحلق رأسه ونحر الهدي الذي معه.

وقوله: «**علىٰ أثر سماء**»؛ يعني: مطر، وأضيف إلىٰ السماء؛ لأنه ينزل من السماء، وكل ما هو فوق يسمىٰ سماء، حتىٰ السقف يسمىٰ سماء، كما قال ـ جل وعلا ـ للذي يغيظه أمر الرسول ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] يعني ليجعل حبلاً في السقف، ثم ليضعه في عنقه، ثم ليختنق، فلينظر هل يذهب غيظه هٰذا؟ فإن الله لا بد أن ينصر نبيه.

والمقصود تسمية السقف سماء، فكل ما فوقك يسمىٰ سماء، لهٰذا قال: «**علىٰ أثر سماء كانت من الليل**»؛ يعني: تلك الليلة.

قوله: «**فلمّا انصرف من صلاته ﷺ: أقبل علىٰ الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم**» هٰذا الأسلوب الذي مضىٰ التنبيه عليه أنه كان من أسلوب تعليم النبي ﷺ، فكان يسأل المسألة، فإذا لم يعرفوها؛ علمهم، وذٰلك أن الإنسان إذا سئل عن شيء، ولم يعرفه؛ فإن نفسه تتطلع وتتشوق إلىٰ معرفة الجواب، فإذا ورد عليها؛ ثبت فيها، وكان أبلغ في التعليم.

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذٰلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بِنَوْء كذا وكذا، فذٰلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»(١).

قالوا: «الله ورسوله أعلم» سبق أن هٰذا يقال في زمن النبي ﷺ، أما في وقتنا؛ فإذا سئل الإنسان؛ فإنه يقول: الله أعلم؛ لأنه ليس بالإمكان مراجعة الرسول ﷺ، وأخذ العلم عنه، وإنما يقول ذٰلك وقت وجوده صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبرهم بالجواب **فقال: «قال»** ففيه إثبات القول لله ـ جل وعلا ـ، وأنه يتكلم في أي وقت شاء، بما يشاء من الكلام، فهٰذا قول أضافه الرسول ﷺ إليه، ومثل هٰذا يسميه العلماء «الحديث القدسي» نسبة إلىٰ القدس وهو الطهر، وهو الله ـ جل وعلا ـ، فهو مقدس مُنَزَّه عن كل عيب، وعن كل نقص ـ تعالىٰ الله وتقدس بأسمائه وفي ذاته ـ.

قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر**»؛ يعني: مؤمن بي أضاف النعمة إليّ، ويجب أن يشكر علىٰ ذٰلك، فيضيف النعمة إليه ويشكره، ويكون هٰذا إيمان.

أما الكافر؛ فهو الذي قال: «**مطرنا بنوء كذا وكذا**» والمؤمن من قال «مطرنا بفضل الله ورحمته»؛ يعني: أن الله تفضل علينا ورحمنا، فأنزل علينا المطر، فله الحمد، وله الثناء، من قال كذٰلك يكون مؤمناً بالله، وقد أضاف النعمة إليه.

ومن قال: «**مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب**»، وإيمانه بالكوكب هو نسبة المطر إليه، وليس أن الكوكب يتصرف وينزل المطر، ما

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه قال بعضهم: لقد صدق نَوْء كذا وكذا، فأنزل الله هٰذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ ـ إلىٰ قوله ـ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة][1].

كان أحد من الجاهلية يعتقد هٰذا، فإذا وجد ذٰلك؛ فهٰذا شذوذ، وإنما كانت طريقتهم إضافة نزول المطر إليه فقط؛ لأنه نزل في طلوعه، أو في زمنه، ومع ذٰلك يكون هٰذا كفراً.

أما إذا قال: (مطرنا في شهر كذا، أو في يوم كذا)؛ فهٰذا لا يدخل فيه؛ لأن هٰذا إخبار عن الوقت الذي جاء فيه المطر فقط، وإنما المحذور أن يضاف المطر إلىٰ مخلوق، والعادة أنه يضاف إلىٰ الكواكب ـ الأنواء ـ التي تنوء وتغرب، ومع أن النوء يطلق علىٰ الغروب، ويطلق علىٰ الطلوع؛ فهٰذا فيه التصريح أنه يكون كافراً، ولٰكن يحمل علىٰ كفر النعمة، إلا إذا اعتقد أن الكوكب له تصرف بذاته، وأنه ينزل المطر؛ فهٰذا كفر أكبر بالله ـ جل وعلا ـ. ولٰكن قد علم من حالتهم أنهم لا يعتقدون هٰذا؛ لأنه جاء في القرآن ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وإذا سُئلوا: ﴿مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾ [الزخرف: ٨٧] قالوا: الله، وإذا سئلوا: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ قالوا: الله. كذٰلك إذا سئلوا من الذي ينبت النبات، وينزل المطر، ولهٰذا كانوا يقولون: النوء الفلاني محمود، والنوء الفلاني نحس؛ لأنه لا تنزل فيه الأمطار، فهٰذا أيضاً لا يجوز؛ لأن هٰذا إضافة إلىٰ النوء، وهو لا يأتي بالنعم، وكذٰلك بالقحط، كل هٰذا علىٰ طريقتهم التي هي كفر كما سماها في هٰذا الحديث.

قال: «ولهما»؛ يعني: البخاري ومسلماً **«من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»** صدق يعني نزل فيه المطر؛ لأنهم يضيفون إلىٰ بعض الكواكب أنها غزيرة المطر، وبعضها ليس فيها مطر، وهٰذا

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣).

....

يوجد حتىٰ الآن في كتب التقويم والمفكرات - كما يسميها بعض الناس - يكتب النوء الفلاني كثير المطر، وهٰذا لا يجوز؛ لأن إضافة المطر إليه نوع من الكفر.

وإن كان المقصود اللفظ فقط دون المعنىٰ فلا يعتقدون أن الأمطار تنزل بتدبير الكواكب، ولٰكن مجرد اللفظ؛ فيكون كفر بالنعمة؛ لأن الواجب أن تضاف النعم إلىٰ مسديها ومُوليها، ثم أيضاً يجب أن يشكر علىٰ ذٰلك.

وقوله: «صدق نوء كذا»؛ يعني: أنه نزل فيه المطر كما توقع الذي يقوله.

يقول: «**فأنزل الله هٰذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾** [الواقعة]» يعني تقولون: نزل المطر كذا وكذا في نوء كذا وكذا، هٰذا كذب، والرزق عل هٰذا هو المطر، وهٰذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باستشهاده بالآية علىٰ هٰذا التفسير.

وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ يقول العلماء: (فلا) هٰذه كأنها صلة؛ يعني: أنها نفي لشيء معلوم عندهم[1]، ثم قال: ﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ومواقع النجوم قيل: إنها نجوم نزول القرآن، وقيل: النجوم المعلومة، والظاهر هو هٰذا.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هٰذا يدل علىٰ أنها عظيمة وكبيرة، لا ندركها.

والمقسم عليه **قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾**؛ يعني: أن هٰذا الكتاب الذي أنزل الله علىٰ رسوله. و﴿كَرِيمٞ﴾؛ يعني: واسع المعاني، وكثير الخيرات.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٣)، «فتح القدير» (٧/ ١٦٣).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الواقعة. **الثانية**: ذكر الأربع من أمر الجاهلية. **الثالثة**: ذكر الكفر في بعضها. **الرابعة**: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة.

الخامسة: قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» بسبب نزول النعمة.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾؛ يعني: مصون مطهر.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾؛ يعني: لا يجوز أن يمسه إلا طاهر، هٰذا أصح أقوال العلماء، فيجب أن يكون الذي يقرأ في المصحف متطهراً، ولا يجوز أن يقرأه من كان محدثاً، لهٰذه الآية ولغيرها.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾؛ يعني: أنه نزل من عند الله، وهٰذا يدل علىٰ علو الله ـ جل وعلا ـ، وأنه فوق خلقه مستوٍ علىٰ عرشه، فالنزول لا يكون إلا من العلو إلىٰ السفل.

أما **قوله**: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ هٰذا إنكار، ويعني بالحديث القرآن، والمداهنة يعني الموافقة ولو في الظاهر للكافرين.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يعني تعتقدون أو تقولون: إنا مطرنا بكذا وكذا ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وهٰذا كذب أو أنكم تجعلون نصيبكم من كتاب الله التكذيب، ومن كان نصيبه التكذيب، فهو خاسر ولا شك.

قوله: «**أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة**» يعني: كفر نعمة؛ لأن من فعل ذٰلك لا يكون كافراً خارجاً من الدين الإسلامي.

قوله: «**بسبب نزول النعمة**» يعني: أنه إذا نزلت نعمة؛ فالناس ينقسمون نحوها إلىٰ قسمين: شاكر وكافر، فالشاكر الذي يضيفها إلىٰ ربه، ويشكره عليها. وأما الكافر الذي يكفر بالنعمة فإنه يضيفها إلىٰ مخلوق، ولا يحمده

السادسة: التفطن للإيمان في هٰذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هٰذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

عليها، ولا يثني بها عليه، فهٰذا كفر بالنعمة.

قوله: «التفطن للإيمان في هذا الموضع» يعني: أن الإيمان نسبة نزول المطر إلىٰ رب العالمين، فإضافته إلىٰ رب العالمين إيمان بالله، ونسبته إلىٰ الكوكب كفر بالله، وإيمان بالكوكب، كما قال في الحديث.

قوله: «التفطن للكفر في هذا الموضع» يعني: أنه كفر النعمة.

قوله: «التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا»» يعني: أنه نزل في طلوعه أو في أفوله؛ لأنهم كانوا يتوقعون ذٰلك، وهو لا يصدق، وليس عنده صدق ولا كذب، وليس عنده تدبير ولا تأثير، وإنما هٰذا اعتقاد الناس الكاذب الذي ليس في موضعه، ولهٰذا يؤاخذون به.

باب

قول الله تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥]

قال: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

في هاتين الآيتين يبين ـ جل وعلا ـ أن الحب يجب أن يكون له خالصاً.

وينقسم الحب إلىٰ قسمين:

القسم الأول: حب خاص؛ لخصوصيته بالله ـ جل وعلا ـ، وهو الحب الذي يتضمن الذل والتعظيم، وهو حب العبادة، ولا يجوز أن يكون لمخلوق، الحب الذي فيه الذل والتعظيم والخضوع عبادة بل هو العبادة التي أمر الله ـ جل وعلا ـ بها وهو معنىٰ التأله، تأله للقلب وتتبعه الجوارح.

القسم الثاني: الحب المشترك الذي يشترك فيه الناس والمخلوقات، وهو أنواع:

النوع الأول: حب الحنو والشفقة، كحب الوالد لولده الصغير.

النوع الثاني: حب التقدير والإكبار، كحب الولد لأبيه تقديراً وإكباراً له.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ ـ إلىٰ قول تعالىٰ ـ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

النوع الثالث: حب الألفة والمؤاخاة، كحب الزميل لزميله، والشريك في الصنعة أو في العمل لشريكه.

النوع الرابع: الحب الطبيعي كحب الجائع للطعام، وحب الظمآن للماء.

هٰذه الأنواع لا بأس بها، ولا لوم علىٰ الناس فيها، وإنما الممنوع أن يجعل ما لله من الحب الذي فيه الذل والتعظيم والخضوع لمخلوق. هٰذا المراد في الآية؛ لأن هٰؤلاء أحبوا أندادهم حب خضوعٍ وذلٍّ، وجعلوا هٰذا الحب مقسوماً بين أندادهم وبين ربهم ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ، فأشركوا في ذٰلك، فوقعوا في الشرك. فهٰذا من الشرك الأكبر الذي إذا مات عليه الإنسان فإنه يكون خالداً في النار، فهٰذا هو شركهم.

ولهٰذا قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ يعني غير الله، والند هو المثل والشبيه، ولو بصفة من الصفات. فجعلوا الأصنام أنداداً لله؛ يعني: شبيهة لله في الحب الذي ذكره الله ـ جل وعلا ـ، فهم يحبونها حب تعظيم وذل، فوقعوا في الشرك، ولهٰذا قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني تكون المحبة موزعة بين هٰذه الأصنام وبين ربهم، ودل علىٰ أن حبهم مثل حب الله، ودل كذٰلك علىٰ أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولٰكنه لا ينفعهم؛ لأن الحب لم يخلصوه لله ـ تعالىٰ وتقدس ـ، فدل علىٰ وجوب إخلاص الحب الذي هو حب التأله والتعبد، أي: أن يكون خالصاً لله ـ جل وعلا ـ.

أما قوله في الآية التي بعدها في آية التوبة؛ فهو وعيد من الله ـ جل وعلا ـ، يقول: إن كانت هٰذه الأشياء مقدمة عندكم في الحب، وهي التي تعملون من أجلها؛ فقد خرجتم عن الأمر الذي أمركم الله ـ جل وعلا ـ، فأنتم فاسقون، فانتظروا عذابه، انتظروا ما يحُل بكم من العذاب؛ يعني: من

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه** ....

كانت الدنيا بما فيها أحب إليه من عبادة الله، ومن التأله له؛ فإنه قد خرج عما خلق له، فهو فاسق، فلينتظر ما يحل به عاجلاً وآجلاً في النار ـ نسأل الله العافية ـ.

ففي الآيتين وجوب إخلاص الحب لله وحده الذي هو حب الذل والتعظيم ـ حب العبادة ـ، أما الحب المشترك؛ فإنه واضح أنه لا بأس به، وأنه لا لوم علىٰ الإنسان فيه.

قوله: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه» هٰذه محبة الرسول ﷺ، ومحبة الرسول محبة تابعة لمحبة الله، وليست محبة مع الله، بل هي لله، تحبه لأن الله يحبه، ولأن الله أمرك بحبه، ولأن الله استنقذك بسببه من الكفر، وسلكت بسببه طريق الهدىٰ الذي يوصلك إلىٰ السعادة، فتحبه من أجل ذٰلك؛ لأنه هو السبب في خلاصك من الشياطين وشركهم، وكذٰلك ما يترتب علىٰ ذٰلك من عذاب.

وكذٰلك من يكون مطيعاً لله تحبه؛ لأنه مطيع لله، وبهٰذا يتبين إذا نظرنا بإمعان أن الحب لا يكون لذات الشيء؛ يعني: لكونه لحماً ودماً، وإنما يكون لأجل الصفة التي تقوم به، أما حب الذات؛ فهٰذا لا يكون إلا لله وحده، هو الذي يحب لذاته ـ تعالىٰ وتقدس ـ.

أما المخلوقات كلها؛ فتحب لما فيها من الصفات؛ لأنه رسول الله، فهٰذه صفة؛ ولأنه سبب إنقاذك من الضلال، هٰذه صفة، وكذٰلك الطائع لله تحبه لأجل هٰذه الصفة؛ لأنه مطيع لله؛ ولأن الله يحبه، فتحب ما يحبه الله، فيكون ذٰلك تبعاً ومكملاً لمحبة الله، وليست محبة مع الله هٰذا الذي يجب أن يفهم، فبهٰذا يحصل الفرق بين محبة الرسول ﷺ، فهي محبة لله، وفي الله تحبه؛ لأن الله يحبه؛ ولأن الله أمرك بحبه، ومحبة الله فهي محبة ذلٍّ وعبادة، فيجب أن تكون له وحده.

من ولده، ووالده، والناس أجمعين» أخرجاه[١].

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه ......**

والحديث صريح في وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من محبتك لولدك، ووالدك، ونفسك، ولهٰذا **قال: «لا يؤمن أحدكم»**؛ يعني: الإيمان الواجب الكامل الذي ينجيك من عذاب الله، ولا يحصل إلا بهٰذا، وليس المراد الإيمان المستحب كما يقوله من يقوله، فإن هٰذا باطل؛ إذْ لم يعهد نفي الواجب لانتفاء مستحب؛ يعني: لا يُنفى الإيمان من أجل انتفاء مستحب، كما لا تنفىٰ الصلاة لأجل أنك ما فعلت فيها مستحباً، وكذٰلك غيرها من الواجبات، فهٰذا لا يعهد في كتاب الله أو سنة رسوله؛ لهٰذا نقول: إن الذي يقول: إن المنفي هو الواجب المستحب فهٰذا غير صحيح، بل المنفي هنا الكمال الذي يجب؛ يعني: إذا فقد يكون الإنسان متعرضاً لعذاب الله، ولوعيد الله.

وقوله: «حتىٰ أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين»؛ يعني: ذكر جميع المخلوقات هنا، فيدخل فيه المال، ويدخل فيه الجاه والمناصب وغيرها، وكلها لا يجوز أن تقدم علىٰ محبة الرسول ﷺ، أو تكون مانعة منها.

ثم **قال: «ثلاث من كن فيه»** هٰذه الثلاث إذا تحلىٰ بها العبد؛ وجد حلاوة الإيمان، وهٰذه الحلاوة هي حلاوة حقيقية، تكون أحلىٰ من العسل، أحلىٰ من الحلاوة التي يصنعها ويأكلها؛ لأنها حلاوة إيمان، حلاوة يكون لها أثر في القلب، وفي البدن، وفي السلوك، ويكون فيها طمأنينة، ويكون فيها أيضاً حياةٌ سعيدة، وليس كل أحد يجد هٰذه الحلاوة.

وإذا لم يجدها؛ فلا يدل علىٰ أنه ليس بمؤمن، ولٰكن ليس عنده الإيمان الواجب الكامل الذي ينجو به ويسلم من العذاب في الدنيا والآخرة.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٤).

وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، ....

لمّا قال: **«ثلاث»** هنا بدأ بالنكرة؛ لأنها موصوفة **«ثلاث من كن فيه»**؛ يعني: من وجدن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، فبيّن أن حلاوة الإيمان توجد، يجدها ويذوقها حقيقة بعض المؤمنين.

قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» قد يشكل هذا لما في «صحيح مسلم» أن رجلاً خطب، فقال: من يطع الله ورسوله؛ فقد رشد، ومن يعصهما، فقد غوىٰ، فقال ﷺ: **«بئس الخطيب أنت، قل ومن يعصِ الله ورسوله»**(١)؛ يعني: ففرق بين الضميرين.

واختلفت أجوبة العلماء علىٰ هٰذا، فقيل: إن هٰذا من باب الأدب، وهنا بيّن أنه يجوز، وذاك علىٰ سبيل الكمال.

وقيل: لأن معصية أحدهما تكون مستقلة بالهلاك، وهو قال: (ومن يعصهما)، وهنا **قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**، فجاء في الشيء الواجب. وقيلت أقوال غير هٰذه. ولٰكن الأمور التي تفهم باطلاً لا يجوز أن يعبر بها، فيجب أن يكون الإنسان محترزاً من ذٰلك، ودل علىٰ أن جمع الضميرين لا يدل علىٰ مساواة حب الله بحب الرسول ﷺ، فحب الله حبّ عبادة، وحب الرسول ﷺ تابع لمحبة الله تعالىٰ.

وقوله: «أن يحب المرء لا يحبه إلا لله»؛ يعني: يحبه لأجل أنه مطيع لله ـ جل وعلا ـ، فحبه لله لا لأجل الدنيا، ولا لأجل منافع يتحصل عليها، وعلامة ذٰلك: أن هٰذا الحب لا يتغير بقرب وجفاء، ولا يتأثر بتقديم منافع، أو أنه يمتنع من ذٰلك؛ لأنه ليس للدنيا، وإنما هٰذه تكون محبة دنيا، والحب الذي يكون لله؛ فما دام مطيعاً لله ـ جل وعلا ـ؛ فإن الحب يكون موجوداً؛ ولأنه لله؛ لأنه مطيع، وهٰذا فرق واضح بين الحب لله، وبين الحب للدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٨) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»[١]، وفي رواية: **«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ..»** إلىٰ آخره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال وَلاية الله بذلك، ولن يجد**

وقوله: **«أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ انقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»**؛ لأنه وجد حلاوة الإيمان، وتحلىٰ به، وعلم أن الإيمان منقذ له من كل سوء، ومن كل عذاب في الدنيا والآخرة، فلا يتخلىٰ عنه بشيء حتىٰ لو قتل، أو قطع، أو أحرق، فإنه يقدم ذهاب نفسه في هٰذا السبيل قبل ذهابه.

ولا يسمح بذهاب دينه، بل يحافظ علىٰ دينه، وإن ذهبت نفسه؛ لما تحلىٰ به من معرفة الحق، والحرص عليه، والتمسك به، مثل هٰذا كان كثيراً في السلف، فوجدوا حلاوة الإيمان، فاستهانوا بالدنيا، فتجد أحدهم يُقْدم علىٰ الموت مستهيناً به؛ لأنه قد وجد حلاوة الإيمان، ولهٰذا قال: **«يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»**.

والقذف في النار مؤلم وشديد، ولٰكنه يُؤْثر علىٰ ترك دينه؛ لما تحلىٰ به من معرفة الحق وحبه، وأن به السعادة التي لا تنقطع.

وقوله: **«وفي رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ...»**؛ يعني: جاء بهٰذه الرواية؛ لأنها تدل علىٰ الوجدان؛ أي أنه يجد، وإن كانت الأولىٰ أيضاً فيها **«وجد بهن»** ولٰكن هنا فيه النفي، قال: **«لا يجد»** فدل علىٰ أنه يوجد من المؤمنين من لا يجد حلاوة الإيمان.

قوله: **«من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك»** ولاية بفتح الواو؛ يعني: كون الإنسان ولياً لله، ومن أولياء الله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥، ٦٤٢٨)، ومسلم (٦٠)، والرواية الثانية: أخرجها البخاري (٥٥٨١).

عبد طعم الإيمان ـ وإن كثرت صلاته وصومه ـ حتىٰ يكون كذٰلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا، وذٰلك لا يجدي علىٰ أهله شيئاً» رواه ابن جرير(١).

قوله: **«ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان ـ وإن كثرت صلاته وصومه ـ حتىٰ يكون كذٰلك»**؛ يعني: يكون أمره كله لله، إن أحب؛ فهو يحب لله، وإن أبغض؛ فهو يُبغض لله، وإن أعطىٰ؛ فهو يعطي لله، وإن زوّج؛ فهو يزوج لله، فأعماله تكون لله، فإذا صار بهٰذه الصفة؛ فهو وليٌّ لله، يكون من أولياء الله، ولهٰذا قال: **«وإنما تنال وَلاية الله بذٰلك»**؛ يعني: تكون أعمال الإنسان وتصرفاته كلها لله تعالىٰ خالصة له.

وقوله: **«ولن يجد عبد... إلخ»**؛ يعني: أن ولاية الله ليست بكثرة الأعمال الظاهرة، وإنما هي لما يكون في القلوب من حب الله ـ جل وعلا ـ والإخلاص، وكون العمل كله لله تعالىٰ وإن قلَّ، فيكون بذٰلك من أولياء الله.

وقوله: **«وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا»** هٰذا في وقت ابن عباس رضي الله عنه، فكيف بالأوقات المتأخرة؟! وكيف بوقتنا؟! فإن كثيراً من مؤاخاة الناس علىٰ المعاصي ـ نسأل الله السلامة ـ يتآخون علىٰ المعاصي، وهٰذا من الخطأ، وهٰذا الذي ذكر الله ـ جل وعلا ـ قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف] فهناك يتعادىٰ الأخلاء والأصحاب، إلا من كانت خَلَّته وصحبته لله ـ جل وعلا ـ، فهٰؤلاء هم الذين استثنوا.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٤٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٣٥٤) موقوفاً على ابن عباس. وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٣٥٥) موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنه. وأخرجه مرفوعاً أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/١٦٦)، وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/١٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وعلى كل حال؛ فمداره على الليث بن أبي سليم، وهو متكلم فيه. انظر: «تقريب التهذيب» (٢/٤٨).

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: المودة[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية البقرة. **الثانية**: تفسير آية براءة. **الثالثة**: وجوب تقديم محبته ﷺ علىٰ النفس والأهل والمال. **الرابعة**: أن نفي الإيمان لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام.

وكذٰلك قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف]، فالمصاحبات والموالاة علىٰ المعاصي تنقلب علىٰ أصحابها عداوة يوم القيامة وبغضاً وكراهية، وكل واحد يلعن الثاني.

وهٰذا معنىٰ قول ابن عباس في تفسير الآية ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال: «**المودة**» التي كانت بينهم في الدنيا، والتي كانت علىٰ المعاصي فلا تنفعهم تلك المودة. ليس لله فيها شيء.

قوله: «**نفي الإيمان لا يدل علىٰ الخروج من الإسلام**» لأنه يقول: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ»... إلخ؛ لأن المؤمنين درجات، فبعضهم كامل الإيمان، وبعضهم ناقص الإيمان، وبعضهم ضعيف الإيمان، فيوجد من إيمانه ضعيف، وهٰذا كله لا يخرجهم من الإيمان، ولا يخرجهم من الدين الإسلامي، ولهٰذا تفاوتت منازلهم عند الله ـ جل وعلا ـ، وإن كان أصحاب ضعف الإيمان معرضين للعقاب، ولٰكن ليس عقابهُم عقابَ الكفار من أهل النار، عقابهم علىٰ التقصير أو علىٰ فعل المعاصي إذا شاء الله، وإن شاء ـ جل وعلا ـ عفا دون أن يعذبهم، وأدخلهم الجنة بشرط أن لا يموتوا علىٰ الشرك.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٢٤٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٣١)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٤٩٣).

....

فالشرك أخبر الله ـ جل وعلا ـ أنه لا يغفره لمن مات عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدلت الآية علىٰ أن كل الذنوب ـ ما عدا الشرك ـ تحت مشيئة الله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا باتفاق العلماء.

أما الذي يتوب؛ فالله يتوب عليه مهما كان ذنبه، كما قال الله تعالىٰ في الآيــة الأخــرىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الـزمـر] وقـولـه: ﴿جَمِيعًا﴾ دخل فيه حتىٰ الشرك، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له إذا قبلت توبته.

والتوبة التي تقبل لها شروط تقدمت، فإذا وجدت هٰذه الشروط؛ فهي توبة نصوح، وليس شرطاً أن لا يعود أصلاً، فإن قُدّر أنه عاد في الذنب فإنه يعود مرة ثانية ويتوب علىٰ هٰذه الطريقة، حتىٰ وإن كان مراراً كثيرة، فكلما وقع في ذنب؛ يجب عليه أن يتوب، وتكون عنده هٰذه الأمور، كما جاء في «الصحيحين» عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«أصاب عبد ذنباً، فقال: أي رب، إني أصبتُ ذنباً، فاغفر لي. فقال ـ جل وعلا ـ: عبدي علِم أن له رباً، يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء، ثم أصاب ذنباً، فقال: أي رب، إني أصبتُ ذنباً، فاغفر لي. فقال الله ـ جل وعلا ـ: عبدي علم أن له رباً، يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً. فقال: أي رب إني أصبتُ ذنباً، فاغفره لي. فقال الله ـ جل وعلا ـ: عبدي علم أن له رباً، يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثلاثاً، فليعمل ما شاء»**(١).

فقوله: «**فليعمل ما شاء**»؛ يعني: كلما أذنب ذنباً؛ فتاب؛ قُبِلَت توبته، هٰذا من فضل الله ـ جل وعلا ـ ورحمته، ولٰكن لا يجوز أن يكون هٰذا داعياً

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (٤٩٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة علىٰ أمر

للإنسان أن يفعل الذنوب، فإن هٰذا معناه أن توبته ليست صحيحة ونصوحة، بل عزيمته علىٰ أنه لا يعود تكون مستمرة، ولٰكن قد تضعف نفسه، وقد يغلبه الشيطان، فإذا غلبته نفسه، وغلبه الشيطان يعود إلىٰ التوبة مرة أخرىٰ وهٰكذا.

وذٰلك أن بعض الشباب وبعض الذين يقعون في الذنوب قد يقنطهم الشيطان، يقول: أنا عدت وعاهدت ربي مرة ثم مرة ثم مرة، فلا فائدة، هٰذا لا يجوز أن يكون؛ لأن الشيطان يود هٰذا حتىٰ يسد علىٰ الإنسان طريق التوبة، فيجب أن يكون تعلقه بالله وثقته بالله أعظم، فإن الله كريم جواد يفرح بتوبة عبده التائب إذا تاب، فيجب أن يتوب من كل ذنب، ثم إذا عاد فلا يقنط ولا يطيع الشيطان.

قوله: «**أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها**» يعني: المؤمن قد يجدها، وقد لا يجدها.

قوله: «**ولاية الله**» قد ذكر الله ـ جل وعلا ـ حدها ووصفها، وهي بتحقق الإيمان والتقوىٰ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس] هٰؤلاء هم أولياء الله، فالتقوىٰ هي فعل المأمور وترك المحظور، ومن كان بهٰذه الصفة متبعاً لسنة المصطفىٰ؛ فهو من أولياء الله، وليست الولاية أن يكون له كرامات، ويكون له شيء خارج عن عادة الناس، لا يلزم هٰذا.

في هٰذا الباب يريد المؤلف أن يبين أن الخوف يجب أن يكون من الله.

الدنيا. **الثامنة**: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. **التاسعة**: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً. **العاشرة**: الوعيد علىٰ من كانت الثمانية أحب إليه من دينه. **الحادية عشرة**: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

باب

قول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

والخوف السِّرِّي هو أن يكون خائفاً من أن يوقع به إذا خالف أمره، أو أنه إذا ترك ما أمر به، أو فعل ما نهي عنه أن يوقع به العذاب، فهٰذا لا يجوز أن يكون لمخلوق، فإن وقع لمخلوق، فهو الشرك الأكبر، ويسميه بعض الناس «خوف السر» يعني خوف السريرة، الخوف الغيبي، فالخوف الغيبي يجب أن يكون من الله ـ جل وعلا ـ وحده.

قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] يدل علىٰ أن الخوف يجب أن يكون لله وحده، وأن يخلص لله وحده، فهو خوف من الأمور المستقبلة المتوقعة لئلا تحصل لهم.

وهٰذه الآية نزلت في قصة أُحُد، فلما انصرف المشركون أرسلوا إلىٰ المسلمين أي الرسول ﷺ والصحابة ﷺ أنهم عازمون علىٰ الكرة؛ ليستأصلوهم، فلما بلغهم ذٰلك قال لهم الرسول ﷺ: **«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»** حسبنا أي كافينا، فأنزل الله ـ جل وعلا ـ هٰذه الآية وما بعدها.

قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾؛ يعني: هٰذا الذي جاءكم بالتخويف من الشيطان يخوفكم بأوليائه؛ وأولياؤه هم الكفار، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ إنهم عبيد لله، يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا يضرون ولي الله، والمؤمن بالله ـ جل وعلا ـ يتوكل علىٰ الله.

فالمقصود أن الخوف يجب أن يكون من الله وحده، وأن الكفار لا يُخافون، وليس معنىٰ ذٰلك أن الخوف الذي يكون بطبيعة الإنسان، مثل كونه

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

يخاف من السَّبع، أو يخاف من الحية، أو ما أشبه ذٰلك، أو يخاف من عدوه؛ وإنما الخوف الذي يكون في سره وفي الغيبة حينما يكون تاركاً للأمر أو مرتكباً للنهي، هٰذا يجب أن يكون من الله ـ جل وعلا ـ، تخافه إذا تركت أمره أن يوقع فيك العذاب؛ لأنه مطلع عليك، أو تخافه إذا ارتكبت نهياً مما نهاك عنه، فهو مطلع عليك، يعلم ما أنت فاعل، فيجب أن تخلص الخوف له في هٰذا.

وكذٰلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] الخشية هي الخوف؛ يعني: يكون خوفه لله وحده ـ جل وعلا ـ، فدل علىٰ وجوب إخلاص أصل الخوف لله.

قوله: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني أذاهم، وما ينالك منهم، فالذي يترك الإيمان بالله معناه أنه أمن خوف الله، وقدم عليه مخافة الناس، فاستبدل النار بالرمضاء، فهٰذا يكون فاقداً للإيمان بهٰذه المكانة.

قوله: : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ يعني: في الرخاء ما دام أنه في عافية.

أما إذا ناله الأذىٰ وناله العذاب؛ فإنه يدرأ عذاب الناس بالكفر بالله ـ جل وعلا ـ، ويترك الإيمان بالله، هٰذا دليل علىٰ أن إيمانه غير صحيح، وهو بهٰذا يتعجل العذاب؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ من سنته أن من خاف الناس أنه يسلطهم عليه، وهٰذا لا يظهر لكل أحد، ولٰكنه لا بد منه.

عن أبي سعيد ﷺ مرفوعاً: «**إن من ضعف اليقين أن تُرْضِيَ الناس بسخط الله، وأن تحمَدَهم علىٰ رزق الله،** ....

ولهٰذا ذكر حديث أبي سعيد: «**إن من ضعف اليقين أن تُرْضِيَ الناس بسخط الله**» اليقين هو الإيمان الكامل الذي يكون مستقره القلب يتيقن يقيناً لا يتزعزع؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ هو الذي يدبر الأشياء، وهو الذي يعاقب ويثيب، فإذا آمنت به، وأطعته؛ فسوف يحميك بقدرته وبفضله عن كل سوء يقصدك.

وقد يبتلىٰ الإنسان، ويكون ذٰلك إما تمحيصاً وتكفيراً، أو حتىٰ يظهر صدقه من كذبه، وإن كان الله ـ جل وعلا ـ يعلم ما في القلوب، ويعلم ما في المستقبل، ولا يخفىٰ عليه شيء، ولٰكن من رحمته ـ جل وعلا ـ أنه لا يأخذ إلا بالعمل الذي يظهر لهٰذا.

يقول الله ـ جل وعلا ـ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] يعني بالعمل الذي تعملونه انظروا إليه، وقد علم من يعمل حقاً وصدقاً وإخلاصاً ممن يكون بعكس ذٰلك قبل وجودهم، ولٰكنه ـ جل وعلا ـ يكتب العمل ويجازي عليه، ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥].

قال: «**مِنْ ضعف اليقين**»؛ يعني: الإيمان «**أن ترضي الناس بسخط الله**»؛ يعني: أنك تختار ما يسخط الله لترضي به الناس، فهٰذا يدل علىٰ ضعف الإيمان؛ لأنك إذا آثرت مرضات الله؛ فسوف يكفيك الله خلقه وكل شيء؛ لأن الخلق كلهم بيد الله ـ جل وعلا ـ يصرفهم كيف يشاء ونواصيهم بيده.

وقوله: «**وأن تحمدهم علىٰ رزق الله**»؛ يعني: تضيف الرزق إليهم الذي قدره الله لك علىٰ أيديهم، وجعل له سبباً، فتضيفه إلىٰ السبب؛ فإن هٰذا أيضاً من ضعف اليقين، ولا يقتضي هٰذا بأنك لا تراعي حقوقهم، بل يجب أن تعرف لكل ذي حق حقه، وتشكره الشكر الذي أمر الله به «**من لا يشكر الناس**

وأن تذمهم علىٰ ما لم يُؤْتِك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»[١].

لا يشكر الله»[٢]؛ يعني: يكافئهم من باب المكافئة، ولو بالدعاء، ولهٰذا قال ﷺ: «**من صنع لكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به؛ فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه**»[٣].

وفي حديث: «**من صنع له معروف فقال: جزاك الله خيراً؛ فقد أبلغ في الثناء**»[٤] لأن الخير الذي يجزيه الله إياه أفضل مما تأخذه منه.

وقوله: «وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله»؛ يعني: إذا وقع لك شيء تكرهه علىٰ أيديهم تذمهم، أو أنك تتوقع شيء يأتيك منهم، فلم يقع؛ فتذمهم، فهٰذا لا يجوز؛ لأن هٰذا كله بتقدير الله، ولو شاء الله لأتاك بأي سبيل كان، ويجب أن تؤمن بأن الله ـ جل وعلا ـ هو المتصرف بكل شيء.

ولهٰذا قال: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**»؛ يعني: من الخلق كلهم إلا الشيء الذي قدره الله لك، فلا بد من حصوله، والذي قدره الله ـ جل وعلا ـ أنه لا يحصل فلو فعلت أي سبب من الأسباب فإنه لا يحصل لك، فيجب أن تؤمن بأقدار الله، وأن الأمر كله بيد الله حتىٰ يكون عندك يقين وتتبع أمر الله، فيثيبك الله ـ جل وعلا ـ علىٰ شكرك النعم، وعلىٰ صبرك، وإيمانك بأن الذي قدره الله لا يتخلف، فتصبر وتحتسب، وترجو ثواب الله ـ جل وعلا ـ.

هٰذا هو معنىٰ الحديث السابق، وإنما يذكر هٰذا لتعاضدها، وإن بعضها يكون فيه من الكلام ما هو أوضح من البعض الثاني، فيفسر بعضه بعضاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٧١٩١)، وأبو داود (٤١٧٧) بنحوه، والترمذي (١٨٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (٥١١٠)، وأبو داود (١٤٢٤)، والنسائي (٢٥٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٥٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**من التمس رضىٰ الله بسخط الناس؛ رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**» رواه ابن حبان في صحيحه[١].

وقوله: «من التمس رضىٰ الله بسخط الناس»: يعني: إذا كان الناس يأمرونك بمعصية، فتسخطهم ولا تطيعهم طاعةً لله ـ جل وعلا ـ، وإن كانوا يأمرونك بترك واجب، فإنك تسخطهم في هٰذا، ولا تطيعهم التماساً وطلباً لرضىٰ الله، فإذا إذا كان الإنسان بهٰذه الصفة فسوف يرضىٰ الله عنه ـ جل وعلا ـ ويرضىٰ عنه الناس، ولا يلزم أنه لا يصيبه شيء، ليس لازماً؛ لأن الإنسان قد يبتلىٰ.

وبالعكس فإذا تركت أمر الله خوفاً من الناس، أو طلباً لرضاهم؛ فسوف يقلب عليك الله ـ جل وعلا ـ ما تتوقعه من رضىٰ الناس سخطاً عقاباً عاجلاً، وهٰذا أمر مشاهد، فيجب أن يكون العبد مُؤْثِراً لطاعة الله ومرضاته، وما عنده من الجزاء والفضل، وإن أصابه ما أصابه، فإن صبر واحتسب؛ فسوف يكون ذٰلك الذي يتوقعه مودةً وخيراً له، وإن قدر أنه لا يكون كذٰلك؛ فيحظىٰ برضىٰ الله ـ جل وعلا ـ، فهو الغنيمة الكبرىٰ التي لا تقدر بحصول الدنيا كلها، فلو حصلت له لا تقدر أن تكون ثمناً لذٰلك، فرضىٰ الله ـ جل وعلا ـ يصل بالسعادة في الدنيا والآخرة. وإذا شاء فإنه ـ جل وعلا ـ يحميك ويحوطك بكل عناية وبكل لطف عما يقصدك من الناس ومن غيرهم، فهو الذي ـ جل وعلا ـ بيده أزمّة الأشياء، وهو الذي ـ جل وعلا ـ يتصرف بالمخلوقات كلها؛ لأنه هو ربها ومالكها، فإذا آمن العبد بذٰلك؛ فإن الله يجزيه بأن يسعده، ويحميه من كل مؤذٍ.

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٢٧٥).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية آل عمران. **الثانية**: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت. **الرابعة**: أن اليقين يضعف ويقوىٰ.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذٰلك هٰذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله. **الثامنة**: ذكر عقاب من تركه.

قوله: «**أن اليقين يضعف ويقوىٰ**» اليقين هو الإيمان، ولٰكن الإيمان الذي يكون بالقلب لا يتزعزع الإيمان الكامل يسمىٰ اليقين.

قوله: «**أن إخلاص الخوف لله من الفرائض**» يعني: الخوف الخاص الذي هو خوف غيبي أو خوف من الأمور المستقبلة أو ما أشبه ذٰلك، فيجب أن يكون خالصاً لله ـ جل وعلا ـ، وهو من الأمور التي لا بد منها؛ فالخوف والرجاء، وهما من أركان الإيمان، وأركان العمل، فالعبد لا بد أن يخاف من ربه ويرجو ثوابه.

باب
قول الله تعالىٰ:
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

مقصود المؤلف في هـٰذا الباب بيان أن التوكل علىٰ الله فرض علىٰ كل مسلم.

والتوكل هو اعتماد القلب علىٰ ربه ـ جل وعلا ـ بعد فعل السبب، يفعل السبب المشروع الذي أمر به، ثم يعتمد علىٰ ربه في حصول المقصود، ولا يكون التوكل بتعطيل الأسباب، فإن هـٰذا يسمىٰ عجزاً، ولا يسمىٰ توكلاً، ولهـٰذا أمر الله ـ جل وعلا ـ بالعمل، أمر بالإيمان، وأمر بالعمل الصالح، وأوجب التوكل، وجعل التوكل فريضةً لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا إياك، كما لا نتوكل إلا عليك، هـٰذا المعنىٰ؛ لأنه قدم ما حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يدل علىٰ الاختصاص والحصر في هـٰذا الشيء الذي ذكر.

ولهـٰذا **قال**: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ومفهوم الآية: أن الذي لا يتوكل علىٰ الله لا يكون مؤمناً.

وبهـٰذا استدل العلماء علىٰ أن التوكل فريضة من الفرائض لا بد منها، والتوكل عبادة من العبادات التي لا يجوز أن تجعل للمخلوق، فلا يجوز أن تقول: توكلت علىٰ فلان، أو توكلت علىٰ الله ثم علىٰ فلان؛ لأن فلاناً لا يُعبَد مع الله أصلاً، والتوكل لا يكون لمخلوق أصلاً، وإنما الذي يجوز للمخلوق أن توكله بأمر من الأمور، إما يبيع لك حاجة، أو يشتري لك حاجة، أو ما أشبه ذٰلك، تقول: (وكلتك أن تفعل كذا نيابة عني).

أما التوكل؛ فهـٰذا فعل القلب، ويسبقه فعل الأسباب التي تفعلها، فهو خاص بعبادة الله ـ جل وعلا ـ؛ فلا يجوز صرفه لغير الله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

ولهٰذا أخبر ـ جل وعلا ـ أن التوكل يكون من المؤمنين، والذي لا يحصل منه التوكل علىٰ ربه يكون منفياً عنه الإيمان، وهٰذا مدلول قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأن هٰذا شرط، وإذا انتفت المقدمة الأولىٰ التي هي **قوله:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ انتفىٰ الجزاء، يعني الجملة التي هي جزاء، فلا بد من ترتب الجزاء علىٰ الشرط السابق.

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]؛ يعني: أن الله ـ جل وعلا ـ حصر صفات المؤمنين بهٰذه المذكورة، وهٰذا يدل علىٰ وجوب ذٰلك، وليس معنىٰ ذٰلك أنهم لا يفعلون غير هٰذا، ولٰكن هٰذا يدل علىٰ الوجوب، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجل هو الخوف؛ تخاف من ربها ـ جل وعلا ـ.

قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ يعني: أنهم يعملون بها، وهٰذا يدلنا علىٰ وجوب العمل بالعلم، فعلم بلا عمل هو عذاب في الواقع، ولا يفيد؛ لأن العلم وسيلة للغاية التي هي العمل، وإذا كان الإنسان عالماً بلا عمل؛ فهو في الحقيقة اكتسب ما هو زيادة في عذابه، فلا بد من العلم، ولهٰذا **قال:** ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ يعني: أنهم يعملون بها، هٰذا معنىٰ زيادة الإيمان، من العمل أن تعمل بما أمرك الله ـ جل وعلا ـ به.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ يعني: أن توكلهم علىٰ الله فقط، لا يتوكلون علىٰ غيره، والآية التي بعدها فيها ـ أيضاً ـ ذكر بعض الواجبات التي أوجبها ـ جل وعلا ـ، ولٰكن ليست هي مقصود المؤلف، مقصود المؤلف أن يبين أن التوكل فرض وتركه ينافي التوحيد، فإذا صرفه الإنسان إلىٰ مخلوق؛ فإنه وقع في الشرك الأكبر الذي يكون منافياً للتوحيد، وبهٰذا يكون ذٰلك من شرح التوحيد وبيانه، يعني: من تفسير شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

وقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل ....

وقوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ الحسب هو الكافي، وهو معنىٰ التوكل؛ يعني: إذا توكلت علىٰ ربك؛ فهو يكفيك ما يهمك، فتوكل عليه، فإنه ـ جل وعلا ـ بيده كل شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير.

أما **قوله:** ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: هو كافيك، وكافي من اتبعك من المؤمنين، ولا يجوز أن يكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفاً علىٰ **قوله:** ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن المعنىٰ يكون المؤمنون هم حسبه أيضاً مع الله، وهٰذا من الشرك، ولا يكون هٰذا هو المعنىٰ، وإنما المعنىٰ: حسبك الله، وحسب أتباعك، فأتباعك أيضاً حسبهم الله؛ يعني: كافيهم. والحسب هو الكافي، وهو معنىٰ الجزاء ـ جزاء المتوكل ـ إذا توكلت عليه كفاك ـ جل وعلا ـ.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ تفسيراً للآية السابقة؛ يعني: فهو كافيه، فلا يحتاج إلىٰ أحد من الخلق، ولا يخاف أحداً من الخلق.

وقوله: «**عن ابن عباس قال: حسبنا الله ونعم الوكيل**»؛ يعني: قول الله ـ جل وعلا ـ فيما أمر به المؤمنين حينما أرسل إليهم الكفار بقيادة أبي سفيان أنهم ندموا علىٰ كونهم هزموهم، وأثخنوا منهم، ثم تركوهم، ولم يقضوا عليهم، فأرسلوا إليهم أنهم عزموا علىٰ الكرّة عليهم ليستأصلوهم، لأن أبا سفيان استأجر أناساً، قال: أحمل لكم رحائلكم زبيباً إذا بلغتم هٰذه الرسالة محمداً، فبلّغوها، قالوا: إنهم الآن يستعدون للكرة عليكم؛ ليقضوا علىٰ بقيتكم، وعلىٰ من بقي حياً منكم، فلما جاءهم الخبر؛ قال لهم الرسول ﷺ: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**» فقالوها.

وليس المراد مجرد القول، فلا بد أن يكون القلب عازماً علىٰ ذٰلك، متوكلاً علىٰ ربه ـ جل وعلا ـ.

....

ثم ندبهم إلىٰ اللحاق بالكافرين، وقال: لا يذهب إليهم إلا من كان حضر الوقعة، خرجوا إليهم بما فيهم من الجراح يتبعونهم، فألقىٰ الله ـ جل وعلا ـ في قلوب الكافرين الرعب؛ لأن المؤمنين قبلوا ما قاله الله ـ جل وعلا ـ لهم، قالوا: حسبنا الله؛ فكفاهم الله، هرب الكفار بدون أن يقاتلوا أو يرجعوا، بل جاء أنهم أسرعوا، وأمعنوا في الهرب، حتىٰ صاروا يتخففون يلقون شيئاً مما علىٰ رواحلهم، حتىٰ تسرع أكثر، وهٰذا من كفاية الله ـ جل وعلا ـ للمؤمنين.

لهٰذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران] فكفاهم الله ـ جل وعلا ـ بعد ما آمنوا بذٰلك، وانقادت قلوبهم وجوارحهم مطيعين مذعنين لربهم ـ جل وعلا ـ، معتمدين عليه، فهٰذا من الكفاية، وكونه حبسهم أمرٌ مستعجل جاءهم، فكفاهم الله ـ جل وعلا ـ القتال وغيره، وهٰكذا إذا تحلىٰ المؤمن بهٰذا الشيء، وعلم الله ـ جل وعلا ـ منه الصدق في استكفائه بربه ـ جل وعلا ـ، واعتماده عليه مع طاعته واتباعه أمره؛ يحصل له مثل ما حصل للصحابة ﷺ ولا بد.

فقول ابن عباس عن هٰذه الكلمة «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» إها قالها الخليلان في الشدائد التي أصابتهما، قالها إبراهيم لما ألقي في النار، قال هٰذه الكلمة: «**حسبي الله ونعم الوكيل**» فكفاه الله ـ جل وعلا ـ، فقال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فانقلبت النار روضة خضراء صار يصلي فيها، ويعبد ربه؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ هو القادر علىٰ كل شيء، فإذا علم الله ـ جل وعلا ـ من عبده الصدق والاعتماد عليه؛ فإنه يقلب طبائع الأشياء المؤذية، حتىٰ تكون ملائمة له منعمة له، ولهٰذا وجد الشيء العجيب مما وقع لعباد الله المتوكلين عليه حق التوكل.

....

كان عبد الله بن الشِّخير إذا غزا مع أصحابه أو سافر مع أصحابه يشترط عليهم أنه يتولىٰ رعي ركائبهم، ورعي الركائب من أصعب ما يكون في السفر؛ لأن الركائب تحتاج إلىٰ تعب، وتحتاج إلىٰ حفظ، فكان يذهب بها، فإذا غاب عن أصحابهم صار يصلي، فجاء الأسد يتولىٰ رعي الإبل، انظر كيف الأسد نفسه يتولىٰ رعي إبله، فكل واحدة تشذ يردها عليه.

في مرة من المرات قال أحدهم: سوف أذهب أنظر ماذا يصنع، فاطلع علىٰ هـٰذا الأمر.

وإبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ كان فقيراً، وكان عنده تلامذته في بيته يدرسهم ويعلمهم، في يوم من الأيام أتت إليه زوجته، فقالت: إلىٰ متىٰ تتركنا بلا طعام، أولادك جياع، نحن جياع، اذهب ابحث لنا عن طعام، ركب راحلته، وخرج من البلد ولـٰكن ما معه شيء، من أين يأتي بالطعام؟ ثم رجع، فلما أقبل علىٰ بيته، فقال: كيف أذهب إلىٰ البيت كما خرجت يشاهدني الناس، فأناخ راحلته عند رمل، فملأ العزائر التي معه رملاً حتىٰ ينظر الناس أنه جاء بشيء، هـٰذا مقصوده، فأدخل بعيره في بيته، وحط عنه ما كان حمله، وذهب إلىٰ مجلسه، فجاءت الزوجة مسرعة تريد الطعام، ففتحت العزائر فوجدته حباً أحمر نقياً، ليس فيه خلط، وجاءت تشكره، جئتنا بِبُرٍّ لا يحتاج إلىٰ تعب، هو ما جاء به، ولـٰكن الله تعالىٰ جاء به.

المقصود أن العبد إذا اعتمد علىٰ ربه؛ صارت الأمور التي قد تكون مضادة له ملائمة له، فهـٰذا التوكل، ولهـٰذا قال: إن هـٰذه الكلمة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها الخليلان في الأزمات التي وقع فيها إبراهيم، وقالها محمد أيضاً في الشدة في هـٰذه الوقعة الشديدة التي صار فيها من القتل، وصار فيها من جرح الرسول ﷺ وأذيته، فكأن الله ـ جل وعلا ـ شرد عدوه، وقذف في قلوبهم الرعب؛ لأنهم صدَقوا مع الله ـ جل وعلا ـ.

قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا لـــه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ رواه البخاري والنسائي(١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن التوكل من الفرائض. **الثانية**: أنه من شروط الإيمان. **الثالثة**: تفسير آية الأنفال.

وهٰكذا؛ إذا قال المؤمن هٰذا القول صادقاً ولا بد أن يكون ذٰلك عمل القلب، ولا يكفي اللسان فيه، لهٰذا قال: «**قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له**: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾».

ثم قال بعد ذٰلك: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ يعني هٰؤلاء الذين جاؤوا إليكم وقالوا لكم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ استعدوا أنهم يكرون عليكم ويقاتلونكم، هٰذا من عمل الشيطان، يخوفكم بأوليائه، الذين هم الكفار، ثم **قال**: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ جمع بين التوكل وبين الخوف، وأن الخوف يكون له، ونهاهم أن يخافوا الكفار، فالخوف لله ـ جل وعلا ـ وحده، فإذا فعلوا ذٰلك؛ فقد تحلوا بالتوكل علىٰ الله ـ جل وعلا ـ، والاعتماد عليه، وهٰذا من كمال التوحيد، وهو أمرٌ يتعين علىٰ المؤمن.

المسألتان الأوليانِ فيها أن التوكل من الفرائض، وهٰذا أخذ من الآيات، ونوع الأدلة:

أولاً: كونه قدم الجار والمجرور علىٰ عامله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وهٰذا يدل علىٰ الاختصاص، فالتوكل خاص بالله وحده، ولا يجوز أن يكون لغيره.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤١٩٧)، «سنن النسائي الكبرى» (١١٠٨١).

الرابعة: تفسير الآية في آخرها. **الخامسة**: تفسير آية الطلاق.
السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد.

ثانياً: أنه قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فدل هذا على أن التوكل لازم، وأنه إذا لم يحصل، فالإيمان منتفٍ.

وكذلك بقية الآيات، أما كونه من شروط الإيمان؛ فلأجل قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأن هذا شرط.

قوله: «**عظم شأن هذه الكلمة**» هذه الكلمة كثيراً ما يرددها المسلمون بألسنتهم، ولكن مجرد كلام، وهذا نفعه قليل، وإن كان فيه نفع؛ ولكنه قليل، حتى يعملوا بها، ويعلموا حقيقتها، فإذا فعلوا ذلك؛ حصل لهم ما حصل لسيد الخلق؛ لأنهم بذلك يتبعونه، ومن اتبعه؛ يكون له مثل ما حصل له، فالأمر له أمر لأمته كلها.

باب
قول الله تعالىٰ:

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

في هٰذا الباب يبين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأمن من مكر الله من الكبائر، فيكون قادحاً في التوحيد، ويكون منقصاً لتوحيد العبد، وقد يتمادىٰ الإنسان فيذهب بتوحيده، ومثله القنوط، ولٰكن القنوط أشد علىٰ خلاف بين علماء اللغة، هل اليأس أشد أو القنوط؟ معناه أنه يسد الطرق التي توصل إلىٰ شيء من الرحمة، واليأس مثله، ييأس من ذٰلك، فهي متقاربة.

أما الأمن من مكر الله ـ جل وعلا ـ؛ فمعناه أن يتمادىٰ في المعاصي، ولا يخاف أن الله يعاقبه، ولا يهتم بنظر الله إليه، فمن فعل ذٰلك؛ فإنه علىٰ خطر أن الله يأخذه.

وأخبر ـ جل وعلا ـ أن الأمم السابقة لما أمنت مكر الله؛ جاءها العذاب بغتة، فهٰذا تحذير من الله ـ جل وعلا ـ، لهٰذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الذين يخسرون أنفسهم في كون دنياهم ذهبت باكتساب المعاصي، فصارت أنفسهم إلىٰ عذاب الله ـ جل وعلا ـ، فدل علىٰ أن الأمن من مكره ـ تعالىٰ وتقدس ـ من الكبائر التي قد توقع الإنسان في الهلكة.

والمكر هو أن يظْهرَ للعبد شيئاً، ويكون الأمر بخلافه، كمن يكون في صحة، وفي غِنىً وهو يزداد معاصيَ وبعداً عن ربه، فيظن أن الله ينعم عليه بذٰلك، وهٰذا من المكر؛ لأنه يستدرج بذٰلك حتىٰ يصل إلىٰ غاية ما يصل إليه من كثرة المعاصي، فإما أن يموت أو يؤخذ ويأتيه العذاب.

ولا يلزم أن يأتيه العذاب، قد يتمادىٰ إلىٰ الموت في هٰذا، ويكون هٰذا أعظم؛ لأنه كلما ازداد سوءً؛ ازداد عذابه ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر].

ولهٰذا يقول السلف: إذا رأيت الرجل يُنعَم عليه وهو مقيم علىٰ معاصي الله، ولا يرىٰ أنه يمكر به؛ فلا رأي له، ولا عقل عنده.

ولٰكن هٰذا لا يقع غالباً إلا من أهل المعاصي، يأمنون في مثل هٰذا، وهٰذا الأمن مع الوقوع في كبائر الذنوب.

والأمن أيضاً من الذنوب، فمعنىٰ ذٰلك أنهم يجمعون كبائر علىٰ كبائر في مثل هٰذا، والله لا يعجل؛ لأنه لا يفوته شيء، المرجع إليه، فلا يظن الإنسان أنه متروك ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨] هٰذه المصيبة، يتركون حتىٰ يزدادوا إثماً، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم]، فتأخيرهم في المعاصي، هٰذا هو المكر.

وكذٰلك الإرغاد عليهم بالنعم، وبالعافية، والصحة، وبما يريدون؛ لأن هٰذا يجعلهم يتمادون في هٰذا الغي، ويزدادون، ولهٰذا ينبغي للمؤمن أن يخاف ويحذر، ويتفقد نفسه لئلا تكون فيه هٰذه الصفة أو قريباً منها، فلا بد أن يقوم بما وجب عليه.

وإذا زادتِ النعم؛ فيجب أن يزيد في الشكر، والنعم إذا شكرت زاد الله ـ جل وعلا ـ المنعم عليه نعماً، وهي تقر بالشكر، ولا يلزم هٰذا إقرارها إذا كان يمكر به قد يحصل، فيجب أن يكون علىٰ حذر، كما كان السلف يخافون لمثل هٰذه الآية ونحوها مما ذكره الله ـ جل وعلا ـ.

أما قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ هٰذا من قصة إبراهيم عليه السلام لما جاءته الملائكة في صورة رجال، وجاؤوا لإهلاك قوم لوط، فمروا علىٰ إبراهيم في صورة أضياف، جاؤوهم متنكرين، ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر]؛ يعني: كانت كبرت سنه ولم يأته أولاد،

....

فكيف تبشرونني وقد كبرت سني وسن زوجي؟ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ [الحجر] وإنما هٰذه العادة التي أجراها الله ـ جل وعلا ـ أن الرجل إذا شاب وشابت زوجته أنه لا يأتيه أولاد.

ولهٰذا في موضع آخر يقول: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات] كيف ألد وأنا عجوز. وفي الآية الأخرىٰ ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ﴾ [هود] المقصود أن الحالة التي هو فيها تقتضي استبعاد وجود الولد، ولٰكنه مطمئن بربه ـ جل وعلا ـ، وواثق برحمته، وهو يعلم أنه علىٰ كل شيء قدير، فلهٰذا قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الذين أخطؤوا طريق الحق والصواب، فدل علىٰ أن القنوط من رحمة الله من الكبائر، فمثلاً إذا كان الإنسان عنده من الذنوب التي يستكثرها، فيكون عنده من طرق الشيطان ومن تزيينه أن لا يتاب عليه، أو لا يغفر له، فهٰذا من القنوط.

إن الله ـ جل وعلا ـ أمر بالتوبة، ودل علىٰ أنه رحيم غفار ـ جل وعلا ـ، فيقبل توبة عبده، فإذا استبعد ذٰلك وسدَّ الباب علىٰ نفسه؛ فهٰذا الذي يريده الشيطان، وهٰذا القنوط. فلا يجوز للعبد أن ييأس من رحمة ربه مهما كانت حالته من كثرة الذنوب أو عظمها، فيجب أن يثق بربه أكثر من ثقته بنفسه وبعمله، ويرجو رحمة ربه، والله ـ جل وعلا ـ عند ظن عبده به. ولٰكن لا يجوز أيضاً أن يكون هٰذا طريقاً للشيطان، فيقول له: إن رحمة الله واسعة، فلا حاجة إلىٰ أنك تعمل الصالحات أو تترك المفاسد؛ لأن هٰذا أيضاً من مكر الشيطان ومن كيده، حتىٰ يتمادىٰ في المعاصي، فقد يأتيه من هٰذا الباب، وقد يأتيه من باب إقناطه، فهو يَشَمّ قلبه، وينظر إليه، إذا كان يميل إلىٰ شيء زين له الغلو أو التقصير حتىٰ يسد عليه طريق التوبة، وإن كان علىٰ خلاف ذٰلك أتاه من باب آخر.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: «**الشرك بالله، واليأس من روح الله**، ....

قوله: «**واليأس من روح الله**» أن يقول مثلاً: لا يمكن أني أتوب؛ لأنه لا يتاب عليّ، فهٰذا يأس، وهٰذا قد يحصل لبعض الناس، فهٰذا يكون أكبر من الذنب.

وفي الحديث: «إني قتلت مئة نفس، فهل لي من توبة؟ قال: نعم. ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ولٰكن أنت من أهل بلد سوء، انظر إلىٰ البلد الفلاني، اذهب إليه، وتب إلىٰ ربك ـ جل وعلا ـ، يقبل الله توبتك، فذهب صادقاً مقبلاً، وفي أثناء الطريق أدركه الموت قبل أن يصل البلد، فجاءته ملائكة العذاب لتقبض روحه، وجاءت ملائكة الرحمة لتقبض روحه، فاختصموا، ملائكة العذاب تقول: هٰذا سفاك للدماء، لم يعمل خيراً. وملائكة الرحمة تقول: هٰذا جاء تائباً إلىٰ ربه، ونحن أولىٰ به، فاختصموا. فأرسل الله ـ جل وعلا ـ إليهم ملكاً ليكون حكماً بينهم، فقال لهم: قيسوا ما بين البلدين فإلىٰ أيتهما أقرب، فهو من أهلها، فوجدوه إلىٰ البلد الطيب أقرب بشبر، أو ذراع، فقبضته ملائكة الرحمة، حتىٰ إنه لمّا أدركه الموت صار ينوء بصدره ليقرب إلىٰ البلد الطيب»[1] مما يدل علىٰ صدقه وحرصه علىٰ الوصول إلىٰ المكان الذي ذهب إليه.

وفي رواية: أن الله أوحىٰ إلىٰ البلد الطيب أن تقاربي، وإلىٰ البلد الخبيث أن تباعدي[2]، وكل هٰذا من رحمة الله ـ جل وعلا ـ.

فالمقصود أن هٰذا يدلنا علىٰ أن الإنسان مهما كانت ذنوبه؛ فإنه يجب عليه أن يتوب، ولا ينظر إلىٰ تزيين الشيطان وإرصاده أبواب الخير في وجهه، فإن هٰذا من عمل الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١١)، ومسلم (٤٩٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١١).

والأمن من مكر الله»[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «**أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**» رواه عبد الرزاق[٢].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الأعراف. **الثانية**: تفسير آية الحجر.

فلا ينظر إليه، بل ينظر إلىٰ سعة رحمة الله - جل وعلا -، وإلىٰ إحسانه.

وقوله: «**واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**» هٰذا الشاهد، كونه آمناً من مكر الله، وكذٰلك كونه آيساً من روح الله، فإن هٰذا اليأس أيضاً كبيرة من كبائر الذنوب، فالواجب علىٰ العبد أنه يثق برحمة ربه، وأنه لا يأمن أيضاً من مكره ربه - جل وعلا -.

قوله: «**عن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله**» تقدم الكلام في الشرك، وأنه أكبر الذنوب وأعظمها؛ ولهٰذا الله - جل وعلا - لا يغفره إلا بالتوبة.

قال: «**والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**» فالقنوط هو شدة الإبلاس، وأنه يرىٰ أن الأمر قد أغلق عليه، وأنه حيل بينه وبين ما عند الله، فإذا رأىٰ هٰذا فقد أيس، فلا يجوز ذٰلك، فإن هٰذا أعظم من الفعل - نسأل الله السلامة -.

وكذٰلك اليأس؛ فإذا أيس معناه أنه سد الباب بينه وبين رحمة ربه - جل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بنحوه في «التفسير» (٥٢٤٢).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» (١٩٧٩١)، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٩٦).

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله. **الرابعة**: شدة الوعيد في القنوط.

وعلا ـ، وهٰذا من أكبر الكبائر أيضاً، ولهٰذا جعله الرسول ﷺ أكبر الكبائر، فعطفه علىٰ الشرك الذي هو أكبر الكبائر.

باب
من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

في هٰذا الباب يبين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الصبر فريضة من الفرائض التي فرضها الله ـ جل وعلا ـ علىٰ عباده، وأن فقد الصبر يكون قادحاً في التوحيد، ذاهباً بكماله الواجب، أو أنه قد يفقده نهائياً.

والصبر معناه في اللغة: الحبس، ولهٰذا يقال: قُتل فلان صبراً إذا حُبس وأُمسك وقُيد ثم قتل.

وفي الشرع: حبس النفس علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وكذٰلك حبسها عن التسخط علىٰ أقدار الله.

فإذاً الصبر الواجب علىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صبر علىٰ طاعة الله.

القسم الثاني: صبر عن معصية الله.

القسم الثالث: صبر علىٰ أقدار الله ـ جل وعلا ـ.

وكل هٰذه الأقسام الثلاثة واجبة، وذٰلك أن الإنسان خُلق في هٰذه الدنيا ليمرها، ولا بد من المصائب، لا بد أن يفقد ما يفقد من أولاد، ومن أقارب، ومن مال، ومن غيره، ثم يفقد نفسه، وأن هٰذا سيقع لا محالة.

والصبر يجب أن يكون باحتساب؛ يعني: أن الله قدر عليه هٰذه الأشياء، فيرضىٰ ولا يعترض علىٰ ربه ـ جل وعلا ـ، لا في قلبه، ولا في لسانه.

قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ بإذن الله؛ يعني: بأمره الكوني القدري، الذي لا بد من حصوله. وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ عام فيشمل الصغيرة والكبيرة؛ أي مصيبة كانت.

....

والمصيبة معناها: الشيء الذي وقع، أما قبل ذٰلك فهي أمور متوقعة قبل المصيبة قد تحصل، وقد لا تحصل، فإذا وقعت؛ وجب الصبر، ووجب أيضاً الإيمان بأنها مقدرة ومقضية قبل وجودك، وقبل وجود الدنيا، وأنه لا يمكن أن تغير، أو ترد في حال من الأحوال، يؤمن بهٰذا، فإذا آمن بهٰذا؛ صار له فيه تعزية وتسلية، يتسلىٰ بذٰلك.

ولا يجوز أيضاً أن يعترض علىٰ ربه ويتسخط، فإنه إذا تسخط؛ صار له السخط كما يأتي في الحديث.

والاعتراض أن يكره الأمر، ويكون في قلبه نُفرة منه، بل بغض له، وكراهية له، وقد يلعن ويشتم كما يحصل لبعض الناس ـ نسأل الله العافية ـ، فمثل هٰذا تسري عليه الأقدار وهو راغم، ويحرم الأجر، وأيضاً يكتسب الوزر، بخلاف الذي يسلم للقضاء، ويصبر ويحمد الله، ثم يجوز أن يتسلىٰ بغيره، فإذا علم أن هٰذا أمر مقدر، وأنه لا حيلة فيه إلا الصبر والتسليم لمالك الملك ـ جل وعلا ـ؛ فإنه يزداد إيماناً، ويزداد أجراً.

ولهٰذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ يعني: يؤمن بأن هٰذه المصيبة قدرت وقضي منها، وأنها بأمر الله ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾؛ يعني: يزيد قلبه إيماناً.

وقد استدل العلماء بهٰذه الآية علىٰ أن الإيمان يكون في القلب، وأن عمل القلب من الإيمان، وأن الأعمال تزيد بالإيمان، وكل ذٰلك موجود في الآية وتدل عليه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ يعني: يعلم من يستحق الثواب ممن يستحق العقاب، وهو ﴿عَلِيمٞ﴾ حيث قدر كل مقدر، ويعلم متىٰ وقوعه، وأين يقع، فلا يخفىٰ عليه شيء، ونظير هٰذه الآية من كتاب الله ـ جل وعلا ـ في مواضع متعددة.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضىٰ ويسلّم(١).

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، ....**

ثم قال: **«قال علقمة: هو الرجل»**؛ يعني: هو يفسر الآية بهٰذا ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: **«هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله»**؛ يعني: أن الله قضاها وقدرها، **«فيرضىٰ ويسلم»**؛ يعني: ينقاد لربه ـ جل وعلا ـ، ويستسلم، ولا يعترض علىٰ قضاء الله وقدره، فمن فعل ذٰلك؛ اكتسب الأجر والثواب، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة]، ومن لم يرض ولم يسلم؛ ما يكون عليه لا صلاة، ولا رحمة، بل يكون عليه وزر.

وأقدار الله جارية ولا بد، ثم فيما بعد يسلو كما تسلو البهيمة إذا فقدت ابنها، أو فقدت إلفها، فتصيح، ولا يستقر لها قرار، ولٰكن بعد وقت قليل قد تنسىٰ، هٰكذا الإنسان، ولهٰذا سُنَّتِ التعزيةُ للإنسان إذا أصيب بمصيبة ثلاثة أيام، أما بعد الثالث فلا يُعزىٰ؛ لأن التعزية تذكره؛ لأنه يسلو ويذهب حر المصيبة، فلا يذكر بها.

قوله: «اثنتان في الناس هما بهم كفر» يقول العلماء: إذا جاء الكفر منكراً فمعنىٰ هٰذا أنه عمل كفري، ولا يدل علىٰ أنه كفر يخرج من الدين الإسلامي، ولٰكنه سيئ، ثم بين بعد هٰذا هاتين الخصلتين، فقال: **«الطعن في النسب»** وقد تقدم أن هٰذا موجود في الأمة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٦٦)، و«شعب الإيمان» (٩٦١٨).

والنياحة علىٰ الميت»[١].

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: **«ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية»**[٢].

ثم قال: **«والنياحة علىٰ الميت»** فسمىٰ الطعن بالنسب كفراً، والنياحة علىٰ الميت كفراً.

والنياحة هي تعداد محاسن الميت وندبه ـ كما تقدم ـ، وهي كانت في الجاهلية ويذكرونه بتعداد محاسنه يقولون: «واجبلاهْ، واعضداهْ، واناصرهْ، من لي بعدك» فهٰذا كذب، هل هو الذي يفعل هٰذا؟ الله ـ جل وعلا ـ هو الذي تولىٰ رزق عباده، وهو الذي يتولىٰ التصرف فيهم، وليس أحد من الناس، وهٰذا ينافي الصبر، وينافي أيضاً التسليم بالقدر، والانقياد له، ولهٰذا صار كفراً ضد الإيمان، فالتسليم والصبر إيمان، وهٰذا كفر، فهو مضاد له، وكل ذٰلك يدل علىٰ نقص التوحيد الكامل، أو قد يكون ذهابه أيضاً.

وقوله: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية» عادة العرب قديماً أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة؛ فإنه يخمش وجهه، ويضرب خده، ويشق جيبه، ويدعو بدعوىٰ الجاهلية، يقول: «يا ويله، من له كذا» ودعوىٰ الجاهلية هي ما كانوا عليه من عدم الصبر والنياحة، وكذٰلك خمش الوجه، وغيره مما يدل علىٰ التسخط علىٰ القضاء، وهو من دعوىٰ الجاهلية.

فالصبر أن يحبس نفسه، ويوطنها علىٰ أن هٰذا أمر قدره الله، ولا بد منه، وكذٰلك يحبس لسانه من أن يتكلم بشيء يسخط ربه، وكذٰلك يحبس جوارحه من أن تشق ثوباً، أو تضرب عضواً من أعضائه. وليس ضرب الخدود فقط، ولو ضرب مثلاً رأسه، أو ضرب فخذه، أو ضرب صدره فكله سواء؛ لأنه يدل علىٰ التسخط والتأسف، فلا بد أن يصبر ويحبس جوارحه علىٰ ما

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١٢، ١٢١٤، ١٢١٥، ٣٢٥٨)، ومسلم (١٤٨).

....

يرضي الله - جل وعلا - حتىٰ يحصل علىٰ الأجر، ويكون عبداً لله - جل وعلا -، فيعلم أنه عبد يتصرف الله - جل وعلا - به كيف يشاء، فهو ملك لله.

ولهٰذا صار قول العبد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ يعني إنا ملك لله، عبيد له، تمضي فينا أقداره، وتجري علينا مشيئته، ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ يعني نموت ونرجع إليه، فيحاسبنا ويجزينا بما نقول ونفعل، ولا بد من الإيمان بهٰذا، ولا حيلة إلا هٰذا، لا حيلة للإنسان إذا سخط أو إذا كره الأمر أنه يحصل له شيء، هٰذا لا يمكن، وإنما الشيطان يريد أن يفوته الأجر.

ودعوىٰ الجاهلية أكثر من هٰذا، دعوىٰ الجاهلية كل ما خالف الإسلام، حتىٰ في التحزبات والاختلافات، فهي من دعوىٰ الجاهلية، ومن شأن الجاهلية، فالله أمرنا أن نعتصم بكتابه جميعاً، ونترك التحزب، ونترك الانتصار لفرقه دون أخرىٰ، بل يجب أن يكون الانتصار للحق فقط، لا لفلان، ولا للشيخ الفلاني، ولا للطائفة الفلانية، فإن حصل ذٰلك؛ فهو من دعوىٰ الجاهلية.

تأمل مثلاً ما وقع في غزوة المريسيع أن الرسول ﷺ لمّا نزل منزلاً، وكان فيه ماء، ولٰكن كان في الماء قلة، فالشباب الذين يتولون مثلاً أخذ الماء أو تقديمه للإبل، فصار شباب من الأنصار وشباب من المهاجرين، فتزاحموا علىٰ الماء، فقال أحدهم: يا لَلْمهاجرين، وقال الآخر: يا لَلْأنصار، فسمع ذٰلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أبدعوىٰ الجاهلية؟ وأنا بين أظهركم؟ دَعوها فإنها منتنة**» ثم أمر ﷺ بالرحيل ما دام حصل هٰذا فلا إقامة، فالأنصار اسم محبوب لله سماهم بالأنصار، والمهاجرون كذٰلك، ولٰكن لمّا استعمل هٰذا الاسم في أمر مكروه سماه الرسول دعوىٰ الجاهلية؛ لأن الانتصار يجب أن يكون للحق.

وإن كان الإنسان يخيل له أن فلاناً هو الذي مع الحق؛ فيجب أن يكون

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبده الخير؛ عجل له العقوبة في الدنيا،** ....

القصد نصرة الحق وكتاب ربك، وأن تنظر، ولا تتكلم في الناس، فإن هـٰذا طريق لقسوة القلوب، وللنفرة، ولدخول الشيطان بين الأصحاب، وإذا دخل الشيطان؛ فسدت الأمور، وتأزمت.

فالواجب التثبت، ثم يكون قصد الإنسان دائماً طاعة الله، وطاعة رسوله، فإذا تبين له ذٰلك؛ فليتوقف، يقول: لا أدري.

أما أن يُقدم علىٰ أشياء وهو لا يدري، فهو يقدم حسناته للناس، وربما يوزعها علىٰ من يُبغضه، فيجب علىٰ العبد أن يكون علىٰ علم من الأمور، ويكون همه أنه يطيع ربه ـ جل وعلا ـ، ويكتسب الخير، ويتبع رسوله ﷺ، فإذا التبس الأمر؛ يتوقف ويسأل.

وهـٰذا الحديث يدل علىٰ أن المصيبة خير علىٰ كل حال؛ لأن الإنسان لا يخلو من الذنب، فلا يمكن أن يكون الإنسان خالياً من الذنب، ولو قُدّر أنه لا ذنب له؛ فالمصيبة تزيد من حسناته، فإذاً المصائب نِعَمٌ من الله.

ولهـٰذا جاء في الحديث: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**»[(١)]؛ يعني: أصاب منهم مصائب، «**وإذا أراد بهم شراً؛ أمسك**» كما في حديث الباب: «**إذا أراد الله بعبده الخير: عجل له العقوبة**»؛ يعني: تكون العقوبة في الدنيا، فيكون كفارة، فالعقوبة التي عجلت له تُكَفِّر عنه سيئاته، وهـٰذا أحد المواضع التي يكون للإنسان فيها مخرج من الذنوب المحققة، يكون قد أصيب من مصائب في الدنيا، وقد يصاب بمصائب في قبره، بأن يعذب، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون غير ذٰلك، المقصود أن هـٰذا أشدّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٢١).

وإذا أراد بعبده الشر؛ أمسك عنه بذنبه، ....

فإذاً مصيبة الدنيا سهلة؛ أسهل مما يقع له في القبر، أو بعد مبعثه.

ولهٰذا قال: «**وإذا أراد بعبده الشر**»؛ يعني: يجزيه بسيئاته، هٰذا هو الشر أن يجزيه بسيئاته، وإلا فالله - جل وعلا - لا يفعل الشر، والشر ليس إليه، ولٰكنه شرٌّ بالنسبة للعبد؛ لأنه جزاء له بسيئاته، وإلا فالله لا يريد شراً، والله لا يفعل شراً - تعظم الله وتقدس -.

لهٰذا يقول الرسول ﷺ في تهجده وفي ثنائه على ربه عند افتتاح الصلاة: «**لبيك وسعديك، والشر ليس إليك**» الشر ليس إليك نسبةً ولا فعلاً ولا وصفاً.

وإذا تأملنا كتاب الله ﷻ؛ فإنّ الشر يأتي على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنه يحذف فاعله، كما قال في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠].

ولما جاء الخير قال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] فالرشد والخير إلى الله، أما الشر فليس إليه.

الوجه الثاني: أن يكون من المخلوق، كما قال - جل وعلا -: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ فجعل الشر في المخلوق.

والوجه الثالث: أن يدخل في العموم، كما في قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وغير هٰذا مما تجده في كتاب الله - جل وعلا -، كل هٰذا دليل على تنزه الله - جل وعلا -، مما فيه نقص أو عيب؛ لأن له الكمال المطلق - جل وعلا -.

قال: «**إذا أراد بعبده الشر: أمسك عنه بذنبه**»؛ يعني: يمسك العقوبة، هٰذا معنى أمسك، ويتركه معافىً حتى يموت، ويأتي بالعقوبة يوم القيامة، يأتي بذنبه يوم القيامة كاملاً، وتكون عقوبة الآخرة أشد وأنكى - نسأل الله العافية -، هٰذا معناه.

حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة»[١].

وقال النبي ﷺ: «إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالىٰ إذا أحب قوماً؛ ابتلاهم، ....

وقوله: **«إن عظم الجزاء من عظم البلاء»**؛ يعني: إذا كانت المصيبة عظيمةً؛ فالجزاء أعظم، والتكفير كذٰلك يكون أعظم، فعلىٰ هٰذا لا ينبغي للإنسان أن يكره المصيبة؛ لأن فيها خيراً له، فيها تكفير، فيها جزاء، فيها أجر، وفيها أن الله أراد به خيراً.

ثم إن الناس في هٰذا قد يقعون في أمور منكرة، فتسمع بعض الناس ـ نسأل الله السلامة ـ إذا وقع له شيء من ذٰلك تجده يتسخط، ويرجع اللوم إلىٰ ربه، يقول: والله أنا أصلي، وأصوم، ولٰكن ما أدري ما أصابني، من جاء بهٰذا؟ ما يستطيع أن يقول: إن الله ظلمني، ويكون هٰذا في نفسه موجوداً والعياذ بالله.

وبعضهم يقول: فلان ما يستحق وإذا كان ما يستحق يعني أن الله ظلمه! هٰذا معناه، يجب أن يكون العبد مبتعداً عن الأمور التي فيها قدح في الله ـ جل وعلا ـ وفي حكمه، أو في قدره وتقديراته وأفعاله؛ لئلا يسخط الله ـ جل وعلا ـ عليه، فلا يجعل قلبه منحرفاً، ومنتكساً؛ فيهلك.

وقوله: **«وإن الله تعالىٰ إذا أحب قوماً؛ ابتلاهم»** أحبهم أي: وأراد بهم الخير، والحب يوصف الله ـ جل وعلا ـ به، وليس إرادة الخير ولا لازم الحب كما يقوله أهل البدع، وإلا فالحب صفةٌ يتصف الله ـ جل وعلا ـ بها، فيجب أن يوصف بها، ولا يجوز تأويلها كما تتأولها الأشاعرة، يقولون: إن الحب إرادة الخير، أو إرادة الإحسان، فهٰذا تأويل باطل، فالله ـ جل وعلا ـ وصف نفسه بأنه يحب، وأن عباده يحبونه.

وقوله: **«فمن رضي؛ فله الرضىٰ»**؛ يعني: له الرضىٰ من الله.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٩).

فمن رضي فله الرضي، ومن سخط فله السخط»[١] حسنه الترمذي.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية التغابن. **الثانية**: أن هـٰذا من الإيمان بالله. **الثالثة**: الطعن في النسب. **الرابعة**: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوىٰ الجاهلية. **الخامسة**: علامة إرادة الله بعبده الخير. **السادسة**: إرادة الله به الشر. **السابعة**: علامة حب الله للعبد. **الثامنة**: تحريم السخط. **التاسعة**: ثواب الرضىٰ بالبلاء.

قوله: «ومن سخط؛ فله السخط»؛ يعني: من ربه ـ جل وعلا ـ، فهـٰذا أيضاً فيه وصف الله ـ جل وعلا ـ بأنه يسخط، وإذا سخط الله علىٰ أحد؛ فإنه يعذبه ـ جل وعلا ـ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤٠٢١).

باب

ما جاء في الرياء

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ....

قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب ما جاء في الرياء**»؛ يعني: من الوعيد من أن عمله باطل، وأنه داخل في مقت الله ـ تعالىٰ وتقدس ـ.

الرياء مأخوذ من الرؤية؛ لأنه يأتي بصفات للعمل وتحسينات له من أجل رؤية الناس؛ حتىٰ يُثنوا عليه، ويمدحوه، أو يتحصل علىٰ شيء من أمور الدنيا؛ من جاهٍ أو ما أشبه ذٰلك، وهو يكون مشركاً في عمله لغير الله ـ جل وعلا ـ.

ولهٰذا ذكره هنا؛ ليبين أنه قد يكون منافياً للتوحيد، وقد يكون منقصاً له نقصاً عظيماً، ولا يكون صاحبه كافراً إن لم يكن اتصف بصفة المنافقين الذين أخبر الله ـ جل وعلا ـ عنهم أنهم لا يحملهم علىٰ العمل إلا المراءاة؛ لأن هٰذا لا يصدر من مسلم.

والسمعة: هي من الرياء، ولٰكنها تتعلق بما يسمع من القراءة، والذكر، وما أشبه ذٰلك.

جاء في الحديث: «**أن من راءىٰ؛ راءى الله به، ومن سمّع سمّع الله به**»(١)؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ يجزي الإنسان من جنس عمله، فالعقاب قد يكون معجلاً، وقد يكون مؤجلاً، فإذا كان مؤجلاً؛ فهو أشد وأنكىٰ.

في هٰذه الآية أمر الله ـ جل وعلا ـ نبيه أن يخبر الناس ويقول لهم ما قاله الله له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾؛ أي: مثلكم مخلوق من ذكر وأنثىٰ، مُكَون من لحم ودم وعظام، ولم يخلق من النور، مثلما يقوله الصوفية والمخرفون، وإنما

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٠١٨) من حديث جندب ﷺ، وأخرجه مسلم (٥٣٠١) من حديث ابن عباس ﷺ.

﴿مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ....

أنا مثلكم، وإنما تميزت عليكم بأنه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ والوحي هو الإعلام بخفية، وهو ما يأتي من الله ـ جل وعلا ـ من أمره ونهيه.

فالمثلية في البشرية والخلق، فهو لم يخرج عن مثلية البشر كما يزعمون أن الخلق خلقوا من تراب من آدم، أما هو فقد خلق من نور. ويقولون: لولا محمد؛ ما خلقت الدنيا والآخرة، ولولاه ما خلق آدم، ثم يأتون بأمور كذب وزور، وكلها قد نهىٰ عنها رسول الله ﷺ، وحذر منها، يذكرون الحديث الواهي الذي لا يجوز روايته، وهو حديث عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، أن آدم لمّا أذنب ذنباً؛ قال: «أسألك بحق محمد إلا غفرت لي». فقال: «ما علمك بمحمد، وهو آخر الأنبياء»؟ قال: «لمّا رفعت رأسي؛ رأيت مكتوباً في العرش: لا إلـٰه إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنه أفضل الخلق عليك» هـٰذا رواه الحاكم(١)، والحاكم يقول في «المدخل»: «لا تحل الرواية عن عبد الرحمن»، ولـٰكنه خالف هـٰذا، ورو‌ىٰ هـٰذا، علىٰ كل حال هو حديث لا يجوز أن يلتفت إليه؛ لأنه مكذوب، وليس مجرد واهي، ومثل الحكايات الباطلة، ويتركون الأمور الواضحة التي لا إشكال فيها، هـٰذا شأن الذين في قلوبهم زيغ كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧] يعني التأويل الذي يتفق مع باطلهم. وهـٰذا من حكمة الله ـ جل وعلا ـ أن جعل هناك أشياء فيها احتمالات، حتىٰ يتبين من يريد الحق، فيرجع المحتمل إلىٰ الواضح الجلي البين، ومن يريد الباطل، فيتمسك بما قد يكون فيه شيء من التعلق بباطله، فيتبين من يريد الحق ومن يريد الباطل، والله ـ جل وعلا ـ علّام الغيوب، لا يخفىٰ عليه

(١) «المستدرك على الصحيحين» للحاكم (٤١٩٤)، وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٦٩٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٢٤٣) من حديث عمر ﷺ.

أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

شيء، ولٰكن لا يأخذ إلا بالعمل الظاهر الذي يبرز، رحمة منه وعدلاً.

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ يعني: تميز بالوحي، أن الله يوحي إليه، فأكرمه بذٰلك، واصطفاه علىٰ الناس؛ لأنه أوحىٰ إليه كما أوحىٰ إلىٰ أنبيائه ورسله، ثم كأنه حصر الوحي فيما ذكر هنا ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الوحي جاء بهٰذا؛ لأن هٰذا هو أعظم ما جاء به، ومعنىٰ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تألّهوه، واعبدوه، واتجهوا إليه، وأخلصوا العمل له؛ لأن هٰذا هو الذي فيه نجاتكم، وفيه سعادتكم، ومن انحرف عن ذٰلك؛ فهو هالك، والله ـ جل وعلا ـ سيجازيه بما يستحق.

لهٰذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاء يأتي بمعنىٰ اليقين، أي يتيقن أنه سوف يرجع إلىٰ ربه، فيحاسبه علىٰ عمله، وهٰذا أمر لا بد منه، لا يفيد فيه التردد أو الشك، فإن الشك بالبعث وملاقاة الله كفر بالله، ولا يعترض علىٰ هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة]؛ لأن الظن يستعمل بمعنىٰ اليقين كما هو معلوم.

قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ العمل الصالح هو اتباع السنة، أن يعمل بالوحي، وبغير الوحي يكون فاسداً، وهٰذا هو محل الشاهد.

ثم قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ دل علىٰ أن الرياء من الشرك؛ لأنه قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ نكرة وتعم الشرك كله، الصغير والكبير، ويدخل فيه الرياء و﴿أَحَدًۢا﴾ تعم كل مخلوق، سواء كان حياً أو ميتاً، عاقلاً أو جماداً، أو غير ذٰلك.

فتبين بهٰذه الآية أن قبول العمل الصالح له شرطان، لا يقبل إلا بهذين الشرطين إذا اجتمعا:

أحدهما: أن يكون العمل صالحاً.

عن أبي هريرة مرفوعاً: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء ....**

الثاني: أن يكون خالصاً.

فصالحه أن يكون علىٰ السُّنَّة، أن يعبد الله بما شرع، ولا يعبد الله بالبدع، أو الآراء، أو العادات؛ فإن هـٰذا لا ينفع، بل هـٰذا ليس شرعاً، بل يكون شرعاً مبتدعاً مخترعاً، فيُرَدُّ، كما قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**»(١) يعني رد علىٰ صاحبه.

وأما الشرط الثاني وهو كون العمل خالصاً لوجه الله ـ جل وعلا ـ؛ فقد جاء في آيات عدة أن الله خلق الناس لعبادته ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ليس أكثر، فالكثرة لا تجدي، ولو عبد رجل بعبادة الناس كلهم وهو مشرك أو مخالف للسُّنَّة؛ فعمله مردود لا يقبل، وهـٰذا أمر مهم جداً؛ لأن قبول العمل واعتباره عند الله متوقفٌ علىٰ ذٰلك، وما أكثر الآيات في هـٰذا، ولـٰكن المؤلف يكتفي بآية واحدة كعادته، وإذا كان فيها احتمال أو غموض؛ فإنه يأتي بآية أخرىٰ كعادته، أما هـٰذه فواضحة.

بيَّن في هـٰذا الحديث القدسي العلة في ترك العمل الذي فيه شرك، وهو أنه الغني بذاته عن كل عمل، فإذا لم يكن العمل خالصاً له؛ فإنه يرده ويتركه، ويجعله للشريك، وهـٰذا يدخل فيه الشرك الأكبر، والشرك الأصغر.

قال: «**أنا أغنىٰ الشركاء**»؛ يعني: هو الغني الغنىٰ المطلق، فغناه وكرمه يمنعان من أن يقبل العمل الذي فيه اشتراك، وذٰلك أن العمل الذي فيه شركة؛ يكون الشريك منازعاً لشريكه، ويكون مماثلاً له في هـٰذا العمل، فهـٰذا تنقص لله ﷻ، ومسبة له، وإن لم يصرح بذٰلك؛ لأنه جعله بمنزلة المخلوق، فكأنه صار للمخلوق عظمة كعظمة الله. ويدخل في هـٰذا الأغراض والغايات، والمقاصد التي يريدها للدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٢٢/ ٣٣٢)، وأخرجه مسلم (٣٢٤٣) من حديث عائشة ﵂.

عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم[(١)].

وقد تكون أموراً تافهة، كأن يستجلب مدح الناس له، والثناء عليه؛ فهٰذه سفاهة ـ نسأل الله العافية ـ مع أن الرياء آفة عظيمة، والتخلص منها قد يكون فيه عسر؛ لحب النفوس لهٰذا الشيء، وإقبالها علىٰ الثناء والمنزلة عند الناس، فإن هٰذه هي الشهوة الخفية التي لا يسلم منها إلا من سلمه الله.

ولا بد من علاج النفس وتهذيبها؛ حتىٰ تتخلص من هٰذا الخلق السّيّئ الذي هو طلب الجاه عند الناس والرفعة والثناء، مع أن هٰذا لا يجدي شيئاً، بل يضر ولا ينفع، وضره واضح جداً، وهو أنه يرد عمله، ثم ذكر مقتضىٰ غناه أنه غني عن كل عمل يكون فيه شيء لغيره.

لذٰلك قال: «**من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري: تركته وشركه**» وقوله: «**عملاً**» نكرة يدخل فيه العمل الكثير والقليل، الذي يدخل فيه الرياء.

والجزاء والنتيجة: أنه يتركه للشريك، فهل يجد جزاءه وثوابه عند شريكه؟ فإنما يُجْزىٰ الخسارة ـ نسأل الله العافية ـ ويجد مقت رب العالمين، بل حتىٰ مقت الناس.

والعجيب أن المرائي يَظْهَر للناس إذا عمل العمل وقع في نفوس الناس، بل قد يكونوا متيقنين أنه مراءٍ وأنه ليس خالصاً لوجه الله، وهٰذا من العقاب العاجل، وقد لا يظهر إلا للبعض، وقد يكون فيه خطأ، وإنما الأمور بيد الله ـ جل وعلا ـ، وهو مطلع علىٰ ما في الضمائر، وما في المقاصد والنيات؛ فلهٰذا كل إنسان عليه أن يجتهد في إخلاص العمل لله ـ جل وعلا ـ.

---

(١) «صحيح مسلم» (٥٣٠٠).

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم

ومن أجل ذٰلك؛ صارت صلاة النافلة في البيت أفضل من الصلاة في المساجد؛ لأن الصلاة في البيت لا يراه أحد، إنما يراه ربه ـ جل وعلا ـ، فتسلم من المراءاة والرياء فيها، كأن يطيلها ويحسنها كي يقال: هٰذا فيه خشوع، أو فيه اعتناء في صلاته، أو ما أشبه ذٰلك من الأمور التي يتطلبها الإنسان لهٰذا.

والناس لا يُغنون شيئاً عن الإنسان، ولا يمنعون خيراً، ثم هٰذا أيضاً لا يحمل الإنسان علىٰ احتقار الناس وازدرائهم، بل يجب أن يعرف قدرهم وحقهم، ولٰكن العمل لله ليس لهم، فهو يعمل لربه ـ جل وعلا ـ.

وهٰذا الحديث رواه الإمام مسلم في «صحيحه»، وهو حديث ثابت يدل علىٰ أن الإنسان إذا عمل عملاً مطلقاً ـ سواء كان العمل من الأعمال البدنية أو من الأعمال المالية التي يتعدىٰ نفعها للغير ـ؛ فإنه قد يكون باطلاً، وقد يكون ضرره واقعاً، أو يكون لا نفع فيه أصلاً، بل مردود علىٰ صاحبه، وصاحبه يكون ممقوتاً؛ معذباً علىٰ هٰذا، ليس مجرد رد فقط.

وأما حديث أبي سعيد؛ ففيه تفسير الرياء الذي يكون في الصلاة، وكذٰلك في غيرها، ثم أخبر ﷺ أن هٰذا مَخُوف علىٰ الصالحين، فإذا كان الرياء يخاف علىٰ الصالحين، فكيف بغيرهم؟

وهٰذا معناه أنه يقتضي أن يجتهد الإنسان، ويجاهد نفسه والشيطان علىٰ أن يكون العمل خالصاً لله ـ جل وعلا ـ، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان صالحاً ـ أي: علىٰ الشرع ـ وخالصاً لوجه الله ـ جل وعلا ـ، يريد الثواب عند الله، يريد رضىٰ الله، يريد الآخرة، لا يريد الدنيا، ولا يريد نظر الناس ومدحَهم وثناءهم، فإن هٰذا لا ينفع بل يضر.

هٰذا يبين لنا أن الرياء نوع من الشرك، وأنه أقسام وأنواع حسب أغراض الإنسان، وحسب ما يعرض له:

عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: **«الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزيّن صلاته، لما يرىٰ من نظر رجل»** رواه أحمد(١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الكهف. **الثانية**: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله. **الثالثة**: ذكر السبب الموجب لذٰلك، وهو كمال الغنىٰ. **الرابعة**: أن من الأسباب، أنه تعالىٰ خير

النوع الأول: أن يكون الباعث علىٰ العمل هو الرياء؛ فهٰذا لا شك أنه حبط عمله، وأنه ممقوت عند الله ﷻ، وأنه مستحق للعقاب، ولٰكن الغالب أن هٰذا لا يصدر إلا من منافق أو كافر، أما المسلم فلا يصدر منه مثل هٰذا، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] هٰذا من علامته، أنه يكسل وحده، ويرائي الناس معهم، وإذا غاب فإنه قد لا يصلي، ولا يعمل، يعمل ذٰلك في وجهة الناس، وهٰذا قد يراد به ـ كما سيأتي في الباب الذي بعده ـ حظُّ النفس من الناس من مدحهم وثنائهم.

النوع الثاني: أن يعرض الرياء أثناء العمل، كأن يلاحظ رؤية الناس حتىٰ يزين العمل ويطيله ويحسنه من أجل ذٰلك؛ فهٰذا إن استمر منه واستدعاه؛ فعمله باطل، ولٰكن لا يكون كالأول، وهو ممقوت عند الله ـ جل وعلا ـ.

أما إذا عرض له ثم صد عنه واجتهد في إزالته؛ استمر عمله، فلعل هٰذا لا يضره؛ لأنه أعرض عنه، واجتهد في إخلاص العمل لله ـ جل وعلا ـ.

---

(١) «مسند أحمد» (١٠٨٢٢)، وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٤)، واللفظ له.

الشركاء. **الخامسة**: خوف النبي علىٰ أصحابه من الرياء. **السادسة**: أنه فسر ذٰلك بأن يصلي المرء لله، لٰكن يزينها لما يرىٰ من نظر رجل إليه.

باب
من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ....

هٰذا الباب شبيه بالباب الذي قبله، ولٰكن الفرق بين هٰذا والذي قبله: أن الذي قبله يعمل العمل ويزينة، ويحسن فيه، ويزيد فيه؛ لأجل رؤية الناس؛ حتىٰ يثنىٰ عليه، ويحظىٰ بما عندهم.

أما هٰذا؛ فهو أعقل من الأول؛ لأنه يعمل لأغراض دنيوية يتحصل عليها، فيكون عمله للدنيا التي يحصلها، ولا غرض له في الآخرة، كالذي يتصدق مثلاً يريد أن يشفىٰ، أو يُمنع من المرض الذي قد يعرض له، ولا يريد ثواب الله، وإنما يريد أن يتصدق لأجل أن يحفظ ماله، أو يزيد، فهٰذا ليس له غرض في الآخرة، وإنما غرضه في الدنيا، وكذٰلك الذي يعمل أعمالاً قد تكون في الظاهر من الأعمال التي يراد بها الآخرة، ولٰكنه لا يريد الآخرة، كالذي يأخذ وظيفة المسجد للصلاة، أو الأذان، أو وظيفة التدريس، أو ما أشبه ذٰلك من أجل الوظيفة فقط، وأما الفضل الذي يرتب علىٰ العمل؛ فلا غرض له فيه، لا يريده؛ أي: يكون العمل من أجل الدنيا؛ فهٰذا من الشرك الأكبر الذي يجعل الإنسان إذا مات علىٰ ذٰلك خالداً في النار كما هو نص الآيتين اللتين ذكرهما.

ولذٰلك **قال**: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ يعني: لا يريد الآخرة، وإنما يريد بعمله الحياة الدنيا وما فيها من أغراض وأمور أخرىٰ، كالجاه، والمنصب، وما أشبه ذٰلك.

قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾؛ يعني: نعطيهم جزاء العمل في الدنيا،

وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ الآيتين [هود].

وهٰذا أيضاً قد جاء مقيداً في آية أخرىٰ أنه يكون بمشيئة الله، يعطيه إذا شاء، وإذا شاء لا يعطيه.

قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ يعني: في الدنيا، فلا يُنقصون جزاءَ عملهم، فهٰذا يدخل فيه الكافر، ويدخل فيه العامل للدنيا فقط الذي ليس له رغبة بالجنة وفيما عند الله، فيجزون بعملهم في الدنيا، من صحة البدن، وإنالة الشهوات والملذات وما يريدون، فهؤلاء يُعْطَوْن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا. أما في الآخرة؛ فليس لهم نصيب.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ هٰذا أمر عظيم؛ لأنهم عملوا أعمالاً لا يريدون بها وجه الله، ولا يريدون بها ما عنده من الثواب ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ يناسب الآية أن يذكر الحديث الذي في «صحيح مسلم» ولم يذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه اكتفىٰ بالحديث الذي في صحيح البخاري.

أخرج مسلم في «صحيحه»(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**أول من تسعر بهم النار ثلاثة: رجل تعلم العلم، وعلّمه، ورجل اكتسب أموالاً، فتصدق وأنفق، ورجل جاهد في سبيل الله، فقتل**» هٰذه الأعمال من أفضل الأعمال، ومع ذٰلك صار سبباً في سبقه إلىٰ النار، وكذٰلك نفع الناس بالمال والصدقة وغيرها من أفضل الأعمال، ثم كذٰلك القتل في سبيل الله والشهادة.

يقول: «**فيؤتىٰ بهم يوم القيامة، فيقررون بنعم الله، فيقول الله ـ جل وعلا ـ للأول: ماذا عملت؟ فيقول: يا رب تعلمت فيك العلم، وعلمته. فيقول الله: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت ولٰكنك تعلمت ليقال: عالم، فقد قيل**»؛

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٥٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، ....

يعني: قد أخذت جزاءك في الدنيا، ثم يؤمر به ويسحب إلىٰ النار.

ويؤتىٰ بالآخر، ويقول له كذٰلك، ثم يذهب به إلىٰ النار، وكذٰلك الثالث، فلهٰذا يقول بعض العلماء:

وَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ مُعَذَّبٌ من قَبْلِ عُبَّادِ الْوَثَنْ

فالدنيا صارت هي مقصودهم، أما الآخرة؛ فلم يهتموا بها، فهٰذا جزاؤهم.

قال: «**وفي الصحيح**»؛ يعني: «صحيح البخاري» «**عن أبي هريرة** ﷺ **قال: قال رسول الله** ﷺ: **تعس عبد الدينار**» تعس من التعاسة والشقاء، فهٰذا يحتمل أمرين:

الأمر الأول: أن يكون دعاءً عليه، يعني أن الرسول ﷺ يدعو عليه بأن يكون تعيساً شقياً معاملاً بنقيض قصده.

الأمر الثاني: أن يكون خبراً.

وكلاهما حق؛ فإن كان خبراً؛ فهو شيء واقع، وإن كان دعاءً فدعاء الرسول ﷺ مستجاب علىٰ من يعصي الله ويشرك به.

وسماه «**عبد الدينار**» والدينار هو قطعة ذهب، والدرهم قطعة فضة، وما كانت العملة في أول الإسلام وفي أكثر دول الإسلام إلا ذهباً أو فضة، وهي العملة التي لا يستطيع الناس أنهم يغيروها، أو يبدلوها، أو يبطلوها، فلمّا جاء اليهود واستولوا علىٰ بنوك العالم؛ أرادوا أن يفقروا الناس إذا شاؤوا، فجاؤوا يبدلون ذٰلك بالأوراق التي يتعامل بها الآن؛ حتىٰ إذا شاؤوا أن يحطّوا من قيمتها؛ استطاعوا بطرق معروفة معينة عندهم؛ لأن عندهم من الأموال الشيء الفائض.

وكذٰلك إذا أبطلت الدولة هٰذه العملة تصبح لا قيمة لها؛ لأنها ورق، والمقصود أنه سماه النبي ﷺ عبداً للدينار وعبداً للدرهم.

تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، ....

وكذٰلك قوله: «**تعس عبد الخميصة**» الخميصة كساء يلبس أو فراش يوطأ بالقدم. و«**الخميلة**» كذٰلك كساء له خمل؛ يعني: أهداب، وقد يكون أيضاً فراشاً أو لحافاً.

المقصود هنا: أثاث الدنيا، وما يتخذ للأغراض التي يستعملها الإنسان في دنياه، فهو يعمل من أجل تحصيل هٰذه الأشياء، وليس له غرض في أن يكون العمل يجزىٰ به في الآخرة، فسماه عبداً لهٰذه الأشياء، فكل من عمل لأجل شيء؛ فهو عبد لذٰلك الشيء، ومن استغنىٰ عنه؛ فهو حر من رقّ العبودية التي تستولي عليه في أمور الدنيا وغيرها.

ومفهوم هٰذا أن الإنسان إذا عمل لأي شيء؛ فإنه يكون عبداً لذٰلك الشيء، فإذا كان عمله لأجل تحصيل الشهوات ـ سواء شهوة الفروج أو شهوة البطون ـ فإنه عبد لفرجه أو لبطنه. وإذا كان كذٰلك يعمل من أجل إنسان؛ فإنه يكون عبداً لذٰلك الإنسان، وهٰكذا حتىٰ إنه قد يكون عبداً للعبة التي يلعبها إذا كان العمل لها فقط وشغله ذٰلك عن عبادة الله؛ فهو عبد لذٰلك الشيء.

ولهٰذا تجد الإنسان الذي في هٰذه الصفة إذا نام تجد أحلامه فيها؛ لأنها استولت علىٰ قلبه.

وقياس ذٰلك إذا حضره الموت سوف تكون هي التي تستولي علىٰ فكره وقلبه في ذٰلك الموقف الصعب، وهٰذه مصيبة، وهٰذا مجرب كثيراً، وكل من يحضر الأموات عند الموت يجد من هٰذا عِبَراً ـ نسأل الله السلامة ـ، فقد ذكروا من هٰذا أشياء كثيرة كما ذكرها عبد الحق الإشبيلي في كتابه «العاقبة»، وكذٰلك غيره من العلماء الذين تتبعوا هٰذه الأشياء، فذكر في هٰذا أن الإنسان الذي يكون ديدنه سؤال الناس يقول: إنه عدد منهم إذا حضرتهم الوفاة؛ قيل لهم: قل لا إلٰه إلا الله؛ يمد يده يقول: فُلَيْس فُلَيْس، فمات علىٰ هٰذا.

إن أعطي رضي، ....

والآخر يقول له: قل لا إلـٰه إلا الله؛ يقول أصلحوا المكان الفلاني، وزينوا المكان الفلاني، أو ائتوني بكذا وكذا من ماله، فيموت.

ويقال: كان رجل في مصر يؤذن، وكانت آثار العبادة بائنة عليه، فَصَعِد يوماً المنارة ليؤذن، وكان في جوار المسجد بيت نصراني، فوقع نظره علىٰ بنت النصراني، فسلبت لبه، فذهب إليهم، وطرق الباب، قال: أريد أن تعطوني البنت. قالوا له: أنت مسلم ونحن نصارىٰ، لا نعطيك البنت. فقال: أتنصر، وأدخل في دينكم ـ نسأل الله العافية ـ، ثم لمّا صَعِدَ زلت رجله من الدرج، فسقط علىٰ رأسه ومات، خاتمة سيئة.

وذكر آخر يقول: كان في جواري حمّام، فجاءت امرأة تسأل: أين الحمام؟ فأشار إلىٰ بيته. قال: هـٰذا الحمام. فدخلت، فدخل خلفها، فلما رأت أنه قد خانها؛ أظهرت الموافقة، وقالت له: ينبغي أن يكون معنا شيء وليس هـٰكذا. فقال: الآن آتيك بما تريدين، فخرج ولم يغلق الباب، فخرجت وذهبت، ونجت منه فهام بها، وصار يقول:

يـا رُبَّ قـائـلَـةٍ يَـوْمـاً وَقَـدْ تَـعِـبَـتْ ... أَيْـنَ الطَّـرِيـقُ إلىٰ حَـمَّـامِ مِـنْـجَـابِ

فزاد الأمر حتىٰ مرض وسقم، فصاروا يقولون له: قل لا إلـٰه إلا الله، ويردد هـٰذا البيت حتىٰ مات ـ نسأل الله العافية ـ.

وهـٰذا كثير جداً، وهـٰذا بسبب كون العمل لأجل هـٰذا؛ إما لأجل شهوة، أو لأجل أمر من الأمور، فعوقب بذٰلك، واستولت علىٰ قلبه.

المقصود من قوله هنا: «**تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة**» أنه سماه عبداً له؛ لأنه يعمل لأجله، واستولىٰ علىٰ قلبه.

وقوله: «**إن أعطي رضي**» هـٰذا تفسير له؛ يعني: إن حصل له ما يعمل له رضي، وإن لم يحصل سخط العمل، ويسخط علىٰ من قد يرىٰ أنه سبب في المنع.

وإن لم يعطَ؛ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك؛ فلا انتقش، طوبىٰ لعبد آخِذٍ بعِنان فرسه في سبيل الله، أشعثَ رأسُه، مغبرَّةٍ قدماه، إن كان في الحراسة؛ كان في الحراسة، ....

ولهٰذا قال: «**وإن لم يعط سخط**» فإذا لم يحصل له ما كان يعمل من أجله يسخط.

قال: «**تعس**»؛ يعني: تعس مرة ثانية. «**وانتكس**»؛ يعني: سقط علىٰ رأسه، وانقلب من شدة السقوط، «**وإذا شيك فلا انتقش**» الانتقاش هو إخراج الشوكة بالمنقاش؛ يعني: إذا وقع في شدة أو في أمر من الأمور لا يجد ما يخلصه؛ لأنه عمل عملاً لغير الله ـ جل وعلا ـ فيكله الله ـ جل وعلا ـ إلىٰ ذٰلك العمل، ويتخلىٰ عنه. وإذا تخلىٰ الله ـ جل وعلا ـ عن عبد؛ فهو هالك.

ثم ذكر ما يقابل هٰذا العبد الذي يعمل لله ـ جل وعلا ـ خالصاً، فقال: «**طوبىٰ**» وطوبىٰ كلمة ثناء.

وقيل: إن طوبىٰ اسم لشجرة في الجنة يستخرج منها ثياب أهل الجنة، وقد تكون الجنة، وقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ ذٰلك في كتابه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ [الرعد: ٢٩]

فهو يقول: «**طوبىٰ لعبد آخِذٍ بعِنان فرسه في سبيل الله**»؛ يعني: ممسكاً بعنانه في سبيل الله، يقاتل أعداء الله.

وقوله: «**أشعثَ رأسُه مغبرَّةٍ قدماه**»؛ يعني: أنه مشغول عن ترجيل رأسه، وغسل ثوبه، مشغول في الجهاد في سبيل الله، لا يلتفت إلىٰ تحسين جسمه وثيابه، ينتهز الوقت.

قال: «**إن كان في الحراسة كان في الحراسة**» الحراسة هي حراسة الجيش من الخلف أو في الليل، وهي من أشد المواقف؛ لأنها تتطلب التنبه، وتتطلب السهر، وقد يكون هجوم من العدو فيقابلهم.

وإن كان في الساقة؛ كان في الساقة، إن استأذن؛ لم يؤذن له، وإن شَفَعَ لم يشفَّع»[(١)].

فيه مسائل:

الأولىٰ: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة. **الثانية**: تفسير آية هود. **الثالثة**: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. **الرابعة**: تفسير ذٰلك بأنه إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط. **الخامسة**: قوله «**تعس وانتكس**». **السادسة**: قوله «**وإذا شيك فلا انتقش**». **السابعة**: الثناء علىٰ المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

وقوله: «**كان في الحراسة**»؛ يعني: أنه يقوم بها أتمّ القيام، ولا يقصر فيها، وإن كان في الساقة أي: متأخراً يحميهم من خلفهم، قام في هـٰذا المقام أتمّ القيام، فهو يعمل لله ـ جل وعلا ـ، ولهـٰذا يجتهد.

ثم **قال**: «**إن استأذن لم يؤذن له**». المقصود بهـٰذا أنه لا يعمل لأجل الدنيا.

ثم **قال**: «**وإن شفع لم يشفع**» لأنه أيضاً مثل ما كان في الاستعداد، وعمله لله، ويبحث عن تخفيته، ولا يريد أن يرىٰ، فهو لا يعمل لأجل رؤية الناس، وإنما عمله لله ـ جل وعلا ـ، هـٰذا عكس الأول الذي يعمل لأجل الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

بابٌ

من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

....

قال: «**باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً**»؛ يعني: أنه يطيعهم وهو يعلم أن طاعتهم تحليلٌ للحرام أو تحريمٌ للحلال.

أما إذا كان أطاعهم وهو غير عالم؛ فلا يأخذ هٰذا الحكم حتىٰ يكون ذٰلك عن علم، وإن كان آثماً؛ لأن الواجب أن يعرف الإنسان أن الطاعة بالمعروف كما قال الرسول ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»[١]، وقال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٢].

وهنا عمّ الأمر «**مخلوق**» أي مخلوق، سواء كان عالماً، أو أميراً، أو والداً، أو والدةً، أو غير ذٰلك، فلا طاعة لمن يأمر بمعصية الله.

ومعنىٰ «**لا طاعة**» أنه لا يجوز لك أن تطيعه، فإن كان ذا سلطة وقهرك؛ فهٰذا أمر آخر له حكمه، ونص المؤلف علىٰ «**العلماء والأمراء**»؛ لأنهم هم الأئمة، وهم الذين ينظر الناس إليهم، ويكون الناس تبعاً لهم، وإلا فلا فرق بين أمير وغيره، ولا فرق بين عالم وغير ذي علم إذا أطاع الإنسان مخلوقاً في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فلا فرق بين كونه أميراً أو عالماً أو غير ذلك، ولٰكن الغالب أن الذين يطاعون هم هٰؤلاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٥)، ومسلم (٣٤٢٤) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٧٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٧٩٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»(١)؟!

ثم ذكر قول ابن عباس: «**يوشك**» أي يقرب ويسرع أنكم تُرْمَوْن بالحجارة من السماء كما رمي المجرمون من قوم لوط ونحوهم، لماذا؟ يقول لأني أقول لكم: «**قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!!**» وهٰذا في الحكم الشرعي، ويقول هٰذا في المتعة؛ متعة الحج، فكان يأمر الناس أن يتمتعوا بالحج، ويقولون له: أبو بكر وعمر ينهيان عن المتعة، فقال هٰذا القول: «**يوشك أن تنزل عليكم الحجارة**» كيف تعارضون قول رسول الله ﷺ بقول أبي بكر وعمر؛ يعني: أن قول الرسول ﷺ لا يجوز أن يعارض بقول مخلوق، سواء كان له مقام أو ليس له مقام، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما يريدان أن يكثر زوار البيت، يقول: إذا جمعنا بين العمرة والحج قلَّ من يأتي للبيت؛ لأنهم يكتفون بمرة واحدة في السنة؛ لأنهم جاؤوا بالحج والعمرة جميعاً.

أما إذا أفردوا الحج؛ فإنهم سيأتون إلىٰ العمرة في أوقات أخرىٰ، وكانوا فهموا من أمر الرسول بأنه ليس للوجوب والفريضة، وإنما للاستحباب، وإلا فأبو بكر وعمر لا يخالفان الرسول ﷺ، وابن عباس فهم أن هٰذا أمر ملزم لا بد منه، وهٰذا مذهب بعض العلماء، والصحيح أنه غير ملزم، والأمر إلىٰ الحاج نفسه؛ يجوز أن يحرم بأحد المناسك الثلاثة، فإن شاء تمتع، وإن شاء أفرد، وإن شاء قرن وجاء بالعمرة والحج جميعاً، وهٰذا بإجماع العلماء.

أما أنه يجب عليه أن يكون متمتعاً؛ فهٰذا قول ابن عباس، وقال به بعض الناس.

أما أمر النبي ﷺ؛ فهو للصحابة في ذٰلك الوقت، وللوجوب لمن وجه إليه هٰذا الأمر، ولٰكن ليس معنىٰ ذٰلك أنه لا يجوز إلا هٰذا النسك ـ أي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣١٢١)، بلفظ: «أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ. . .» الأثر.

وقال الإمام أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلىٰ رأي سفيان، ....

التمتع - وقد كان صلوات الله وسلامه عليه قارناً لما أمرهم، وقال لهم: «**لولا أني سقت الهدي لأحللت معكم**»(١) هٰذا قاله تطييباً لأنفسهم، وكانوا يرون أن الإحلال في ذٰلك الوقت لا يجوز، بل يرونه من أفجر الفجور، ولهٰذا تمنعوا، وسألوا.

المقصود أن هٰذا القول لابن عباس؛ فيه دليل علىٰ عدم معارضة الله أو معارضة رسوله لقول أحد من الناس كائناً من كان، وأن من فعل ذٰلك فإنه خليق بأن ينزل عليه العذاب السريع القريب.

وقول الإمام أحمد: «**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته**» الإسناد الذي يروىٰ به الحديث، فإذا صح الإسناد؛ فالحديث صحيح، ويجب العمل به.

يقول: «**يذهبون إلىٰ رأي سفيان**» هو الثوري، إمام كبير من الأئمة، فهو مثل الإمام أحمد، ومثل الشافعي، ومثل أبي حنيفة، ومالك، ولٰكنه لم يكن له أصحاب يدونون أقواله وينشرونها كما نشر أصحاب المذاهب الأربعة أقوالَ أئمتهم ودونوها، وصارت مذاهب معروفة عند الناس، وهٰذه المذاهب تعود إلىٰ شيء واحد، وهو إلىٰ الكتاب والسنة، غير أن الفهوم تختلف؛ لأن القضايا التي تصدر للناس ليس كلها منصوصاً عليها في الكتاب والسُّنَّة، فلا بد من طلب أحكامها من النصوص، فالعلماء تختلف آراؤهم وأنظارهم، وبعضهم قد يبلغه الحديث، وبعضهم يكون عندهم من الفقه ودقة الاستنتاج ما ليس عند الآخر، وهٰذا هو سبب كونها صارت مذاهب، وإلا فالمرجع كله إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله، غير أن الاجتهاد في مثل الفهوم له مجال واسع. والمجتهد لا يرجع إلىٰ قول المجتهد الآخر؛ لأن هٰذا الذي أدىٰ إليه اجتهاده.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيُهْلِك»[(١)].

عن عدي بن حاتم: ....

المقصود أن الإمام أحمد يتعجب ممن عرف صحة الحديث، ثم يتركه لرأي أحد من العلماء.

ثم يحذر من ذٰلك ويقول: ألا يخاف من العقاب العاجل؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣]؛ يعني: عن أمر الرسول ﷺ، يخالفون أمره ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ يعني: في الدنيا.

ثم قال: **«أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»** فهٰذا أمر عجيب، أمر صعب مَخُوف.

أما العذاب الأليم؛ فهو العذاب العاجل في الدنيا، ففي هٰذا تحذير عن مخالفة قول الرسول ﷺ أو قول الله ـ جل وعلا ـ، وأنه واجب اتباعه، فإذا كان الإنسان يتبع مخلوقاً في التحليل والتحريم؛ فقد اتخذه رباً؛ لأن الأمر والنهي، والتحليل والتحريم من خاصية الرب، فهو خاص به، ولا يجوز لمخلوق أن يقول: هٰذا حلال وهٰذا حرام، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] فمن قال ذٰلك؛ فقد شارك رب العالمين.

ثم قال: **«عن عدي بن حاتم»** عدي بن حاتم كان نصرانياً من نصارىٰ العرب، وهو من أهل حائل، والده هو المشهور بالكرم الذي يضرب به المثل، يقال: أكرم من حاتم، وهو كذٰلك من الكرماء، ولٰكنه كان يكره الإسلام؛ لأنه علىٰ دين النصارىٰ، وكان عنده أموال، وله مقام عند قومه، فقال لمماليكه: إذا رأيتم خيل محمد؛ فأخبروني، وقد أعد عند بيته ركائب.

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٩٧).

أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هٰذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١]، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم قال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلّون ما حرم الله، فتحلونه**»؟ فقلت: بلىٰ. قال: «**فتلك عبادتهم**» رواه أحمد، والترمذي وحسنه[١].

أرسل الرسول ﷺ جيشاً بقيادة علي بن أبي طالب إلىٰ حائل، فجاءه غلمانه يسعون، قالوا له: ما كنت صانعه إذا جاءتك خيل محمد؛ فاصنعه، فقد جاءت ركب رواحله، وذهب إلىٰ الشام هارباً وترك ماله، وترك أختاً له كانت كبيرة، فجاء الجيش، وأخذ ماله، وأخذ أخته، فصارت أخته في السبي.

فلمّا وصلت إلىٰ المدينة وجاء الرسول ﷺ ينظر في السبي خاطبته قالت: مُنّ علي مَنّ الله عليك، فقد ذهب الوافد وولي الرافد.

قال: «**من الوافد**»؟ قالت: عدي. قال: «**ذٰلك الذي فرّ من الله ورسوله**» قالت: نعم. فسكت عنها، وذهب، فلمّا جاء في اليوم الثاني؛ أعادت عليه الكلام، فقال: إذا جاء من تعرفين من قومك؛ فأخبريني فجاءها من تعرفه، فأخبرته، فأعطاها من الركائب والشيء الذي تريد، فركبت وذهبت إلىٰ بلادها، فكتبت إلىٰ أخيها تلومه، تقول له: ائتِ إليه فوالله لهو أكرم من أبيك، فجاء ودخل علىٰ النبي ﷺ، وما كان الرسول ﷺ يعرفه، فدخل عليه وهو في المسجد، فقيل له: هٰذا عدي، ففرح به ﷺ، وقام إليه، وذهب به إلىٰ بيته، فسمعه يقرأ هٰذه الآية، فقال ـ وكان علىٰ صدره صليب ـ له: «**ألق هٰذا الوثن عنك**» ثم لمّا تلا هٰذه الآية؛ قال: يا رسول الله! لم نعبدهم! قال: «**أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرم الله فتحلونه**»؟ قال: بلىٰ. قال: «**فتلك عبادتهم**».

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٠٢٠).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النور. **الثانية**: تفسير آية براءة. **الثالثة**: التنبيه علىٰ معنىٰ العبادة التي أنكرها عدي. **الرابعة**: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان. **الخامسة**: تغيّر

فتبين بهٰذا أن طاعة الناس في المعاصي عبادة لهم؛ أي: طاعتهم في مخالفة الله ـ جل وعلا ـ ليس بكل معصية؛ لأن هٰذا يكون محادة لله ـ جل وعلا ـ، ويكون عبادة، ولهٰذا كان ذٰلك من نواقض التوحيد ومبطلاته.

وبهٰذا أيضاً يكون فيه تفسير لشهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ لأن هٰذا ضده، والتفسير كما سبق يكون بالضد.

قوله: «تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان» مقصوده بهٰذا الكلام أن هٰذا الذي ذكر عن أحمد وابن عباس كان في السابق. أما في وقتنا؛ فصار يعبد باسم الرهبان من هو فاسق، ومن هو أفجر الناس كما ذكر في شمسان وتاج وغيرهما، يزعمون أنهم أولياء، وهم فجار، يعملون الزنا، ويعملون الفجور، ولا يصلون، ولا يتطهرون، ومع ذٰلك يزعمون أنهم أولياء، ويتبركون بهم، يطلبون منهم البركات، وليسوا رهباناً عباداً، بل هم فجرة، فعُبدوا.

أما المعنىٰ الثاني؛ فهو عبادة الأحبار، الأحبار هم العلماء، فإنه يقول: عبد ناس جهّال يدعون العلم، وليس عندهم علم، ومع ذٰلك اتبعوهم، وتركوا كتاب الله، مع وضوحه وجلائه، وكذٰلك سنة نبيه ﷺ. وهٰذا كما قال لتغيّر الأحوال، ولأن الأمر صار بعيداً عن الخير، فكلما بعد عهد النبوة؛ فإنه يقل العلم، ويكثر الجهل. ولٰكن هٰذا أمر أكبر، وذٰلك أنهم اعتمدوا علىٰ كتب المتأخرين التي فيها مخالفة للدليل الواضح من كتاب الله وسنته ﷺ.

الأحوال إلىٰ هـٰذه الغاية، حتىٰ صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمىٰ الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيرت الحال إلىٰ أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين.

باب
قول الله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ....

المقصود بذكر هٰذا الباب أن يبين أن التحاكم يجب أن يكون إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وهٰذا عام في كل شيء، في الشجار الذي يحدث بين الناس، سواء كان في أمور المعاملات، أو الحقوق التي تقع بينهم، أو في مسائل الفقه، والأمور التي لا بد أن يحصل فيها خلاف بين الناس؛ لأن الناس يختلفون، فلا بد أن يرجعوا إلىٰ الكتاب والسنة لفض النزاع، أو تكون في مسائل العقيدة أو غيرها؛ فيجب في مسائل الاعتقاد والعمل التحاكم إلىٰ شرع الله.

ثم ذكر الآيات إلىٰ قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ يعني: ألم تعلم حالة هٰؤلاء الذين ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ سبق أن كلمة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ مطية الكذب، وأنها تطلق علىٰ الكذب في الغالب، فهٰذا معناه أنهم كانوا كاذبين في زعمهم.

فالزعم هنا دعوىٰ، يدّعون أنهم مؤمنون، فكذّبهم الله ـ جل وعلا ـ بأنهم يريدون التحاكم إلىٰ الطاغوت، وسبق الكلام في الطاغوت، وأنه كل ما صد عن دين الله، فهو من الألفاظ العامة.

وأما الإرادة في قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ فهي العزم الجازم؛ يعني: عمل القلب، فيؤاخذ عليه العبد، ومعلوم أن الإرادة تسبق الفعل ولا بد، فلا يوجد فعل لم تسبقه الإرادة، ولهٰذا قال الله ـ جل وعلا ـ في الإلحاد في الحرم:

وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فرتب وجود العذاب الأليم علىٰ الإرادة.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار»** قيل: يا رسول الله! هـٰذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: **«كان حريصاً علىٰ قتل أخيه»**[(١)]، فجعل الحرص علىٰ القتل موجباً للنار.

والحرص معناه الإرادة المصممة، فإذاً ليست المسألة مجرد إرادة فقط؛ لأن إرادة القلب وتصميمه لا بد أن يسبق العمل، ولـٰكن قد يحول بينه وبين العمل ما يعجزه، فلا يكون معذوراً في هـٰذا.

وقوله: ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سبق الكلام في الطاغوت وفي معناه، فالطاغوت كل ما يتحاكم إليه في أمر يعتاض به عن شرع الله، ولهـٰذا **قال:** ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

وقوله: ﴿أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ عام للأمم كلها، وإن كان سبب النزول يدل علىٰ معين، ولـٰكن سبب النزول ـ كما يقول العلماء ـ لا يدل على التخصيص.

وقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ يعني: أن يكفروا بالطاغوت، مما يدل علىٰ أن الطاغوت يقصد الحكم به والرجوع إليه، فيكون قانوناً يحكم بين الناس، ولهـٰذا سمي طاغوتاً؛ لأنه طغىٰ وخرج إلىٰ منازعة الله في الحكم بين عباده.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ يدلنا علىٰ أن هـٰذا الأمر الذي ذكر أولاً أنه مما يحبه الشيطان، ويأمر به، وأنهم إذا فعلوا ذٰلك؛ فقد أبعدوا عن الحق، والإبعاد عن الحق هو الضلال البعيد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾، قال: ﴿صُدُودًا﴾ مما يدل علىٰ أن هٰذا شيء متأصل عندهم؛ وهو مصدر صد يصد صداً وصدوداً أيضاً فيه المبالغة.

ثم ذكر الآيات الأخرىٰ التي فيها الإفساد في الأرض، والمقصود بهٰذا: أن كل معصية تقع من الناس فهي إفساد في الأرض، وأعظمها مجانبة الشرع، ووضع حاكم بدل الشرع يحكم بين الناس يعتبر من الإفساد؛ لأن بعض الناس يزعم أن هٰذا إصلاح كالمنافقين، فتنقلب الحقائق، فيرىٰ أن ما سماه الله ـ جل وعلا ـ إفساداً يراه أنه إصلاح.

ولهٰذا ذكر قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ كما أنهم يرون أن عدم الإيمان رقي وحرية، أما الإيمان؛ فهو سفه، ولا يأخذ به إلا السفهاء، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] فهو من هٰذا القبيل.

أما الآية الثانية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فإصلاحها بطاعة الله، واتباع الشرع الذي جاءت به الرسل، يصلح الناس في أديانهم وعقائدهم، لا تختلفوا عليهم، وتأتوا بما هو خلاف ذٰلك، فإنه إفساد، فيكون المعنىٰ أن الحكم بغير ما أنزل الله تعالىٰ من الإفساد، وليس من الإصلاح كما يزعمه من يزعمه.

وقــولـــه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الآية [المائدة].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئتُ به**»[1] قال النووي: «حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح»[2].

أما **قوله**: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ فهٰذا استفهام بمعنىٰ الإنكار، والجاهلية سبق أن كل ما خالف الإسلام؛ فهو جاهلية، فهو ظاهر في وجه الاستدلال بالآية.

أما الحديث «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به**» الهوىٰ هو ما يهواه الإنسان ويشتهيه ويريده وينقاد له.

والمعنىٰ: أنه لا بد أن يرضىٰ بالشرع، وأن يكون مغتبطاً به، أما إذا كان في نفسه منه حزازات، وعنده حرج وضيق، ويرىٰ أن غيره أوسع منه وأفضل، فهٰذا نفىٰ عنه الإيمان، ولا يكون مؤمناً، وقد جاء ما هو مثل هٰذا الحديث كما في الآية التي ذكرنا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، والآيات في هٰذا كثيرة في كتاب الله ـ جل وعلا ـ، وكلها تدل علىٰ وجوب تحكيم الشرع، وما جاء به الرسول ﷺ. وهٰذه الأمور من تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ لأنه ـ كما سبق ـ قال لنا: «تفسير هٰذه الترجمة وما بعدها من الأبواب» يعني إلىٰ آخر الكتاب، فإذا كان هٰذا من تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ فمعنىٰ ذٰلك أن الحكم بغير ما أنزل الله مضاد للتوحيد أو لكماله الواجب.

أما الأثر الذي ذكره عن الشعبي؛ فهو مرسل، وذٰلك أن الشعبي تابعي،

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢٩١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) «الأربعون النووية» حديث (٤١).

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلىٰ محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة.

وغالب أحاديث أسباب النزول مرسلة أو ضعيفة، والصحيح منها قليل، ولٰكن يكفينا من النصوص عموم اللفظ.

وفائدة ذكر السبب إعانة علىٰ الفهم المقصود؛ حتىٰ لا يحتج محتج ويقول: هٰذا ضعيف، كيف يذكره في «كتاب التوحيد» كما يقوله من يقوله الآن، ثم قد يقول: إن فيها آثاراً غير هٰذا، وفيها أحاديث ضعيفة، فنقول: الأحاديث التي فيها ضعف من وجه فهي حسنةٌ من وجه آخر، والحسن نوع من الصحيح.

وأمر آخر: أنه في الغالب لا يذكر الأحاديث التي فيها ضعف في الأصول، وإنما يذكرها للاعتضاد والاستشهاد فقط؛ لأن فيها إيضاحاً، وفيها استشهاداً لما سبق؛ لأنه لا بد أن يذكر آيات من كتاب الله، وهي العمدة، وأحياناً كثيرة يذكر مع الآيات أحاديث صحيحة، فإذا جاء بعدها بشيء من هٰذا الذي فيه ضعيف فإنما يكون لبيان أكثر، وإيضاح لما هو ثابت مما ذكر، فلا يعترض عليه بذٰلك.

قال: «**كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي نتحاكم إلىٰ محمد، لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة**» الرشوة هي المال الذي يبذل حتىٰ يحصل الحكم له، يبذله للحاكم، ويبذله لمن حوله، حتىٰ يتحصل علىٰ الحكم، فمعنىٰ ذٰلك أنه شيء يصد عن الحق، الرشوة تصد عن الحق، ولهٰذا صارت من المحرمات، بل من الكبائر كما جاء النص علىٰ ذٰلك[١]. والباذل والآخذ فيها سواء، وكذٰلك إذا كان فيه واسطة بين الباذل والآخذ يكون مثلهم، ولهٰذا جاء لعن الثلاثة «**الراشي، والمرتشي، والرائش**»[٢] الرائش هو

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/٥٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٦٥) من حديث ثوبان ﷺ.

وقال المنافق: نتحاكم إلىٰ اليهود ـ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ـ فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠][(١)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلىٰ النبي ﷺ، وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلىٰ عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرضَ برسول الله ﷺ:

الواسطة بين الاثنين، وذٰلك أن إفسادها واضح وعظيم من عدة نواحي. من ناحية أنها تكون داعية لعدم العدل بين الناس وإيصال حقوقهم إليهم؛ ولأنها تحاكم إلىٰ غير الحق، ولأن فيها الظلم في أخذ الحقوق، وغير ذٰلك من المفاسد.

قال: «**لعلمه أن اليهود يأخذون الرشوة، وأن محمداً ﷺ لا يأخذ الرشوة**» وكذٰلك من تبعه؛ لأنهم يرون أن الرشوة إجرام وحرام.

قال المنافق: «**نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة فاتفقا أن يأتيا كاهناً**» الكاهن طاغوت، فإذا اتفقا أن يأتيا الكاهن؛ فقد تحاكما إلىٰ طاغوت.

والغالب أن المبطل يريد أن يكون الحكم له علىٰ كل حال، ولهٰذا يقول: «**فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾**»؛ يعني: الآيات أو الآية.

أما **قوله**: «**وقيل**» فهي صيغة تمريض، وصيغة التمريض في الغالب تدل علىٰ الضعف، فيكون هٰذا الأثر الثاني أضعف من الذي قبله، «**فنزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلىٰ النبي ﷺ، وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلىٰ عمر، فذكر أحدهما القصة**»؛ يعني: أنهما تحاكما إلىٰ الكاهن، أو ذكر أنه أبىٰ أن يذهب للتحاكم إلىٰ النبي ﷺ، فسأل الثاني الذي لم يرض بذٰلك: أحق هٰذا؟ قال: نعم.

---

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧١١)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٥٢).

أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله(١).

قال: إذاً لا تبرحا مكانكما، فدخل البيت، وأتىٰ بالسيف، فضربه حتىٰ قتله، هٰذا قد يكون واقعاً، وقد لا يكون واقعاً.

وقد يقال: كيف يقتل عمر الرجل بدون أن يرجع إلىٰ النبي ﷺ؟

والجواب: أنه بلغه فأقره علىٰ ذٰلك، وعمر علم أن الرسول ﷺ يقره علىٰ ذٰلك، وكان رضي الله عنه شديداً في أمر الله.

وعلىٰ كل حال؛ مثل هٰذا لا يجوز أن نأخذ بظاهره، فلا يسوغ للإنسان أنه يُقدم علىٰ قتل من يتحاكم إلىٰ غير الله فتقع الفوضىٰ، كلٌ يدعي أن هٰذا استوجب القتل، فالقتل وُكل إلىٰ الإمام؛ فهو الذي ينفذ الأحكام، لا ينفذها آحاد الناس.

وإن كان وجب عليه القتل؛ فلا يقتل إلا بأمر الإمام حتىٰ لا تكون فوضىٰ، وهٰذا أمر متفق عليه، ولا خلاف فيه، وليس في هٰذا حجة علىٰ تقدير ثبوته؛ لأن عمر يجوز أنه علم أنَّ الرسول ﷺ أقر هٰذا.

فالخلاصة أن هٰذا الباب جعل لوجوب إخلاص توحيد الربوبية لله ـ جل وعلا ـ، وأن الرب هو الذي يحكم بين عباده، فلا يجوز منازعته في شيء مما هو من خصائصه، فهو بدأ الآن يذكر توحيد الربوبية، وليس ذلك خالصاً، بل فيه توحيد العبادة، ولهٰذا سيذكر بعد هٰذا الباب القسم الثالث من التوحيد الذي هو توحيد الأسماء والصفات؛ لأنه يريد أن يبين أن هٰذه الأقسام متلازمة؛ يلزم من كونك تعبد الله وحده أن يكون هو الحاكم الذي تُحكمه في الأمور التي تحدث، سواء من الخلافات العلمية التي تحدث كثيراً بين الناس أو من الخلافات التي يكون فيها نزاع وحقوق بين الناس، فيجب أن يكون الفاصل الذي يفصل فيها هو قول الله رب العالمين الذي هو ربنا وإلٰهنا.

---

(١) علّقه البغوي في تفسيره (١/ ٤٤٦).

....

وكذٰلك توحيد الأسماء والصفات؛ يجب أن يكون أيضاً محققاً لدىٰ من عبد الله ومن حكّم كتابه، والتلازم بينها أمرٌ واضح، ولٰكن قد يخفىٰ علىٰ بعض طلبة العلم. فتوحيد العبادة في ضمنه توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد العبادة، فالتضمن يكون داخل الشيء.

وأما الاستلزام؛ فإنك إذا آمنت بأن الله ربك، وهو المتصرف فيك؛ يلزمك أن تعبده وحده؛ لأنه هو الذي يجلب لك النفع، ويقدر أن يعذبك إذا لم تتبعه، وهو خلقك وملكك.

أما توحيد الأسماء والصفات؛ فهو أيضاً ملازم لتوحيد الربوبية، لهٰذا بعض العلماء يجعلهما قسماً واحداً.

القسم الأول: توحيد العلم والعقيدة.

والقسم الثاني: توحيد النية والإرادة والقصد.

أو يقول مثلاً:

القسم الأول: توحيد العبادة والإلٰهية.

والقسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات والربوبية.

أما أن نأتي بقسم رابع أو خامس، كما يفعله بعض طلبة العلم؛ فهٰذا خطأ، ولا معنىٰ له، ولا فائدة في ذٰلك، فبعضهم يجعل الأقسام أربعة، وبعضهم يجعلها خمسة، فالذي يجعلها أربعة يقول: توحيد الحاكمية، وهٰذا هو توحيد الربوبية، لا فرق بين هٰذا وهٰذا؛ لأن الرب هو الحاكم، هو الذي يأمر وينهىٰ.

وبعضهم يأتي بقسم خامس، ويقول: توحيد المتابعة! وتوحيد المتابعة هو توحيد العبادة، إذا لم تعبد ربك بما جاء به الرسول؛ فأنت لم تؤمن، ولم تعمل، بهٰذا يتبين أن هٰذه التقسيمات لا طائل تحتها، وإنما تدل علىٰ عدم الفهم.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة علىٰ فهم الطاغوت. **الثانية**: تفسير آية البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١] **الثالثة**: تفسير آية الأعراف ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] **الرابعة**: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] **الخامسة**: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولىٰ.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق. **الثامنة**: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

قوله: **«ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولىٰ»** يعني: أن هٰذا يستشهد به، ولا يعتمد عليه.

قوله: **«تفسير الإيمان الصادق والكاذب»** أخذ هٰذا من قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ وهو كاذب. أما الصادق؛ فهو يقتضي العمل، وبدون عمل لا يكون صادقاً، فإذا قال: آمنت ولم يعمل فهو كذب، وإذا عمل ـ أي: العمل بالأمر والنهي والامتثال ـ فهٰذا الصادق.

قوله: **«كون الإيمان لا يحصل لأحد حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ»** هٰذا الإيمان الذي لا يحصل هو الإيمان الواجب، وليس معنىٰ ذٰلك أن الإنسان إذا لم يكن هواه تبعاً للشرع فإنه يكون كافراً، ولٰكنه يكون معرضاً لعقاب الله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه لم يأتِ بما يجب عليه.

ولو قيل: إنه يكون كافراً؛ لكان أكثر المسلمين علىٰ هٰذه الحالة؛ لأنك تجد كثيراً من المسلمين عندما يصير حكومة بينه وبين الآخر؛ فيحكم عليه؛ فإنه يتضجر، ويتبرم، ولا يرضىٰ، هٰذا نقص في الإيمان، وقدح بالتوحيد، وبذٰلك يتعرض لعقاب الله، ولٰكنه لا يكفر.

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: «الرحمٰن» أنكروا ذٰلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][(١)].

وهٰذا القسم الثالث، وسيعود مرة أخرىٰ ويختم به الكتاب، ويبين شيئاً منه؛ لأن هٰذا مجرد إشارة، وأن هٰذه الأقسام ـ أقسام التوحيد ـ لا بد منها، وأنه لا يكتفي المسلم بقسم منها، فلا بد أن يعرفها كلها ويطبقها.

وأسماء الله وصفاته كلها حسنىٰ وعليا، والحسنىٰ معناها التي لا يلحقها نقص ولا عيب، فهي كاملة تامة، وهٰذه خاصة بالله ـ جل وعلا ـ.

قال: «**باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات**» الجحود هو الإنكار، وهٰذا الجحود يتضمن اللفظ والمعنىٰ؛ لأن كل لفظ له معنىً، ولا توجد ألفاظ بلا معانٍ، فالمعاني تبع للألفاظ، فيدخل في هٰذا التأويل عند المتأخرين، وهو ـ كما سبق ـ تحريف وليس تأويلاً، كتأويل اليد بالنعمة، أو الرحمة بالإحسان، أو بإرادته، وتأويل الاستواء بالاستيلاء، وتأويل العلو بعلو القدر، وما أشبه ذٰلك، فهٰذا كثير جداً، هم يسلكون هٰذا المسلك، ويرون أن هٰذا هو الواجب، والسبب في هٰذا سوء الظن بالنصوص، حيث فهموا من ظاهرها التشبيه كما زعموا، ولٰكنهم مخطئون وضالون في هٰذا.

يقول: إذا كانوا ضالين؛ فلماذا لا نقول لهم كافرين؟

الجواب: لأنهم اعتقدوا أن ظاهر هٰذه النصوص كفر، فهم فروا من الكفر، ولهٰذا لما سئل علي رضي الله عنه عن الخوارج؛ قيل له: أكفارٌ هم؟ قال: لا، من الكفر فرّوا[(٢)]، مع أنه جاءت الأحاديث تنص علىٰ أنهم مرقوا من

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٦٥٦).

....

الإسلام، وأنهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية[١]، وهٰذا مروقهم أظهر من مروق هٰؤلاء، ومع ذٰلك لما كانوا متأولين ولهم شُبه؛ منع من تكفيرهم.

ولا يجوز للإنسان أن يقدم علىٰ التكفير إلا بدليل قاطع وبيّن، أما التسرع إلىٰ هٰذا؛ فهو خطر جداً؛ لأن تكفير المسلم كقتله، وإن كان بعض الناس يتساهلون بهٰذا؛ فلا يجوز التساهل بمثل هٰذا.

ثم الأسماء والصفات التي يخبرنا الله ـ جل وعلا ـ بها ـ بل يتعرف بها إلينا ـ لا نعرف ربنا ـ جل وعلا ـ إلا بأسمائه وصفاته وأفعاله التي يفعلها؛ لأنه ـ جل وعلا ـ ما نشاهده حتىٰ نعرفه بالمشاهدة، فالله غيب لا يشاهد، وإنما يُرىٰ يوم القيامة[٢]، والرؤية يوم القيامة يُرىٰ وجهه ـ جل وعلا ـ، ولا يحاط به، فهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء.

وكذٰلك هو ـ جل وعلا ـ ليس له مثيل أو شبيه حتىٰ نقيسه عليه، تقول مثل كذا، وشبيه كذا ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ فإذاً أصبح ليس هناك طريق للإيمان به، ومعرفته إلا بأسمائه وصفاته وأفعاله من خلق السموات وخلق الإنسان، وما نشاهده من المخلوقات؛ نعلم أنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم.

والفقه في هٰذا يسميه العلماء الفقه الأكبر، والإيمان يكون تابعاً لذٰلك، فكلما ازداد الإنسان علماً بهٰذا؛ زاد إيمانه، وزادت خشيته لله، وزاد خوفه من الله، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٥)، ومسلم (١٧٧٦).

(٢) كما جاء في الحديث «**إنكم سترون ربكم كما ترون هٰذا القمر، لا تضامون في رؤيته..**» الحديث، أخرجه البخاري (٥٢١)، ومسلم (١٠٠٢) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]

فالعلماء الذين يعلمون خطاب الله، وأعظمه ما يتعلق به ـ جل وعلا ـ، بأسمائه وصفاته، وأفعاله وذاته، ولهٰذا نقول: هٰذا أمر مهم جداً، وإن كان توحيد العبادة هو الذي حصل فيه الخلل كثيراً، فلهٰذا كانت الرسل تبدأ به، وهٰذا الغالب أنه بظهوره وجلائه أنه يتبع ذٰلك.

وفي الآية أن كفار قريش أنكروا اسماً واحداً من أسماء الله، وهو الرحمٰن، وهٰذا لجهلهم أو لعنادهم، والظاهر أنه لعنادهم، وليس لجهلهم؛ لأنه وجد في أشعارهم ذكر الرحمٰن، فذكروه في أشعارهم وأقوالهم، ولهٰذا صار من أنكر اسماً من أسمائه أو صفة من صفاته؛ فإنه يطلق عليه أنه كافر، كما أطلق الله ـ جل وعلا ـ علىٰ هٰؤلاء قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

وسبب نزول هٰذه الآية ما جاء في هٰذا الحديث الذي في «الصحيحين» في قصة الحديبية، فإن الرسول ﷺ لمّا أمر علي بن أبي طالب أن يكتب؛ قال له: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**»، وكان المفاوض من قِبل قريش هو سهيل بن عمرو، فقال له: ما نعرف الرحمٰن! ولٰكن اكتب كما كنا نكتب[1]. فهو تعصب؛ لأنه رأىٰ أنه في موقف المنتصر أو موقف الذي يفرض رأيه، وليس كذٰلك، ولٰكن الرسول ﷺ نزل عند قوله، وقال: ماذا نكتب؟ قال: اكتب كما كنا نكتب «باسمك اللهم». قال: فكتب «باسمك اللهم»، فنزلت ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو رب كل شيء ـ جل وعلا ـ.

فإذا كان مجرد تعصب وإنكار دلنا علىٰ أن إنكار الاسم ـ ولو لم يعتقد ذٰلك ـ يطلق عليه أنه كفر، فكيف بمن ينكره، وينكر معناه؛ فإنه يكون أعظم.

ومثل هٰذا ما جاء في قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهو أنه جاء سبب النزول

(١) أخرجه البخاري مطولاً (٢٥٢٩)، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦/٤٤٦).

وفي «صحيح البخاري»: قال علي رضي الله عنه: ....

أنهم سمعوا الرسول ﷺ يقول: «**يا الله، يا رحمن**» فقالوا: يأمرنا أن نعبد إلٰهاً واحداً، وهو يعبد إلٰهين، فنزلت الآية(١).

قوله: «وفي صحيح البخاري قال علي رضي الله عنه» هٰذا الأثر موقوف علىٰ علي رضي الله عنه، فهو من قوله، والظاهر أن المؤلف يرىٰ أن عوام الناس لا يجوز أن يتحدثوا بالشيء الذي لا تدركه عقولهم، وبالشيء الذي يصعب عليهم فهمه، حتىٰ لا يكفروا، ينكرونه فيكفروا، فهل هٰذا يدل علىٰ أن أسماء الله وصفاته لا يحدث بها عند عامة الناس؟

الجواب الأول: أن أسماء الله وصفاته في كتاب الله أكثر من ذكر الأحكام، وأكثر من ذكر الزكاة، والصلاة، والصوم، بل أكثر من ذكر الأوامر كلها، فلو تأملنا كتاب الله؛ لوجدنا أنه قلّ ما تذكر آية من آيات الله إلا وتختم بصفة من صفاته أو اسم من أسمائه، فمع هٰذه الكثرة لا يقال: إن هٰذا لا يُحَدَّثُ به.

الثاني: أن الرسول ﷺ كان يذكر أسماء الله وصفاته في المجامع، والمجامع غالباً ما يحضرها عموم الناس، وهم مختلفو الفهوم، ففيهم الذكي ومتوسط الذكاء، والكبار والصغار، والأعراب وغيرهم، فيذكرها في هٰذه المجامع، فهي ليست من الأمور التي تخفىٰ.

أما ما يذكره بعضهم أن الإمام مالكاً وكذٰلك غيره من الأئمة يمنعون ذكرها لعموم الناس؛ فإنه لا يصح.

فالمقصود بهٰذا ـ والله أعلم ـ أن المؤلف يريد أنك لا تذكر الأشياء التي فيها شيء مما يستنكره عوام الناس، أو الذين ما وصل العلم إليهم إلا علىٰ طريق تدريجي حتىٰ لا ينكروا ذٰلك، فيكفروا، فيجب التعليم أولاً، يُعَلّمون شيئاً فشيئاً حتىٰ يعرفوا ذٰلك؛ لأنه قد يكون غريباً عليهم.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٨٠)، «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٢٨).

«حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»[١].

وروىٰ عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأىٰ رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذٰلك ـ فقال: «ما فرق هٰؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه»[٢]. انتهىٰ.

وقوله: «أتريدون أن يكذب الله»؛ يعني: أنكم تأتون بشيء لا تحتمله عقولهم، فيكذبوا به، كأن يذكر شيئاً من عظمة الله ـ جل وعلا ـ أو من آياته الكبار التي لا تحتملها عقولهم، فهم قد يكفرون إذا أنكروها، فينبغي الرفق بهم، وتحديثهم بالشيء الذي تحتمله عقولهم من صفات الله وعظمته، وإنما يجب أن يحمل هٰذا علىٰ الأمور الغريبة التي لا تحتملها العقول، فإن هٰذا يجتنب، مثل إذا كان الإنسان يُخاف عليه، فيعلم بالتدريج شيئاً فشيئاً صفاتِ الله وأسماءَه حتىٰ يرتاض لذٰلك، ويكون عنده حصانة من إنكار الشيء الذي يكون به الكفر.

ثم قال: **«روىٰ عبد الرزاق عن مَعْمر، عن ابن طاوس، عن أبيه»** هٰذا إسناد صحيح **«عن ابن عباس أنه رأىٰ رجلاً انتفض»؛** يعني: لما ذكر حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات انتفض ذٰلك الرجل استنكاراً له.

فقال ابن عباس: **«ما فَرَقَ هٰؤلاء؟»** هٰذا الحرف روي بالتخفيف، ومعنىٰ الفَرَق هنا الخوف، فهو إنكار من ابن عباس لهٰذا الخوف؛ لأنه يدل علىٰ أن هٰذا الرجل لم يؤمن بما ذكر. وروي بالتشديد **«ما فرّق هٰؤلاء»** أي بين الحق والباطل، فهو أيضاً إنكار من ابن عباس رضي الله عنهما.

جاء تفسير هٰذا أن الحديث الذي حدث به أنه قال: إذا جلس الله علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٨٩٥).

فيه مسائل:

الأولىٰ: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

العرش أو قال: إذا استوىٰ الله علىٰ عرشه ليفصل بين عباده، فانتفض الرجل، فأنكر عليه ابن عباس، أنت تجد الرقة عند الشيء المحكم، وعند مثل هٰذه يعني خوفاً من الكفر في مثل هٰذا، فهٰذا معناه، فالمؤلف يرىٰ أن هٰذه تَفْرَقُ التي يكون فيها إنكار لبعض الناس أنهم لا يحدثون بها حتىٰ تقدم لهم مقدمات، ويعلمون بذٰلك، ثم يحدثون بها حتىٰ لا يكفروا بذٰلك.

وهٰذا الحديث الذي ذكره: «**إذا جلس ربنا علىٰ عرشه**» جاء من رواية محمد بن إسحاق، والكلام فيه معروف، ولٰكن هو في نفسه صادق وثقة، ولٰكن يقولون: فيه تدليس، فإذا انتفىٰ التدليس؛ فلا إشكال، التدليس في كثير من المحدثين، ولهٰذا يقول ابن القيم: «ليس فيه علة إلا أنه روىٰ ما يخالف قول الجهمية» معنىٰ هٰذا أن الواجب علىٰ العبد أن يؤمن بما جاء عن الله وعن رسوله إيماناً سالماً من التحريف والتأويل، ومن التشبيه والإلحاد، والتمثيل، مع اعتقاد أن ظاهر هٰذه النصوص حق، وأنها علىٰ ما يليق بعظمة الله، بالإضافة إلىٰ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١٠] ثم هٰذا الذي مضىٰ يقول: لما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن أنكروا ذٰلك، فأنزل الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

قوله: «**عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات**» يعني: أن الإنسان إذا جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته؛ فإنه ينفىٰ عنه الإيمان.

قوله: «**ترك التحديث بما لا يفهم السامع**» يعني: الشيء الذي لا يفهمه السامع لا يجوز أن يحدث به من أول وهلة، حتىٰ يبين له ويوضح الأمر، وليس معناه أنه لا يحدث بذٰلك، لو كان الأمر كذٰلك؛ لترك أشياء كثيرة.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلىٰ تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر. **الخامسة**: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذٰلك، وأنه هلك.

قوله: «كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك» لا يفهم من هٰذا أن أسماء الله - جل وعلا - من المتشابه كما يقوله أهل البدع كالأشاعرة وغيرهم، أسماء الله وصفاته من المحكم الواضح الجلي وليس متشابهاً.

باب
قول الله تعالىٰ:

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النحل].

للمفسرين في هٰذه الآية قولان، وكلاهما حق، وإذا اختلفت أقوال المفسرين؛ وكانت ترجع إلىٰ شيء واحد، فيكون الاختلاف اختلافاً لفظياً، أو اختلافاً في التعبيرات، أو هي من المترادفات، فهو اختلاف تنوع؛ أي: كل واحد عبر بنوع من العبارات، ومعنىٰ النوع أنها ترجع إلىٰ شيء واحد. واختلاف التضاد لا يأتي في هٰذا.

القول الأول: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ما ذكره المؤلف: أن النعم التي ينعم الله ـ جل وعلا ـ بها عليهم يضيفونها إلىٰ غيره، فهٰذا إنكارها، فكما يقول الإنسان: هٰذا مالي تحصلته بكدي وبقوتي وبمهارتي ومعرفتي، فهٰذا إنكار لنعمة الله، من الذي هيّأك بهٰذه الصفة، ويسر لك هٰذه الأمور؟ هو الله ـ جل وعلا ـ، لا أحد غيره، فالواجب أن تضيفه إلىٰ الله، سواء اكتسبته بنفسك، أو ورثته عن أبيك، فالمعنىٰ واحد؛ فأبوك قبلك هو تحصل هٰذا بفضل الله ورحمته، فيجب أن يضاف إلىٰ الله، فإذا أضفته إلىٰ فعلك أو فعل غيرك من الناس؛ فمعنىٰ هٰذا أن هٰذا كفر بالنعمة، وسبق أن كفر النعمة لا يخرج من الدين الإسلامي، ولٰكنه يقدح في التوحيد، ويذهب بكماله الواجب، وهٰكذا يقال في جميع النعم التي ينعم الله ـ جل وعلا ـ بها علىٰ عباده، مثل هبوب الرياح الطيبة، والجو الحسن، ومثل ما يتمتع به الإنسان من الصحة وغيرها، فيجب أن يضاف إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ.

ثم لا تكفي الإضافة، فلا بد من أن تشكره علىٰ ذٰلك، وتحمده علىٰ هٰذا، وبذٰلك تكون قمت بما يجب عليك.

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هٰذا مالي، ورثته عن آبائي[١].

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان؛ لم يكن كذا[٢].

أما إذا أضفته إلىٰ مخلوق سواء إلىٰ نفسك أو غيرك؛ فإن هٰذا كفر بالنعمة، وإنكار لها إذا أضفتها إلىٰ من يكون سبباً فيها أو جزء سبب.

والأسباب لا تضاف إليها الأمور علىٰ أنها هي التي يعتمد عليها، وإنما الاعتماد علىٰ الله ـ جل وعلا ـ.

القول الثاني أن النعمة هنا الرسول ﷺ، ولا شك أنه أكبر نعمة أنعم الله بها ـ جل وعلا ـ علينا، فيقول: يعرفونه، ويعرفون صدقه، ويعرفون نسبه، ويعرفون أمانته، ثم ينكرونه، فهٰذا لا يكون مخالفاً للقول الأول، غير أنهم نصوا علىٰ هٰذه لعظمها وعظم قدرها، فيجب أن يشكر الله ـ جل وعلا ـ عليها ويحمد علىٰ ذٰلك ويثنىٰ عليه؛ لأنها نعمة كبرىٰ، حيث أرسل إلينا رسولاً نعرف صدقه، ونعرف أمانته، ونعرف أنه جاء بالحق؛ لأن الإيمان به هو أكبر النعم وأعظمها، لا سيما إذا ثبت الإنسان علىٰ ذٰلك إلىٰ الموت، فإنه يكون تحصل علىٰ السعادة التي لا يشبهها شيء.

وقوله: «قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هٰذا مالي ورثته عن آبائي»؛ يعني: يشير إلىٰ ما بيده، فيضيفه إلىٰ نفسه، أو يضيفه إلىٰ آبائه، والواجب أن يقول: هٰذا من الله رزقنيه، ويحمده علىٰ ذٰلك، وهٰكذا يقال في غيره.

قال: «وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان؛ لم يكن كذا»؛ يعني: أنه يضيف الأشياء إلىٰ سببها، فهٰذا نوع من الشرك، وهو شرك الألفاظ، وهٰذا كثيراً ما يصدر من الناس.

---

(١) أخرج الطبري في «التفسير» (١٧/ ٢٧٣) بسنده إلى مجاهد قال: «هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هٰذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هٰذا كان لآبائنا، فروّحونا إياه».

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٧٣).

وقال ابن قتيبة: يقولون: هٰذا بشفاعة آلهتنا.

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «**إن الله تعالىٰ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر..**» الحديث، وقد تقدم: «وهٰذا كثير في الكتاب والسنة، يذم ـ سبحانه ـ من يضيف إنعامه إلىٰ غيره، ويشرك به»[(١)].

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذٰلك مما هو جارٍ علىٰ ألسنة كثير.

قال: «**وقال ابن قتيبة: يقولون: هٰذا بشفاعة آلهتنا**»؛ يعني: النعم التي تحصل لهم من نزول المطر أو نبت النبات أو غيرها، كان المشركون يقولون: هٰذا بشفاعة الآلهة عند الله، فأضافوه إلىٰ ما لا تصرُّفَ له، ولا حول له ولا طول.

قال: «**وقال أبو العباس**»؛ يعني: ابن تيمية «**بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه أن الله تعالىٰ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...» الحديث. وقد تقدم، وهٰذا كثير في الكتاب والسنة، يذم ـ سبحانه ـ من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به**» يعني يشرك باللفظ، فهٰذا يقول: إنه كثير، فينبغي للإنسان أن يتحرز من ذٰلك.

قال: «**وقال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً**»؛ يعني: كانت الرياح هي التي تسوق السفن، وإنما يوجهونها بالمجاديف التي يتخذونها، وإذا جاءت الرياح العاتية لا يكون لهم التصرف فيها، التصرف لله ـ جل وعلا ـ، فكانت إذا جاءت الريح مواتية لما يريدون قالوا: الريح طيبة.

قوله: «**والملاح حاذقاً**»، الملاح الذي يوجه السفينة، ومثل ذٰلك يقال في السيارة، وفي غيرها، فالواجب إذا حصلت النعمة أن تضاف إلىٰ المنعم بها،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٣).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. **الثانية**: معرفة أن هٰذا جارٍ علىٰ ألسنة كثير. **الثالثة**: تسمية هٰذا الكلام إنكاراً للنعمة. **الرابعة**: اجتماع الضدين في القلب.

وهو رب العالمين، وهٰذه مجرد أمثلة، وإلا فهٰذا عام في كل شيء.

والواجب أن تضاف النعمة إلىٰ من أنعم بها، ويشكر عليها، حتىٰ يكون ذٰلك مستوجباً أو يكون مترتباً عليه الجزاء الذي هو الأجر من الله ـ جل وعلا ـ، وبذٰلك تثبت النعم، وتستقر وتزيد؛ لأن الله إذا شُكر علىٰ نعمه؛ زاد الشاكر نعماً أخرىٰ.

قوله: «**اجتماع الضدين في القلب**» الضدان في القلب: الإيمان والكفر، والسبب في هٰذا أنه قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ فالمعرفة إيمان، والإنكار كفر، فهٰذا اجتماع الضدين في القلب، والإنسان بما غلب عليه، الذي يغلب عليه هو الذي يحكم عليه به.

باب
قول الله تعالىٰ:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس في الآية: «الأنداد: هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل؛ وهو أن تقول: والله، وحياتك ....

هٰذا نوع آخر من أنواع الشرك اللفظي الذي يكون بالألفاظ، وهو إضافة الأشياء إلىٰ أسبابها، أو جزء أسبابها، أو إلىٰ مخلوق من المخلوقات، وإن كان الإنسان لا يقصد الحقيقة؛ فإنه يكون شركاً في اللفظ، ويجب أن يتحرز منه؛ لأنه نقص وقدح في التوحيد؛ يعني إذا فعل ذٰلك يكون قد ترك ما يجب، فمنها أنه داخل أيضاً في التنديد؛ لأنه تشريك في اللفظ.

والتنديد أن يجعل لله ـ جل وعلا ـ شريكاً ونداً، وهٰذا يدلك علىٰ أن الواجب إخلاص التوحيد في النيات والأفعال والألفاظ، فلا يقع منه شيء مما يدل علىٰ إشراك المخلوق.

قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ معلوم أن الآية المقصود بها الأنداد في العبادة، ولٰكن الكلام يعم.

ولهٰذا ذكر ابن عباس أن هٰذا يدخل فيه اللفظ، **قال**: «**الأنداد هو الشرك**» ثم **قال**: «**أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء**» وهٰذا مأخوذ من قول الرسول ﷺ في ذكر الشرك الخفي أنه في هٰذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل، ومن الخفي: هٰذه الألفاظ ونحوها.

وكذٰلك شرك النيات، ولأنه يخفىٰ علىٰ كثير من الناس، وكونه علىٰ «**صفاة سوداء**» أيضاً في ظلمة الليل، غاية في الخفاء.

وقوله: «**وهو أن تقول: والله، وحياتك**»؛ يعني: أن تقسم بالله وبغيره من

يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كُليبة هـٰذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا اللهُ وفلان. لا تجعل فيها فلاناً، هـٰذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم(١).

المخلوقات، ومعلوم أنه لا يراد أن ذٰلك الغير شريك لله، ولـٰكنه قد يجري علىٰ الألسنة بدون قصد، وقد يكون أيضاً متوارثاً عند الناس، ولا يفكر في معناه، فيكون واقعاً في الشرك اللفظي، وإن لم يتفطن له.

وكذٰلك **يقول: «وحياتك يا فلان، وحياتي»** مثلاً يقسم بحياته، أو بحياة أبيه، أو بالشرف، أو بالنبي، أو بالكعبة، أو بالذمة، أو بغير ذٰلك؛ فالحلف بغير الله ـ جل وعلا ـ يكون من الشرك اللفظي، وقد يصل إلىٰ الشرك الاعتقادي الكبير.

قوله: «وتقول: لولا كليبة هـٰذا؛ لأتانا اللصوص»؛ يعني: أن الكلبة تنبح، وتنبّه أصحاب البيت، فيتنبهون للصوص، فجعل إضافة منع إتيان اللصوص للكلبة من الشرك، حيث أضاف الشيء الذي هو من تقدير الله وبنعمة الله إلىٰ ما لا يملك شيئاً.

كذٰلك **قوله: «لولا البط في الدار؛ لأتانا اللصوص»** البط معروف، وهو الطير الذي إذا رأىٰ من يستنكره من غير أهل البيت صوت وصاح، فهو مثل قوله: **«لولا كليبة هـٰذا؛ لأتانا اللصوص»**.

وقوله: «وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت»؛ يعني: تشريك المخلوق مع مشيئة الله في شيء من الأشياء، وكذٰلك **«قول الرجل: لولا الله وفلان»** كما تقدم، **«لا تجعل فيها فلاناً، هـٰذا كله شرك بالله تبارك وتعالىٰ»**.

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٧٧).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك**» رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم(١).

وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولـٰكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان**» رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي حديث عمر تصريح من النبي ﷺ أن الحلف بغير الله كفر أو شرك، ويحمل الكفر هنا علىٰ كفر دون كفر؛ يعني: كفر لا يخرج من الدين الإسلامي.

أما كونه شركاً؛ فلأنه شرك هـٰذا المخلوق الذي حلف به مع الله ـ جل وعلا ـ.

والحلف هو ذكر المعظم عند الخبر الذي يعلم أن هـٰذا المخبِرَ إن كان صادقاً فيثيبه، أو كاذباً فيعاقبه، هـٰذا الأصل فيه.

والحلف بالله كاذباً هو الذي يسمىٰ باليمين الغموس، وسميت بالغموس؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، فهو كبيرة، ولـٰكن جعل الحلف بغير الله أعظم منها؛ لأن الحلف بالله تعظيم له، وإن كان الإنسان كاذباً.

أما الحلف بغيره فهو شرك، والشرك ـ وإن كان في اللفظ ـ كبير أعظم من الذنوب التي تقع، وليست من الشرك.

قوله: «ما شاء الله ثم شاء فلان»؛ يعني: أن العطف بـ«ثم» ليس كالعطف بالواو، وذٰلك أن العطف بالواو يقتضي التشريك، وأما العطف بـ«ثم» فإنه يدل علىٰ التراخي والترتيب، ولا يدل علىٰ التشريك، فهـٰذا لا بأس به.

---

(١) «سنن الترمذي» (١٥٣٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٢٨١).

وجاء عن إبراهيم النخعي، أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان(١).

وقوله: **«وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك»**؛ يعني: أن التعوذ مثل الحلف، وسبق أن السلف يطلقون الكراهة علىٰ التحريم مطلقاً، ومعنىٰ ذٰلك أنه يقدح في توحيد الإنسان، **«ويجوز أن يقول: «أعوذ بالله ثم بك»**؛ يعني: هٰذا في الشيء الذي يستطيعه الإنسان ويملكه، أما إذا كان لا يستطيع ولا يملك؛ فلا يجوز أصلاً، كأن يقول: «أعوذ بالله من شرّك» ثم أعوذ بك من شرّك» هذا من الشرك.

وقوله: **«ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان»** هٰذا كما سبق أن الواو تدل علىٰ الجمع والتشريك، أما «ثم» فهي تدل علىٰ التراخي والترتيب.

□ إشكال والجواب عليه:

بقي إشكال قد يورده بعض الناس علىٰ هٰذا، وهو أنه جاء في «صحيح مسلم» وفي غيره أن النبي ﷺ لما جاءه أعرابي يسأله عن الإسلام وعن شرائعه؛ فأخبره بشرائع الإسلام، وأمسك بيده، قال: **«أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج»** فأمسك بأصابعه، وقال: والله لا أزيد عليها شيئاً، ولا أنقص منها شيئاً، ثم ذهب فقال ﷺ: **«أفلح وأبيه إن صدق»**(٢)، فهٰذا حلف بالأب، فكيف يصدر هٰذا من الرسول ﷺ، فما الجواب؟

أجاب العلماء عن هذا بأربعة أجوبة، منها:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية البقرة في الأنداد. **الثانية**: أن الصحابة ﷺ

الجواب الأول: أن هـٰذا خطأ من الراوي، والدليل أنه جاء في «صحيح البخاري»: «**أفلح إن صدق**»(١) هـٰكذا ثبت في «صحيح البخاري» في نفس الحديث، وهـٰذا قول ابن عبد البر وغيره.

ولـٰكن الجواب هـٰذا عليه اعتراض، وهو أن هـٰذا يطرق سوء الظن إلىٰ الرواة، وأنهم قد يخطئون، فلا يوثق فيما ينقلون، فالجواب غير سديد.

الجواب الثاني: أن هـٰذا علىٰ سبيل ما يجري عليه اللسان بدون قصد، وهـٰذا فاسد، فلا يجوز أن يظن أن الرسول ﷺ كان يجري علىٰ لسانه الشرك، واستدل القائل بأنه جاء عن سعد بن أبي وقاص وغيره أنهم كانوا يجري علىٰ ألسنتهم الحلف باللات وغيرها، كما ثبت أن سعداً قال: واللات. فقال له الرسول ﷺ: «**قل: لا إلـٰه إلا الله وحده ثلاثاً، ثم انفث عن يسارك ثلاثاً، ولا تَعُدْ**»(٢)، فهـٰذا إنكار يدل علىٰ أنه لا يجوز، فلا يكون دليلاً.

الجواب الثالث: أن هـٰذا يقال بدون قصد الحلف، وهـٰذا أيضاً باطل؛ لأنه حتىٰ ولو جرىٰ بدون قصد الحلف، فإنه لا يجوز، فهو شرك باللفظ.

الجواب الرابع: أن هـٰذا منسوخ، فكان في أول الأمر جائزاً، وكانوا يحلفون بآبائهم، ثم نُسخ، ونهوا عن ذٰلك، وهـٰذا جاء فيه أحاديث تدل علىٰ ذٰلك، وهـٰذا هو الجواب المعتمد، فأحكم الأمر وصار الإنسان ممنوعاً من أن يحلف إلا بالله جل وعلا.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٢)، من حديث طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٠٥)، والنسائي (٣٧١٧)، وابن ماجه (٢٠٨٨).

يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر. **الثالثة**: أن الحلف بغير الله شرك. **الرابعة**: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً، فهو أكبر من اليمين الغموس. **الخامسة**: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

باب
ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

....

قوله: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله» يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: الظاهر أن المؤلف يريد بهٰذا أنه إذا توجهت علىٰ الإنسان اليمين فيجب عليه أن يرضىٰ، فإن لم يرضَ؛ فهو متوعَّد بهٰذا الوعيد أنه ليس من الله في شيء؛ لأن هٰذا حكم شرعي، والذي يظهر لي أن هٰذا مطلق في هٰذه المسألة، وفي غيرها.

ولٰكن هل يلزم الإنسان أن يصدق وإن كان الظاهر من الحالف أنه كاذب؟

لا يلزم، فإذا كان يعرف أن الحالف كاذب؛ فلا يلزمه الرضىٰ، ولا يلزمه التصديق؛ لأن بعض الناس لا يبالي، فيحلف بالله وهو كاذب بغير مبالاة كما ذكر الله ـ جل وعلا ـ عن المنافقين أنه يحلفون بالله كاذبين، فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون] والشهادة نوع من الحلف، بل أبلغ، وكذٰلك يقول جل وعلا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة] لٰكن هٰذا الذي قاله الشارح يحمل قول المؤلف علىٰ اليمين التي تكون في الخصومات والمحاكمات؛ لأن كثيراً من الناس يحلف وهو كاذب، فإذا كان يحلف وهو كاذب فلا يلزمنا أن نصدقه ونرضىٰ بقوله، لٰكن إذا كان الظاهر استقامة الإنسان وتعظيمه لله، فهٰذا يلزم أن يصدق، ويلزم الحكم للحديث، والآثار تدل علىٰ هٰذا، فقد جاء أثر يدل علىٰ أن من حلف له بالله؛ فإنه ينبغي له أن يصدق ويرضىٰ، فإن تبين الكذب فقد يكون هٰذا غير مقصود، وقد يكون متعمداً، فإذا كان متعمداً؛ فهو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم.

عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله**» رواه ابن ماجه بسند صحيح(١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن الحلف بالآباء. **الثانية**: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضىٰ. **الثالثة**: وعيد من لم يرض.

وقوله: «**من حلف بالله فليصدق**»؛ يعني: الواجب أن لا يحلف بالله كاذباً، ويجب عليه أن يكون صادقاً، «**ومن حلف له بالله**» يعني إذا طلبت من غيرك أن يحلف، فحلف؛ فيجب عليك أن ترضىٰ بذٰلك، ولا تطالب بشيء آخر، وبعض الناس يقول: «لا أرضىٰ حتىٰ تطلق زوجتك» هٰذا لا يجوز بحال من الأحوال، فهو ترك الحلف بالله، وذهب إلىٰ أمر لا ينبغي، بل قد يكون محرماً.

وقوله: «**ومن لم يرضَ فليس من الله**» فهٰذا أيضاً وعيد شديد، ولو قيل بظاهر هٰذا؛ لكان هٰذا يدل علىٰ أن الإنسان يكون كافراً، ولٰكن مثل ما مضىٰ أن هٰذا من نصوص الوعيد التي يجب أن تبقىٰ علىٰ ظاهرها بدون تعرض لتأويلها، حتىٰ يكون ذٰلك أدعىٰ للانزجار والابتعاد عن اقتراف هٰذه الأمور.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٠٩٢)

باب

قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتَيْلة، أن يهودياً أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه(١).

هٰذا الباب داخل فيما سبق، وأنه لا يجوز التشريك بين الله - جل وعلا - وبين مخلوق، لا في الفعل، ولا في اللفظ أيضاً الذي يتقاوله الناس فيما بينهم.

وأما حديث قتيلة ففيه أولاً أن اليهود يعرفون الشرك، ويعرفون التوحيد، ولٰكنهم لا يتابعون الرسول ﷺ، ولا يؤمنون به عناداً، وحسداً للعرب، وحسداً للمسلمين، وهٰذا يعود عليهم بالضرر، وهٰكذا الحاصل.

ثانياً: أن الحق يجب أن يقبل ممن قاله، وإن كان عدواً، فالرسول قبل قول اليهودي هٰذا، وأمرهم أن لا يشركوا، وأن لا يقولوا ما ذكر اليهودي، «**ما شاء الله وشئت**»، وأن يقولوا: «**ورب الكعبة**» إذا أرادوا أن يحلفوا، فدل علىٰ أن الحلف بالمخلوق شركٌ، وإن كان عظيماً كالكعبة، فلا يجوز أن يحلف بالكعبة، ولا بالنبي، ولا بغيره، والواجب أن يقول: والله، أو ورب الكعبة، أو ورب النبي، وما أشبه ذٰلك، فالحلف لا يكون بمخلوق، فإن كان الحلف بمخلوق؛ فهو من الشرك اللفظي الذي تقدم، وأن هٰذا يجب أن يطهر الإنسان لسانه منه؛ لأنه يقدح في التوحيد.

---

(١) «سنن النسائي» (٣٧١٣).

وله أيضاً عن ابن عباس ﷺ: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**»(١).

ولابن ماجه عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ قال: رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ....

وقوله: «**وله أيضاً**»؛ يعني: للنسائي.

وقوله: «**أجعلتني لله نداً**» هٰذا إنكار شديد علىٰ قائل ذٰلك، ثم قال له: «**بل ما شاء الله وحده**»؛ يعني: إذا تلفظتَ بهٰذا؛ فقل: ما شاء الله وحده، ولا تجعل معه أحداً، فدل علىٰ أن هٰذا لا يجوز، وأنه محرم، وإن كان المشرَّك به مثلَ النبي ﷺ، فكيف إذا كان من آحاد الناس، فدل علىٰ أن النبي ليس له شيء مع الله، وأن العبادة يجب أن تكون لله وحده، وكذٰلك إضافة الأمور لله وحده، فهو المتصرف، وكذٰلك الحلف يجب أن يكون بالله وحده جل وعلا.

قال: «**ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها**» هٰذه رؤيا منام رآها الطفيل، فكأنه مرَّ علىٰ جماعة من اليهود، فأثنىٰ عليهم ـ يعني في المنام ـ قال: «**إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله**»؛ يعني: كما ذكر الله ـ جل وعلا ـ عنهم؛ يعني: أنكم وقعتم في الشرك، ولو لم تقعوا في الشرك؛ لكان أمركم حسناً، وأنتم علىٰ خير؛ لأنكم متبعون النبي الذي أرسله الله إليكم، فردوا عليه: «**وإنكم لأنتم القوم**»؛ يعني: القوم المعتبرين «**لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد**» فدل هٰذا علىٰ ما دل عليه الأول.

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٣٧).

ثم مررت بنفر من النصارىٰ فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: «**هل أخبرت بها أحداً؟**» قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أما بعد؛ فإن طفيلاً رأىٰ رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها. فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولٰكن قولوا: ما شاء الله وحده**»(١).

وكذٰلك مرّ علىٰ جماعة من النصارىٰ في الرؤيا، فقال لهم مثل ما قال لليهود، وردوا عليه بمثل ما ردَّ اليهود عليه، فدل علىٰ أن هٰذا لا يجوز، فلهٰذا لما أخبر بها الرسول ﷺ نهاهم عن ذٰلك، فهٰذا دليل علىٰ أنه كانوا يفعلون ذٰلك أولاً، ثم نسخ بسبب هٰذه الرؤيا التي رآها.

وأما الحديث الأول الذي فيه قصة اليهودي؛ فهٰذا يدل علىٰ أن هٰذا قد يقع من بعض المسلمين بدون علم الرسول ﷺ، فنهاهم ﷺ.

وقوله ﷺ: «**إنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا**» لم يذكر الذي كان يمنعه هنا «**أن أنهاكم عنه، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولٰكن قولوا: ما شاء الله وحده**» قال بعض الشراح: قوله: «**كذا وكذا**»؛ يعني: الحياء كان يمنعه، وهٰذا لا يجوز أن يقال: إن الحياء يمنع الرسول ﷺ أن ينهاهم عن الوقوع في الشرك، ولٰكن الذي يمنعه أنه لم يوحَ إليه في ذٰلك، ولم يأمرْهُ ربُّه، وكان يكره ذٰلك لهم، ولٰكنه يستحيي من ربه أن ينهاهم عنه ولم يؤمر بذٰلك، فالصواب أن نقول: لم يوحَ إليه في هٰذا، وكان يمنعه عدم مجيء

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨).

فيه مسائل:

الأولىٰ: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوىً.

الثالثة: قوله ﷺ: **«أجعلتني لله نداً؟»** فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك... والبيتين بعده.

الوحي؛ لأنه لا ينهىٰ إلا عما أمره الله ـ جل وعلا ـ أن ينهىٰ عنه، فالرسول ﷺ لا يمكن أن يمنعه الحياء عن النهي عن الوقوع في المحرم، هٰذا محرم؛ لأنه شرك، فالواجب أن يحمل علىٰ أنه لم يأتِهِ الوحي، أما قول هٰذا القائل؛ فيقتضي قدحاً في الرسول ﷺ، وهٰذا لا يجوز.

قوله: «**معرفة اليهود بالشرك الأصغر**» ويدخل فيه إضافة الأشياء إلىٰ مخلوق، والحلف بغير الله.

قوله: «**فهم الإنسان إذا كان له هوىً**» يعني: أن اليهود فهموا هٰذا الشيء الدقيق؛ لأن لهم هوىً، وهو القدح في المسلمين، وهٰكذا أصحاب الهوىٰ قد يفهم شيئاً دقيقاً لأجل أنه يقدح فيمن هو خصم له.

قوله: «**فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به**» يقصد صاحب البردة، «**أجعلتني لله نداً**» عُني في هٰذا اللفظ، يقول: فكيف تقابل هٰذا بقوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتَها ... ومن علومك علمَ اللوح والقلم

يسأل الرسول، ويستعين به، ويستجير به من رب العالمين ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ.

يقول: «**ما لي من ألوذ به سواك**» جعل الرسول هو الذي يلاذ به فقط.

الرابعة: أن هٰذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله «**يمنعني كذا وكذا**».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

وقوله: «**عند حلول الحادث العمم**» الحادث العمم هو الذي يحدث للناس جميعاً، وهو يوم القيامة إذا قاموا لرب العالمين، واشتد الكرب.

يقول: «**ما لي من ألوذ به**» إلا أنت أستجير به، وهٰذا من الشرك الأكبر، وليس من الشرك اللفظي، ولٰكن يقول المقارنة بين هٰذا وهٰذا بعيدة، يدلك علىٰ هٰذا أنه قال: «**ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي**» «رسولَ» منصوب علىٰ الدعاء، علىٰ النداء، والتقدير: «ولن يضيق يا رسول الله جاهك بي».

قوله: «**إذا الكريم تحلىٰ باسم منتقم**» الكريم هو الله؛ يعني: إذا غضب يوم القيامة أنا أستجير بك من غضبه، أعوذ بالله من الشرك والألفاظ الخبيثة، وهٰذا يقصدون فيه تعظيم الرسول، وهو مدح، والواقع أن هٰذا هو الغلو الذي وقع فيه النصارىٰ، ولٰكن النصارىٰ صرحوا بأن المسيح هو الله، وهو ابن الله، وهٰؤلاء جاؤوا بالمعنىٰ فقط دون اللفظ، وهٰذا يرضي الشيطان ويكفيه، فيرضىٰ بهٰذا، لهٰذا قال أيضاً: «**فإن من جودك الدنيا وضرّتَها**» ضرتها الآخرة، إذا كانت الدنيا والآخرة من جملة جود الرسول ﷺ، فماذا بقي لله؟

ثم **قال بعد هٰذا**: «**ومن علومك علم اللوح والقلم**»؛ يعني: اللوح الذي كتب به كل شيء «اللوح المحفوظ» والقلم الذي قال الله ـ جل وعلا ـ له لما خلقه: «**اكتب. قال: ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»[1] كيف يكون هٰذا من جملة علوم الرسول؟ هٰذا غلو ـ نسأل الله العافية ـ تجاوز الحدود، وهٰذا كثير في أشعارهم وإنشاداتهم، وفي ديوان للبرعي اليمني من هٰذا الشيء الذي تقشعر له الجلود.

قوله: «**أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي**» لأن الرسول ﷺ حكم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (٢٠٨١)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

بمقتضاها، فدل علىٰ أنها تكون سبباً للحكم الذي ينزله الله ـ جل وعلا ـ، هٰذا الواجب أن يقال، ومثل هٰذا قصة الأذان أن عبد الله بن زيد ﷺ جاء للنبي ﷺ وقال: إني رأيت في المنام كأني أتيت علىٰ إنسان معه ناقوس ـ والناقوس معروف ـ فقلت: ألا تبيع الناقوس؟ فقال لي: وما تريد به؟ قلت: ننادي به للصلاة. قال: ألا أدلك علىٰ شيء خير من ذٰلك، وأفضل؟ قلت: بلىٰ. قال تقول: الله أكبر . .الله أكبر. . ثم ذكر الأذان كله. قال: ثم تقيم تقول: «الله أكبر . .الله أكبر» ثم ذكر الإقامة، يقول: فلما أصبحت ذهبت إلىٰ النبي وقصصتها عليه، فقال: «**إنها رؤيا حق، اذهب وألقه علىٰ بلال، فإنه أندىٰ منك صوتاً**»[1] وكانت مشروعية الأذان بسبب هٰذه الرؤيا، فهٰذا مثله.

قوله: «**قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام**» ولهٰذا لا يجوز أن نعتمد علىٰ الرؤيا، وأن نبني عليها حكماً من الأحكام؛ لأن الأحكام لا تبنىٰ إلا علىٰ الوحي، وهٰذا بإجماع العلماء، ولٰكن الرؤيا قد تكون قرينة يستدل بها، والرؤيا وإن كانت جزء من الوحي، ولٰكن الغالب أن الرؤيا من الإنسان الذي يكثر كذبه وحديثه فإنها لا تصدق.

والرؤيا أقسام ثلاثة:

القسم الأول: مما يزاوله الإنسان في حياته إذا نام وجده، فيرىٰ الشيء الذي هو فيه، فيعمله، هٰذه ليست شيئاً، هٰذه حديث النفس، وهٰذه تدل علىٰ أن هٰذه الأعمال قد استولت علىٰ قلب الإنسان، فيجب عليه أن يتقي الله، وأن يكون عمله متعلقاً بالله ـ جل وعلا ـ، ويكثر ذكر الله وتلاوة القرآن؛ لأنه يخاف أنه إذا حضره الموت أن يكون كذٰلك.

القسم الثاني: من تخويفات الشيطان، فيأتي يخوف الإنسان بأمور

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، من حديث عبد الله بن زيد ﷺ.

....

تزعجه، وهٰذه التي قال الرسول ﷺ: **«إذا رأىٰ أحدكم ما يكره؛ فلينفث عن يساره ثلاثاً، ثم ليتحول إلىٰ الجنب الآخر»**؛ يعني: إذا كان في منامه، **«ولا يحدث بها أحداً، فإنها لا تضره»**[(١)].

القسم الثالث: هي الرؤيا، وهي أمثال يضربها الملك الموكل بالرؤيا، هٰذه الأمثال قد يكون فيها خفاء، فتحتاج إلىٰ تفسير، وقد تكون ظاهرة جلية، وهٰذه تختلف باختلاف الرائي، فإذا كان الرائي يصدق في الحديث، وكان من الناس الذين لهم تعلق بالله، فهٰذا في الغالب لا تخطئ الرؤيا، فتكون صحيحة صادقة غالبة، وقد تكون الرؤيا صادقة من أحد الناس، ومن غيرهم؛ لأنها قد تكون موعظة، وقد تكون نذارة، لهٰذا جاءت من بعض الكافرين أنهم يرون رؤيا، وتكون حقاً، وهٰذه كثيرة، فالمقصود أن الرؤيا لا يجوز أن يعتمد عليها.

وقد كثر الآن افتتان الناس في الرؤيا، وحديثهم عنها، واعتناؤهم بها، فهٰذا ما ينبغي.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٥)، ومسلم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ.

باب
مَنْ سبَّ الدهر فقد آذىٰ الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

قوله: «**باب من سب الدهر فقد آذىٰ الله**» هٰذا ليس مما تقدم من الألفاظ التي قد تكون شركاً أصلاً، هٰذا قد يتعدىٰ ويكون من الشرك الأكبر، ولٰكن قول: هٰذه الرياح شديدة، وهٰذه فيها كذا، وهٰذه دمرت كذا، وهٰذه عملت كذا، وما أشبه ذٰلك، فيجب أن ينزه ألفاظه من هٰذه، يعلم أن هٰذا من الله، وأن الريح مدبرة مسخرة ليس عندها اختيار، وليس لها أي تصرف، وإنما هي مأمورة.

ولهٰذا سيأتي النهي عن سب الريح، وكذٰلك غيرها من الأمور التي قد تضاف إليها، فإن الخالق هو الذي أمرها ودبرها، والواجب أن يعود الإنسان إلىٰ التوبة والرجوع إلىٰ الله، وأن يعلم أن هٰذا إما عقاب عام أو عقاب خاص للذي أصابه من جراء هٰذه الأشياء، سواء كانت ريحاً أو مطراً أو غير ذٰلك.

أما من وجّه السب لها والشتم؛ فهٰذا من الجهل، بل من الضلال البيّن، وقد يصل إلىٰ الكفر.

قال: «**وقول الله تعالىٰ**: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]» قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ يموت قوم ويحيا أولادهم من بعدهم، وهٰذا يعني أنهم ينكرون البعث، ينكرون أن يحييهم الله، وهٰذه عقيدة كثير من العرب في الجاهلية، وهي عقيدة كثير من الناس اليوم، يزعمون أنه ليس بعد هٰذه الدنيا أمور أخرىٰ، وهٰذا كفر أكبر، فمن اعتقد ذٰلك؛ فليس من الله في شيء، فهو إذا مات علىٰ ذٰلك فهو في النار.

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، ....**

وقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ المقصود به الليل والنهار، ومقصودهم بهـٰذا أن الذي يفنينا هو مرور الليالي والأيام؛ أي: إذا طال عمر الإنسان مات، هـٰذا مقصودهم، أضافوا الهلاك إلىٰ الأيام والليالي، وهي الدهر، وهـٰذا كفر بالله ـ جل وعلا ـ، والواجب أن يعلموا أن الله حدد لهم أعماراً، وأن الدهر ـ الذي هو الليل والنهار ـ آياتٌ مدبرةٌ مسخرةٌ، لا دخل لها في هلاك الناس وفنائهم، ولا في حياتهم.

أما حديث أبي هريرة ﷺ: ففيه أن ابن آدم تصل إلىٰ الله أذيته، والأذىٰ للشيء الذي يخفّ أثره، ويكون سهلاً والله أعلم، بخلاف الضرر؛ فإن الضرر قد نفاه الله ـ جل وعلا ـ أنه لا يضره أحد، ولا يضره أي مخلوق، ولـٰكن الأذىٰ مثل الكلام واللعن والشتم، فهـٰذا أذىً مجرد، فالأذىٰ يصل إلىٰ الله من بني آدم.

أما الضرر؛ فلا يصل إليه، وإنما يضرون أنفسهم، فالأذىٰ هو الكفر، والشيء الذي يصدر من الإنسان يضيفه إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، أو أنه يتظلم أي أن الله تعالىٰ ظلمه، أو أنه يجعل ما لله يضيفه إلىٰ غيره، فيكون مؤذياً لله، ومن آذىٰ الله ورسوله؛ يوشك أن يأخذه، ولهـٰذا لَعَنَ المنافقين الذين يؤذون الله ورسوله، فأخبر أنهم ملعونون، وهـٰذا أمر عظيم ينبغي أن يحذر منه، وهو مسبّة المخلوقات التي خلقها الله ـ جل وعلا ـ، أو لعنها وشتمها، ونحن نسمع أشياء من هـٰذا القبيل فظيعة، تجد الإنسان يلعن الساعة التي عرف فيها فلاناً، أو اليوم، أو المكان، أو غير ذٰلك، وهـٰذا ـ نسأل الله العافية ـ أمر كبير يجب علىٰ العبد أن يتوب من ذٰلك، ولا يتمادىٰ في هـٰذه الأشياء، فإنها خطرة.

وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»[١].

وفي رواية: **«لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»**[٢].

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذىً لله.

الثالثة: التأمل في قوله **«فإن الله هو الدهر»**.

أما قوله: **«وأنا الدهر»** فقد فسره بقوله: **«أقلب الليل والنهار»** وليس الدهر من أسماء الله ـ تعالىٰ وتقدس ـ خلافاً لما يقوله ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ مستدلاً بهٰذا الحديث، حيث جعل الدهر من أسماء الله، فهٰذا خطأ، فإنه فسره بقوله تعالىٰ: **«أقلب الليل والنهار»** فتقليبه لليل والنهار معناه أنه هو الفاعل، ومعنىٰ ذٰلك أن الفعل يضاف إلىٰ فاعله.

وقوله: «وفي رواية: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»؛ يعني: هٰذا فيه النهي الصريح.

وقوله: «فإن الله هو الدهر» يفسر بما مضىٰ؛ يعني: أنه هو الذي يوجد الدهر ويقلبه، ويجعله محلاً للأعمال التي قد يكون عقابها النار أو يكون جزاؤها الجنة، فهو آية من آيات الله ـ جل وعلا ـ. ولهٰذا يقسم الله به كما قال ـ جل وعلا ـ ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر] وفي آيات كثيرة يقسم بالمخلوقات التي هي دلائل علىٰ توحيده، وعلىٰ أنه ـ جل وعلا ـ هو المتفرد بالخلق والإيجاد، وذٰلك هو الذي يجب أن يُفرد بالعبادة ويُخَصَّ بها.

قوله: «التأمل في قوله: فإن الله هو الدهر» يعني: هو الخالق له المصرف له، هٰذا معناه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٢)، ومسلم (٤١٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرابعة: أنه قد يكون سابّاً، ولو لم يقصده بقلبه.

قوله: **«قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه»** أي: وإن كان مجرد لفظ فيكون ساباً.

باب
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي قال: «**إن أخنعَ اسم عند الله رجل تسمىٰ مَلِكَ الأملاك، لا مالك إلا الله**»(١)، قال سفيان: مثل «شاهِ شاه».

وفي رواية: «**أغيظُ رجل علىٰ الله يوم القيامة وأخبثُه**»(٢)، قوله «**أخنع**»؛ يعني: أوضَعُ.

قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه» كملك الملوك وما أشبه ذٰلك من الألفاظ التي فيها رفع الإنسان إلىٰ ما يستحقه رب العالمين، وإن كان مجرد تسمية، فقاضي القضاة هو الله، هو الذي يقضي بين خلقه جميعاً، وكذٰلك «ملك الملوك» هو الله.

وقوله: «إن اخنع اسم» فسره بأنه أبغضُه وأوضعُه؛ يعني: الاسم البغيض لله الوضيع عنده هو مثل هٰذه الأسماء التي يتعاظم فيها الإنسان، فالتكبر علىٰ عباد الله، والترفع عليهم مذموم، وإنما الكِبْر من صفات الله ـ جل وعلا ـ، ولهٰذا جاء أنه من نازعه الكبر؛ فإنه يلقيهم في النار(٣).

والغالب أنه يعامل بنقيض قصده، ومن تأمل هٰذا رآه واضحاً في الناس، ومن ذٰلك ما ذكره سفيان عن «شاه شاه»؛ يعني: ملك الملوك في اللغة الفارسية، فهٰذا أيضاً مُبْغَضٌ لله، وهو مكروه لله، ويُمْقَتُ صاحبه، فدل علىٰ وجوب التأدب مع الله ـ جل وعلا ـ في التسمية، وفي الألفاظ وفي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن التسمي بِمَلِكِ الأملاك. **الثانية**: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان. **الثالثة**: التفطن للتغليظ في هٰذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه. **الرابعة**: التفطن أن هٰذا لإجلال لله سبحانه.

غيرها، وأن يتجنب الإنسان ما فيه شيء من التنقيص لله، أو ادعاء الشرك معه فيما هو من خصائصه، فإن هٰذا يقدح بالتوحيد، وقد يكون ذاهباً به كلياً حسب اعتقاد الإنسان ومراده.

قوله: «**التفطن أن هٰذا لإجلال الله سبحانه**»، نعم هٰذا لتعظيم الله ـ جل وعلا ـ، وإجلاله، والتأدب معه، وإن كان القائل لا يقصد الحقيقة.

باب
احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذٰلك

عن أبي شريح: أنه كان يكنىٰ أبا الحَكَم، فقال له النبي ﷺ: «**إن الله هو الحَكَم، وإليه الحكم**»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: ....

قال: «**باب احترام أسماء الله تعالىٰ وتغيير الاسم لأجل ذلك**» احترامها أن يكبرها وأن يجعلها خاصة لله ـ جل وعلا ـ، وأن يكون أيضاً مبتعداً عن الإشراك فيها أو امتهانها، سواء بالفعل أو بالقول، فالقول ـ كما تقدم ـ التكني بشيء منها فالحكم هو الله، فإذا قال أبو الحكم؛ فقد امتهن اسم الله، كيف يكنىٰ به؟

وكذٰلك مثل هٰذا كونها تجعل زينة للحيطان، أو القرآن مثلاً يكتب علىٰ الحيطان، أو علىٰ الأبواب، أو علىٰ السيارة، أو ما أشبه ذٰلك؛ لأن هٰذا امتهان لها وجعلها زينة، وإن كان العبد لا يقصد امتهانها ولا يقصد احتقاراً، ولٰكن ليس هٰذا محلّها، والواجب تعظيمها، وأن تصان عن مثل هٰذا.

وهٰذا الحديث فيه أمور:

أولاً: أن أسماء الله ـ جل وعلا ـ خاصة به، وإن كان قد يقع اشتراك بين اللفظ نفسه وبين المعنىٰ العام المشترك، فإذا أضيفت إلىٰ الله؛ فهي خاصة به، وإذا أضيف اسم المخلوق له؛ فالله لا يشاركه به.

ثانياً: أن التكني بشيء منها من المحرمات، وفيه امتهان لها، واستهانة بها.

ثالثاً: أن التكني يكون فيه التقدير والتوقير للإنسان، بخلاف اللقب، فاللقب لا يجوز لذٰلك؛ لأن اللقب فيه إهانة، ولهٰذا نهانا الله ـ جل وعلا ـ فقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]. وهٰذا من الفسوق، وهٰذا كثيراً

«**ما أحسنَ هٰذا! فما لك من الولد؟**»، قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «**فمن أكبرهم؟**» قلت: شريح. قال: «**فأنت أبو شريح**»، رواه أبو داود وغيره(١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

ما يصنعه الناس، فقد يكون الإنسان له اسم؛ فيُنسىٰ اسمه، ويعطىٰ لقباً فقط يعرف به، فهٰذا من المحرمات، لهٰذا قال - جل وعلا - في آخر الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

رابعاً: أن التكني ينبغي أن يكون للولد الكبير؛ لأنه سأل بعد ما أخبره «**فما لك من الولد؟ قال: شريح ومسلم وعبد الله. قال: فمن اكبرهم؟ قال: شريح. قال: فأنت أبو شريح**».

خامساً: أن الواو لا تدل علىٰ الترتيب، وإنما تدل علىٰ الاشتراك، ولو كانت تدل علىٰ الترتيب لاكتفىٰ النبي ﷺ بقوله: «شريح» أولاً، لٰكنه سأل أيهم أكبر، فهي تدل علىٰ مطلق الجمع.

سادساً: أن الحكم الذي يترتب علىٰ هٰذا من المحرمات، بل هو من القوادح التي تقدح بالتوحيد، ويجب أن يبتعد العبد عنها، وهو أن يكنىٰ بشيء من أسماء الله.

سابعاً: أن فيه تغيير الاسم إذا كان من هٰذا الشيء، أما إذا كان بأمور أخرىٰ مستكرهة؛ فهٰذا يستحب أن يغير.

ثامناً: أن الاسم الذي يدل علىٰ امتهان اسم الله تعالىٰ لا يجوز، ولو لم يفهم المسمىٰ، وذٰلك مثل ما يقع من العجم، مثل: عاشق الرحمٰن، ووصي الله، وما أشبه ذٰلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٠٤)، والنسائي (٥٢٩٢).

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذٰلك. **الثالثة**: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

قوله: «**اختيار أكبر الأبناء للكنية**» نعم هٰذا مستحب، وكثير من الناس إذا كان الكبير من الأولاد بنت لا يتكنىٰ بها، ويحتقرون هٰذا، وهٰذا قد يكون فيه تنقص.

باب
من هَزَلَ بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن، أو الرسول

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ ....

هٰذا أمر خطير جداً، وهو الاستهزاء بشيء فيه ذكر الله، أو فيه صفة من صفاته، مثل القرآن، أو أحكام الله التي يأمر بها ليحكم بها بين الناس، أو ما أشبه ذٰلك.

فإن الاستهزاء والسخرية والضحك في هٰذا يكون كفراً، ولو لم يقصد الإنسان ذٰلك، ولو لم يكن جاداً كما دل عليه الحديث الذي ذكره في قصة المنافقين؛ لأنه سيأتي الكلام في هٰذا، وأنهم ليسوا كلهم منافقين.

قال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة]».

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدل علىٰ أنهم كانوا مؤمنين قبل هٰذا، وأنهم كانوا مجرمين. وجاء في موضع آخر من هٰذه السورة قصة مغايرة، لهٰذا يقول: (قد كفروا بعد إسلامهم) في قصة أخرىٰ مما يدل علىٰ أن هٰذا قد وقع منهم أيضاً حتىٰ وإن كان بالألفاظ التي قد تكون دارجة عند الناس، ولٰكن فيها سخرية، وإن كان من باب المزح واللعب، لأن هٰذا ليس محل المزح والتفكه، المزح لا يكون بآيات الله، ولا يكون في دين الله، ولا يكون فيمن يحمل شيئاً من ذٰلك، بخلاف الاستهزاء بالمخلوق؛ فإن هٰذا من المحرمات.

وقال: **«عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم ببعض»** هٰذا قول ابن إسحاق في «السيرة»، والمؤلف ذكره عن ابن

أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هٰؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذبَ ألسناً، ولا أجبنَ عند اللقاء؛ يعني: رسولَ الله ﷺ وأصحابَه القرّاء، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولٰكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلىٰ رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذٰلك الرجل إلىٰ رسول الله ﷺ وقد

إسحاق، يقول: «**دخل حديث بعضهم ببعض**»؛ يعني: أنه جمع روايتهم جميعاً.

قوله: «**أنه قال رجل في غزوة تبوك**»؛ يعني: كانوا نازلين في منزل وتحدثوا كعادة الناس في السفر وغيره.

قال: «**ما رأينا مثل قرائنا هٰؤلاء**» القراء في لسان السلف هم العلماء، ويقصد بذٰلك الصحابة، والصحابة علماء، تلقوا العلم عن رسول الله ﷺ.

قوله: «**أرغب بطوناً**» يعني: أن بطونهم كبيرة، وأنهم يأكلون كثيراً.

قوله: «**ولا أكذب ألسناً**» يعني: أنهم يتحدثون بالكذب، وكل هٰذا كذب، والناس يضحكون من الكذب، إذا كان الكذب خارجاً عن الوضع.

قوله: «**ولا أجبن عند اللقاء**» وكل هٰذا كذب خلاف الواقع، لهٰذا يقول؛ «**يعني: رسول الله ﷺ**»، أعوذ بالله من توجيه مثل هٰذا للرسول، هٰذا من الزلات العظيمة، ومن الكبائر التي لا يجوز أن يقال صاحبها إلا بالتوبة والإقلاع، مع أن الرسول ما قبل توبتهم لمّا جاؤوا تائبين، لم يقبل منهم التوبة، فمثل هٰذا يكون أمره عظيماً.

«**قال له عوف بن مالك**» وكان حاضراً، وكان شاباً: قال: «**كذبت، ولٰكنك منافق**» هٰذا يدل علىٰ أن الإنسان إذا سمع المنكر أو رآه فإنه لا يجوز له أن يسكت، وإلا يكون شريكاً، ولا سيما إذا كان كفراً مثل هٰذا.

ولهٰذا قال: «**كذبت، ولٰكنك منافق، لأخبرن رسول الله، فذهب ليخبره، فلمّا وصل إليه؛ وجد القرآن قد سبقه**»؛ يعني: الوحي نزل عليه من السماء، وأخبره الله ـ جل وعلا ـ بما قالوا.

ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق. فقال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بِنِسْعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكُبُ رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] ما يتلفت إليه، وما يزيده عليه(١).

يقول: فجاء أولئك أو بعضهم ليعتذروا للرسول ﷺ، يقول أحدهم: يا رسول الله والله ما كنا جادين، ولا نقصد الحقيقة، «**وإنما نتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق**»؛ لأن الإنسان إذا ضحك فإنه يجد الراحة.

يقول: قال الله: «﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]» أمر شديد في هذا، وفي هذا أن الرسول لما بلغه هذا الأمر أمر بالرحيل، كعادته إذا بلغه شيء من الأمور التي تحدُثُ بين الناس، أمر بالرحيل لَيَشْغَلَهم حتىٰ لا يكون بينهم شجار واختلافات، وهذه سنته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: «رأيت ذلك الرجل متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه»؛ لأن الرسول كان يسرع في المسير، والنسعة هي التي يسميها الناس الحقب، وذلك أن الرحل الذي يحمل علىٰ البعير له حبال تمسكه في بطن البعير من الأمام يمسك الرحل لا يذهب إلىٰ المؤخرة. والثاني يكون مع بطن البعير، فالنسعة هي الحقب، كان ممسكاً به ليكلم الرسول، والرسول يسوق ناقته بسرعة، ولا يلتفت إليه.

يقول: «**والحجارة تنكب رجليه**»؛ يعني: تضرب رجليه من سرعة الناقة، فهو مبالغ في طلب العذر، ولكن الرسول ﷺ لم يعذره، ولم يلتفت إليه،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠٥٣٩).

فيه مسائل:

الأولىٰ ـ وهي العظيمة ـ: أن من هَزَلَ بهٰذا فهو كافر.
الثانية: أن هٰذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذٰلك كائناً من كان.
الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.

وجاء أن هٰذا الرجل كان اسمه مخشي بن حمير، فكان يقول: والله إني لأسمع آية تقشعر منها الجلود أنا المقصود بها، وليس هو فقط، هو ومن معه.

ثم يقول: اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك، وأن لا يعلم بي أحد، حتىٰ لا يقول قائل: أنا كفنت، أنا دفنت، فلمّا كان يوم اليمامة، وقتل من قتل من الصحابة؛ فُقد هٰذا الرجل، ولم يوقف له علىٰ أثر، فيرجىٰ أنه تاب الله عليه، مع ذٰلك ما قبل الرسول ﷺ عذره في أول الأمر، فدل هٰذا علىٰ أن ليس كل معتذر يقبل عذره، مثل مسبة الله، أو مسبة رسوله ﷺ، أو السخرية بالله، أو برسوله، أو مسبة الدين، والاستهزاء به، وهٰذا يصل بالإنسان إلىٰ أن يخرج من الدين الإسلامي نسأل الله العافية.

ثم يدل هٰذا علىٰ أن الإنسان إذا وقع في شيء من ذٰلك فإنه لا يلزم قتله، وقد يكون الذي منع من قتله ما قاله الرسول ﷺ في غير هٰذا الموضع: **«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**(١)؛ يعني: ويكون هٰذا مانعاً من الدخول في الإسلام، فالناس البعيدون لا يدرون ما السبب، فإذا سمعوا أن الرسول قتل أحداً من أصحابه؛ قالوا: إذاً نخشىٰ أن ندخل فيقتلنا، فلا يدخلون فيه، وقد يكون غير هٰذا.

قوله: **«الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله»** هٰذا مأخوذ من قول عوف بن مالك: **«كذبت ولٰكنك منافق! والله لأخبرنّ رسول الله ﷺ»** هٰذه ليست نميمة، هٰذه نصيحة؛ لأن هٰؤلاء وقعوا في منكر عظيم، كذٰلك مثل هٰذا إذا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (٤٦٨٢)، واللفظ لمسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة علىٰ أعداء الله.

الخامسة: أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل.

أخبر الإنسان المسؤول الذي يكون بيده الإنكار وبيده إزالة الشيء؛ فلا يكون هٰذا نميمة، بل يكون هٰذا نصيحة لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين.

قوله: «الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة علىٰ أعداء الله» يعني: أن رسول الله ﷺ ما قبل عذرهم، فينبغي أن يفرق بين العفو الذي يكون مأموراً به، أما الشيء الذي يصل إلىٰ مسبة الله، ومسبة دينه؛ فهٰذا لا يجوز العفو فيه لصاحبه.

باب
ما جاء في قول الله تعالىٰ:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: هٰذا بعملي وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد من عندي.

في هٰذا الباب يقول: «**باب ما جاء في قوله الله تعالىٰ**: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾» كلمة: «هٰذا لي»، أو «هٰذا من عندي»، أو «أنا حظيظ»، أو «أنا لي مقام عند الله»، وما أشبه ذٰلك؛ يعني: إضافة النعمة إلىٰ نفسه، هٰذا يكون من الألفاظ التي فيها الشرك، يجب أن يتجنبها العبد، فإن كان أراد الحقيقة؛ فهو أمر كبير، وإن أراد مجرد اللفظ والإضافة إلىٰ السبب؛ فهٰذا مثل ما سبق أنه من الألفاظ الشركية، ولٰكن الذي جاء مثلاً في قول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] لما قيل له: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] أنكر هٰذا وقال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾؛ يعني: أني عالم بوجوه المكاسب، أستطيع أن أكتسب وآخذ الأموال بالطريقة التي أعرفها، والله أعلم.

تقدم أنَ العبد لا يجوز له أن يضيف النعم إلىٰ أسبابها، فإذا أضافها إلىٰ نفسه؛ فهو أشد وأعظم، يقول: إن هٰذه حصّلتها بعلمي، أو أنا أعرف طرق المكاسب، وأنا ماهر، وما أشبه ذٰلك مما يقوله بعض الناس، فإن هٰذا يدل علىٰ كفره بنعمة الله ـ جل وعلا ـ، وعدم علمه بأن الله ـ جل وعلا ـ هو المصرف لكل شيء، وهو الذي هيأ له الأسباب، وجعله بهٰذه الصورة التي يكون فيها أفضل من غيره.

وهٰذا أيضاً يدل علىٰ أنه ما عرف الله حق المعرفة، فلم يضف إليه

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

قال قتادة: علىٰ علم مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون: علىٰ علم من الله أني له أهل. وهٰذا معنىٰ قول مجاهد: أوتيته علىٰ شرف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل:** ....

الشيء الذي تجب إضافته إليه، كما يدل علىٰ كفر النعمة، حيث إنه لم يعترف لله ـ جل وعلا ـ بنعمته، ثم كذٰلك يدل علىٰ أنه لا يشكر الله، وكل هٰذه الأمور محرمة، وقد تكون أيضاً سبباً لفقد إيمانه وتوحيده؛ فلهٰذا ذكر هٰذه التي رويت عن المجرمين مثل قارون لما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، تحذيراً من الوقوع في مثل ذٰلك.

ثم ذكر قول المفسرين في هٰذا: «**قال قتادة: علىٰ علم مني بوجوه المكاسب**» هٰذا معنىٰ، والمعنىٰ الثاني أنه قال: «**علىٰ علم من الله أني له أهل**» وهو كذب؛ لأن معناه أنه خصك بهٰذا؛ لأنك تستحق ذٰلك من بين الناس.

فالمقصود أن هٰذه النعم يجب أن يعترف بها إذا كان مؤمناً.

ولهٰذا قال: «**وهٰذا معنىٰ قول مجاهد: أوتيته علىٰ شرف**»؛ يعني: أني شريف عند الله، أو لي المقام عند الله، أو ما أشبه ذٰلك.

ومثل هٰذا: قول الناس: «فلان حظيظ عند الله»، أو «له حظ عند الله»، الله يقسم ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وقد يكون الذي أعطاه المال ليس لأن له شرفاً عند الله، أو أن له مقاماً عند الله؛ لأن الله يؤتي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولٰكن هٰذا الدين لا يؤتيه إلا الذي يحبه.

ثم ذكر الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل**» بنو إسرائيل فيهم عجائب، ولهٰذا عقد البخاري رحمه الله

أبرصَ، وأقرعَ، وأعمىٰ، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتىٰ الأبرص. فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن،

في كتابه باباً، قال: باب ما ذكر عن بني إسرائيل، أي ما روي عن بني إسرائيل. وذكر فيه بعض ما روي عن النبي وليس قصصاً عن أهل الكتاب. بل الشيء الذي يذكره الرسول ﷺ، مثل هٰذا الحديث فيه معتبر، وأن لا نقع في مثل ما وقع فيه هٰؤلاء.

ثم ذكر «**أبرص**» والبرص مرض يصيب الإنسان في جلده. ويكون سيئ المنظر.

قوله: «**وأقرع**» القرع مرض يصيب الرأس، فيذهب بشعره، ويكون أيضاً له أثر في رأس الإنسان.

أما الثالث: «**أعمىٰ**» يقول: «**فأراد الله أن يبتليهم**» هٰكذا لفظ البخاري في بعض الروايات. وفي بعضها: «**بدا لله أن يبتليهم**»(١) وهٰذا اللفظ «بدا» يظهر أنه من تعبير بعض الرواة؛ لأن الحديث يجوز أن يروىٰ بالمعنىٰ إذا كان للراوي معرفة وإلمام باللغة، فيبدل لفظ بآخر يكون مرادفه، وهٰذا كثير فبدا هو بمعنىٰ أراد.

قال: «**أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً**» بعثه بصورة رجل من بني آدم، «**فأتىٰ الأبرص، فقال له: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لون حسن**»؛ يعني: أن يذهب البرص، ويكون جلده حسناً، ولونه حسناً، حتىٰ لا يزدريه الناس، ويستقذرون، فمسح جلده، فذهب البرص، وهٰذا دليل علىٰ أنه آية من عند الله ـ جل وعلا ـ، ولٰكنه لم يعتبر بذٰلك، فالله ـ جل وعلا ـ هو القادر علىٰ إزالة ذٰلك، ولا يجوز أن يكون الإنسان هو الذي يستطيع أن يفعل شيئاً من ذٰلك، فهي آية.

ثم قال له: «**أي المال أحب إليك؟**» فاختار إما أنه قال: البقر، أو أنه

---

(١) أخرجها البخاري (٣٢٠٥).

ويذهب عني الذي قد قَذِرَني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ فأُعطي ناقةً عُشَراء، وقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتىٰ الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها. فأتىٰ الأعمىٰ، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً؛ فأُنْتِجَ هٰذان وولد هٰذا،

قال: الإبل، «فأعطي ناقة عُشَراء» العُشَراء هي قريبة الولادة، أو أنها ولدت.

وقال له: «بارك الله لك فيها»؛ يعني: دعا له بالبركة. وهٰذه أيضاً إشارة إلىٰ أن هٰذه من عند الله.

ثم أتىٰ الأقرع وقال له مثل ما قال للأول: «أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب هٰذا الذي قذرني الناس به» لأن القَرَعَ يكون فيه جروح ورائحة كريهة، «فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. فقال له: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل»، وهٰذا شك من الراوي، «فاعطي بقرة حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها».

قال: «وأتىٰ الأعمىٰ. فقال: أي شيء أحب إليك؟ فقال: أن يرد الله إلي بصري، فابصر به الناس، فمسحه، فردَّ الله إليه بصره» هٰذا كما ما سبق آية من الله، ويجب أنه يعتبر بهٰذا.

ثم قال له: «أي المال أحب إليك قال: الغنم فاعطي شاة والداً، فأنتج هٰذان»؛ يعني: صاحب الإبل والبقر «وولد هذا» يعني صاحب الغنم، «فصار لهٰذا وادٍ من الإبل، ولهٰذا وادٍ من البقر، ولهٰذا وادٍ من الغنم»؛ يعني: أنه تأخر

فكان لهٰذا وادٍ من الإبل، ولهٰذا وادٍ من البقر، ولهٰذا وادٍ من الغنم، قال: ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته. فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً، فأعطاك الله ﷻ المال؟ فقال: إنما ورثت هٰذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلىٰ ما كنت. ....

عنهم زمناً، فكثر المال، ثم أتاهم بالصورة التي كانوا عليها، أتىٰ إلىٰ الأبرص بصورة رجلٍ أبرصَ فقيرٍ حتىٰ يذكّره بحالته الأولىٰ، فقال له: «**رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري**»؛ يعني: أنه مسافر، فقد الزاد والراحلة وما يحتاج إليه «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، وأعطاك المال بعيراً أتبلغ به في سفري**» انظر كيف سأله بالشيء الذي كان عنده مع أنه جاء بالصورة التي كان هو عليها، فقال له: «**الحقوق كثيرة، والمال هٰذا ورثته كابراً عن كابرٍ**» فأنكر نعم الله، وكفر بها، وأنكر أن الله أنعم عليه بإزالة الشيء الذي يستقذر به، وأن الله أعطاه اللون الحسن، والجلد الحسن، وأعطاه هٰذا المال.

فقال له: «**إن كنت كاذبا فصيرك الله إلىٰ ما كنت**»؛ يعني: تعود فقيراً أبرص يقذرك الناس.

ثم ذهب إلىٰ الأقرع في صورة رجل أقرع كما كان؛ ليذكره بذٰلك، وهٰذا من أبلغ التذكير؛ لأنه يدل علىٰ أن الكفر عند هٰؤلاء متأصل، وأن هٰذه طبيعتهم، فسأله كما سأل الأول، وقال له في الجواب كما قال الأول: «**الحقوق كثيرة**»؛ يعني: لو أعطيت كل إنسان حقه لانتهىٰ مالي وذهب، وأنكر

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهٰذا، وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هٰذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلىٰ ما كنت. وأتىٰ الأعمىٰ في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: كنتُ أعمىٰ فردّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئتَ، ودَعْ ما شئت، فوالله لا أَجْهَدُكَ اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أَمْسِكْ مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط علىٰ صاحبيك» أخرجاه[١].

أن يكون هٰذا المال بنعمة الله بسبب بقرة أعطاه إياها الملك، فقال له: «إن كنت كاذباً؛ صيرك الله كما كنت» فصار كما كان.

وذهب إلىٰ الثالث في صورة رجل أعمىٰ، فسأله، قال: «**أسألك بالذي رد عليك بصرك: شاة**» هو ما سأل إلا شاة، والأول سأله بعيراً فقط، والثاني سأله بقرة، «**أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك: شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمىٰ، فرد الله إليّ بصري**»، وكنت فقيراً، فأعطاني الله ـ جل وعلا ـ هٰذا المال الكثير، «**خُذْ ما شئت**» من المال، «**والله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله**»؛ يعني: أنه بذل ماله كله، يقول له: لو أخذت المال كله ما لمتك علىٰ هٰذا. فقال له الملك: «**إنما ابتليتم**» هٰذا يدل علىٰ أن كل واحد يعرف عن الآخر.

قال: «**فأمسك عليك مالك، فقد رضي الله عنك، وسخط علىٰ صاحبيك**» فهٰذا ظاهر في أن النعمة يجب أن تشكر، وشكرُها الثناء علىٰ مُسْديها ومُوليها، والنعم تكون ظاهرة، ويكون الإنسان إما شاكراً أو كافراً، فبعض الخلق طبع علىٰ الفجور، وعلىٰ الكفر، وعلىٰ إنكار الخير، وإنكار النِّعم، فيبقىٰ كما

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٠٥)، «صحيح مسلم» (٥٢٦٥)، واللفظ لمسلم.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآية. **الثانية**: ما معنىٰ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ **الثالثة**: ما معنىٰ قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. **الرابعة**: ما في هٰذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

كان، ولو أتيته بكل آية وذكرته بكل آية لبقي علىٰ طبيعته.

وأما الذي وُفِّق للخير، ووُفِّق للشكر والبذل؛ فهٰذه نِعَمٌ مِنَ الله ينعمها علىٰ عبده، وتتوالىٰ عليه.

فهٰذه القصة فيها معتبر، والعبرة فيها الذي نريده: وجوب إضافة النعم إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ، ثم شكره عليها، وأن عدم الشكر وعدم الإضافة لله تعالىٰ حقيقٌ بأن يزيل النعمة، بل حريٌّ بأن الله ـ جل وعلا ـ يأخذه كما أخذ الأقرع والأبرص، وأعادهما علىٰ ما كانا عليه، ثم الأمر الذي ينتظرهم من عذاب الله أشد وأعظم، بخلاف الذي أقرَّ بفضل الله، ونسب النعم إليه، وأضافها إليه وشكره عليها، وفرح بأن يؤخذ منه شيء لله، فإن هٰذا يبقىٰ عنده ماله، ونعم الله تزداد أيضاً؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ إذا شُكرت نعمه؛ زادها، وإن تشكروا؛ فإن الله غفور شكور، فإذا شكر الإنسان زاده خيراً، وبهٰذا يكون شكر النعمة من تمام التوحيد، وكفرها من القوادح في التوحيد، أو مما يزيله كما قال المؤلف: فيه تفسير لشهادة لا إلٰه إلا الله.

باب
قول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنه في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لَتُطيعاني أو لأجعلنّ له قرنَيْ أيِّل، فيخرج من بطنِكِ فيشقه، ولأفعلنّ ولأفعلنّ ـ يخوفهما ـ سمِّياه عبدَ الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملتْ، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج

قوله في الآية: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ كأن المؤلف يقول إن هـٰذا في آدم وحواء كما هو صحيح في الأثر، وهـٰذا فيه نظر، ولا سيما إذا اعتبرنا في أثر ابن عباس الذي ذكر، فإنه يبعد جداً أن يكون هـٰذا من آدم، والصواب أن هـٰذا كما قال ابن كثير رحمه الله في بني آدم، والتثنية للزوجين؛ يعني: بالنظر للزوج والزوجة أنهمت مثنيانِ، فهـٰذا قد لا يكون لمعيَّن، بل لكثير من بني آدم، ويصح هـٰذا الخطاب أن الزوج والزوجة يقولان هـٰذه المقالة، ويسألان ربهما أن يخرج صالحاً سوياً ليس فيه إشكال، ثم يكفران بعد ذٰلك، وينسيان هـٰذا الأمر.

والمقصود أن ولادة الولد سوياً ليس فيه تشويه، وليس فيه نقص من الأعضاء نعمةٌ من نعم الله، ويجب أن يشكر عليها، دون النظر علىٰ كونه ذكراً أو أنثىٰ، فالأنثىٰ السوية نعمة، ولهـٰذا كانت عائشة رضي الله عنها إذا ولدتِ المرأة تسأل لعله صالح؛ أي: سوي ليس فيه نقص، فإذا أخبروها بذٰلك حمدتِ الله، ولا تسأل عنه ذكر أو أنثىٰ، لأنه كلاهما نعمة من الله ـ جل وعلا ـ.

ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حبّ الولد، فسمياه عبد الحارث فذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ [الأعراف: ١٩٠] رواه ابن أبي حاتم(١).

أما ذكر التعبيد؛ فهو بناء علىٰ أن هـٰذه القصة صحيحة، وأن هـٰذه مضافة إلىٰ آدم، وهـٰذا بعيد جداً، كيف يأتي الشيطان ويقول لهما: «**سمياه عبد الحارث وأنا استطيع أن أجعل له قروناً!!**» آدم الذي علمه الله الأسماء كلها وأكرمه، وأعطاه العقل، فهو أتمّ عقلاً من بنيه، ينطلي عليه قول إبليس: ني أجعل له قروناً، وإبليس لا يستطيع أن يجعل شيئاً!! والذي يتصور هـٰذا، ويضيف هـٰذا إلىٰ آدم ففي الواقع، لا يعرف آدم ووصف الله تعالىٰ له.

أما هـٰذه الآثار التي ذكرها المؤلف ـ وكثير منها ذكره المفسرون في هـٰذا ـ مروية عن بني إسرائيل والله أعلم، وهي من تخريفاتهم ومن كذبهم، ولهـٰذا أنكرها الإمام ابن كثير(٢)، وقال: «الواجب أن ينزه آدم عليه السلام عن مثل هـٰذا الظن، وإنما هـٰذا في بعض بنيه الذين وقعوا في الشرك».

أما قوله: «**إنه خرج ميتاً**» ثلاث مرات؛ فهـٰذا قد يكون، فالإنسان إذا خاف من الشيطان، ولم يخف من الله ﷻ؛ فإنه قد يبتلىٰ، وهـٰذا يقع كثيراً من الذين يذهبون للقبور، ويسألونها، أو يخافون من أصحابها، فقد يبتلون بالشيء الذي يقع لهم ابتلاءً وامتحاناً.

أما أن يكون هـٰذا وقع لآدم؛ فهـٰذا لا يصح، وهو بعيد. ثم الآية إذا تأملناها تدل علىٰ خلاف ما ذكر المؤلف رحمه الله؛ لأن فيها الضمائر مجموعة ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠، ١٩١] إلىٰ آخر الآيات، فالضمائر كلها جمعت، مما يدل علىٰ أن هـٰذا من

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩٤٢١).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/٥٢٨).

قال ابن حزم: «اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبَّد لغير الله كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذٰلك، حاشا عبد المطلب»[١].

جنس بني آدم، من جنس الذكر والأنثىٰ؛ يعني: أنه كثير، وليس المراد آدم عليه السلام.

وعلىٰ كل حال؛ هـٰذا الذي ذكره المؤلف قاله جماعة من السلف، ولـٰكن الواجب أن ينظر إلىٰ الحق، المؤلف له مقام كبير، وله علم لا نصل إليه، ولا قريب منه. وله أيضا جهاد يجب أن يُشكر له، ولـٰكن الخطأ لا يجوز أن يقرَّ مهما كان القائل به.

ثم الإنسان يجب أن يكون له فكر وعقل، ولا يكون إمَّعة يتبع فلاناً وفلاناً، فإذا سمعنا قائلاً يقول كذا وكذا؛ فيجب أن نعرض قوله علىٰ كتاب الله وسنن رسوله كما مرَّ.

أما قوله: «**قال ابن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبد لغير الله**» مثل: عبد الحسين، وعبد علي، يعني يعبد لمخلوق، سواء كان عاقلاً أو غير عاقل، وهـٰذا صحيح حق، ولـٰكن **قوله**: «**حاشا عبد المطلب**» المعنىٰ أنهم لم يتفقوا علىٰ تحريم تسمية «**عبد المطلب**» وذٰلك أن عبد المطلب جدّ الرسول سمّي بهـٰذا الاسم، يقول: لأجل ذٰلك لم يتفقوا وقد ذكر بعضهم أن في الصحابة عبد المطلب، وهـٰذا غير صحيح، لم يعرف أن في الصحابة عبد المطلب إلا إذا كان هناك رواية لا تثبت كما ذكر ابن عبد البر وغيره. فالتسمية بعبد المطلب وقعت في الجاهلية، وكونه عبداً يقولون: إنه عبد من العبودية، وليس من التعبيد الذي هو العبادة، هـٰكذا الاستثناء لأجل هـٰذا، والسبب يقال: إنه ذهب إلىٰ أخواله في المدينة وقد وُلِدَ عندهم، وشبَّ هناك، فجاء به عمه أبو طالب إلىٰ مكة، وأردفه خلف الراحلة، فلمّا أصابته الشمس والسفر تغير لونه، فصار أسود، فلمّا دخل مكة؛ قالوا: إن المطلب جاء بِعَبْدٍ، يقول:

---

(١) «مراتب الإجماع» لابن حزم ص١٥٤.

....

فسموه عبد المطلب، لهٰذا السبب، لهٰذا يقول: إنه من عبودية الرق، وليس من العبادة.

وعلىٰ كل حال: كان هٰذا أو غيره، فالتعبيد لمخلوق لا يجوز؛ لأن العبودية يجب أن تكون لله وحده، فإذا سُمّي الإنسان عبد فلان كعبد الحسين، أو عبد علي، أو عبد النبي، أو عبد الكعبة، أو ما أشبه ذٰلك؛ فهٰذا تعبيد لغير الله ـ جل وعلا ـ، وهو نوع من الشرك يجب أن يغيّر، ويجعل عبد الله ـ جل وعلا ـ، وسيأتي نهي الرسول ﷺ أن يقول الرجل: «عبدي»، وقال: **«وليقل: فتاي غلامي»**[(١)].

ومن ذٰلك عبد الحارث، ويزعم أن الحارث اسم للشيطان، ولهٰذا أمر ـ علىٰ هٰذه الرواية التي لا تصح ـ آدم وحواء زوجه أن يسميا ابنهما عبد الحارث، وهددهما.

المقصود بهٰذا أن الواجب الاتجاه إلىٰ الله ـ جل وعلا ـ في الألفاظ والآراء والتسميات والنيات والمقاصد كلها، حتىٰ يكون الإنسان عبداً لله حقاً، ولا يضيف إلىٰ المخلوق ما هو من خصائص الله، أو من حقوق الله.

أما إذا فعل شيئاً من ذٰلك؛ فإنه وقع إما في شرك أكبر، أو شرك أصغر، أو شرك التعبيد، أو شرك الربوبية، وقد يكون هٰذا كبيراً، وقد يكون خفياً وصغيراً فيجب أن يتفقد الأحوال، وقد يكون عند الناس أشياء يتوارثونها كثيراً بلا تفكير، ونسمع كثيراً في أهل نجد إذا وقع الإنسان له مكروه؛ فإنه يقول كلاماً مثل: «واعزّاه» يجوز دعاء للصنم العزىٰ؟ إنه شيء موروث من الجاهلية إلىٰ الآن، فلا يجوز أن يقع في الشيء الذي فيه إشكال، أو فيه اشتباه بأنه شرك.

أما إذا تبين أنه يريد هٰذا؛ فهٰذا شرك لا يجوز أصلاً، وكذٰلك أسمع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٦)، ومسلم (٤١٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته[١].

بعضهم يقول: «بلعام» وهو صنم معروف، ولا يزالون يتكلمون في هٰذه الأشياء.

وكذٰلك التعبيد واقع الآن، فكثيرٌ من الناس يعبّد لغير الله ـ جل وعلا ـ، فهٰذا نوع من الشرك، ويجب أن يتوب من ذٰلك، ويجعل العبودية لله ـ جل وعلا ـ كما أن الاعتقاد نفسه يجب أن يكون صافياً، وأن الله ـ جل وعلا ـ له ما يخصه من الأسماء والصفات والأفعال والحقوق التي تجب له، لا أن يكون فيها شيء للمخلوق، هٰذا هو المراد في هٰذا الباب.

وقوله: «**وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**» يريد أن آدم قال هٰذا القول وسمىٰ هٰذه التسمية موافقة له في طاعة الأمر، ولم يكن معبداً، هٰذا قد يكون فيه فرق، ولو كان كذٰلك؛ فهو شرك، فلا يجوز أن يظن بآدم هٰذا، كأن هٰذا يريد أن يكون مَخْلَصاً؛ لأن آدم وقع في ذٰلك ما دام أنه نقص وشرك لفظي، فلا يجوز أن نظن بآدم هٰذا.

ثم هل يمكن أن يكون آدم يغترّ بالشيطان؟ ويغره أكثر من مرة؟ لمّا غره وأخرجه وأقسم له في الجنة أنه ناصح له، فتبين أنه كاذب، وأنه يريد به الضلال والكفر، هل يمكن أنه يغرَّه مرة ثانية؟ فـ«**المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين**»[٢] يجب أن يحسن الظن بآدم عليه السلام، وآدم أعطي من العقل، ومن العلم ما لم يعطه بنوه، فعلّمه الله أسماء كل شيء، فنقول: إن هٰذا لم يقع من آدم عليه السلام، وإنما وقع من بعض ذريته.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٨)، ومسلم (٥٣١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال: أشفقا ألا يكون إنساناً، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تحريم كل اسم معبّد لغير الله. **الثانية**: تفسير الآية. **الثالثة**: أن هٰذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

قوله: «أن هٰذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها» تسمية الشرك لا تجوز أن تقع من الأنبياء، وآدم نبي كريم بعثه الله إلىٰ ذريته.

قوله: «أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم» يقول لأنهم كانوا يكرهون ـ ولا يزال إلىٰ الآن بعض الناس يكره ـ البنت تولد له، وهٰذه من الجاهلية في الواقع، ومن عدم الشكر لله ـ جل وعلا ـ.

والإنسان لا يدري الخير في البنت أم في الولد، فقد تكون البنت أفضلَ من الولد، وخيراً له وأنفع، فالواجب أن يشكر الإنسان ربه، وأن يرضىٰ بما يحصل له، ويحصل من بعض الناس بعض الوقائع المنكرة في مثل هٰذا، فتجده مثلاً يتهدد زوجته، ويقول: «إن جئت ببنت هٰذه المرة أطلقك» هٰذا يقع منهم كثيراً، ولٰكن الأمر كله بيد الله ـ جل وعلا ـ.

ذكر لي بعض الإخوان قصةً وقعت في المستشفىٰ، يقول: امرأة ولدت بنتاً، فصارت تبكي، فسُئلت لماذا؟ فقالت: إن زوجي توعدني إن ولدت بنتاً فإنه سيطلقني. وكان الدكتور عاقلاً، فقال: أخفوا البنت عنه، وإذا جاء أرسلوه إليّ قبل أن تعلموه بشيء، فلمّا أتىٰ إليها؛ قالوا له: الدكتور يريدك. فذهب إليه، وكان عنده ولد مشوّه، فأخذ يده وذهب به، وقال: انظر إلىٰ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٤١٥).

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

ابنك. فصار يصيح ويبكي. فلمّا رأىٰ أنه جزع جزعاً عظيماً؛ قال: ما رأيك لو أن الله أعطاك بنتاً سوية؟ قال: لو أعطاني بنتاً سوية لأشكره وأحمده. قال: تعال أريك، هٰذه ابنتك.

فالمقصود أن هٰذه موعظة وعظه بها، ولٰكن هبة الله للرجل، البنت السوية التي ليس فيها عيب وليس فيها تشويه نعمة يجب أن يشكر ربه عليها.

قوله: «**ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة**» هٰذا بناء علىٰ هٰذا القول الذي قاله قتادة، وكله شرك بالطاعة كما سبق أو بالعبادة يخرج من الدين الإسلامي، لما قال: إن طاعة العلماء والأمراء إنما يتخذونهم أرباباً.

باب

قول الله تعالىٰ:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠].

الإلحاد في أسماء الله - جل وعلا - من الشرك، فبين أن من فعل ذٰلك؛ فقد وقع في الشرك، ولهٰذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المتكلمون لا ينفكون عن الشرك»؛ لأنهم لا يَخْلُون من التعطيل أو اعتقاد أن ظاهر النصوص التشبيه، وكلاهما شرك بالله - جل وعلا -، وكلاهما يسمىٰ إلحاداً.

والإلحاد: هو الميل والعدول بالكلام عن المقصود الذي قصده المتكلم أو بمعناه، فإذاً التأويل يكون إلحاداً، والتعطيل يكون إلحاداً، كما أن اشتقاق أسماء المعبودات من أسماء الله يكون إلحاداً، كما قال هنا: ﴿يُلْحِدُونَ﴾؛ أي: يسمون بها أسماء الآلهة المعبودة من دون الله تعالىٰ، مثل «اللات» أخذوه من الله، و«العزىٰ» أخذوه من العزيز، و«مناة» من المنان، وهٰكذا، ويكفي أنهم سموها إلٰهاً، وما من إلٰه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] ليس هناك آلهة تعبد من دون الله إلا وهي باطلة، فمعنىٰ ذٰلك أن من سمىٰ مخلوقاً من المخلوقات بما يسمّي به الله نفسه؛ فقد ألحد في أسمائه، ووقع في الشرك.

وكذٰلك إذا تأول ووضع أسماء الله - جل وعلا - في غير موضعها من تأويل أو تعطيل؛ فقد ألحد ووقع في الشرك، وبذٰلك يتبين أن الأمر كبير، وأن الذي لا يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله لا يخلو من الشرك.

ثم قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي اعبدوه بها، كما أنه يُسأل بها، فسؤاله عبادة، وسؤاله بأن تقول: «يا رحيم ارحمني، يا رزاق ارزقني» وهٰكذا، وتسأل وتطلب من ربك باسمه المناسب لذٰلك الطلب، وهٰذا يدلنا علىٰ أن سؤال الله - جل وعلا - ينبغي أن يكون بأسمائه، وبما كانت الرسل

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: يشركون(١).

وعنه: سمَّوا اللات من الإلٰه، والعزىٰ من العزيز(٢).

وعن الأعمش: يُدخلون فيها ما ليس منها(٣).

تسأل به وتدعو به، ولٰكن إذا سأل الإنسان مجتهداً بشيء مما يدعىٰ به رب العالمين ـ جل وعلا ـ، ولم يكن من الأسماء التي ذكرها الله ـ جل وعلا ـ في القرآن، أو ذكرها الرسول ﷺ، ولم تتضمن نقصاً جاز ذٰلك؛ لأن تكليف عوام المسلمين أن لا يسألوا إلا بما ورد يشق عليهم، فعدم جواز أن يُدعىٰ إلا بما ورد في القرآن والسنة؛ فهٰذا قد لا يستطيعه عوام المسلمين.

ثم قال: **«ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: يشركون»**؛ يعني: يسمون بعض المخلوقات بها، فيكون شركاً، كما أنهم أيضاً يشركون فيجعلون أسماءه دالة علىٰ النقص يعني علىٰ التشبيه، فيصرفونها عن مراد المتكلم، كذٰلك يدخل تعطيلها عما دلت عليه من المعاني التي أرادها الله ـ جل وعلا ـ، فيكون شركاً.

أما قوله: «سمَّو اللات من الإلٰه» فهٰذا إلحاد **«والعزىٰ من العزيز»**.

قال: «وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها»؛ يعني: كتسمية اليهود له أنه بخيل ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ هٰذا إدخال لما ليس منه ﷻ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] هٰذا أيضاً إلحاد وكفر من أسوء الكفر. وكقولهم قاتلهم الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكقولهم: «إن الله لما خلق السمٰوات والأرض تعب، فاستراح، وكان ذٰلك يوم السبت»، وعندهم كلام

---

(١) روي عن قتادة، أخرجه الطبري (١٥٤٥٦)، وابن أبي حاتم (٩٣٥٢).

(٢) روي عن مجاهد في «تفسير الطبري» (١٥٤٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٥٨٧).

فيه مسائل:

الأولىٰ: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حُسنىٰ.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

خبيث كثير في الله - جل وعلا -، حتىٰ قالوا: «إنه لما وقع الطوفان في قوم نوح بكىٰ حتىٰ رمد، وعادته الملائكة»، شيء يستحيي الإنسان من ذكره، قبحهم الله تعالىٰ وأخزاهم، فهم من أقبح الناس وصفاً لله تعالىٰ بهٰذه الأوصاف، جرأة علىٰ الله - تعالىٰ الله وتقدس -.

وقوله: «**عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها**»؛ يعني: يقصد مثل هٰذه الأشياء، فهٰذا أيضاً نوع من الإلحاد.

قوله: «**كونها حسنىٰ**» يعني: إثبات الأسماء التي سمىٰ الله - جل وعلا - بها نفسه، فيجب أن نثبتها، ونعرف معانيها؛ لأن الله طلب ذٰلك منّا، أما كونها «حُسنىٰ»؛ يعني: أنها كاملة لا يتطرق إليها نقص أو عيب.

قوله: «**الأمر بدعائه بها**» يعني: أن نسأله ونعبده بها.

قوله: «**ترك من عارض من الجاهلين الملحدين**» يعني لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ [الأعراف: ١٨] ما معنىٰ ﴿وَذَرُوا۟﴾؛ يعني: اتركوهم وابتعدوا عنهم، لا عقيدة، ولا أخوة، ولا اجتماع معهم.

باب

لا يقال: السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: **«لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام»**(١).

في هٰذا الباب بيان الأدب مع الله - جل وعلا - في الألفاظ، وفي الدعاء، وفي العبادة، وأنه لا يجوز أن يضاف إليه ما لا يصلح له؛ لأن السلام طلب السلامة، فإذا قلت: **«السلام عليكم»** فأنت تطلب له السلامة، وتخبره بأنك سلم له، وفي ضمن ذٰلك السؤال له بأن الله يسلمه.

والسلام اسم من أسماء الله، كما قال الله - جل وعلا -: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] ففي ذكره في ضمن هٰذه الأمور الثلاثة:

أولاً: أن تخبر من تسلّم عليه أنك سِلْمٌ له، فلا يناله منك أذىً، أو شر.

ثانياً: أن تخبره بأنك تدعو له، وتسأل ربك له أن يسلمه من العذاب، ومن المكروه ذٰلك.

ثالثاً: أن هٰذا ذكر لله - جل وعلا -، والذكر عبادة، وهو ذكر له تعالىٰ باسمه السلام.

وقوله: **«في الصحيح عن ابن مسعود قال: كنا إذا كنّا مع النبي»** الحديث ثابت في «صحيح البخاري». فقال النبي ﷺ: **«لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام، ولٰكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم؛ أصابت كل عبد في السماء والأرض»**؛ يعني: الملائكة

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير السلام. **الثانية**: أنه تحية. **الثالثة**: أنها لا تصلح لله. **الرابعة**: العلة في ذٰلك. **الخامسة**: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

والمؤمنين وغيرهم من عباد الله الذين يوصفون بهٰذا الوصف.

وذٰلك أن التحيات جمع، ومعناها تعظيمات، فكل تعظيم يستحقه ربنا، فنثني عليه به مثل الركوع والسجود والدعاء وسائر العبادات، وهٰذه كلها تدخل في هٰذا.

أما لو قلت: «**السلام على الله**» فهٰذا لا يصلح توجيهه إلىٰ الله تعالىٰ، ثم الثناء علىٰ الله في هٰذه التي يعلمنا إياها رسولنا ﷺ، فإن هٰذا من التوحيد، وعكسه يكون من القوادح التي تقدح في إيمان الإنسان، وقد تكون من سوء الأدب مع الله ـ جل وعلا ـ، هٰذا هو المقصود.

أما معنىٰ **قوله**: «**التحيات لله والصلوات**» فعرفنا ما هو معنىٰ «التحيات»؛ يعني: التعظيمات، مثل الركوع والانحناء والسجود وغيره من كل تعظيم، فلا يكون للمخلوق، بل هو لله؛ أي: استحقاقه، فهو يستحقه علىٰ العبد، فيجب أن نصرفه له.

أما **قوله**: «**الصلوات**»؛ يعني: الدعاء، والصلاة التي هي القيام والركوع والسجود وغير ذٰلك، فهي أيضاً خاصة لله ـ جل وعلا ـ.

أما «**الطيبات**» فمعناه الأعمال الطيبة الخالصة من كلام وعمل وغيره، فهي جامعة، ثم البقية معروف.

قوله: **انها لا تصلح لله**»؛ لأنها تحية الناس فيما بينهم، وما كان بين الناس فهو لا يصلح لله، فالله لا يصلح له إلا الشيء الذي يكون عبادة له، فيجب التأدب معه، ولأنه دعاء.

باب
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، لِيَعْزِمِ المسألة، فإن الله لا مُكْرِهَ له**»(١).

في هٰذا الباب وجوب التأدب في السؤال مع الله ـ جل وعلا ـ، وأن العبد يجب أن يكون علىٰ بصيرة في هٰذا، وأن الاستثناء في الدعاء محرم لا يجوز، فمن فعل ذٰلك؛ فإنه يقع في المحاذير التي قد تصل إلىٰ الكفر ـ نسأل الله العافية ـ، وسيتبين هٰذا بشرح الحديث إن شاء الله تعالىٰ.

فقوله: «**باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت**»؛ يعني: أن هٰذا لا يجوز، بل هو محرم، ومن قال ذٰلك؛ فإن توحيده إما ناقص أو أنه زائل؛ لأنه جاهل بالتوحيد.

ثم ذكر الدليل علىٰ هٰذا «**أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له**» الرسول ﷺ يبين العلة في هٰذا، والعلة في الاستثناء هنا «**اللهم اغفر لي إن شئت**» فيها محظوران عظيمان:

الأول: أن هٰذا يشعر بأن الإنسان في غنىً عن الرحمة والمغفرة؛ يعني: كأنه يقول: إن حصلتْ، وإلا فلا يلزم ذٰلك. وهٰذا معناه أنه لم يعلم الحالة التي هو فيها ويؤول إليه، ولم يعلم فقره، ولم يعلم ما يستقبله، وما بيد الله، فإنه جاهل بالله، جاهل بما يكون لله، وهٰذا لا يكون من الموحد.

الثاني: أن هٰذا يشعر بأن الطلب من الله أنه يجعل الله ـ جل وعلا ـ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦٤) واللفظ له، وبنحوه مسلم (٤٨٣٩).

ولمسلم(١): «**ولْيُعْظِمِ الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**».

يعطي الشيء الذي لا يريده، فهٰذا أيضاً قدح في توحيد الله ـ جل وعلا ـ، وفي صفاته، فإذا صدر من الإنسان تبين أن هٰذا من أعظم الجهل فهو من المحرمات، وإنما هٰذا يستعمل في المخلوق؛ لأن المخلوق قد يعطي الشيء وهو كاره، وهو لا يريده إما حياءً، وإما لأمور أخرىٰ، أما رب العالمين؛ فهو يفعل ما يشاء، لا يحمله الدعاء أن يعطي شيئاً لا يريده ـ تعالىٰ الله وتقدس ـ كما يشعره مثل هٰذا الاستثناء.

ثم بيّن الرسول بقوله: «**ليعزم المسألة**»؛ يعني: ليكن عنده في المسألة جزم بدون استثناء، يقول: «اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني» بدون استثناء.

ثم في الرواية الأخرىٰ: «**وليعظم الرغبة**» ولا أحد يحمله علىٰ أن يعطيك، وإذا شاء أن يعطيك أعطاك ما يشاء ـ جل وعلا ـ من مشيئته، فالدعاء لا يحمله علىٰ أن يعطيك، ولٰكن هو ـ جل وعلا ـ أمر بالدعاء، فصار الدعاء طاعة له، وقد علم الله ـ جل وعلا ـ الذي يقع؛ لأنه رتب العطاء علىٰ شيء قدَّره وشاءه، وقد يحصل العطاء، وقد لا يحصل، فالأمر كله بيد الله، وأنت ملك لله، وإذا أعطاك فهو من نعمه، وهو يفعل ما يشاء.

وأمر آخر، فيقول: «**وليعظم الرغبة**»؛ يعني: لا يقصر عن سؤال العظيم الكبير، فإن الله ـ جل وعلا ـ يعطي الشيء الكبير العظيم، ولا يكون ذٰلك عظيماً عند الله، بل سهلاً ميسوراً، فإذا أراد الشيء قال له: «كن» فيكون.

ولهٰذا قال الرسول ﷺ كما في الصحيح: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلىٰ الجنة ووسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(٢) ولا يقول الإنسان: «أنا ما أستحق» أنت لو كنت مثلاً تعامل بالشيء الذي تستحقه؛ فلا تستحق الجنة أصلاً، ولٰكن الله كريم جواد، فلا تقصر بك الرغبة أن تقول

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن الاستثناء في الدعاء. **الثانية**: بيان العلة في ذٰلك. **الثالثة**: قوله **«ليعزم المسألة»**. **الرابعة**: إعظام الرغبة. **الخامسة**: التعليل لهٰذا الأمر.

أو تتوانى، بل اسأل ربك أعلىٰ ما يكون، وأعظم الرغبة والرجاء من الله، فإن الله ـ جل وعلا ـ عظيم، وإذا أعطىٰ؛ فعطاؤه عظيم، هٰذا هو المعنىٰ المقصود هنا.

وخلاف ذٰلك يكون جهلاً بالله ـ جل وعلا ـ، ومن جهل بالله؛ فقد جهل التوحيد، هٰذا هو وجه إيراد هٰذه الأحاديث، وجعل هٰذا الباب في هٰذا الكتاب؛ لأنه إذا لم يكن قد علم ما لله ـ جل وعلا ـ، وما يكون ـ جل وعلا ـ عليه من العطاء، ومن المن ومن التدبير؛ فإنه لم يفهم التوحيد.

باب
لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: **«لا يقل أحدكم: أطعِمْ ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، وغلامي»**(١).

في هٰذا الباب بيان الألفاظ التي يجب أن يتأدب العبد مع الله فيها؛ لأن العبودية يجب أن تكون لله، وليس للعباد بعضهم علىٰ بعض، والعباد قد يملكون بعض العباد؛ أي: يكونون عبيداً لهم. وعبودية الرق أصلها الكفر، فإذا حصل القتال بين المسلمين والكفار، واستولىٰ المسلمون عليهم؛ فلهم أن يستعبدوا أولادهم، ويستعبدوهم، ويكونوا تحت أيديهم، كالمال يتصرفون فيه، إما بالخدمة، أو البيع، أو غير ذٰلك؛ عقوبةً لهم علىٰ الكفر.

أما غير الكفار؛ فلا طريق إلىٰ العبودية إليه، وهٰذا الطريق الوحيد فقط إلىٰ العبودية، وهٰذا عقاب من الله للكافر حيث تعبد الشيطان وغيره، فعوقب بأن يكون عبداً لمخلوق تحت قهره، عبودية الملك، وليست عبودية العبادة، فلهٰذا نهىٰ الرسول ﷺ إذا كان عند الإنسان مملوكاً أن يقول: **«هٰذا عبدي»**.

وكذٰلك المملوك نهي أن يقول: **«فلان ربي، وليقل: فتاي وفتاتي»** والآخر يقول: **«مولاي»** وما أشبه ذٰلك، فأرشد إلىٰ الألفاظ التي تجوز.

وفي هٰذا الطريق أن الإنسان إذا نُهي عن الشيء فإنه يرشد إلىٰ الشيء الجائز ولا ينهىٰ عن شيء ثم يترك المنهي بدون بديل، وهٰكذا كانت طريق الرسول ﷺ، وكل هٰذا من باب التأدب مع الله، وصيانة حقه أن يدخل فيه شيء مما هو للمخلوق، وكذٰلك صيانة للتوحيد أن يدخل الشيطان من هٰذه الطرق، ويفسد علىٰ الإنسان توحيده، وهٰذا هو المقصود في هٰذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٦)، ومسلم (٤١٧٩).

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن قول عبدي وأمتي. **الثانية**: لا يقول العبد ربي، ولا يقال له أطعِم ربك. **الثالثة**: تعليم الأول قول فتاي وفتاتي وغلامي. **الرابعة**: تعليم الثاني قول سيدي ومولاي. **الخامسة**: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتىٰ في الألفاظ.

باب

لا يرد من سأل بالله

....

قال رحمه الله تعالىٰ: «**باب لا يرد من سأل بالله**»؛ يعني: في الحكم الشرعي الذي يتبع الشرع، ويمتثل أمر ربه ـ جل وعلا ـ، لا يرد من سأل بالله ما لم يسأل إثماً، أو قطيعة رحم، أو يكون متعدياً، أو يسأل ما يضر بالمسؤول؛ لأن هٰذا مقيد بالأمور الأخرىٰ.

ولٰكن المقصود بهٰذا الباب أن الموحد الذي يقوم بالتوحيد يكون توحيده كاملاً هو الذي يقوم بحقوق الله وحقوق عباده.

ومن حقوق الله ـ جل وعلا ـ تعظيمه وتكبيره، أن يسأل سائل به ثم لا يلتفت إليه ولا يعطىٰ، ولٰكن هٰذا بالشرط الذي ذكرته؛ يعني: أن يكون السائل لم يتعدَّ الأمر الشرعي، ولا يكون سأل ما يضر بالمسؤول وأن لا يسأل شيئاً لا يستحقه.

وكذٰلك إذا استعاذ؛ لأن الاستعاذة نوع من السؤال، استعاذ بالله، ثم الجانب الآخر حق الأخ علىٰ أخيه، وهٰذا من إعطائه مسألته إذا كانت المسألة لم تأتِ بما يخالف الشرع.

وقد سبق أنّ سؤال الناس محرم إلا لإنسان وقع في حاجة ماسة، أو إنسان قد أصيب بجائحة اجتاحت ماله، أو إنسان قد تحمل في سبيل الإصلاح أموالاً تجحف بماله، فهٰؤلاء هم الذين يحق لهم أن يسألوا.

أما من يسأل تكثراً؛ أي: يسأل ليجمع المال، ويكثره عنده؛ فهٰذا يُعطىٰ في الظاهر، ولٰكن إثمه عظيم في هٰذا؛ لأنه يأتي يوم القيامة وليس علىٰ وجهه مُزْعةُ لحم[1]، قد أخذت المسألة لحم وجهه، وهٰذا نوع من الافتقار إلىٰ المخلوق. والافتقار يجب أن يكون إلىٰ الله.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٤)، والنسائي (٢٥٢٠) بنحوه.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ....**

ثم كذلك من حقوق المسلم على المسلم: أن يجيب دعوته إذا دعاه، ولكن هذا أيضاً بالأمور التي لا تخالف الشرع، وإنما بالأمور التي لا تضر بالمدعو، وأن يَعلم أن الداعيَ جادّ في دعوته، وأنه ليس من باب المجاملة، والأمور التي يعرفها الناس.

وكذلك إذا سلّم، وإذا استعان، أما إذا أعطاك معروفاً سواء معنوياً أو مادياً؛ فالسنّة أنك تكافئه حتى لا يكون في قلبك تعلق على غير الله ـ جل وعلا ـ، فإن لم تجد ما تكافئه من جنس ما قدمه لك، فالأمر في هذا واسع بأن تتجه إلى ربك وتدعوه أن يكافئه، فتدعو حتى تظن أنك قد كافأته بالدعاء، فهذا من المكافئات، ولكن يصار إلى هذا إذا لم يجد ما يكافئه.

ولهذا قال ﷺ: **«من استعاذ بالله فاعيذوه»** ومعنى ذلك؛ إذا قال: «أعوذ بالله من شرّك، أعوذ بالله منك» فهذا يجب عليك أن تعيذه؛ لأنه استعاذ بعظيم.

وكذلك إذا سأل بالله فأعطه، كأن يقول: «أسألك بالله كذا وكذا» بالشرط، فتعطيه.

وكذلك إذا دعاك ليكرمك أو دعاك لحاجة له لا تضر بك، فإن من حق المسلم على المسلم إجابة دعوة أخيه.

وكذلك إذا صنع إليك معروفاً من عطية أو عمل من الأعمال التي يساعدك بها، فإنك تكافئه على هذا، فإن لم تجد من جنس ما صنع لك بمكافئته؛ تلجأ إلى الله بأن يتولى مكافئته، وتدعو له حتى تظن أنك كافأته.

ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه؛ فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه» رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح[(١)].

فيه مسائل:

الأولىٰ: إعاذة من استعاذ بالله. **الثانية**: إعطاء من سأل بالله. **الثالثة**: إجابة الدعوة. **الرابعة**: المكافأة علىٰ الصنيعة. **الخامسة**: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه. **السادسة**: قوله **«حتىٰ ترون أنكم قد كافأتموه»**.

وقوله: «تَروا» أو «تُروا» وكل واحد لها معنىٰ، فإن «تَروا»؛ يعني: تعلموا؛ أي: تعلموا أنكم قد كافأتموه.

وفي الضم «تُروا»؛ يعني: تظنوا، وهٰذا أسهل؛ لأن الأول يتعين عليك أنك تيقنت أنك قمت بمكافئته.

وقد يقول إنسان: من أين لي أن أعلم؟

نقول: قد جاء في الحديث «**من صُنِعَ إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيراً؛ فقد أبلغ في الثناء**»[(٢)]، وليس معنىٰ ذٰلك أنك تقول ذٰلك مرة، فنقول ذٰلك حتىٰ وإن زدت علىٰ الشيء الذي تظن أو تعلم أنه مكافئة.

ومعلوم أن الشيء من أمور الآخرة يساوي الدنيا كلها، وهٰذا يعطيك المعرفة بأن المكافئة قد تحصل؛ يعني: تسأل له الجنة، وتسأل له رحمة الله، وتسأل له أن الله يرضىٰ عنه؛ أعظم من أن لو قدم لك كثيراً من أمور الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨١)، ومسلم (١٧٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٥) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

باب
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»** رواه أبو داود[١].

في هٰذا الباب يقول: **«باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»**؛ يعني: أنه يجب أن يعلم ما هو وجه الله، فيقدّره حق تقديره، ويجلّ ويعظّم أن يسأل بوجهه الأمور التافهة، والدنيا كلها تافهة، ولا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فلهٰذا قال: **«لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»** فالجنة هي التي ينبغي يسأل بها التعظيم؛ لأنها عظيمة، ولأنها مقام لا يتغير أو ينتهي، وفيها رضا الله، وكذٰلك ما كان وسيلة إلىٰ الجنة وموصلاً إليها من الأعمال التي المقصود بها الجنة، وهٰذا فيه:

أولاً: تقدير الله وتعظيمه، فيجب أن يقدّر حق قدره كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وهٰذا جاء في مواضع من كتاب الله.

الثاني: أن له وجهاً حقيقة.

والثالث: أنه يسأل الله بصفاته، سواء كانت الصفات معنوية كالسمع، والعلم، والبصر، والرحمة، وما أشبه ذٰلك، أو ذاتية كالوجه، واليد، وما أشبه ذٰلك، فلا فرق بين هٰذا وهٰذا.

فسؤال الله بصفة الوجه تناسب السؤال، وهو الطريق الذي جاء به الشرع كما مضىٰ في الباب السابق ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فدعاؤه عبادته، تعبده بأسمائه.

ومنه الدعاء؛ فهو أفضل العبادة، كما في الحديث: **«أفضل العبادةِ**

---

(١) «سنن أبي داود» (١٤٣٢).

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

الدعاء»[١]، وفيه أيضاً: «**الدعاء هو العبادة**»[٢] فجعل العبادة هي الدعاء.

وفي حديث آخر: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٣]، وهٰذا المعنىٰ موجود في القرآن، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، فأمر بسؤاله، ومن لم يستجب له؛ فإنه يغضب عليه.

والمقصود أن السؤال بالعظيم يجب أن يكون عظيماً، ولا يجوز أن يسأل بوجه الله حقيراً، والدنيا كلها حقيرة، ولهٰذا قال: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»؛ يعني: أن من سأل بوجه الله غير الجنة؛ فإنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يقم بحقه، ولم يأتِ بالتوحيد الواجب الذي يجب عليه، فإذا سأل غير الجنة بوجه الله؛ فقد جاء بما ينقص توحيده الواجب، أو يذهبه، فهٰذا هو وجه إدخال هٰذا الباب في «كتاب التوحيد».

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٧٦٠)، من حديث ابن عباس ﵄.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٥) من حديث النعمان بن بشير ﵁.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٩٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

باب
ما جاء في اللّو

وقول الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال: «**باب ما جاء في اللّو**» أدخل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ «ال» علىٰ «لو»، ولو حرف، و«ال» لا تدخل إلا علىٰ الأسماء، ولٰكن إذا جعل هٰذا شيئاً مقصوداً؛ فهو يدخل عليه الألف واللام للتعريف فقط. و«لو» المقصود منها النهي عن التي تدل إما علىٰ الاعتراض علىٰ قدر الله أو حكمه، أو تدل علىٰ التضجر والحزن والأسف علىٰ ما وقع، وهٰذا كله يدل علىٰ أن العبد لم يسلم لله ـ جل وعلا ـ، ولم ينقد لحكمه ولم يرض به.

وهٰذا إما ذاهب بالتوحيد نهائياً، أو قادح في الواجب الذي ينجو العبد به، فأدخل هٰذا الباب في «كتاب التوحيد» لأجل ذٰلك، وليس ذٰلك نهياً عن «لو» مطلقاً، فإن «لو» تأتي لمعانٍ كثيرة، ولٰكن الضابط هو ما ذكر مما دلت عليه الآيات التي فيها اعتراض علىٰ حكم الله ـ جل وعلا ـ، فالذي يقول هٰذا يتصور أنه يمكن أن يغير ما قدره الله بالأمور التي يفعلها، وهٰذا ظن سيئ بالله ـ جل وعلا ـ، واعتراض علىٰ حكم الله، ودليل علىٰ عدم الرضا، ولهٰذا ذكر ذٰلك عن المنافقين والكافرين.

فقال: «وقول الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾» هٰذه الآية في قصة ما وقع في غزوة أحد مما أصاب المسلمين فيها، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فهٰذا يدل علىٰ أنهم يظنون أنهم يستطيعون أن يغيّروا

وقـولـه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ الآيـة [آل عمران: ١٦٨].

الواقع الذي وقع بقدر الله، وهـٰذا كذب علىٰ القدر، واعتراض علىٰ أمر الله، وهو الذي فيه اللّوم في مثل هـٰذا.

ولهـٰذا جعل الله ـ جل وعلا ـ ذٰلك ظَنَّ سوءٍ به أنه يمكن للمخلوق أن يغيّر ما قدّره الله ـ جل وعلا ـ، وكذٰلك فيه أنهم ظنوا أن هـٰذه الواقعة هي الفيصل التي قضَتْ علىٰ الحق، فلا قيام له بعد هـٰذه الكارثة التي وقعت، وأنه سوف يقضىٰ علىٰ النبي ﷺ، وعلىٰ دعوته، وصحابته، وهـٰذا من أسوأ الظن؛ لأن الله وعد بنصره وتأييده وإظهار ما جاء به، فهو تكذيب لوعد الله، وكذٰلك تصديق لما يزيّنه الشيطان ويعد به.

ومعنىٰ ذٰلك: أن هـٰذا اعتراض علىٰ قدر الله ـ جل وعلا ـ، وعلىٰ حكمه، فمن قال: «لو» معترضاً بها علىٰ أقدار الله، أو يقولها تضجراً وتحزناً لما وقع، فإنه لا يكون موحداً كامل التوحيد، وإن كان جاهلاً في هـٰذا، فإنه يكون ناقص التوحيد، وتوحيده الناقص لا يكفي في نجاته من عذاب الله.

وكذٰلك الآية الأخرىٰ، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران]، هـٰذا كذب علىٰ قدر الله، قالوا: أنهم ما خرجوا إلىٰ هـٰذه الغزوة وجلسوا حيث أمرناهم بالجلوس، وأشرنا عليهم، ما قتلوا، وهـٰذا قد يقع كثيراً من الناس إذا وقع أمر من الأمور، يقول: لو أنه فعل كذا أو فعل كذا ما حصل له كذا، هـٰذا اعتراض علىٰ قدر الله ـ جل وعلا ـ، وتصوّر بأنه يمكن تغييره، وهـٰذا لا يمكن.

الشيء الذي وقع لا يمكن أن يغير، فلو اجتمع من في الأرض علىٰ أن يغيروا ذٰلك؛ فإنهم لا يستطيعون؛ لأن الله قدّره، فلا بد من وقوعه، فمن قال هـٰذا؛ فمعنىٰ هـٰذا أنه لم يتحلَّ بالإيمان بالقدر، ولم يعرف حكم الله في هـٰذا، فيكون إما فاقداً للتوحيد نهائياً، وإما أن يكون قد جاء بما يذهب بكمال

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**احرِصْ علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجِزَنّ، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ ولـٰكن قل:** ....

توحيده الذي يجب أن يأتي به، فيكون معرضاً لعذاب الله، وناقصاً إيمانه وتوحيده.

ثم ذكر الحديث الذي فيه إرشاد الرسول ﷺ إلىٰ طاعة الله ـ جل وعلا ـ في الأمور التي لا بد من وقوعها، فكل الناس معرضون، ولا بد أن يصيبهم ما يصيبهم من كوارث ومن مصائب حتىٰ يموتوا، والموت هو نهاية كل حي ولا بد منه، وأرشد إلىٰ توطئة النفس، وأن يتعلق الإنسان بربه، وأنه إذا أصيب بشيء؛ فإنه لا يأسف ولا يحزن، بل يرجع إلىٰ ربه، ويقول: الحمد لله الذي قدّر عليّ كذا وكذا.

قال: «**في الصحيح عن أبي هريرة** ﷺ»؛ يعني: في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ **قال**: «**احرِصْ علىٰ ما ينفعك**» هـٰذا أمر بالحرص، والحرص هو بذل الجهد والاستطاعة، ولـٰكن قد يبذل الجهد والاستطاعة في شيء لا ينفع، فقال: «**علىٰ ما ينفعك**» فليس كل شيء، بل علىٰ ما ينفع، فإذا وُجد الحرصُ علىٰ الشيء النافع فهو مأمور به؛ فاحرص علىٰ ما ينفعك «**واستعن بالله**»؛ يعني: أن الإنسان لا بد أن يعبد ربه ـ جل وعلا ـ بما يفعله، وما يقوله، وأنه يستعين علىٰ عبادة ربه، وهـٰذا أمرٌ لازم. ولهـٰذا أمرنا بهـٰذا بكل صلاة، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، إن لم يُعِنْكَ ربك علىٰ العبادة وعلىٰ ما تريد: فلن تتحصل علىٰ طائل، بل سوف تتعثر، وتبقىٰ بدون تحصيل ما تريد أو بعض ما تريد، ولهـٰذا **قال**: «**واستعن بالله**».

ثم **قال**: «**ولا تَعْجِزَنّ**»؛ يعني: لا تقعد عن الأمر النافع وتتمنىٰ الأماني الكاذبة، ثم إذا قمت باللازم، وبذلت ما تستطيعه، فحصل لك خلاف ما تقصد؛ فلا تفتح عليك أعمال الشيطان وتقول: «لو أنّي فعلت كذا؛ لكان كذا

قَدَّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[١].

وكذا» ولٰكن قل: «هٰذا قدر الله» والقدر لا يرد، ولا يمكن أن يغيّر.

فقوله: «قدّر الله» معناه الاستسلام لله ـ جل وعلا ـ، وعدم الاعتراض عليه، والإيمان بذٰلك، وأن هٰذا أمر لا بد من حصوله، ولا يمكن تغييره، فهٰذا معنىٰ **قوله:** «يقول: قَدَرُ الله» بالتخفيف، والتشديد «قدّر الله»؛ يعني: هٰذا قدرُ الله الذي قدّره.

والقدر: هو علم الله بالأشياء، وكتابته لعلمه في الأزل، ثم قُدرته علىٰ هٰذا؛ أي: مشيئته لذٰلك، وخلقه له، فهو كله راجع إلىٰ صفات الله ـ جل وعلا ـ.

والإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا به، ولا بد منه، ولهٰذا يقول: «قدّر الله» ثم تفوض إلىٰ ربك: فهو الذي يفعل ما يشاء، ولا يغير العباد شيئاً مما يريده ـ جل وعلا ـ. فهو استسلام لله، وانقياد له، وطاعة وتوحيد له، هٰذا معنىٰ كونه من تفسير التوحيد. أما الاعتراض؛ فهو مضادٌّ لهٰذا.

وقوله: «وما شاء فعل»؛ يعني: أن أفعال الناس وتقديراتهم لا تغير شيئاً مما يريده الله، وإن كانت الأسباب كلها مقدرة، ولٰكن لا يدري الإنسان ماذا يقع، فإذا وقع علم أنه مُقَدَّرٌ أراده الله وشاءه، وأن الأسباب قد لا تكون مؤدية لما رتبت عليها؛ لأن الله هو مسببها.

وقوله: «فإنّ لو تفتح عمل الشيطان» عمل الشيطان هو التأسف، والحزن، والاعتراض علىٰ قدر الله، فلا تقل «لو»، ولٰكن قل ما أرشدك إليه الرسول ﷺ.

وقد يبدو لبعض الناس شيء من الإشكال في هٰذا، ولهٰذا قلنا: إن هٰذا في أمور معينة في الاعتراض علىٰ القدر أو التحزّن والتضجر وعدم الرضىٰ بقدر الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨١٦).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآيتين في آل عمران. **الثانية**: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء. **الثالثة**: تعليل المسألة بأن ذٰلك يفتح عمل الشيطان. **الرابعة**: الإرشاد إلىٰ الكلام الحسن. **الخامسة**: الأمر بالحرص علىٰ ما ينفع مع الاستعانة بالله. **السادسة**: النهي عن ضد ذٰلك وهو العجز.

أما اللوّ التي فيها الحكم الذي يبينه لمن يخاطبه، وما أشبه ذٰلك؛ فلا يدخل في ذٰلك، لقول الرسول ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت؛ لما سقت الهدي وجعلتها عمرة**»[1]، هٰذا بيانُ حُكم أنه هو الذي ينبغي أن يُفعل حتىٰ يكون الإنسان علىٰ بينة من ذٰلك.

وكذٰلك قوله ﷺ: «**لو كنت راجماً أحداً بغير بينة؛ لرجمتها**»[2] يشير إلىٰ امرأة معينة، كذٰلك هو من هٰذا الباب؛ فلا يعارض هٰذا ما جاء من النهي؛ لأن النهي عن الشيء الذي فيه اعتراض علىٰ القدر، وعدم الرضا به أو الاعتقاد بأنه يمكن أن يغيّر الواقع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٦٦٩٧)، ومسلم (٢٧٥١)، واللفظ له من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

باب
النهي عن سب الريح

....

هٰذا نوع من الأنواع التي نُهي الإنسان أن يدخل فيها مثل ما مضىٰ بسبّ الدهر، والدهر سبق أنه الليل والنهار الذي سخّره الله ـ جل وعلا ـ، والريح كذٰلك مثله مسخرة مدبرة مخلوقة تسير بأمر ربها.

والمعنىٰ أن الذي يسبّ الصنعة يعود إلىٰ صانعها؛ لأنه لا تدبير لها، ولا اختيار لها، وإنما هي مدبرة مقهورة، سائرة بأمر من سخرها مطيعة، فتوجيه اللّوم إليها أو السب لها جهل محض، ويدل علىٰ أنّ الإنسان ما قام بالتوحيد الذي يجب عليه.

والتوحيد إن لم يكن عن معرفة وعلم؛ فهو لا يفيد ولا ينفع، فلهٰذا ذكر النهي عن سب الريح؛ لأن الرسول ﷺ نهىٰ عن ذٰلك، وأرشد إلىٰ الأمر الذي ينبغي أن يفعل إذا صار فيها شيء من العذاب؛ لأن العذاب الذي تأتي به الرياح أو الأمطار أو غيرها لا يجوز أن نقول: «إنها كوارث طبيعية» كما يقوله من لا خلاق له، ومن لا معرفة له في دين الله ـ جل وعلا ـ، بل يجب أن يعلم الإنسان أن هٰذه جند من جنود الله، جعلها عقاباً لمن لم يقم بأمر الله ـ جل وعلا ـ، والعقاب إذا جاء يعم الصالح والفاسد.

كما جاءت النصوص في هٰذا، فإذا جاء شيء من ذٰلك؛ فإنه يجب أن يتجه الإنسان إلىٰ ربه، ويعلم أنه ما أصابه شيء إلا بذنبه، فيعود إلىٰ التوبة والرجوع إلىٰ الله.

والمقصود من إرسال مثل هٰذه الأشياء هو إرجاع العباد وتذكيرهم وتخويفهم وتأديبهم، فالله يؤدبهم لعلهم يرعووا، فإذا وجّهوا اللّوم إلىٰ نفس الذي أرسله الله إليهم؛ صار هٰذا موجباً للعذاب، وموجباً لسخط الله ـ جل وعلا ـ.

عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون؛ فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هٰذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هٰذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به**» صححه الترمذي(١).

وقوله: «**لا تسبوا الريح**»؛ يعني: إذا رأيتم فيها شيئاً تكرهونه، أو شيئاً لا يُلائمكم؛ فالجؤوا إلىٰ من دبرها وأمرها.

لهٰذا قال: «**فإذا رأيتم ما تكرهون**»؛ يعني: فيها أو منها، فاسألوا الله، وقولوا: «**اللهم إنا نسألك من خير هٰذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به**» ولهٰذا كان الرسول ﷺ إذا رأىٰ شيئاً من ذٰلك تغير وجهه، ولجأ إلىٰ ربه ـ جل وعلا ـ خوفاً من أن يكون عذاباً أرسله الله لإهلاك الناس؛ لأن الناس لا يقومون بما يجب لله ـ جل وعلا ـ، وقد يأخذهم الله ـ جل وعلا ـ، كما ذكر لنا عن قوم هود أنهم لما رأوا الريح مقبلة؛ ظنوها سحاباً، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، العارض هو السحاب الذي يأتي بالمطر، فقيل لهم: هٰذه ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف] ليس بها خير يهطل، بل عذاب يقتل بأمر ربها، فصارت تحمل الإنسان، ثم تنكّسه علىٰ رأسه، وتلقيه ميتاً، فأصبحوا هامدين، لا يرىٰ إلا بيوتهم فقط.

وهٰكذا لكي يُخشىٰ أنها إذا جاءت الرياح تكون لهٰذا، والأمر ليس بعيداً، فقد حدث هٰذه السنة شيء من ذٰلك، وأرسل الله شيئاً تذكيراً لعباده، ولٰكن مع الأسف أنه يكتب في صحفنا ونسمع من يتكلم في بعض الإذاعات أن هٰذه كوارث طبيعية!! حتىٰ لا يرجع الناس إلىٰ ربهم ويلجؤوا إليه، ويعلموا أن هٰذا شيء أرسله الله، فليس مع الله مدبر، لا طبيعة، ولا غيرها،

---

(١) «جامع الترمذي» (٢١٧٨).

....

ثم الطبيعة ما هي؟ هناك طبيعة تدبر؟ وترسل؟ وتمنع؟ الطبيعة إما اليبوسة، أو الرطوبة، أو الماء، أو التراب، أو غير ذلك، فهٰذا شيء لا أثر له أصلاً في إرسال شيء.

كذٰلك إذا عاب الإنسان صنعة من الصنعات، كأن يعمل إنسان شيئاً من الأشياء، إما بناء، أو تصليح باب، أو سيارة، يأتي ثم من يسب هٰذا الشيء!

كل عاقل يقول: هٰذا مجنون، هٰذه تُسب!! ما دخل هٰذه؟! وكمن يعيب مخلوقاً، فيقول له: «أنت وجهك قبيح، وأنت كذا وكذا» أنا ما دخلي في وجهي، أنت تسبّ الذي خلقني، فسبّ مثل هٰذا يعود إلىٰ الله، يعود إلىٰ الصانع، ولا يعود إلىٰ نفس الذي يُسبّ.

ولٰكن هٰذا إذا فعل فعلاً باختياره يلام عليه أو يمدح، إذا كان الفعل حسناً يثنىٰ عليه بذٰلك، وكذٰلك إذا كان سيئاً يحاسب علىٰ الفعل، وليس علىٰ كونه علىٰ هٰذه الصفة في بدنه أو خلقه، فالخلق لله - جل وعلا -، فهٰذا الذي أراد أن يكون الإنسان عالماً بهٰذه الأشياء متأدباً مع ربه - جل وعلا -، وأنه لا يصيبه شيء إلا بذنبه، فإذا أرسل إليه شيئاً من الأمور التي يرسلها الله - جل وعلا - كمطر، أو مرض، أو إدالة عدو، أو ريح، أو ما أشبه ذٰلك، يعلم أن هٰذا بسبب ذنبه، وأن هٰذا عقاب له معجل، فيجب أن يتوب ويرجع إلىٰ ربه - جل وعلا -، ويسأله العفو حتىٰ يتاب عليه، ويكون بذٰلك قد عرف حق الله، وقام بشيء منه؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يقوم بحق الله كاملاً، ولٰكن بالاعتراف والإقرار بالإساءة يعفو الله - جل وعلا -.

ولهٰذا يقول ﷺ: «**سيد الاستغفار: أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر**

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٣٥)، وأبو داود (٤٤٠٨).

فيه مسائل:

الأولىٰ: النهي عن سب الريح. **الثانية**: الإرشاد إلىٰ الكلام النافع إذا رأىٰ الإنسان ما يكره. **الثالثة**: الإرشاد إلىٰ أنها مأمورة. **الرابعة**: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

الذنوب إلا أنت»(١).

وقوله: «أعوذ بك من شر ما صنعت»؛ يعني: من أفعالي التي أفعلها، وقوله: **«أبوء لك»**؛ يعني: أعترف وأقر، **«أبوء لك بنعمتك»**؛ يعني: أقر بنعمك التي أنعمت بها عليّ، وأعترف بها.

وقوله: «وأبوء بذنبي»؛ يعني: أعترف بذنوبي أني مقصر مستحق للعقاب، فأسألك العفو، فإذا أقر الإنسان بالإساءة، وطلب ربه الاستعتاب؛ فإن الله يُعتبه، ويتوب عليه، ويعفو عنه، هٰذا الواجب الذي يفعله الإنسان، كذٰلك إذا رأىٰ الأمور التي فيها عذاب، أو فيها شيء من العذاب، يكون هٰذا شأنه.

المقصود بهٰذا الباب: أن يكون العبد علىٰ علم بأمر الله ـ جل وعلا ـ قائماً به أو ببعضه، ويرجو من ربه العفو عن التقصير، ويشبه هٰذا الباب ما يأتي بعده.

باب

قول الله تعالىٰ:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

في هٰذا الباب ذكر أنه يجب أن يظن بالله ظن الحق الذي يليق بعظمته وكرمه، ويقدر حق قدره، وأن العبد إذا ظن خلاف ذٰلك؛ فإنه قد أساء وظلم، وأنه يكون بذٰلك غير عارف بالله، وغير قائم بحقه، فلا يكون قد حقق التوحيد أو قام بما يجب عليه، ويكون متعرضاً لعقاب الله ـ جل وعلا ـ بتقصيره، بل لظلمه وإساءته.

قال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ هٰذا كما في الآية التي سبق ذكرها؛ يعني: في قصة أحد ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ يعني: النعاس الذي يصيب المسلم في الجهاد دليل علىٰ النصر وعلىٰ الطمأنينة وعلىٰ الإيمان، بخلاف الهم والخوف والهلع، فإن هٰذا يكون للمنافقين، ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ يعني: لا يتطرق إليهم نعاس، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ فالظن غير الحق فُسِّر بتفسيرين:

أحدهما: أن هٰذا الذي وقع لم يكن بقدر مقدر وعلم سابق لله ـ جل وعلا ـ.

الثاني: أن هٰذا الذي وقع دليل علىٰ أن أمر الرسول ﷺ سيضمحل، وينتهي، وأن الله لا ينصره، ولا يُظهر أمره، فإنه سوف يُقضىٰ عليه. وكلا الأمرين داخل في الآية، وكلاهما يدل علىٰ الجهل بالله، وعلىٰ أن الذي يقع له واحد منهما لم يقم بأمر الله، ولم يأتِ بالتوحيد الذي ينجو به من عذاب الله.

قال ابن القيم: «في الآية الأولىٰ: فُسّر هٰذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يُظهره الله علىٰ الدين كله.

وهٰذا هو الظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هٰذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل علىٰ الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر

ويتبع هٰذا أمور كثيرة؛ لأن الواجب علىٰ العبد أن يعرف قدر الله، وأن يقدره حق قدره، فالذي مثلاً لا يقوم بأمر الله، ويتساهل به، لم يظن بالله الظن الذي يجب له ﷻ.

وكذٰلك الذي يمتهن كتاب الله، أو يستهين به، أو يذكر الله في الأماكن القذرة، وما أشبه ذٰلك، فهٰذا أيضاً عنده الظن السيئ؛ لأنه لم يقدر الله حق قدره، وهٰذا أمر كثير جداً يعود إلىٰ ما يقوم بالقلب من أفعال أو علوم ينطوي عليها قلبه، فإذا كانت علىٰ خلاف ما أمر الله ـ جل وعلا ـ به، وما وجب لله؛ فهو داخل في هٰذا، سواء تعلق ذٰلك بما قدره ـ جل وعلا ـ، وما سبق علمه به، أو تعلق بشرعه وأمره ونهيه الذي ينهىٰ به، فمخالفة الأمر من هٰذا، وارتكاب النهي من هٰذا، يدلك علىٰ أن هٰذا أمر كثير وقوعه من الناس.

ولهٰذا ذكر ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» الذي نقل منه المؤلف، ذكر أشياء تتعلق بهٰذه الآية كثيرة، وفي النهاية قال: إن هٰذا الأمر لا يتخلص منه إلا أهل العلم والمعرفة الذين قاموا بهٰذا الجانب بما يلزم، وإلا فالتقصير واقع من أكثر الناس في هٰذا الأمر.

أن يكون ما جرىٰ بقضائه وقدره أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذٰلك لمشيئة مجردة، فذٰلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذٰلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاتِه وموجَبَ حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهٰذا، وليتب إلىٰ الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً علىٰ القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلّ ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا(١)

لهٰذا قال: «وفتش نفسك: هل أنت سالم؟ فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة، وإلا فإني لا إخالك ناجيا»؛ لأن مثل هٰذا أكثر الناس لا يسلم منه، تجده إما يعترض علىٰ أقدار الله، أو أنه يظن أن قدر الله يمكن أن يتغير، أو تجده يظن أن دين الله ـ جل وعلا ـ يمكن أن ينتهي، وأنه ممكن أن يقضىٰ عليه، كما إذا حصل للكفار إدالة ونصر، أيس وظن أن دين الله لا يقوم له قائمة وسوف يقضىٰ علىٰ دين الله ـ جل وعلا ـ.

والله أخبر أنه سينصر دينه، ويعلي كلمته، ولٰكن الله عليم حكيم، جعل للناس سنناً يسلكونها، ويعملونها بأفعالهم واختياراتهم، حتىٰ يتبين من ينصر الله ودينه، ومن يقوم بأمره ممن يتقاعس عن ذٰلك، ويلجأ إلىٰ الأمر الذي قد يناسبه من حب الدنيا وإيثارها أو غير ذٰلك من الأمور؛ لأن الله لا يأخذ إلا بالأمور الظاهرة.

---

(١) «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٠٤).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية آل عمران. **الثانية**: تفسير آية الفتح. **الثالثة**: الإخبار بأن ذٰلك أنواع لا تحصر. **الرابعة**: أنه لا يسلم من ذٰلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

وعلىٰ كل حال: هٰذا أمر عام فيما يفعله الناس أو يتركونه، يجب أن يكون ذٰلك عن علم، ويكون عن تعظيم، إذا فعل تعظيماً لأمر الله، وتقديراً له، وخوفاً من مراقبته ومشاهدته، فيجب أن يعلم أنه يراقبه في كل لحظة، في كل شيء، وأنه لا يخفىٰ عليه، فمن ظن أن الله لا يعلم ما فعل، وأنه ممكن أن يفعل شيئاً يخفىٰ علىٰ الله، فهٰذا من أسوأ الظن وأعظمه بالله ﷻ.

وكذٰلك إذا استهان بنظر الله وصار الناس أعظمَ عنده من الله ﷻ؛ يستخفي منهم، ولا يستخفي من ربه ـ جل وعلا ـ، فإذا عمل الأعمال التي يبارز بها رب العالمين، فهل مثل هٰذا يظن بالله الظن الحسن، فهٰذا ظن سوء.

فالمقصود أن هٰذا باب واسع، فيجب علىٰ الإنسان أن يراقب نفسه، ويراقب أعماله، ويخاف من ربه ـ جل وعلا ـ، ويكون علىٰ قدر من تعظيم الله ـ جل وعلا ـ، وتقديره، ومراقبته، فإذا قام بذٰلك؛ فإنه بهٰذه الصفة يكون قد قام بما يلزمه من التوحيد، وإلا يكون عكس ذٰلك؛ إما ذاهب لتوحيده أو ذهب كماله الذي يحصل به النجاة من عذاب الله ﷻ.

قوله: «**إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه**» يعني: معاني الأسماء والصفات، وقام بمقتضاها هٰذا الذي يسلم، وإلا فلا بد أن يقع في المخالفات، وفي الأمر الذي يغضب الله ـ جل وعلا ـ في هٰذا الباب وغيره.

باب
ما جاء في منكري القدر

....

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة، فلا يكون العبد مؤمناً بدون ذٰلك، ولهٰذا قال: «**باب ما جاء في منكري القدر**»؛ يعني: أنه غير مؤمن، وأنه واقع في عذاب الله ـ جل وعلا ـ، بل يكون كافراً نسأل الله العافية. فبهٰذا يتبين وجه إدخال هٰذا الباب في «كتاب التوحيد» أن من لم يؤمن بالقدر فهو غير موحد، وأنه مناقض للتوحيد. ثم القدر مأخوذ من قدرة الله وتقديره.

والقدر عبارة عن علم الله للأشياء بعلمه الأزلي، وأنه لا يقع شيء إلا بعلمه، فعَلِمها قبل وجودها، ثم كتب علمه في كتاب عنده كما جاء فيما سبق ذكره.

كما في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: «**إن الله قدّر ـ أو كتب الله ـ مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء**»[1] وهٰذه الكتابة لا يخرج منها شيء، حتىٰ نبض العروق التي في بدن الإنسان وتحركها، كلها مكتوبة، فكل حركة وسكون مكتوب في ذٰلك الكتاب؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ هو الخالق للأشياء كلها، وقد بين لنا بقوله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك] وهو عليم بخلقه، فهٰذه الكتابة من القدر.

والقدر له درجات يجب أن يؤمن بها العبد، فإذا آمن بدرجات القدر؛ فقد آمن به، وهي:

الأولىٰ: الإيمان بعلم الله الشامل الذي لا يفوته شيء، فهو عليم بكل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فكل موجود بل وكل معدوم يعلم أنه لو

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩٧).

....

وجد؛ لكان كذا وكذا، ويعلم ﷻ أنه لا يوجد، فلهٰذا قال: علم الله بكل شيء.

الثانية: الكتابة؛ أي كتابة علم الله ﷻ، فكل شيء مكتوب باللّوح المحفوظ.

الثالثة: المشيئة الشاملة العامة، فما شاء وجد، وما لم يشأ لا يوجد، ومشيئة الخلق وإرادتهم تابعة لمشيئة الله، لا تقع إلا إذا شاء الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [التكوير: ٢٩].

الرابعة: الخلق، فالله هو الخالق وحده، وما سواه مخلوق.

فهٰذه درجات القدر التي يجب أن يؤمن بها العبد، فإذا علمها وتحققها وآمن بها؛ فقد آمن بالقدر. وقد أخل كثير من الناس ببعض هٰذه الدرجات، كالقدرية والمعتزلة الذين يُخرجون من خلق الله بعض الأشياء، وكذا يخرجون من مشيئته بعض الأشياء لأمور تعرض لهم وشُبه، وهم يتبعون الآراء التي يسمونها العقول، ولا ينظرون إلىٰ كتاب الله ﷻ، ولا يكون هو الهادي لهم والمرجوعَ إليه.

ولهٰذا ضلّوا، فقالوا: إن العبد هو الذي يشاء الإيمان، ويشاء الكفر، إن الله ما شاء له أن يكفر، بل هو الذي شاء؛ أي: أن مشيئة الكافر ومشيئة العاصي هي التي وقعت، والله ما شاء من الكافر والعاصي وقوع ذٰلك منهما، فمعنىٰ ذٰلك أن الله معه مدبرون كثير.

ولهٰذا صاروا بهٰذا مشركين بالربوبية، وقالوا: كذٰلك الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، وليس الله يخلق أفعال الإنسان، وهو من الأمور التي عرضت لهم؛ لأنهم قالوا: لو أن الله شاء من العاصي أنه يعصي، ثم عذبه علىٰ الكفر؛ لكان ظلماً، فيقال لهم: هل يقع في الكون شيء لا يشاؤه الله؟ معنىٰ ذٰلك أن مع الله خالِقينَ.

فإن قالوا: لماذا لم يشأ منهم الإيمان كلهم؟ فيقال: إن الله ـ جل وعلا ـ

....

أعطاهم عقولاً، وأعطاهم أفكاراً، وحدد لهم ما يكون فيه نجاتهم، يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويصومون رمضان، ويحجون البيت، فأمر بما يستطيعه كل أحد، فإذا لم يفعل ذٰلك؛ لم يتابع الرسول؛ فدل علىٰ أنه ترك هٰذا باختياره الذي هو بتقدير الله، ولٰكن الأمر إليه، بدليل أن غيره من المؤمنين فعل مثل هٰذه الأشياء، وهو تركه محجماً باختياره، فاستحق العذاب، ولهٰذا يقر بأنه هو المسيء، وهو الظالم، فليس في هٰذا ظلم.

أما إذا قال: لماذا ما هداه؟

نقول: هٰذا فضل الله، وهل يجب علىٰ الله أن يتفضل علىٰ كل أحد؟ لا يجب بل الله ـ جل وعلا ـ له الحكم، وله الأمر، يتفضل علىٰ من يشاء، ويمنع فضله من يشاء، وليس هٰذا ظلماً.

ولهٰذا لما قابل أحدُ أهل السنة أحدَ كبار القدرية المعتزلة في مجلس كبير جمع أهل الأدب، وأهل العلم، وأهل الأمر والنهي من الوزراء، وغيرهم في مجلس كبير؛ قال أحد كبار المعتزلة وكان صديقاً لبعض الأمراء وبعض الوزراء، لما دخل أبو إسحاق الاسفراييني علىٰ هٰذا المجلس، وفيه عبد الجبار المعتزلي، وهو رأس من رؤساء المعتزلة.

قال لما دخل: سبحان من تنزه عن الفحشاء.

فَهِمَ أبو إسحاق المقصود، وأنه يقول: أنتم أهل السنة تقولون: إن الله قدّر علىٰ الكافر والعاصي أن يكفر ويعصي، وهٰذا فحشاء، كيف يقدّر الله عليهم ثم يعاقبهم؟

فقال أبو إسحاق مجيباً له: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء؛ يعني: أنت أيها المعتزلي القدري تقول: إنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه الله، وهٰذا تنقص لله ـ جل وعلا ـ.

فقال له القدري: أيريد ربنا أن يعصىٰ؟

وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثلُ أُحُدٍ ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله، ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر، ....

فقال له: أيعصىٰ ربنا قسراً؛ يعني: يُعصىٰ وهو لا يريد؟

فقال له: أرأيت إن حكم عليّ بالردىٰ؛ أأحسن إلي أم أساء.

فقال: إن كان منعك حقك؛ فقد أساء، وإن كان منعك فضله؛ فهو يؤتي فضله من يشاء. فكأنما ألقم حجراً، فهٰكذا الباطل، يضمحل وينتهي.

والمقصود أن الله هو المالك لكل شيء، وهو المتصرف بكل شيء، فإذا تفضل علىٰ عبده وهداه؛ فهٰذا فضله. وإن تركه واختياره وقدرته فلا يستطيع أنه يعمل شيئاً، وليس هٰذا ظلماً.

فهٰذه من المشكلات التي عرضت لهٰؤلاء، ولهٰذا خالفوا الأمر الحق، ووقعوا في الشرك، فجعلوا مع الله خالقين، فصاروا مشابهين للمجوس الذين يقولون: إن للكون خالقَيْنِ: خالق الخير، وخالق الشر، ويجعلون النار هي مصدر النور الذي يكون خيراً، والظلمة هي مصدر الشر الذي يكون شراً، كل هٰذا هراء وجهل، ومخالفة لما فطر الرب ـ جل وعلا ـ عليه الناس.

وأما قول ابن عمر ﵄: فهو جزء من حديث رواه مسلم في «صحيحه»، وإذا ذكر من أوله تبين المعنىٰ واضحاً، وأوله عن يحيىٰ بن يَعْمَرَ قال: حججتُ أنا وحُميدٌ الحميري، فذهبنا إلىٰ المدينة، وقلنا: لعل الله يوفق لنا رجلاً من صحابة الرسول ﷺ، فوُفِّقَ لنا عبد الله بن عمر خارجاً من بيته ذاهباً إلىٰ المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، وظننت أن صاحبي يَكِلُ الكلام إلي، فقلت: يا أبا عبد الرحمٰن إنه خرج مِنْ قِبَلِنا أناس يتعبدون ويتقفرون العلم، ويقولون: الأمر أُنُفٌ.

فقال ابن عمر: «إذا لَقيتَ أولٰئك؛ فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برءاء»، ثم قال: «والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثلَ أُحُدٍ

ثم استَدَلَّ بقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» رواه مسلم(١).

ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله؛ لم يقبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر خيره وشره»، ثم قال: «حدثني عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان في مجلس عند النبي ﷺ، فطلع عليهم رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر».

ثم ذكر الحديث المشهور حديث جبريل، وفيه السؤال عن الإيمان، فقال: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، وباليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» فاستدل علىٰ أن هٰذا أمر لازم، وأن من لم يؤمن به فإن الله يُحرقه بالنار، وأنه ليس بمسلم فضلاً عن أن يكون قام بالتوحيد.

فمعناه أن من أنكر القدر يكون كافراً، فهو أتىٰ بما يناقض التوحيد، وبهٰذا يتبين أن من أنكر ركناً من أركان الإيمان، أو ركناً من أركان الإسلام، فإنه غير موحد.

وقوله: «الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشره»، خير القدر؛ يعني: بالنسبة للمخلوق الذي فيه نِعَمٌ وأمور يلتذ بها، وينعم بها، فيكون خيراً بالنسبة إليه. والأمور التي فيها ألم من مرض، أو موت، أو إدالة عدو، أو فقر، أو ما أشبه ذٰلك؛ يكون شراً بالنسبة إليه، ولٰكنه مقدّر بتقدير الله، ولا يصيب الإنسان شيئاً إلا بذنبه.

وسبق أن إصابة الإنسان بشيء من هٰذه الأمور؛ فإنها رحمة من الله - جل وعلا -؛ لأن هٰذا فيه تكفيرٌ لسيئاته قبل أن يأتي بها كاملة يوم القيامة، فإذا أتىٰ بها كاملة يكون أشد عذاباً؛ لأن عذاب الدنيا أسهل من عذاب الآخرة، وينقطع وينتهي، ولا حيلة في ردّها، فإذا رضي بذٰلك وسلّم، وعلم أن هٰذا مما كسبت يده؛ صار هٰذا إما تكفيراً لسيئاته، وإما رفعة لدرجاته، ولٰكن لا بد من الإيمان بالقدر.

---

(١) «صحيح مسلم» (٩).

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة»**، يا بني سمعت رسول الله يقول: **«من مات علىٰ غير هٰذا فليس مني»**[(١)].

ثم ذكر حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وفيه **«حتىٰ تعلم أن ما أصابك: لم يكن ليخطئك، وما أخطأك: لم يكن ليصيبك»**؛ يعني: أن كل حادثة حدثت في الدنيا فهي بتقدير الله، سواء كان خيراً للإنسان أو شراً له، فلا بد أن يؤمن ويسلم، ويعلم أن هٰذا حقٌّ قدره الله ـ جل وعلا ـ وقضاه، وشاءه وخلقه، فإذا لم يكن علىٰ هٰذه الصفة؛ فإنه لم يؤمن؛ لأنه ترك ركناً من أركان الإيمان، ومن ترك ركناً من أركان الإيمان؛ فليس بمؤمن، ولا يكون موحداً، بل يكون كافراً بالله ـ جل وعلا ـ.

ثم قال: **«سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب»** القلم من المخلوقات، فلما خلقه الله أمره بالكتابة، فجرىٰ بمشيئة الله تعالىٰ.

وهٰذا الحديث لا يخالف حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الحديث الذي في «صحيح مسلم»، وقد توهم بعضهم أن القلم هو أول المخلوقات، وأن المراد في هٰذا الإخبار بأنه أول المخلوقات، وليس كذٰلك؛ بدليل ما ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله كتب مقادير الأشياء قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء»**[(٢)]، فقوله: **«وكان عرشه علىٰ الماء»** جملة حالية؛ يعني: وقت ما قدر المقادير كان العرش

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٤٧).

(٢) تقدم تخريجه ص٤٧١.

. . . .

علىٰ الماء، فهٰذا واضح بأن العرش والماء موجودان قبل خلق القلم، فلا يكون قوله: «**أول ما خلق الله القلم**» إخبار بأن القلم هو أول المخلوقات، وهٰذا واضح لمن تأمله، فإذاً لا بد أن يكون هٰذا الحديث موافقاً لحديث عبد الله بن عمرو؛ لأن أحاديث الرسول لا تتضارب، ولا تختلف.

فنقول: المقصود بقوله: «**إن أول ما خلق الله القلم قال له**»؛ يعني: أمره بالكتابة بدون فاصل بعد الخلق مباشرة «**قال له: اكتب**» فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن، فيكون الإخبار بأنه أمر بالكتابة بعد وجوده مباشرة بدون فاصل، ولا يكون المقصود الإخبار بأنه أول المخلوقات، وبذٰلك تتفق الأحاديث وتستقيم، ولا يكون في ذٰلك إشكال.

وهٰذا يجب أن يكون علىٰ ظاهره، فالله خاطب القلم خطاباً حقيقياً يتكلم به ويسمع، وأن القلم أجاب حقيقة، وقال: «**ماذا أكتب يا ربي**»؛ لأن هٰذا هو الظاهر الذي يجب أن نؤمن به.

فقال الله له: «**اكتب مقادير الأشياء**» هل القلم يعلم مقادير الأشياء؟ لا، أبداً، ولٰكن الله أجراه بقدرته بكل ما سيكون إلىٰ يوم القيامة.

ولهٰذا جاء في الحديث: «**إن الله كتب**»[1] فأضاف الكتابة إليه، وليس إلىٰ القلم، ولٰكن معناه أنها كُتبت بالقلم، والقلم هٰذا لا نعرفه، ولا ندري ما حقيقته، والله أعلم به، ولٰكن نعلم أنه آلة الكتابة التي يكتب بها، وليس القلم الذي نتعارف عليه ونكتب به.

فالواجب علينا الإيمان بما أخبر الله ـ جل وعلا ـ به، وأخبر به رسوله ﷺ، ولو لم نعلم حقيقة الشيء؛ لأنه لا تدركه العقول، وإنما نؤمن بأن الله قال: «**اكتب**» فكتب القلم حقيقة، وجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة كما أخبر الرسول ﷺ بذٰلك، فهٰذا الواجب الذي يجب علينا،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩٧).

وفي رواية لأحمد: «**إن أول ما خلق الله تعالىٰ القلم، فقال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»(١).

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره؛ أحرقه الله بالنار**»(٢).

وفي «المسند»(٣) و«السنن»(٤) عن ابن الديلمي قال: أتيت

ومن خالف هٰذا؛ فإنه لم يقم بالتوحيد الواجب عليه، بل أخلّ به، فإما أن يكون ذاهباً بالكلية، وإما أن يكون فاسقاً.

وقوله: «وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم: فقال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن»» المقصود بذكرها أن الرواية الأولىٰ قال: «إن أول ما خلق الله القلم؛ فقال له: اكتب. فقال: يا رب وماذا أكتب» وفي رواية يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب، فجرىٰ**» كلها يفسر بعضها بعضاً، ولا تعارض بينها.

وقوله: «وفي رواية لابن وهب»؛ يعني: هٰذا حديث آخر يدل علىٰ لزوم الإيمان بالقدر: «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار**»؛ يعني: لا يكون مؤمناً.

قوله: «وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي» هٰذا كلام الصحابة واتفاقهم بأنه يجب الإيمان بالقدر خيره وشره، ومن لم يفعل ذٰلك؛ فإنه يكون كافراً، وهٰذا معناه اتفاق الصحابة علىٰ هٰذا، فيكون أمراً مجمعاً عليه، فلا بد من الإيمان بالقدر، وأن من لم يؤمن بالقدر فلا يكون مؤمناً، ولا موحداً، وهٰذا لا خلاف فيه، ولهٰذا اتفقوا علىٰ كفر من أنكر العلم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٤٩)، وبنحوه أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (٣٢٤١).
(٢) أخرجه ابن وهب في «القدر» (١٧).
(٣) «مسند أحمد» (٢١٥٨٩).
(٤) «سنن أبي داود» (٤٠٧٧)، «سنن ابن ماجه» (٧٤).

أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: «**لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت علىٰ غير هـٰذا لـٰكنت من أهل النار**». قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذٰلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه.

فيه مسائل:

الأولىٰ: بيان فرض الإيمان بالقدر. **الثانية**: بيان كيفية الإيمان

لهـٰذا قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ناظِروا هـٰؤلاء القدرية بالعلم»؛ يعني: بعلم الله «فإن أقروا به؛ خُصموا، وإن أنكروه كفروا» وكان أول ما خرج من القدرية ينكرونه كما قال يحيىٰ بن يعمَرَ، يقولون: «إن الأمر أُنُف»، ثم لما علموا أن هـٰذا كفر، اتفق الصحابة علىٰ أنه كفر؛ رجعوا عن ذٰلك، فصاروا ينكرون عموم المشيئة، وعموم الخلق، وهـٰذا باقٍ إلىٰ اليوم، كثير منهم ينكر أن تكون مشيئة الله عامة وشاملة لكل شيء، بل يقولون: في بعض الأشياء يشاء الإنسان ولا يشاء الله، تعالىٰ الله وتقدس عن قولهم.

ويقولون أيضاً: إن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، والله لا يخلقها. وهـٰذا أيضاً لعدم إيمانهم بعموم خلق الله. وهـٰذا إخلال بالإيمان بالقدر، ولـٰكن هل يكون هـٰذا كافراً؟

نقول: هـٰذا إذا عرف وعلم ذٰلك فإنه يكون كافراً. أما إذا قامت عنده الشبهة؛ فلا يكفر حتىٰ تزول الشبهة، ويعلم أن هـٰذا خروج عما أوجب الله ـ جل وعلا ـ، وأنه تكذيب لما في القرآن.

وفيه أن الرجوع فيما يشكل إلىٰ ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

به. **الثالثة**: إحباط عمل من لم يؤمن به. **الرابعة**: الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتىٰ يؤمن به. **الخامسة**: ذكر أول ما خلق الله. **السادسة**: أنه جرىٰ بالمقادير في تلك الساعة إلىٰ قيام الساعة. **السابعة**: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به. **الثامنة**: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء. **التاسعة**: أن العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة، وذٰلك أنهم نسبوا الكلام إلىٰ رسول الله ﷺ فقط.

باب
ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالىٰ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، ....**

قال رحمه الله تعالىٰ: **«باب ما جاء في المصورين»**؛ يعني: من الوعيد، وسبب إيراده لهٰذا الباب في «كتاب التوحيد» علىٰ ما مضىٰ يقصد أن يفسر كلمة الإخلاص «لا إلـٰه إلا الله» التي هي التوحيد، وتقدم أن تحقيق التوحيد إخلاصه بتصفيته وتخليصه من شوائب الشرك، ومن البدع، ومن المعاصي التي يفعلها الإنسان، وإلا يكون توحيده ناقصاً؛ لأنه لا يمكن أن يستوي العاصي مع المطيع.

والأساس في الأمر وفي الثواب هو التوحيد، فمن كان توحيده سالماً نقياً خالصاً؛ كان أرفع درجةً، وكان سالماً من العذاب في الدنيا والآخرة، هٰذا هو وجه إدخال هٰذا الباب في «كتاب التوحيد».

ثم ذكر بعض ما جاء في وعيد المصورين **فقال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ»** هٰذا هو الحديث القدسي، وهو ما أضيف إلىٰ الله قولاً ومعنىً، هٰذا هو الصحيح في تعريف الحديث القدسي.

أما الحديث الذي يحدث به الرسول ﷺ فهو من الله معنىً، والرسول هو الذي يعبر عنه بلفظه، فيفارقه بذٰلك.

ولٰكن قد يقال: ما الفرق إذاً بين الحديث القدسي، وبين القرآن؟

نقول: الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، ولا يتحدىٰ به، ولا يلزم له ما يلزم للقرآن، أن يتطهر له، إلىٰ غير ذٰلك من الفروق.

ثم قوله ـ جل وعلا ـ في هٰذا: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»** من

فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة» أخرجاه[١].

المعلوم أن الخلق من خصائص الله ـ جل وعلا ـ، والخلق هو إيجاد المعدوم، يوجده من العدم، فهٰذا لا أحد يشارك الله فيه، ولٰكن قد يتشبه المخلوق بالله في شيء من ذٰلك، فيكون ظالماً؛ لتشبهه بالله ـ جل وعلا ـ، وهٰذا الذي يطلق عليه أنه يخلق كخلق الله؛ يعني: في الصورة فقط، وليس في المعنىٰ، المعنىٰ لا يمكن أحداً أن يخلق كخلق الله ـ جل وعلا ـ، ولٰكن في المضاهاة؛ يعني: كأنه في فعله هٰذا يضاهي الله؛ يعني: يتشبه بالله، والله ـ جل وعلا ـ لا يشبهه شيء، لا في الذات، ولا في الصفات، ولا في الفعل، وهٰذا يكون بالفعل، لهٰذا قال: «**يخلق كخلقي**».

ثم جاء التحدي «**فليخلقوا ذرّة**» الذرّة هي أصغر المخلوقات، فيقول ـ جل وعلا ـ ليجتمعوا علىٰ خلق الذرّة، فلن يستطيعوا، فالخلق من خصائص الله، وهٰكذا كل ما كان من خصائص الله؛ فلا يجوز لمخلوق أن يجعل نفسه فاعلاً لذٰلك الشيء، ولو بالصورة؛ فإن جعل نفسه فاعلاً؛ صار متشبهاً بالله، وهو معنىٰ المضاهاة.

فالمحذور هنا؛ لأن المخلوق ضعيف مسكين لا يستطيع أن يوجد لنفسه نفعاً أو ضراً، فكيف يضاهي الله ـ جل وعلا ـ في الإيجاد والخلق من العدم.

ثم قال: «**أم ليخلقوا حبة**» الحبة ليس فيها حياة كحياة الذرّة التي تذهب وتأتي وتتمتع فيما جعل الله لها، وإن كانت الحبة فيها حياة من نبات؛ فهٰذه الحياة التي تكون فيها النبات هي التي تُعجز الخلق أن يخلقوا شيئاً منه.

ثم قال: «**أو ليخلقوا شعيرة**» الشعيرة أدنىٰ قيمة من الحبة، وهي حبة الحنطة ونحوها، فهٰذا تعجيز لهم، وأنهم أوقعوا أنفسهم في شيء ليسوا أهلاً له، فاستحقوا بذٰلك العذاب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٠٠٤)، «صحيح مسلم» (٣٩٤٧).

ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»**[(١)].

وقوله ﷺ: «**أشد الناس عذاباً**» يحتاج إلىٰ كلام عليه؛ لأن هٰؤلاء قد يكونوا مسلمين، فكيف يكونون أشد الناس؟ فلا بد من تأويله حتىٰ يتفق مع النصوص الأخرىٰ؟

والتأويل لا يكون بالتشهي حتىٰ يتفق مع مذهب الطائفة الفلانية، أو غيرها، التأويل يجب أن يتفق مع النصوص التي جاءت في الكتاب والسُّنَّة.

ومن النصوص التي جاءت بأن طغاة الكفار هم أشد الناس عذاباً، وهٰؤلاء ليسوا كفاراً، فكيف يقال: «**أشد الناس عذاباً**»؟ فللعلماء فيه قولان:

القول الأول: وهو قول أئمة الحديث كالإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، ونحوهما؛ فقالوا: إن هٰذا يجب أن يترك علىٰ ما جاء عليه بدون تعرض لتفسيره، أو صرفه عن ظاهره، وعللوا هٰذا بأمرين:

الأول: أنه إذا فسر تفسيراً علىٰ غير ظاهره؛ فإنه يكون علىٰ خطر من أنه قال علىٰ الرسول ﷺ ما لم يقله، أو علىٰ الله.

والثاني: أنه إذا ترك علىٰ ما جاء عليه يكون أدعىٰ إلىٰ الانزجار والابتعاد عن مثل هٰذه الأمور.

ولٰكن يجب أن يعلم أن قولهم: «يترك علىٰ ما جاء» ليس معناه أنه يؤخذ بظاهره، فمن فعل كان مثل الخوارج.

القول الثاني: وهو قول الجمهور، أنهم أشد عذاباً من جنس هٰؤلاء المعذبين من أهل المعاصي، والله أعلم بمراده الذي ذكره عن رسوله ﷺ.

أما حديث ابن عباس؛ فهو كذٰلك من نصوص الوعيد الشديدة التي يجري فيها ما مضىٰ، ولٰكن نقول: إن هٰذا يدل علىٰ أن هٰذا محرم من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩٨)، ومسلم (٣٩٣٧).

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم»**(١).

ولهما عنه مرفوعاً: **«من صوّر صورة في الدنيا كلّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»**(٢).

أعظم المحرمات، وأنه إذا لم يَتُبْ من ذٰلك؛ فهو متوعد بهٰذا الوعيد الشديد، والأمر إلىٰ الله، فإن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه؛ لأنه ليس بكافر.

كل هٰذه الأحاديث تدل علىٰ شدة العذاب، وتدل علىٰ حرمة عموم التصوير، إذا ثبت أنه تصوير، وأنه تصوير ذات الأرواح التي تكون فيها الحياة؛ لأنه في الحديث الأول يقول: «**فليخلقوا ذرّة أو يخلقوا حبة**» فذكر الشيء الذي فيه الحياة، فدل علىٰ أن الأمور التي ليس فيها حياة مثل الجبال، والبحار، والأرض، وما أشبه ذٰلك؛ فإنه لا يشملها هٰذا الوعيد؛ لأنه ليس فيها روح.

ولهٰذا يقول الفقهاء:

المقصود بهٰذا **أولاً** التشبه بالله. **الثاني** ما يترتب علىٰ ذٰلك من الفتن، ولا سيما إذا كانت الصورة لمن له في الناس مقام معظم، إما من الأولياء، أو العلماء، أو الملوك، أو الناس الذين يخشىٰ أن تتخذ معظمة، ثم يتمادىٰ الأمر حتىٰ يعبدوها كما مَرَّ معنا في قصة أول شرك وقع في الأرض، وأنه بسبب الصور.

وفي هٰذا الحديث أيضاً ما يدل علىٰ هٰذا المعنىٰ، أن التوعد أو الوعيد علىٰ ما فيه حياة؛ لأنه قال: «**كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ**»؛ يعني: أنه يجعل فيها حياة، هٰذا يدل على عدم دخول الجبال والبحار وغيرها مما

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي عليّ: **«ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألّا تدعَ صورة إلا طمستَها، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيتَه»**[(١)].

ليس فيها حياة، ولا ينفخ فيها روح، فإذاً تكون خارجة عن ذٰلك.

قوله ﷺ: «ألّا تدعَ صورة إلا طمستَها» الطمس هو المحو والإزالة، وهـٰذا يدلنا علىٰ أن الصور تكون بالرقْم وبالكتابة، هي التي تطمس وتمحىٰ، أما لو كانت بالتجسيم؛ فلا يقال: طمستها، وإنما يقال: كسرتها، فالمجسَّمة أعظم من التي تُخَط إما باليد أو بغيرها.

وقوله: «ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» مشرفاً؛ يعني: مرتفعاً علىٰ الأرض، فيسويه؛ أي: يسويه بالأرض.

والصور والقبور هي أصل الفتن في عبادة غير الله ـ جل وعلا ـ؛ أي: عبادة المقبورين والأشخاص والعظماء، ولهـٰذا ذكر ذٰلك، فهـٰذا يدلنا علىٰ أن الرسول ﷺ كان يبعث من يطمس الصور، ومن يسوّي القبور؛ لأن هذين الأمرين فيهما سبب الشرك، ففيهما الفتنة، فكان ﷺ يدرأ الفتن ويمحو أسبابها ما أمكن، ففي هـٰذا دليل علىٰ وجوب سدِّ الذرائع، والأدلة عليه كثيرة.

وكذٰلك حماية التوحيد من أن يدخل الشيطان من جوانبه، أو من أمور قد يزينها للناس، فيفسد عليهم عقيدتهم، وهـٰذا من المعاني التي أرادها المؤلف لإدخاله هـٰذا الباب في «كتاب التوحيد» فيكون في ذٰلك إيضاح للتوحيد، وبيانٌ له، ويقصد بهـٰذا أن يبين أن التوحيد عام وشامل للحياة كلها، وليس فيما يخص الدعاء، أو الركوع، أو السجود، أو غيره، كما يعتقد بعض الناس.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٠٩).

فيه مسائل:

الأولىٰ: التغليظ الشديد في المصورين. **الثانية**: التنبيه علىٰ العلة، وهو ترك الأدب مع الله؛ لقوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**». **الثالثة**: التنبيه علىٰ قدرته وعجزهم، لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**». **الرابعة**: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً. **الخامسة**: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم. **السادسة**: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح. **السابعة**: الأمر بطمسها إذا وجدت.

باب
ما جاء في كثرة الحَلِف

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال: «**باب ما جاء في كثرة الحلف**»؛ يعني: أنه مظنة للإثم والوقوع بالحرج، والله ـ جل وعلا ـ قد أمر بحفظ الأيمان، فإذا أكثر الحلف؛ لم يمتثل هـٰذا الأمر، ووقع إما بالحنث والإثم، أو بالمخالفة، أو بهما جميعاً، وهو الظاهر، وهـٰذا فيه أيضاً إثم ينقص التوحيد، ويذهب بكماله.

قوله: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ فسرت هـٰذه الآية بتفسيرين:

التفسير الأول: لا تحلفوا.

التفسير الثاني: إذا حلفتم وحَنِثْتُم؛ فكَفِّروها، ولا تتركوها بلا تكفير.

والتفسير الأول أحوط، وأما إذا حلفت؛ فاحفظ يمينك بأن لا تتركها بلا كفارة عند الحنث، والحنث هو المخالفة، والثاني هو الراجح؛ لأن الرسول ﷺ كان يحلف فيقول: «**والله إني ـ إن شاء الله ـ لا أحلف علىٰ أمر فأرىٰ غيره خيراً منه إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**»[1]، فهـٰذه سنته، وهـٰذا فعله، فإذاً لا يكون اليمين يمنعه من فعل الخير ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢٤]؛ يعني: إذا حلفت يميناً؛ فلا يكون ذٰلك مانعاً لك من أن تفعل ما فيه الخير، ولـٰكن يجب أن تكفر عن يمينك، وهـٰذا من رحمة الله، وهـٰذا مما ذكر ـ جل وعلا ـ أنه شرع لنا كفارة اليمين، قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ يعني: أنها نعمة من الله ـ جل وعلا ـ حتىٰ نشكره، فهـٰذا خروج من الإثم.

وقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٣١٠٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسلعة، مَمْحَقَةٌ للكسب» أخرجاه(١).

أَزْوَاجِكَ...﴾ إلىٰ آخر الآية [التحريم: ١]، فبين ـ جل وعلا ـ أنه جعل مخرجاً، والأمة تبعٌ للنبي ﷺ، ولهٰذا فالقول الثاني هو الراجح، والله أعلم.

قوله: «**الحلف منفقة للسلعة**»؛ يعني: أنها تُغْليها علىٰ الناس، وترغّب الناس فيها إذا حلف أنه أعطي بهٰذه السلعة كذا وكذا، فيصدقه السامع ويزيد، فقد يعطيه الشيء الذي ذكره أو زيادة، فهٰذا معناه أنها منفقة؛ يعني: أنها تنفُقُ عند الناس، فيرغبون فيها، والحلف يرغب فيها؛ لأنهم يحملونه علىٰ الصدق، فهٰذا إذا كان صادقاً، ولٰكن هٰذا يدل علىٰ الرغبة في الدنيا، والحرص عليها، وليس هٰذا محموداً، وليس هٰذا من شأن أهل الإيمان، فالدنيا لا تكون مقدَّمة علىٰ تقوىٰ الله ومخافته ـ جل وعلا ـ والخوف من الوقوع في الإثم، هٰذا وجه كون هٰذا مذموماً، ويكون منقصاً للتوحيد.

أما **قوله**: «**ممحقة للكسب**» بسبب أنها تجلب الإثم، وأنها تكون أيضاً بهٰذه الصورة مقدَّمة علىٰ الخوف من الله ومراقبته، والرغبة فيما عنده، ولهٰذا كان للسلف مواقف عجيبة في مثل هٰذا، جاء أحدهم بما يريد أن يبيعه، وسُئل ما رأيك فيه؟ قال: ليس لي فيه رغبة. فقال: أتنصح به؟ قال: لا أنصحك به، ولو كنت أنصحك به؛ لأمسكته أنا، خلاف الذين يرغّبون فيه ويُقسمون أنهم أُعطوا كذا وكذا.

ثم كثرة الحلف تدل علىٰ التساهل والتهاون في الأمر، والغالب أن هٰذا يكون ممن دينه خفيف، وليس له حرص علىٰ حفظ يمينه، وكذٰلك الغالب أنه إذا كثرت الأيمان تضيع، ولا يكفر عنها، فلا بد أن يذهب عليه شيء، كل هٰذه الأمور مما يجعل الإنسان لا يقدم علىٰ الحلف، وهو ظاهر الحديث.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٤٥)، «صحيح مسلم» (٣٠١٤).

عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أُشَيْمطٌ زانٍ، وعائلٌ مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**» رواه الطبراني(١) بسند صحيح.

قوله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**» هٰذا وصف للثلاثة.

قوله: «**لا يكلمهم**»؛ يعني: يوم القيامة، وتكليم الله ـ جل وعلا ـ إكرام ورحمة، أما التزكية فهي تزكية أعمالهم، وجزاؤهم من فضل الله ـ جل وعلا ـ فوق ما لهم من العمل؛ لأن الذي يزكيه الله ـ جل وعلا ـ يضاعف له الحسنات، وهٰؤلاء يُمنعون من ذٰلك بسبب أفعالهم التي ذكرت هنا.

ثم ذكرهم، **فقال:** «**أشيمط زان**» الأشيمط تصغير، صُغِّرت لتحقيره، فهو حقير مستقبح، حقير عند الله، وهو الذي اختلط شيبه بسواده؛ لأن من كان بهٰذه الصفة تكون الشهوة ضعفت عنده، فيكون إقدامه علىٰ الزنا لأمر في نفسه يحبه، ومطبوع عليه، وليس لغلبة الشهوة كالشاب مثلاً الذي قد تحدوه الشهوة بقوة حتىٰ يقع في الفاحشة، فبهٰذا تبين لنا أن المعاصي تتضاعف بحسب قوة الداعي إليها، فإذا كان الداعي ضعيفاً؛ كان الفاعل لها أشد عذاباً، وأبغض عند الله ـ جل وعلا ـ.

ومثل ذٰلك: «**عائل مستكبر**» العائل هو الفقير، والفقير ليس محلاً للاستكبار، بل الفقر داعٍ للخضوع والذل، فإذا كان فقيراً ومستكبراً؛ فإنه يدل علىٰ أن الكبر أمر متأصل في نفسه، خُلُقٌ صار من أخلاقه، فكان عذابه أشدّ من الغني المستكبر؛ لأن الغنىٰ هو الذي يدعو للاستكبار، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

أما الثالث: «**رجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»؛ يعني: أنه إذا أراد أن يشتري يحلف، يقول: «والله لا آخذ هٰذا إلا

---

(١) «المعجم الأوسط» (٥٧٣٥).

وفي الصحيح[(١)] عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير أمتي قرني**، ....

بكذا وكذا» أنقص مما يعرض له، وكذلك إذا أراد أن يبيع يقول: «والله لا أبيعها إلا بكذا وكذا»، فجعل الله بضاعته؛ يعني: الحلف بالله ـ جل وعلا ـ، فجعله هو الذي ينفق سلعته، وهو الذي يخفض من السلعة عندما يريد شراءها، وبهذا يتبين أن هؤلاء ارتكبوا هذه الأمور لضعف إيمانهم وتوحيدهم.

قوله: «**خير أمتي قرني**» القرن اختلف في تحديده، قيل: إنه مئة سنة. وقيل: أن يذهب الجيل الذي فيه، ويأتي من بعدهم. وهذا هو المقصود، ولهذا صار القرن الأول الذي بعث فيهم الرسول ﷺ لمّا مات آخر الصحابة انتهىٰ، ثم يبدأ القرن الذي بعدهم، فإذا مات آخر التابعين الذين أخذوا عن الصحابة يبدأ القرن الثالث، وهذا هو القول الراجح.

وقيل: إن القرن هو أن يجتمع قوم علىٰ أمر مهم، فإذا انتهىٰ هذا الأمر فهو القرن، وهذا لا تحديد له في العمر، ولا في السنة، والقول الثاني هو الراجح، والله أعلم.

والحديث نص واضح، فالصحابة هم أفضل الأمة، بل هم أفضل الناس؛ لأنه جاء في الحديث أن قرنهم خير القرون، وهذا يوافق القرآن، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] والخطاب للصحابة ﷺ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فهنا نكرة؛ يعني: يعم جميع الأمم، فهم أفضل الخلق بعد الرسل والأنبياء علىٰ الإطلاق، والنصوص في هذا كثيرة، فلا عذر لمن يُبغضهم، أو يسبهم، أو يشتمهم، ويرىٰ أنهم خالفوا الحق؛ لأنه خالف النصوص الصريحة، والله علام الغيوب، فلا يثني علىٰ من يعلم أنه يرتد ويكفر كما يزعمه أعداء الصحابة رضوان الله عليهم.

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٧٧)، «صحيح مسلم» (٢٥٣٥).

ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ **«ثم إن بعدكم قوماً** ....

وقد ألف العلماء في فضل الصحابة مؤلفاتٍ، والقرآن مملوء بذكر فضلهم والثناء عليهم.

ثم يليهم بالفضل من أخذ عنهم، وتعلم عليهم، وأخذ الإيمان منهم؛ أي: الذين اقتفوا آثارهم، وتتلمذوا عليهم، والخيرية هنا؛ لأنهم صحبوا الرسول ﷺ، وكانوا معه علىٰ الإيمان، وجاهدوا معه، وأنفقوا أموالهم في ذٰلك، فهٰذا لا يمكن أن يوازيهم فيه أحد، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ يعني: معه علىٰ الإيمان، وأمر الله ـ جل وعلا ـ.

وقول عمران: ما أدري، أذكر مرتين أو ثلاثة؛ يعني: بعد قرنه، فيكون القرون المُثْنى عليها، إما ثلاثة أو أربعة، والمعلوم أنه بعد قرن الصحابة ظهرت فيهم البدع، وظهرت فيهم المخالفات، فليسوا كقرن الصحابة؛ فإنه لم يعلم أنه ظهر في وقتهم شيء من البدع وهم الذين فتحوا البلاد، وجاهدوا في سبيل الله، حتىٰ وصل الإسلام إلىٰ أقصىٰ الأرض من الشرق والغرب.

ولهٰذا؛ لو نظرنا في قبورهم؛ لما وجدنا في المدينة إلا قلة منهم، كلهم ماتوا في شرق الأرض وغربها، حتىٰ إنه يوجد منهم من كان قبره في سمرقند، ومن هو أبعد من هٰذا؛ لأنهم رضوان الله عليهم كانت حياتهم جهاداً، ولم يجاهدوا لجمع المال، وإنما جاهدوا لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ نور الإسلام والحق، والله يجزيهم علىٰ ما قاموا به، ولابد للمسلم ـ ولا سيما الشباب ـ أن ينظروا في سيرتهم، وفي أعمالهم، وما كانوا يعملون بينهم وبين ربهم، حتىٰ يكونوا له قدوة وأسوة، ولا يجوز له أن يعرف مثلاً من أبطال الكفار، أو لعّاب الكفار الذين يلعبون أكثر من معرفته للصحابة؛ فإن هٰذا عيب، وعار علىٰ المسلم، وعلىٰ شباب المسلمين أن تكون هٰذه صفاتهم.

وقوله: «ثم إن بعدكم قوماً» نصب؛ لأنه اسم إنّ، وخبرها قُدّم؛ وحقه

يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن».

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم،** ....

التأخير، «**يشهدون ولا يستشهدون**»؛ يعني: أنهم يبادرون للشهادة، وهٰذا وجه ذكر الحديث لذمهم؛ يعني: أنهم يشهدون ويستخفون بالشهادة، ولا يبالون؛ لأنهم يبذلونها لأغراض الدنيا.

والشهادة هي يمين من الإيمان.

وقوله: «**ولا يستشهدون**»؛ يعني: لا تطلب منهم الشهادة، وإنما يبادرون لذٰلك؛ لخفة الشهادة عندهم، مما يدل علىٰ خفة الدين، وعدم المبالاة.

وقوله: «**ويخونون ولا يؤتمنون**»؛ يعني: يخونون الناس، فإذا كانوا يخونون الناس؛ فهم يخونون الله ـ جل وعلا ـ. والخيانة هي المخالفة في الخفاء.

وقوله: «**وينذرون ولا يوفون**» وهٰذا أيضاً شاهد للباب؛ لأن النذر وعد الله ـ جل وعلا ـ بأنه يفعل كذا وكذا، «**ولا يوفون**» ويدخل في ذٰلك اليمين؛ يعني: أنهم لا يبالون بذٰلك.

وقوله: «**ويظهر فيهم السمن**» لرغبتهم في الدنيا، وكثرة أكلهم، فرغبتهم في الدنيا صار السمن فيهم، بخلاف حالة الصحابة، فكان أحدهم يمضي عليه اليوم واليومان ولم يَطْعَمْ شيئاً، ولم يأكل شيئاً، وهمهم في ذٰلك تحصيل مرضاة الله.

قوله: «**خير الناس قرني**» يدل علىٰ أن الصحابة خيرُ الناس مطلقاً، ولٰكن لا بد من تقييد هٰذا في إخراج الأنبياء والرسل؛ لأن الأنبياء والرسل اصطفاهم الله ـ جل وعلا ـ علىٰ سائر الناس.

ثم يجيء قوم تَسبِقُ شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادته»[(١)].

قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا علىٰ الشهادة والعهد ونحن صغار»[(٢)].

قوله: «ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»؛ يعني: أنه لا يبالي يشهد أو يقسم لا يبالي بهٰذا ولا بهٰذا، وهٰذا دليل علىٰ خفة الدين عنده، ولا بد أنه ضيع يمينه، وكونه ضيع يمينه يدل علىٰ ضعف الإيمان، وبذٰلك يكون توحيده ناقصاً، ويكون معرضاً لعذاب الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: «وقال إبراهيم» هو إبراهيم النخعي من أصحاب عبد الله بن مسعود.

وقوله: «كانوا يضربوننا علىٰ الشهادة والعهد ونحن صغار»؛ أي: صبيان، حتىٰ يؤدبوهم، فإذا حلف أحدهم ضربوه، ومعلوم أن الصغير لا يلزمه الالتزام؛ لأنه غير مكلف، ولٰكن الإنسان إذا شبَّ علىٰ شيء؛ فإنه يكون خُلقاً له. وتأديبهم علىٰ مثل هٰذا يكون من تهيئتهم وإعدادهم للأمر الذي يجب عليهم، وهٰذا واجب الآباء علىٰ الأبناء أن يؤدبوهم علىٰ الخوف من الله، وحفظ الأيمان، وتحاشي الشهادة التي تصدر من الصبيان بالكذب، وكذٰلك اليمين وهٰذا لا يتساهل به؛ لأن هٰذا قد يكون خلقاً فيما بعد.

وهٰذا يدخل فيه غيره، مثل تأديبه علىٰ الكذب، وبعض الناس يعلم أولاده الكذب كأن يقول: «تعال أعطيك كذا» ولا يعطيه، وما أشبه ذٰلك، وهٰذا كثير، فالله ـ جل وعلا ـ أمر المسلمين أن يحفظوا أنفسهم وأولادهم من عذاب الله ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وهٰذا لا يكون إلا باتباع أمر الله ـ جل وعلا ـ، والمحافظة عليه، ولا بد أن يكون من الصغر حتىٰ يتربىٰ الطفل علىٰ ذٰلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) انظر: التخريج السابق.

فيه مسائل:

الأولىٰ: الوصية بحفظ الأيمان. **الثانية**: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة. **الثالثة**: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه. **الرابعة**: التنبيه علىٰ أن الذنب يعظم مع قلة الداعي. **الخامسة**: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون. **السادسة**: ثناؤه علىٰ القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم. **السابعة**: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون. **الثامنة**: كون السلف يضربون الصغار علىٰ الشهادة والعهد.

باب

ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية [النحل: ٩١].

عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمَّر أميراً علىٰ جيش

قوله: «**باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه**» ذمة الله ـ جل وعلا ـ هي عهده وحكمه الذي يحكم في الناس المعينين أو القضية المعينة في مثل ما ذكره الرسول ﷺ حينما يقابل أعداءه يقول: «**لكم ذمة الله وذمة رسوله**» هٰذا لا يجوز للإنسان أن يجعله لمن يكون بينه وبينه أمر؛ لأنه لا يدري، فقد يحصل من بعض الجيش إخلال بذٰلك، فيكون ذٰلك إخفاراً لذمة الله.

ومثل ذٰلك الحكم أن يقول: «حكم الله وحكم رسوله» فإذا كان لا يعرف هٰذا بيقين؛ فلا يجوز أن يقول ذٰلك، وإنما عليه أن يجتهد، ويقول: «أعطيك ذمتي وذمة أصحابي» وفي هٰذا أن الإنسان يجب عليه أن يحترز، وأن يقدم علىٰ الأسهل، ويتحاشىٰ الأمر الكبير، وهٰذه قاعدة عظيمة فيما يجري في الناس؛ أي: تقليل الشر وتكثير الخير إن كانت أمور لا بد منها؛ فإن كان شرها أكثر وخيرها أقل فلا يقدم عليها، وإن كان خيرها أكثر وشرها أقل يفعلها إذا كان لا محالة من ذٰلك، فهٰكذا في جميع ما يحصل للمسلمين. وقد ذكر العلماء في هٰذا صوراً كثيرة.

وقوله: «**كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً علىٰ جيش**» فيه أن الجيوش التي تقاتل في سبيل الله لا بد من أمير يقودها، ولا بد من طاعته والائتمار بأمره، فلا بد من الاجتماع، ولو كان كل واحد له رأي؛ لفسدت الأمور، ولم تستقم. والأمير يأمر ليطاع ويتبع، وإن كان الطائع الذي يطيع قد يرىٰ غير رأي الأمير؛ فلا يجوز له أن يخالف، ولهٰذا كان الرسول ﷺ يحث علىٰ

أو سَرِيّة؛ أوصاه بتقوىٰ الله ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: «**اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله،** ....

طاعة الأمراء، ويقول: «**ومن أطاع أميري؛ فقد أطاعني، ومن عصىٰ أميري؛ فقد عصاني**»(١).

وقوله: «**ثم أوصاه بتقوىٰ الله**» يعني: أن يمتثل أمر الله ـ جل وعلا ـ، ويجتنب ما نهاه عنه، فيجعل بينه وبين الأمور المخوفة امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فهٰذا أقوىٰ عُدّة في جهاد الكفار، وفهم الصحابة هٰذا الأمر حق فهمه، فكان يوصي بعضهم بعضاً، فيقول بعضهم لبعض: «ما نقاتل العدو بعددنا، ولا بعُدّتنا، وإنما نقاتلهم بإيماننا، فإياكم أن تُؤْتَوْا من قِبَل المعاصي، فإنها جنود الكفر، فإنها تعين الكفار عليكم»، فهٰذا هو فهمهم من قول الرسول ﷺ وتعليمه.

ولهٰذا لما أرسل عمرو بن العاص رضي الله عنه يستنجد بعمر رضي الله عنه في قتاله الروم في مصر، وقال له: الجيش الذي معي أربعة آلاف، وقابلني مئة وعشرون ألفاً، فأمدني وأسرع، أرسل له يتهدده، ويقول: «ما كنا نقاتل بعددنا وعُدّتنا، ولٰكن احترز من الذنوب أكثر من احترازك من عدوك، فإن الذنوب هي التي تعينه عليك».

فالمقصود أن وصيته بتقوىٰ الله ـ جل وعلا ـ لأنه هو الناصر، فهو ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، فلا بد أن يكون هٰذا لدىٰ المسلمين في كل موقف.

وقوله: «**ومن معه**»؛ يعني: أنه يأمر من معه من المسلمين بالخير، وينهاهم عن الشر، يأمرهم بتقوىٰ الله، ثم يقول لهم وهم يسمعون: «**اغزوا باسم الله**»؛ يعني: ابدؤوا الغزو باسم الله، مستغنين به.

ثم قال: «**قاتلوا من كفر بالله**» وهٰذا يدلنا علىٰ أن القتال يكون للكفار

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

اغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لَقِيتَ عدوك من المشركين؛ فادعهم إلىٰ ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك؛ فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، فإن هم أجابوك؛ فاقبل منهم، ثم ادعوهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، ....

عموماً، وليس كما يقوله بعض الضالين: إن القتال لا يكون إلا لمن قاتل، ومن لم يقاتل فإنه لا يجوز قتاله.

ثم يكرر الأمر: «**اغزوا ولا تغلوا**» الغلول هو إخفاء شيء من الغنيمة قبل القسمة، وهو من الكبائر.

قوله: «**ولا تغدروا**»؛ يعني: إذا عاهدتم أو وعدتم؛ فلا تخالفوا ذٰلك.

قوله: «**ولا تمثلوا**» التمثيل تشويه القتيل بأن تقطع أذنه، أو أنفه، أو ما أشبه ذٰلك، فهٰذا من المحرمات.

وقوله: «**ولا تقتلوا وليداً**»؛ يعني: صغيراً لا يقاتل، وكذا النساء لا يجوز قتلهن، وكذٰلك الكبار الذين ليس لهم يدٌ في القتال إلا أن يكون لهم آراء.

قوله: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلىٰ ثلاث خصال أو خلال**» وكلها سواء «**فأيتهن أجابوك؛ فاقبل منهم، وكف عنهم**» وهٰذا دليل علىٰ أن المقصود من القتال نشر الإسلام، وأن يقبلوه، وليس القتال لأجل تملك الأرض أو تملك الأموال، ولهٰذا إذا قبلوا واحدة من هٰذه وتركوا بلادهم، فأول ما يدعون إليه الإسلام، فإذا دخلوا فيه صار لهم ما للمسلمين وعليهم ما علىٰ المسلمين، ولا يجوز أن يؤخذ منهم شيء. ولٰكن إذا كانوا في بلدٍ الغالب عليها الكفر؛ فإنهم يؤمرون بالتحول منها إلىٰ بلاد المسلمين؛ لئلا يفتنوا ويردوا عن دينهم، ولهٰذا قال: «**ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين**» وهٰذا كان في أول الأمر، فلمّا فتحت مكة؛ قال ﷺ: «**لا هجرة**

وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذٰلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما علىٰ المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها؛ فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالىٰ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ....

بعد الفتح، ولٰكن جهاد ونية»(١) أي نية الجهاد، ولٰكن هٰذا يكون في جزيرة العرب. أما البلاد الأخرىٰ التي يسيطر عليها الكفار؛ فإذا كان المسلم أسلم فيها وخاف أن يصدَّ عن دينه ويفتن في دينه؛ فإنه يجب أن يفر بدينه إلىٰ بلد يأمن فيه.

ولهٰذا يقول العلماء في العقائد: «والهجرة باقية إلىٰ أن تطلع الشمس من مغربها»، وفي بعض العبارات: «الهجرة باقية ما قوتل العدو» ما دام العدو يقاتل، أما إذا عجَز المسلمون عن القتال فتستوي الأمور.

ثم يقول: «**وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذٰلك: فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما علىٰ المهاجرين**»؛ يعني: إذا هاجروا من الأجر ومن الحق الذي يكون في الدنيا، «**فإن أبوا أن يتحولوا منها: فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين**»؛ يعني: مسلمين، ولٰكن إذا غنم المسلمون غنائم؛ فلا يكون لهم شيء فيها؛ لأن الغنائم تكون لمن يكون مع المسلمين الذين يجاهدون، سواء كانوا ممن يدرأ أو ممن يقاتل، ولا بد أن يكون الاستعداد موجوداً.

ثم يقول: «**يجري عليهم حكم الله تعالىٰ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء**» الغنيمة هي الأموال التي تؤخذ من الكفار بالقوة، أما الفيء فهو الذي يؤخذ من الكفار بدون قتال، كأن يهربوا من بلادهم ويخافوا، أو يصالحوا عليها، ويكون لله وللرسول ولذوي القربىٰ والفقراء والمساكين وفي سبيل الله، كما قسم ذٰلك ربنا ـ جل وعلا ـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٧٥) من حديث ابن عباس ﷺ، وأخرجه مسلم (٣٤٦٨) من حديث عائشة ﷺ.

إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك؛ فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا؛ فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل ذمة الله وذمة نبيه؛ فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولـٰكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تُخفِروا ذممكم وذمة أصحابكم؛ أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه. ....

ويقول: «**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**» فإذا جاهدوا مع المسلمين؛ صار لهم مثل ما للمجاهدين. «**فإن هم أبوا: فاسألهم الجزية**»؛ يعني: أبوا أن يدخلوا في الإسلام؛ فاسألهم الجزية، والجزية تختلف، ولـٰكنها مال يدفع للمسلمين، ويكون مقابل هـٰذا المال حمايتهم في بلادهم، لا يدعون أحداً يعتدي عليهم، أو يأخذ بلادهم من غيرهم، فإذا كان المسلمون يأخذون جزية من الكفار؛ فيلزم أن يحموهم في بلادهم مقابل أخذ الجزية.

والجزية فرضها الله ـ جل وعلا ـ حتىٰ تكون سبيلاً إلىٰ الدخول في الإسلام، ولهـٰذا أمر أن تأخذ منهم علىٰ احتقار وإصغار ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] حتىٰ يكون ذٰلك داعياً لهم إلىٰ ترك الكفر والدخول في الإسلام بهـٰذه الطريقة.

يقول: «**فإن هم أجابوك: فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن هم أبوا: فاستعن بالله وقاتلهم**» هـٰذه الخصال هي التي يفعلها الصحابة كما بين لهم الرسول ﷺ.

قوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن**» الحصار لا يزال إلىٰ الآن معروفاً، ولـٰكنه صار الآن حصاراً في الاقتصاد كما يفعلون، وحصاراً بالقوة والجيش، الحصار بالاقتصاد، وليس هـٰذا حكمه.

قوله: «**فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه: فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولـٰكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم: أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله**» الذمة هي العهد والميثاق، فهو لا يدري أيفي لهم بذٰلك أو لا يفي، فلهـٰذا يعدل إلىٰ ذمته. وهـٰذا دليل

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا» رواه مسلم.

على أن الإنسان المسلم يجب عليه إذا اعترض له أمران أحدهما إثمه أكبر من الآخر، أنه يعدل إلى ما هو لأقل من ذلك، وهو عام ليس في هذا فقط.

ثم قال: «**وإذا حاصرت أهل حصن وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله: فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا**» وهذا أيضاً عام في هذه الصورة وغيرها إذا كان الأمر ليس فيه نص، ولا تدل عليه النصوص بالمفهوم والواضح الجلي، فإنه يكون محل اجتهاد، ولا يجوز أن يقول: أحكم فيك بكتاب الله وبسنة رسوله؛ لأن هذا الذي يمكن الآن، فالواجب أن يقول أجتهد في الحكم، بأن يكون بالحق وبالعدل، وهذا في كل قضية من القضايا، فإذا أصاب؛ فله أجران: أجر الإصابة، وأجر الاجتهاد، وإن أخطأ؛ فله أجر الاجتهاد، وخطؤه معفو عنه.

ومعنى ذلك أن الأمر يفوّض إلى الأمير أو إلى القاضي الذي يقضي في ذلك، ولكن بشرط أن يكون أهلاً للاجتهاد؛ كأن يعرف الدلائل، ويعرف الأصول من الكتاب والسُّنَّة، فينزل الأمور منازلها. أما إذا كان جاهلاً؛ فلا يجوز أن يقدم على هذه.

ومناسبة ذكر هذا الباب في «كتاب التوحيد» أن في إخفار ذمة الله وذمة رسوله معصيةً كبيرة، فهي تنقص التوحيد، فعلى هذا كل ما كان منقصاً للتوحيد وذاهباً بكماله الواجب؛ فهو يكون تفسيراً للتوحيد؛ لأن التوحيد هو امتثال أمر الله واجتناب نهيه في كل أمر من الأمور، وليس في العبادة فقط؛ في المعاملات، وفيما بينك وبين أهلك، وما بينك وبين الناس، وفي الأمور العامة.

فيه مسائل:

الأولىٰ: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين. **الثانية**: الإرشاد إلىٰ أقل الأمرين خطراً. **الثالثة**: قوله **«اغزوا باسم الله في سبيل الله»**. **الرابعة**: قوله: **«قاتلوا من كفر بالله»**. **الخامسة**: قوله: **«استعن بالله وقاتلهم»**. **السادسة**: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. **السابعة**: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا.

باب
ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له، وأحبطت عملك»** رواه مسلم(١).

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته(٢).

قال: **«باب ما جاء في الإقسام على الله»** الإقسام هو الحلف، أي أن يحلف أن الله يفعل كذا أو لا يفعل كذا، هٰذا لا يجوز؛ لأن هٰذا حكم على الله - جل وعلا -، والله لا يحكم عليه العبد، ولا يحكم عليه العباد، وإنما هو الحاكم الذي يتصرف كيف يشاء، وهٰذا فيه جرأة على الله - جل وعلا -، واستخفاف بأمره وحقه، فيكون الفاعل لذٰلك قد ترك التوحيد، أو ترك ما هو واجب في التوحيد، فيكون معرضاً لعذاب الله، فإما أن يكون فاقداً للتوحيد، أو يكون توحيده ناقصاً، وهٰذا وجه إدخاله في «كتاب التوحيد».

وذكر الحديث، فقال: عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجل والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألى عليّ»** يتألى؛ يعني: يحلف ويقسم، والحلف والقسم هو التألي.

وقوله: **«وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد»** جاء هٰذا صريحاً

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠١).

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله. **الثانية**: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله. **الثالثة**: أن الجنة مثل ذلك. **الرابعة**: فيه شاهد لقوله «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة**»... إلخ.

في حديث أبي هريرة، وهو في الصحيح أيضاً، وكذلك في السنن. والرجل كان من بني إسرائيل، يقول كما في «سنن أبي داود» أن رجلين متآخيين في الله، وكان أحدهما يجتهد، والآخر مقصر، فكان المجتهد كلما رأى أخاه على ذنبه؛ نهاه، فقال: يا هذا أقصر، فرآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال: والله لا يغفر الله لك. فقال: دعني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ فأرسل الله إليهم ملكاً، فقبض أرواحهما، وأحضرهما بين يديه، فقال للمتألي: أتستطيع أن تمنع رحمتي؟ اذهبوا به إلى النار. وقال للمقصر: اذهب إلى الجنة برحمتي.

قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. وهذه مصيبة؛ الإنسان يتكلم بكلمة واحدة يكون فيها هلاكه، ومعنى ذلك أن الإنسان يجب أن يكون مستقيماً حسب الاستطاعة، وألا يدخل نفسه في الأمور التي ليست له، ولا سيما في مثل هذا، أن يحكم على الله أنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا، فإن هذه جرأة عظيمة على الله.

وهذا الحديث يدل على أن الذي يتكلم بهذه الكلمة الذي حداه إلى ذلك وجعله يحكم بذلك هو إنكار المنكر، ومع ذلك كان فيه هلاكه، وليس مجرد أنه يقول ذلك بالتشهي أو غيره، ولكن إنكار المنكر يجب أن يكون بالمعروف والشرع، ولا يكون بمنكر أعظم منه، وهذا منكر أعظم من المنكر، لو بقي على منكره وسكوته؛ لكان أسلم له.

قوله: «**فيه شاهد لقوله إن الرجل ليتكلم بالكلمة**» نعم الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله يهوي بها في النار سبعين خريفاً «**إن الرجل ليتكلم**

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

بالكلمة من رضوان الله ﷻ ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلىٰ يوم القيامة»[1].

وفي رواية: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرىٰ بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار**»[2] فاللسان مظنة للهلاك، فيجب علىٰ العبد أن يحفظه، وأن لا يقدم علىٰ شيء فيه تنقص لأمر الله، أو في حقه، أو في شرعه، أو ما أشبه ذٰلك.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٢٩١) من حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باب
لا يُستشفَع بالله علىٰ خلقه

عن جُبير بن مُطعِم ﷺ قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: نَهِكَتِ الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك علىٰ الله، فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله! سبحان الله!**» فما زال يسبح حتىٰ عرف ذٰلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال النبي ﷺ: «**ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذٰلك، إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه**» وذكر الحديث. رواه أبو داود(١).

قوله: «**باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه**» الاستشفاع هو طلب الشفاعة؛ يعني: لا يجعل شفيعاً علىٰ أحد من الناس أن يقول: «الله شفيعي إليك»، أو «أنا أستشفع بالله عليك»، أو ما أشبه ذٰلك، فإن هـٰذا فيه تنقص لله ـ جل وعلا ـ، وتهاونٌ به، وهـٰذا مهلك، لهـٰذا يجب أن يستشعر عظمة الله ـ جل وعلا ـ، ويقدره حق قدره، ولا يقع في مثل هـٰذا، بخلاف المقابل أن يجعل المخلوق شافعاً، فإن الرسول ﷺ لم ينكر هـٰذا، بل أقره، وإنما أنكر الأول.

وفيه أنه إذا انتهك أمر من أمر الله ـ جل وعلا ـ أو تنقص أن السبيل في هـٰذا استنكاره وأن يسبح «**سبحان الله.. سبحان الله**»؛ يعني: أن الله تقدس عن مثل ما تذكر، وهو ـ جل وعلا ـ أعظم من ذٰلك، فيذكر تعظيم الله، ويعلم الناس به أنه عظيم، وأن شأنه أعظم مما تتصور.

قوله: «**لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه**»؛ يعني: لا يطلب من الله أن يشفع لهم علىٰ فلان؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ أعظم وأكبر من أن يكون شفيعاً

---

(١) «سنن أبي داود» (٤١٠١).

فيه مسائل:

الأولىٰ: إنكاره علىٰ من قال: نستشفع بالله عليك. **الثانية**: تغيُّره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هٰذه الكلمة. **الثالثة**: أنه لم ينكر عليه قوله: «**نستشفع بك علىٰ الله**». **الرابعة**: التنبيه علىٰ تفسير «**سبحان الله**». **الخامسة**: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

عند أحد من خلقه.

ثم طلب الشفاعة من الرسول أقره الرسول ﷺ يعني كونهم قالوا: تشفع لنا إلىٰ الله، وهٰذا لا يدل علىٰ أنه يستشفع بالرسول ﷺ بعد وفاته، وإنما كان هٰذا في حياته لما كان حاضراً يسألونه ويطلبون منه ذٰلك؛ لأن الشفاعة هي الدعاء، وإذا جاؤوا لطلب الشفاعة؛ فهو يأمرهم بالدعاء، وهو يدعو معهم، وسبق الكلام في الشفاعة أن معناها ضم دعوة الشافع إلىٰ المشفوع معه، بدل ما كانت واحدة، وتكون شفعاً، وأنها أخذت من هٰذا.

والمقصود بهٰذا الباب: وجوب تعظيم الله ـ جل وعلا ـ ومعرفة قدره في قلب العبد، ثم إنه يدعوه ويسأله بالأدب، وبما علّم به عباده، ويتوسلون إليه بأسمائه، ولا يسأل بخلقه أو يجعل هو شفيعاً؛ أي: واسطة إلىٰ الطلب من خلقه، فإن هٰذا ينافي عظمته، ومن كان بهٰذه الصفة؛ فإنه لم يقم بالتوحيد الذي ألزم الله ـ جل وعلا ـ به عباده، ويكون توحيده ناقصاً أو ذاهباً، فالتوحيد هو أن يكون القلب مملوءً من تعظيم الله ـ جل وعلا ـ، وَمَنْ طَلَبَ أن يكون ربه شافعاً له عند أحد من خلقه؛ يكون فاقداً لهٰذا، هٰذا هو المعنىٰ الذي أريد إدخال هٰذا الباب في «كتاب التوحيد» من أجله.

باب

ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد وسدّه طرق الشرك

عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «**السيد الله تبارك وتعالىٰ**»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طَولاً، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشيطان**» رواه أبو داود بسند جيد(١).

قد سبق باب شبيه بهٰذا الباب، بل أكثر الأبواب التي سبقت فيها هٰذا المعنىٰ.

وقوله: «**حمىٰ التوحيد**» أي أن تصان جوانبه من أن يدخل فيه ما ليس منه، أو يكون مضاداً له، و«**سد الطرق**»؛ يعني: أنه يمنع الأمور التي يمكن أن يكون فيها خدش لكماله أو أن يدخل عليه منها ما ليس منه، وهٰذا كثير في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وكذٰلك أحاديث الرسول ﷺ كثيرة في هٰذا، فأراد أن ينبه بهٰذا الباب علىٰ أن النبي ﷺ قد بين حقَّ الله علىٰ عباده غاية البيان، وأوضح لهم ذٰلك، ثم كذٰلك جاء بالأمور التي تصون هٰذا الأمر، وتبعد الناس عن الإخلال به، أو كون الشيطان يدخل عليهم فيه، فقد بلغ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ البلاغ المبين.

قوله ﷺ: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**» لا شك أنه ﷺ هو سيد البشر، والسيد هو المقدم الذي يكون تقدم غيره

---

(١) «سنن أبي داود» (٤١٧٢)، وأخرجه بنحوه أحمد (١٥٧١٧، ١٥٧٢٦).

وعن أنس رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله! يا خيرَنا وابنَ خيرنا، وسيدَنا وابنَ سيدنا، فقال: «**يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله**، ..

للسيادة، وبأمر امتاز عليهم به، ولهٰذا يطلق السيد علىٰ كثير من الناس إذا كان له ميزة علىٰ غيره، إما بالفضل، أو بالرأي، أو بأمر من الأمور التي يسبقهم فيها، ولٰكن الرسول ﷺ كره المدح في المقابلة؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه هو القدوة.

فهٰذا دليل علىٰ أن المدح في الوجه ممنوع منه، ولا يجوز، وإن كان الرسول ﷺ قد ذكر أنه «**سيد الناس يوم القيامة**» كما في «صحيح مسلم»[(١)]؛ ولا ينافي هٰذا؛ لأن ذكره ذٰلك فيه بيان العلم الذي لا بد أن يعلم ويعرف، فدعتِ الضرورة إلىٰ ذٰلك، أو دعا أمرٌ شرعي؛ فلا بأس منها مع أمْنِ الفتنة.

وفي الحديث أن السيد يطلق علىٰ الله؛ لأن السيد يكون في اللغة بمنزلة الرب الذي يقوم علىٰ غيره بما يلزم له، ولهٰذا جاء في تفسير ابن عباس في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] أنه فسره بالسيد الذي كَمَلَ في سُؤْدَدِه؛ يعني: كملت أوصافه، كملت أفعاله.

وكذٰلك قوله: «**تبارك وتعالىٰ**»؛ يعني: أن هٰذا خاص بالله ـ جل وعلا ـ، ومعنىٰ ذٰلك التعاظم. أما «**تعالىٰ**» فهو الرفعة والعلو، وله ـ جل وعلا ـ العلو المطلق. أما «**تبارك**» فمعناها تعاظم وكثر وصفه بالعظمة في كل وصف يوصف به.

وقوله: «**فقلنا: وأفضلنا فضلاً**»؛ أي: أنت أفضلنا فضلاً، «**وأعظمنا طَولاً**» الطول هو الفضل نفسه تطول علىٰ الغير بالإفضال، فنهاهم ﷺ، وقال: «**قولوا بقولكم**»؛ يعني: بما تقولون لبعضكم، ولهٰذا قال: «**أنا محمد**» كما في الحديث الثاني «**فقولوا: عبد الله ورسوله**» فهٰذا إرشاد لهم ألا يدخلوا فيما

---

(١) (٤٢٢٣).

ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ» رواه النسائي بسند جيد[١].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تحذير الناس من الغلو. **الثانية**: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا. **الثالثة**: قوله **«ولا يستجرينكم الشيطان»** مع

دخلت فيه الأمم الضالة التي غَلَتْ في أنبيائها، وفي عبّادها وعلمائها، فأنزلتهم منزلةً فوق ما يستحقون، فاستحقوا بذٰلك المقتَ من الله ـ جل وعلا ـ، ووصفوا في المخالفة في باب حماية التوحيد، وكذٰلك حماية الأمة أن تدخل في المخالفات، وفي طاعة الشيطان.

ولهٰذا قال: «**لا يستجرينكم الشيطان**»؛ يعني: لا يجريكم فيما يريد، ويجعلكم مطايا يركبكم إلىٰ أن يسوقكم في الشيء الذي لا يجوز أن يفعل شرعاً، فيوقعكم في المنكر.

أما الحديث الثاني: «**قالوا: يا رسول الله يا خيرنا**» لم ينكر عليهم قول: «**يا رسول الله**» وإنما أنكر عليهم المدح «**يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا**» قد يقال: إن هٰذا حقّ، فهو سيدنا، وهو خيرنا بلا إشكال، ولٰكن نقول: هو قال هٰذا من باب الحماية، والحرص عليهم، وعلىٰ هدايتهم ألا يقعوا في الغلو ويتجاوزوا هٰذه الأمور إلىٰ شيء لا يجوز، كما وقع لكثير من الشعراء وغيرهم الذين صار حظهم من رسول الله ﷺ واتباعه المدح بالكذب، والتجاوز، حتىٰ أوقعهم الشيطان في الشرك في مثل هٰذا.

ثم قال: «**يايها الناس قولوا بقولكم**»؛ يعني: بالقول المتعارف بينكم، ثم أرشدهم.

وقوله: «**ولا يستهوينكم الشيطان**»؛ يعني: لا يتخذكم فيما يهواه ويريده.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٧٧).

أنهم لم يقولوا إلا الحق. الرابعة: قوله «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

ثم قال: «**أنا محمد**»؛ يعني: اسمي محمد سماني أهلي بذٰلك، والله سماني بذٰلك «**عبد الله ورسوله**»؛ يعني: قولوا هٰذا القول.

وهٰذا أيضاً لا يخالف ما أمر الله ـ جل وعلا ـ به ونهاهم عنه ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]؛ يعني: قولوا: رسول الله، نبي الله؛ لأن هٰذا مقام التعليم، ومقام النهي عن الوقوع في المخالفة.

ولهٰذا أمر أن نقول ذٰلك في التشهد: «**أشهد أن محمداً رسول الله**» ولا تعدل إلىٰ غيره.

ثم قال: «**عبد الله ورسوله**» فقدم العبد علىٰ الرسول؛ يعني: أنا متعبد لله، فقير إليه، وأنا مكلف بالرسالة، ولست شريكاً لله، لا في ملكه، ولا فيما يستحقه من عبادته وطاعته التي تخصه، وإنما طاعته طاعةٌ لله ـ جل وعلا ـ، ولهٰذا قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] لأنه يأمر بذٰلك.

ثم قال: «**لا أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ**» فمنزلته هو عبده ورسوله، وهٰذه غاية ما يصل إليه العبد أن يكون رسولاً، وإذا جمع مع ذٰلك كمال العبودية، فقد كمل، فلا حاجة إلىٰ أنكم تتجاوزون هٰذا الأمر إلىٰ أمور يكون فيها خدش للتوحيد أو طريق للشيطان بأن يدخلكم إلىٰ أمر يضلكم به، أو يكون فيه مخالفة لما جئتكم به، فَتَهْلِكون.

ووجه إدخال هٰذا الباب في كتاب التوحيد: أن التوحيد واضح وكامل، قد وضحه الرسول ﷺ وبينه، وبيّن ما يكون مكملاً له، وما يكون فيه خدش من كماله، وبيَّن الطرق التي يمكن أن يدخل الشيطان منها، فسدَّها وصانها، وحماها، فصلوات الله وسلامه علىٰ من قام بالدعوة إلىٰ الله أتمَّ القيام، وأرشد أمته إلىٰ كل ما فيه سلامتهم من الشرور، ومن استهواء الشيطان لهم.

باب
ما جاء في قول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

تقدم أن التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهٰذه متلازمة، فيلزم العبدَ أن يأتي بها جميعاً، ولا يكفي أن يأتي بأحدها، أو باثنين منها، فإنه إذا لم يأتِ بها جميعاً؛ لا يكون مسلماً، بل يكون من أهل النار كما سبق مراراً أن الذي يكفر في شيء مما أوجبه الله، كأنه كفر بالكل.

وأراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن يختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات، ويدخل فيها الأفعال التي يفعلها، فإنه يصح أن يقال: إنها صفاته ـ جل وعلا ـ؛ لأنه يتصف بها ويفعلها بإرادته وبمشيئته، فجاءنا عنوان الباب قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فالآية فيها وجوب تعظيمه وتقديره حق قدره، وفيها ذكر اليدين له وأنه يقبض بهما، وأنه ـ جل وعلا ـ لا يعجزه شيء، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه أعظم من كل شيء، وأن السمٰوات علىٰ عظمتها وسَعتها تكون بقبضته صغيرة حقيرة جداً لا تساوي شيئا بالنسبة إليه.

ولهٰذا ذكر المسافات البعيدة التي بين سماء وسماء، وبين السماء والأرض، وكذٰلك كثافة السماء، وكذٰلك ما فوق السماء السابعة من البحر العظيم، وكذٰلك الكرسي الذي فوق البحر، ثم العرش الذي هو أعلىٰ المخلوقات كلها، وهو أعظم من جميع المخلوقات، فكلها إذا شاء قبضها بيده، وصارت صغيرة، فلا يمكن للإنسان إذا فكر في عظمة الله ـ جل وعلا ـ أن يصل إلىٰ ما يستحقه الله ـ جل وعلا ـ، ولٰكن يجب عليه أن يكون هٰذا

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السموات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء علىٰ إصبع، وسائر الخلق علىٰ إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي حتىٰ بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧][(١)].

طريقاً إلىٰ تعظيم الله، وأنه أكبر مما يتصور وأعظم، وهٰذا الواجب علىٰ العبد، ثم إنه ليس مختلطاً في خلقه ـ تعالىٰ وتقدس ـ، بل هو عالٍ علىٰ خلقه، فوقهم، وعلوه من لوازم ذاته، فلهٰذا صارت صفة ذات؛ لأنه عالٍ دائماً وأبداً، ولا يمكن أن يكون شيئاً فوقه.

ولهٰذا لزم من هٰذا أنه إذا جاء يوم القيامة للفصل بين خلقه فإنه يأتي وهو فوق كل شيء، وهو فوق عرشه، ولا يجوز للعبد أن يجعل صفات الله شبيهة بصفات الخلق.

وكذٰلك أفعاله، فهي أفعال لا تشبه أفعالنا، ولهٰذا ينزل ـ جل وعلا ـ إلىٰ السماء الدنيا كل ليلة في آخر الليل، يقول لعباده: **«هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من سائل فيعطىٰ؟ وذٰلك كل ليلة»**[(٢)] وهو فوق عرشه، فوق كل شيء، فأفعاله لا تشبه الأفعال التي يتصورها الناس، ثم يلزم التشبيه أو يلزم التأويل أو التفويض، وكل هٰذه باطلة، ولا تقع إلا ممن لم يعرف الله ـ جل وعلا ـ، أو يكون مريداً للباطل، وإضلال الناس، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ يعني: الخلق ما عرفوا قدره، وما عظموه حقَّ تعظيمه؛ لأنهم قاسوه بخلقه، ولأنهم عصوه، ولأنهم عبدوا معه غيره، فمن فعل ذٰلك، فإنه لم يقدره حق قدره، ثم بين شيئاً من عظمته.

فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ يعني: أنه يقبضها بيده بما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦٤).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (١٢٦٥) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر علىٰ إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله»[(١)].

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر الخلق علىٰ إصبع» أخرجاه[(٢)].

فيها من جبال وبحار ومخلوقات، فتكون صغيرة لا تساوي شيئاً بالنسبة إلىٰ عظمته تعالىٰ.

وقد جاءت أنها أصغر من الخردلة في كف أحدكم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] تعالىٰ وتقدس.

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ يعني: أن السمٰوات كلها علىٰ سَعتها يطويها بيده اليمنىٰ، وتكون أيضاً مقبوضة بكفه، فدل هٰذا علىٰ أن له يدين، وأنها يدان حقيقيتان، وأنه يقبض بهما، وسيأتي أن يديه لها أصابع ـ جل وعلا ـ، وكل ذٰلك لا يقتضي تشبيهاً، ولا تمثيلاً بخلقه تعالىٰ، ثم ذكر الحديث.

قال: «**عن عبد الله بن مسعود** ﷺ **قال: جاء حبر من الأحبار**»؛ أي: عالم من علماء اليهود إلىٰ رسول الله ﷺ، «**فقال يا محمد**» هٰكذا اليهود يدعونه باسمه مع أنهم يعرفون أنه رسول الله، ولٰكن هٰذا من تكبرهم وعنادهم.

قال: «**يا محمد إنّا نجد أن الله يجعل السمٰوات علىٰ إصبع**» من أصابع يده الكريمة.

قال: «**والشجر علىٰ إصبع، والماء علىٰ إصبع**» الذي ثبت في الصحيح أنه ذكر خمسة فقط، وهنا ذكر ستة، فهو غلط من الناسخ.

قال: «**فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه**» وهي آخر الأسنان، وهٰذا لأنه فرح بذٰلك، إذ هو مؤيد لما جاء به، وأنه حق، والرسول ﷺ كان يفرح إذا جاء اليهود بشيء يتفق مع ما جاء به ﷺ؛ لأن هٰذا فيه تقوية وفيه شهادة له من الأحبار، فهٰذا الذي جعله يضحك.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٩٩٢). (٢) «صحيح البخاري» (٤٤٣٧).

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون»[١].

قال أحد شرّاح البخاري: «ضحك من جرأة اليهودي علىٰ التشبيه»[٢]، فهٰذا من أبطل الباطل، بل هٰذا قد يكون كفراً ـ نسأل الله العافية ـ فالرسول ﷺ لا يضحك من الكفر، بل يغضب لذٰلك أشدّ الغضب.

ثم قول ابن مسعود: «**تصديقاً**» هٰذا واضح لا يخفىٰ من سياق الكلام وحال الرسول ﷺ، فضحكه ﷺ؛ لأنه جاء بشيء يتفق مع ما جاء به، فصار فيه شهادة له بالصدق؛ لأن هٰذا الذي قاله: موروث عن الأنبياء، ولهٰذا تلا هٰذه الآية.

قال: «**ثم قرأ** ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾» هٰذا يعطي العلم اليقين بأنه ضحك؛ لأن ما قاله هٰذا الحبر متفق مع ما جاء به، وما أنزله الله ـ جل وعلا ـ عليه، وتكون الأدلة تتضافر وتتساعد علىٰ هٰذا.

ثم قال: «**وفي رواية لمسلم: والجبال، والشجر علىٰ إصبع...**»؛ يعني: أنه يمسك يوم القيامة الخلائق كلها، فيجعل كل نوع منها علىٰ إصبع من أصابع يده الكريمة ـ تعالىٰ وتقدس ـ.

قال: «**ثم يهزّهن ويقول: أنا الملك أين ملوك الدنيا؟**»؛ يعني: أين الذين يتكبرون علىٰ الله، ويترفعون علىٰ عباده؟ تحقيراً لهم تهديداً، والله أعلم.

وقوله: «**أنا الملك أنا الله**»؛ يعني: فيه تمدح له بأنه العظيم الكبير؛ لأن الخلق لا يستطيعون أن يصفوه حقّ وصفه، فلهٰذا ذكر ذٰلك لنفسه، وهٰذا مثل مدحه وحمده، فلا أحد يبلغ حمده الذي يجب وينبغي له.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٩٩٥).

(٢) القائل هو الخطابي. انظر: «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني (١٣/٣٩٨).

وروي عن ابن عباس، قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمٰن إلا كخردلة في يد أحدكم»(١).

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»**، قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله يقول: **«ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»**(٢).

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم»(٣). أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمه، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله.

ولهٰذا كان الرسول ﷺ يقول: **«لا أحصي ثناء عليك»** بل ولا أحد من الخلق يستطيع أن يحصي الثناء الذي يجب له ـ جل وعلا ـ.

وقوله: «في رواية للبخاري يجعل السماوات علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع وسائر الخلق علىٰ إصبع» سائر بقية الخلق، وفي هٰذا إثبات الأصابع لله ـ جل وعلا ـ.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٩١)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٦١٤).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (٥/ ٣٩٩).

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٩٤)

ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالىٰ، قال: وله طرق[(١)].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون كم بين السماء والأرض؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «**بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلىٰ سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالىٰ فوق ذٰلك، وليس يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم**». أخرجه أبو داود وغيره[(٢)].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير قوله ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] **الثانية**: أن هٰذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه لم ينكروها ولم يتأولوها. **الثالثة**: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ، صدّقه، ونزل القرآن بتقرير ذٰلك. **الرابعة**: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ، لما ذكر الحبر هٰذا العلم العظيم. **الخامسة**: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنىٰ، والأرضين في الأخرىٰ. **السادسة**: التصريح بتسميتها الشمال. **السابعة**: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذٰلك. **الثامنة**: قوله «**كخردلة في كف أحدكم**». **التاسعة**: عظم الكرسي بالنسبة إلىٰ السماوات. **العاشرة**: عظم العرش بالنسبة إلىٰ الكرسي. **الحادية عشرة**: أن العرش غير

---

(١) «العلو» ص٤٥.

(٢) وأخرجه أحمد بلفظه (١٦٧٦)، أخرجه بنحوه أبو داود (٤١٠٠).

الكرسي والماء. **الثانية عشرة**: كم بين كل سماء إلىٰ سماء. **الثالثة عشرة**: كم بين السماء السابعة والكرسي. **الرابعة عشرة**: كم بين الكرسي والماء. **الخامسة عشرة**: أن العرش فوق الماء. **السادسة عشرة**: أن الله فوق العرش. **السابعة عشرة**: كم بين السماء والأرض. **الثامنة عشرة**: كثف كل سماء خمسمائة عام. **التاسعة عشرة**: أن البحر الذي فوق السموات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

فهرس الفوائد

الفائدة | الصفحة

- الآية التي تقلع عروق شجرة الشرك من القلوب ١٩٢
- أبو بكر رضي الله عنه هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ ١٧
- إثبات صفة الكلام لله تعالى بدون تشبيه ١٨١
- إثبات صفة المحبة لله تعالى ٣٥٦
- إثبات صفة الوجه لله تعالى ٤٥٦
- إثبات صفة اليد لله تعالى ١٢٢
- إثبات محبة الله ورسوله لعلي رضي الله عنه ٧٧
- إثم عقوق الوالدين ١٣٢
- اختلاف التنوع والتضاد ٣٩٦
- أسباب الخوف من الشرك ٥٩
- أسباب عدم زهد الناس في الدنيا ١١٤
- أسماء الله وصفاته من المحكم وليس من المتشابه ٣٩٥
- الأصل أن الداعية يبدأ بتصحيح العقيدة لا تحسين الأخلاق والسلوك ٧٠
- إطلاقات الذرة ١٩٣
- إطلاقات العيد ١٤٠
- أعلى درجات المحبة: الخُلَّة ٢٢٩
- أقسام التنجيم ٣٠٣
- أقسام التوحيد ثلاثة ٧
- أقسام الرؤيا ٤١٣
- أقسام الصبر ٣٤٩
- أقسام الهداية ٢٠٢
- أقوال العلماء في قوله ﷺ: «أشد الناس عذاباً» ٤٨٣
- أقوال العلماء في حكم التمائم ١٠٧

الفائدة | الصفحة

- أقوال المفسرين في قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٣١٠
- أقوال المفسرين في قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ٣٩٦
- أقوال المفسرين في قول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ ٤٨٧
- أكبر طواغيت العرب في زمن النبي ﷺ ١١٨
- الإمام هو الذي ينفذ الأحكام لا آحاد الناس ٣٨٦
- إنكار المنكر باليد ١٠٠
- إنكار المنكر يجب أن يكون بالمعروف والشرع ٥٠٣
- أنواع الرياء ٣٦٣
- أنواع الشفاعة ١٩٩
- أنواع المحبة ٣١٩
- أنواع خلق بني آدم ٢٩
- أهمية الوقت وخطر إضاعته ٢٤٠
- أول شرك وقع في الأرض ٢١٢
- أول من أدخل الأصنام إلى جزيرة العرب ٢١٤
- إيمان الأشاعرة بصفة الكلام لله تعالى على وجه غير صحيح ١٨٢
- البخل بالحق حب للمال وهو نوع من الشرك ٤٥
- التأويل عند المتأخرين هو التحريف ٣٨٩
- تحريم زواج المتعة ٧٨
- تعريف التوحيد ٧
- تعريف الحديث القدسي ٤٨١
- تعريف السحر وذكر قسميه ٢٦٧
- التفصيل في لعن المعين ١٣٦
- التفصيل في مسألة الاستعاذة بغير الله ١٤٩
- تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص .... ١٥٧، ٣٣٦
- تنازع المحدثين والأدباء لقول الرسول ﷺ: «إن من البيان لسحراً» ٢٧٨
- تواضع النبي ﷺ وركوبه الحمار ١٨
- التوبة الواجبة ٢٨٠
- توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ٣٨٧

الفائدة | الصفحة

- توسعة المسجد النبوي في زمن الوليد بن عبد الملك ٢١٧
- الجمع بين الأحاديث التي فيها تحريم النار على من نطق بشهادة التوحيد، وبين الأحاديث التي فيها دخول النار لمن قال: «لا إله إلا الله» ٣٢
- الجواب على قول النبي ﷺ: «أفلح وأبيه» ٤٠٣
- حكم مرتكب الكبيرة ٢٦
- حكم من أُحصر ومُنع دخول الحرم وهو محرم ٣١٣
- الحكمة في إيجاد النجوم ١٨١
- الحكمة من عدم قتل النبي ﷺ للمنافقين ٤٢٧
- الحكمة من منع المرأة من زيارة القبور ٢٣٩
- حَلّ السحر يكون بالعلاجات الطبيعية أو بسحر مثله ٢٩١
- خطاب الناس يختلف بحسب العلم والمرتبة ٦٨
- خطر الغيبة، وأشدها غيبة العلماء والمشايخ ٢٧٧
- خطورة المدح ٤١
- درجات القدر ٤٧١
- الذبح لإكرام الضيف مباح، ولكن لا بد أن يكون فيه عبادة ١٣٠
- الذي لا يصبر على الأقدار: يفقد الأجر، ويترتب العذاب ٣١١
- الرجوع فيما يشكل إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ٤٧٩
- رمي الجمرات في الحج نسك وليس شيطاناً ٢٢١
- رنة الشيطان ٢٧٥
- الزهد المحمود في شيئين: الدنيا، وثناء الناس ٧٢
- سبب عدم تكفير أهل التأويل ٧٢
- سبب نزول قول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ٣٩١
- السلف يطلقون الكراهة على التحريم ٤٠٣
- سميت اليمين الغموس بذلك: لأنها تغمس صاحبها في النار ٤٠٢
- السؤال عن الشيء والإخبار به من أبلغ أساليب التعليم ٢٠
- الشر في كتاب الله يأتي على ثلاثة أوجه ٣٥٥
- شروط ثبوت قراءة القرآن ٢٣٨
- شروط قبول التوبة ٢٨٠
- شروط قبول الشفاعة ١٨٨

الفائدة الصفحة

- شروط قبول العمل الصالح ٣٦٠
- صاحب البدعة لا يوفق للتوبة ٢٢٣
- الصحابة كلهم عدول، وبعضهم أفضل من بعض ٩٤
- صفات إبراهيم عليه السلام ٤٤
- العبادة في مكان المعصية ومكان عبادة الجاهلية والكفار لا تنبغي ١٤١
- عبرة من غزوة أُحد ١٦٧
- العداوة في الدين من أشد العداوات ٢١٣
- العذر بالجهل ١٠١
- العطف بـ«الواو» يفيد التشريك، والعطف بـ«ثم» يفيد التراخي والترتيب ٤٠٢
- علم الحروف ينقسم إلى قسمين ٢٨٧
- غلو اليهود في اتخاذ الأحبار أرباباً من دون الله ٢١١
- فائدة ذكر سبب النزول ٣٨٤
- فرض الله عز وجل الجزية لتكون سبيلاً لدخول الإسلام ٤٩٩
- الفرق بين الأذى والضرر ٤١٦
- الفرق بين الدعاء والاستعاذة والاستغاثة ١٥٥
- الفرق بين القرآن والحديث القدسي ٤٨١
- الفرق بين النبي والرسول ١١
- الفرق بين النميمة والنصيحة لله والرسول ٤٢٧
- فضل الصحابة أنهم خير الناس بعد الأنبياء عليهم السلام ٤٩٠
- فوائد من زيارة القبور ٢٣٩
- في قول رسول الله ﷺ: «لا عدوىٰ» يحتمل النهي والنفي ٢٩٦
- قاعدة في تقليل الشر وتكثير الخير إن كانت أمور لا بد منها ٤٩٥
- القَسَم عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ١٠
- قول: «الله ورسوله أعلم» خاص بحياته ﷺ ٢٣
- القول الراجح في معنى القرن ٤٩٠
- الكفارة في نذر المعصية ١٤٣
- الكلام على رواية محمد بن إسحاق ٣٩٤
- كلمات الله تنقسم إلى قسمين: شرعية وكونية ١٥٢
- كلمات الله صفة من صفاته، ويجوز الاستعاذة بها ١٥٢

الفائدة	الصفحة
ـ كيف يكون النذر لغير الله شركاً مع كونه مكروهاً	١٤٤
ـ لا يجوز الاعتماد على الرؤى وبناء الأحكام الشرعية عليها	٤١٤
ـ لا يجوز الزهد في درجات الجنة	٧٢
ـ لا يجوز للإنسان أن يقدم على التكفير إلا بدليل قاطع	٣٩٠
ـ لا يجوز للإنسان أن يقدم على أمر إلا بعد معرفة حكم الله فيه	٧٩
ـ لا يجوز للإنسان أن يكون إمعة، والواجب أن يتبع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ	٤٣٨
ـ لا بد للمسلم أن ينظر في سيرة الصحابة رضي الله عنهم حتى يكونوا له قدوة	٤٩١
ـ للشفاعة قسمان: النفي والإثبات	١٨٨
ـ لم يذكر الصوم والحج في حديث معاذ لما أرسله النبي إلى اليمن	٨١
ـ الله تعالى يؤتي الدنيا من يحب ومن لا يحب، والدين لا يؤتيه إلا لمن يحب	٤٣٠
ـ المدح في الوجه	٢١٩، ٥٠٨
ـ المذاهب الأربعة مرجعها الكتاب والسنة غير أن الفهوم تختلف	٣٧٥
ـ مذاهب الناس في حادثة الغرانيق	٢٨٩
ـ معاني الأمة في القرآن	١٤
ـ معاني القضاء في القرآن	١٤
ـ المعاصي من الإفساد وهي سبب للعذاب	٣٣
ـ معنى الإله أي المعبود مع المحبة والخوف والرجاء	٢١٢
ـ معنى البشارة	٢١
ـ معنى الشهادة	٢٦
ـ معنى العبودية وإطلاقها في القرآن وثناء الله على نبيه بالعبودية في أربعة مواضع	٢٧
ـ معنى تكفير الذنوب	٢٤
ـ مفاسد الرشوة	٣٨٤
ـ من الخطأ أن يقال: توكلت على الله ثم على فلان لأن التوكل عبادة	٣٣٦
ـ من الخطأ تقسيم التوحيد إلى أربعة أو خمسه أقسام، فيزيد توحيد الحاكمية والمتابعة	٣٨٧
ـ من امتهان آيات الله: أن يعلقها على الأبواب والحائط والسيارة	٤٢١

الفائدة — الصفحة

- من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه ١٩٧
- من معاني البعث في اللغة ١٠
- من هدي النبي ﷺ أنه إذا نهى عن شيء فإنه يأتي بالبديل ٤٥١
- موت القلب يجعل الإنسان لا يحس بالمعصية ١٤١
- الموجودات إما جوهر أو عرض ٣٦
- موقف الناس من عيسى بن مريم ٢٨
- النفخ في الصور نفختان ٢٣٣
- نقص التوحيد على نوعين ٢٨٤
- هل خلافة أبي بكر الصديق بالنص الصريح أو بالإشارة؟ ٢٣٠
- هل للخلق حق على الله؟ ٢٠
- هل ينتفع الكفار بأعمالهم؟ ٢٠٠
- واجب الآباء على الأبناء أن يؤدبوهم على الخوف من الله وحفظ الأيمان ... ٤٩٣
- وجوب الانتصار للحق وترك التحزب ٣٥٣
- وجوب سد الذرائع ٤٨٥
- وجوب طاعة الولاة والأمراء ٤٩٥
- وقوع السحر للنبي ﷺ ٢٨٩
- يجب على العبد أن يحفظ لسانه، وأن لا يقدم على شيء فيه تنقص لله ٥٠٤
- يجب على المسلم أن يخبر بكل ما علم من كتاب الله ومن سنة النبي ﷺ ... ١٠٩

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
كتاب التوحيد	٧
١ ـ باب فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب	٢٤
٢ ـ باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب	٤٣
٣ ـ باب الخوف من الشرك	٥٩
٤ ـ باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إلـٰه إلا الله	٦٦
٥ ـ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـٰه إلا الله	٨٥
٦ ـ باب من الشرك لبس الحلْقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه	٩١
٧ ـ باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم	١٠٣
٨ ـ باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما	١١٣
٩ ـ باب ما جاء في الذبح لغير الله	١٢٨
١٠ ـ باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله	١٣٧
١١ ـ باب من الشرك النذر لغير الله	١٤٤
١٢ ـ باب من الشرك الاستعاذة بغير الله	١٤٩
١٣ ـ باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره	١٥٥
١٤ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾	١٦٢
١٥ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾	١٧٧
١٦ ـ باب الشفاعة	١٨٧
١٧ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾	٢٠٢
١٨ ـ باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين	٢٠٨
١٩ ـ باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح	٢٢٦
٢٠ ـ باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله	٢٣٦

الموضوع | الصفحة

٢١ ـ باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك ٢٤٤
٢٢ ـ باب ما جاء أن بعض هٰذه الأمة يعبد الأوثان ٢٥٢
٢٣ ـ باب ما جاء في السحر ٢٦٧
٢٤ ـ باب بيان شيء من أنواع السحر ٢٧٤
٢٥ ـ باب ما جاء في الكهان ونحوهم ٢٧٩
٢٦ ـ باب ما جاء في النشرة ٢٨٨
٢٧ ـ باب ما جاء في التطير ٢٩٤
٢٨ ـ باب ما جاء في التنجيم ٣٠٣
٢٩ ـ باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ٣٠٩
٣٠ ـ باب قول الله تعالىٰ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ ٣١٩
٣١ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ﴾ ٣٣٠
٣٢ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ ٣٣٦
٣٣ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ ٣٤٣
٣٤ ـ باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله ٣٤٩
٣٥ ـ باب ما جاء في الرياء ٣٥٨
٣٦ ـ باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا ٣٦٦
٣٧ ـ باب من أطاع العلماء والأمراء ٣٥٣
٣٨ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ ٣٨٠
٣٩ ـ باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ٣٨٩
٤٠ ـ باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ٣٩٦
٤١ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٤٠٠
٤٢ ـ باب ما جاء فيمن يقنع بالحلف بالله ٤٠٦
٤٣ ـ باب قول: ما شاء الله وشئت ٤٠٨
٤٤ ـ باب من سب الدهر فقد آذىٰ الله ٤١٥
٤٥ ـ باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه ٤١٩
٤٦ ـ باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذٰلك ٤٢١
٤٧ ـ باب من هَزَل بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن، أو الرسول ٤٢٤

الموضوع | الصفحة

٤٨ ـ باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ الآية ٤٢٩
٤٩ ـ باب قول الله تعالىٰ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ٤٣٦
٥٠ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ٤٤٣
٥١ ـ باب لا يقال: السلام علىٰ الله ٤٤٦
٥٢ ـ باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت ٤٤٨
٥٣ ـ باب لا يقول عبدي وأمتي ٤٥١
٥٤ ـ باب لا يرد من سأل بالله ٤٥٣
٥٥ ـ باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ٤٥٦
٥٦ ـ باب ما جاء في اللّو ٤٥٨
٥٧ ـ باب النهي عن سب الريح ٤٦٣
٥٨ ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الآية ٤٦٧
٥٩ ـ باب ما جاء في منكري القدر ٤٧١
٦٠ ـ باب ما جاء في المصورين ٤٨١
٦١ ـ باب ما جاء في كثرة الحلف ٤٨٧
٦٢ ـ باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ٤٩٥
٦٣ ـ باب ما جاء في الإقسام علىٰ الله ٥٠٢
٦٤ ـ باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه ٥٠٥
٦٥ ـ باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد وسده طرق الشرك ٥٠٧
٦٦ ـ باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ٥١١
فهرس الفوائد ٥١٩
فهرس الكتاب ٥٢٥